ميخائيل بولغاكوف

الأعمال المختارة

قلب كلب (رواية)
بيوض الشؤم (رواية)
مذكرات طبيب ريفي (قصص)

ترجمة : عبدالله حبه





المؤلف: ميخائيل بولغاكوف
ترجمة: عبدالله حبه (عن الروسية)
عنوان الكتاب: الأعمال المختارة
قلب كلب
بيوض الشؤم
مذكرات طبيب ريفي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى في المدى: ٢٠١٥

Author: Mikhail Bulgakov
Translator: Abdullah Habah
Tittle:
Собачье сердце
Роковые яйца
Записки юного врача
P.C.: Almada
Al-Mada First Edition: **2015**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نواس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: ٢٧٢٨
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

ميخائيل بولغاكوف

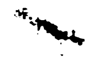
الأعمال المختارة

قلب كلب (رواية)

بيوض الشؤم (رواية)

مذكرات طبيب ريفي (قصص)





ميخائيل بولغاكوف أحد أبرز الكتّاب الروس في القرن العشرين، وربما يعتبر من أكثر الشخصيات غموضاً في الأدب الروسي. ولا يضاهيه في ذلك سوى نقولاي غوغول الذي تأثر به بولغاكوف كثيراً حتى اعتبره بعض الباحثين "غوغول الثاني". وحياته العجيبة المترعة بتقلّبات الأقدار يمكن ان تؤخذ نفسها كموضوع لرواية كبيرة. فقد عانى من العوز والتشرد في شبابه بسبب قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية وهروبه من مدينته كييف إلى الأورال، وأراد كل طرف من أطراف الحرب الأهلية في روسيا تجنيده لخدمة أغراضه بحكم كونه طبيباً يحتاجه كافة المحاربين في جبهات القتال. وعندما وضعت الحرب الأهلية أوزارها قرّر التخلّي عن مهنة الطب والتفرّغ للإبداع الأدبي. وهكذا لمع نجمه فجأة منذ العشرينيات من القرن الماضي بعد نشره روايته الملحمية "الحرس الابيض" ومن ثم مسرحياته. وكان آخر أعماله الأدبية تأليف رواية "المعلم ومرغريتا" وهي من أعظم رواياته التي مزج فيها قصة المسيح وبولات والي القيصر بقصة الشاعر الذي طاردته السلطة. و لم تُنشر هذه الرواية والكثير من أعماله إلّا بعد وفاته. وممّا يؤسف له أن غالبية أعماله لم تُترجم من الروسية بدقة وبنزاهة. والمجموعة الحالية من أعماله المختارة هي محاولة لتعريف القارئ العربي ببعض أعمال هذا الكاتب الفذّ.



لغز بولغاكوف ...

صراع خفي بين الأديب والسلطان

لا يماري أحد في أنّ الكاتب الروسي ميخائيل بولغاكوف (١٨٩١ - ١٩٤٠) يعتبر أحد أبرز الكتّاب الروس في القرن العشرين. وقد ادرجته جامعة ييل الأمريكية بين أعظم عشرة كتّاب أثّروا في الأدب العالمي المعاصر. علماً أنّ أعمال هذا الكاتب القليلة لم تنشر في وطنه بصورة كاملة إلا بعد وفاته بأكثر من ٥٢ عاماً. وكان الكاتب قد نشر جزء فقط من روايته الأولى "الحرس الابيض" في احدى المجلات الدورية في عام ١٩٢٣ وعدّة قصص فجلبت إليه أنظار النقّاد والمهتمّين بالأدب بصفته موهبة أدبية متألقة جديدة. أما أعماله المسرحية الرئيسية مثل "أيام أسرة توربين" و"موليير" و"شقة زويا" فكانت تُقدّم على خشبة مسرح موسكو الفني ومسرح فاختانغوف في فترات متقطّعة في حياته بين فترة وأخرى طبقاً لمزاج المسؤولين في القسم الثقافي في الحزب الشيوعي السوفيتي. وفي الفترة من عام ١٩٤١ إلى عام ١٩٥٤ سمح بتقديم مسرحيتين له فقط هما "الأيام الأخيرة" (بوشكين) و النص المسرحي الذي أعدّه من رواية نيقولاي غوغول "الأنفس الميتة". وبقيت مخطوطات غالبية أعماله بدون نشر بعد وفاته في عام ١٩٤١. ولم تعرف ثلاثة أجيال من أبناء الاتحاد السوفيتي شيئاً عن الكاتب وأروع أعماله - رواية "المعلم ومرغريتا" إلا في عام ١٩٦٦ لدى نشرها مع حذف بعض المقاطع منها في

احدى المجلات الأدبية. وجسّد الكاتب فيها وقائع حياته والأوضاع في بلاده بصورة مجازية وشاعرية اقترن فيها الواقع والخيال بأروع شكل مما جلب له الشهرة في الاتحاد السوفيتي والعالم حال نشرها. ومأساة بولغاكوف تكمن في انه لم يستطع الاندماج مع الأوضاع الناشئة في روسيا بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية في عام ١٩١٧ حين دعا زعيمها لينين إلى وضع الأدب في كنف الحزب وإخضاعه لمهام الثورة الآنية. ولئن سار في هذا الدرب الكثير من شعراء وكتّاب الاتحاد السوفيتي لاحقاً مثل فلاديمير ماياكوفسكي وديميان بيدني وحتى ألكسندر بلوك في سني الثورة الأولى ومكسيم غوركي "كاتب البروليتاريا الأوّل" وميخائيل شولوخوف في الفترة بعد صدور روايته "الدون الهادئ" والكونت ألكسي تولستوي بعد عودته من المهجر وألكسندر فادييف وفالنتين كاتايف وإسحاق بابل وزوشينكو وفسيفولود ايفانوف ومئات الكتّاب والشعراء غيرهم، فإنّ آخرين وجدوا صعوبة في الاندماج مع شعار "الأدب والفن من أجل تحقيق مهام الحزب"، ومنهم بولغاكوف وأندريه بلاتونوف ومارينا تسفيتايفا وآنا اخماتوفا واوسيب مندلشتام وبوريس باسترناك وغيرهم الذين عانوا الأمرّين من الرقابة الحزبية وملاحقة السلطات لهم. علماً أنه ظهر في أواخر العشرينيات وحتى تفكّك الاتحاد السوفيتي عدد كبير من الكتاب "الحزبيين" الملتزمين بالواقعية الاشتراكية التي لم يستطع أي أحد من الباحثين حتى الآن إعطاء تقييم دقيق ومحدّد لها. وظهر كتّاب تخصّصوا في الكتابة عن لينين مثلاً ومنهم ميخائيل شاتروف الذي كتب سلسلة من المسرحيات عنه التي فرضت على مسارح البلاد. كما تخصّص كتّاب آخرون في الكتابة عن أحداث الثورة البلشفية والحرب الأهلية. وبعد الحرب العالمية الثانية صدرت مئات الروايات والمسرحيات عن بطولة رجال الجيش الأحمر. ومنذ أواخر العشرينيات توفي الكثير من المناضلين الثوريين أو قتلوا في معارك الحرب الأهلية، وتولى السلطة بدلاً منهم ممثلو البيروقراطية الحزبية، وفَقَد الحزب

شحناته الثورية ومبادئ العدالة الاجتماعية الحقيقية التي جذبت إليه سابقاً بسطاء الناس والمعذّبون في الارض. وفي هذه الأجواء ما كان يمكن تقبُّل أدب الكاتب ميخائيل بولغاكوف البعيد عن "الحزبية".. الكاتب الذي واصل تقاليد الأدب الكلاسيكي الروسي ذي النزعة الإنسانية والبعيد عن الايديولوجيات. وثمّة رأي سائد في خارج روسيا مفاده أن جميع الأدب الروسي خاضع لإيديولوجية ما. ولكن الدراسة الموضوعية لأعمال بوشكين وغوغول وسالتيكوف شيدرين وليسكوف وحتى تولستوي ودوستويفسكي وتشيخوف تظهر أن هذا الأدب غير مؤدلج حسب مفهوم البعض. وواصل بولغاكوف رسالة هؤلاء الكتّاب وتأثّر بشكل خاص بأعمال غوغول وسالتيكوف شيدرين في تصوير الواقع بأسلوب ساخر. الأمر الذي جعله عرضة للهجمات المستمرّة في الصحافة السوفيتية التي انهالت عليه بسيل من الاتهامات بكونه يخدم الفكر البرجوزاي ويتجاهل إنجازات الثورة.
نشأ بولغاكوف في كييف في أسرة قريبة من الكنيسة الأرثوذكسية. فقد كان والده أستاذاً في الأكاديمية الأرثوذكسية، وورث هذه المهنة عن والـده القسيس مرغماً، حيث ان أبناء رجال الكنيسة كانوا يتمتعون بالحق في الدراسة مجاناً في المؤسسات التعليمية التابعة لها. اما والدته فقد كانت معلّمة وابنة قمص في الكنيسة المحلية بمقاطعة أوريول حيث عاش الزوج أيضاً. إنها نفس المقاطعة ذاتها التي وهبت روسيا مشاهير الكتّاب مثل تورغينيف وليسكوف وبونين. وعاشت الأسرة حياة متواضعة في بيت مستأجر ورزق الوالدان بخمسة أولاد وبنات أكبرهم ميخائيل الذي أتقن منذ صباه عدّة لغات وتشَبّع بحب الأدب الروسي والموسيقى والغناء والمسرح حيث كان غالباً ما يقدم أفراد الأسرة وأصدقاؤهم الحفلات الموسيقية والمسرحيات البيتية. وتأثر بولغاكوف بأجواء الفولكلور الأوكراني ذي السمات الشاعرية والخيال الواسع.

في صيف عام ١٩٠٧ توفي افاناسي ايفانوفيتش رب العائلة بعد إصابته بمرض شديد مرتبط بالتصلب الكلوي، وهو المرض ذاته الذي أصاب ميخائيل لاحقاً وأدّى إلى وفاته في عام ١٩٤٠. وكان هذا الحدث كارثة بالنسبة إلى الأسرة كلّها لأنّه كان معيلها الوحيد. وفي البداية هبّ الأصدقاء لمساعدة الأسرة وخصّص لها راتب تقاعدي قليل، ثم اضطرت الأم إلى العمل في التدريس وأصبحت مفتّشة في مدارس البنات. ولكن مواردها لم تكن كافية لإطعام الأسرة الكبيرة. كانت فارفارا ميخايلوفنا والدة الكاتب تتمنى أن يصبح أولادها من مهندسي السكك الحديدية. لكن ميخائيل التحق بكلية الطب في جامعة كييف. وعندما كان في السنة الرابعة نشبت الحرب العالمية الأولى فتطوّع للذهاب إلى الجبهة كطبيب جراح في مستشفى عسكري. وفي عام ١٩١٦ عاد إلى كييف حيث أنهى الدراسة في الجامعة بعد أداء الامتحانات. وقبل استلام شهادة التخرّج عاد إلى الجبهة مجدداً وبرفقته الفتاة تاتيانا التي أحبها وتزوّج منها لاحقاً. وعملت تاتيانا في المستشفى كممرّضة. وفي العام نفسه استدعي ميخائيل إلى موسكو وتمّ تبليغه بأنه يجب طبقا للقانون أن يلتحق بعد الدراسة بالعمل في أحد مستشفيات الأرياف في مقاطعة سمولينسك التي عانت من قلّة الأطباء. وهكذا أصبح بولغاكوف الطبيب الوحيد في مستشفى قضاء سيتشفيف. وكان يقوم فيه بدور طبيب الباطنية والجراحة و العيون والأسنان وعلاج الاطفال. وقد كتب بولغاكوف فيما بعد عن تجاربه في هذه الفترة مجموعته القصصية "مذكرات طبيب ريفي".

وسمع بولغاكوف في الأريـاف البعيدة نبأ قيام ثـورة شباط البرجوازية في عام ١٩١٧ دون أن يعرف ما حدث بالضبط. فعاد إلى كييف لزيارة والدته. وهناك بلغه نبأ قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية في عام ١٩١٧. وأدّى هذا الحدث إلى تشتيت أفراد العائلة التي كان شبّانها جميعاً يرتدون الزيّ العسكري وخدموا في الجبهة. وعانى ميخائيل

بولغاكوف من تغيّر السلطة في كييف الذي كانت ترافقه الإعدامات والقتل على الهوية وأفعال النهب والاغتصاب، وهو ما يرافق عادة حالة الفوضى في غياب السلطة. ووجد بولغاكوف – الطبيب البعيد عن السياسة نفسه فجأة مرغماً على مسايرة السلطات الجديدة والمتغيّرة باستمرار. فقد جعله الحرس الابيض ضابطاً طبيباً في جيشه وعندما احتل الالمان كييف مع مجيء نظام "الرادا المركزية" للقوميين الأوكرانيين أرغموه على الخدمة في المستشفى التابع لهم. وبعد انسحاب الألمان جاءت عصابات بتلورا من القوميين الأوكرانيين ومنحوه أيضاً رتبة ضابط طبيب تابع لهم. وهرب رجال العصابات من المدينة بعد نهبها وتدميرها حين بدأ هجوم الجيش الأحمر عليها. وكتب بولغاكوف لاحقاً "إنني جنّدت لدى السلطة الخامسة التي سيطرت على المدينة". وصارت السلطة السوفيتية الجديدة تطارد جميع الضباط السابقين ولقي الكثيرون منهم حتفهم بأن أُطلق عليهم الرصاص بدون أي سبب. وكاد بولغاكوف بدوره أن يُقتل حين طاردته جماعة من المسلحين في الشوارع وأطلقوا باتجاهه رصاص بنادقهم باعتباره ضابطاً، وأفلح في الهرب بالقفز وراء حاجز أحد البيوت والاختباء في الأزقّة والوصول إلى بيته حيث استبدل الزي العسكري بملابس مدنية. وبقي بولغاكوف الطبيب البالغ من العمر ٢٧ عاماً في المدينة المضطربة فترة قصيرة من الزمن. وقد روى الكاتب وقائع تلك الفترة في روايته الملحمية الكبيرة "الحرس الابيض" والتى حوّلها فيما بعد إلى مسرحية "ايام آل توربين". سيطرت القوات السوفيتية على كييف طوال ربيع وصيف عام ١٩١٩. ورفعت في الشوارع لافتات كتب عليها "السلام للأكواخ – والحرب على القصور". وأقيمت في أوّل أيار منصات في الشارع الرئيسي– كريشاتيك وقف عليها قادة اللجنة الثورية السوفيتية لاستعراض مظاهرات الكادحين الذين كانوا يردّدون النشيد الأممي. بينما كانت تُسمع بين حين وآخر طلقات الرصاص

في أطراف المدينة خلال الاشتباكات مع أفراد العصابات. وواصل بولغاكوف عمله كطبيب ليلاً ونهاراً بعد أن خلت المدينة من غالبية الأطباء الذين هربوا مع عوائلهم جراء حالة الفوضى. وفي أواخر آب حاصرت قوات الجنرال دينيكين المدينة بدعم عصابات بيتلورا واضطر الجيش الأحمر للانسحاب منها. وفي ٣١ آب رفع رجال بيتلورا لافتات في الشوارع كتب فيها: "عاشت اوكرانيا المستقلة" وأعلنوا أن زعيمهم سيمون بيتلورا سيخطب في المساء. لكن دخل المدينة في المساء رجال الاستطلاع من جيش الجنرال دينيكين. واجتاحت كييف موجة من الارهاب والرعب والتدمير وبدأ تجنيد الرجال عنوة وكان من يرفض يُعدم فوراً. وتمّ تجنيد الاختصاصيين والأطباء بصورة خاصة وكان بولغاكوف أحدهم. وانتقل إلى مؤخرة القوات خارج المدينة مع غيره من الأطباء وفنّاني مسرح الأوبرا والموسيقيين وغيرهم ممن قررت قيادة قوات دينيكين إرسالهم إلى الجنوب. وسافر إلى مدينة فلاديقوقاز ليتوجه منها بعد لقاء زوجته تاتيانا إلى مقر عمله الجديد في مدينة غروزني عاصمة شيشانيا حالياً. وهناك حدث انعطاف حاد في حياة بولغاكوف. ويذكر الباحث ف. لاكشين أحد أوائل من كتب عن سيرة حياة بولغاكوف يقول: "إن الأفراد ينضجون في ظروف الثورة بسرعة...وأعتقد بأنه لم يكن من وليد الصدف أن عمد ميخائيل طبيب الأمس المتفوّق في الدراسة، الذي بدا أنه لم يكن لديه ما يشكو منه في مهنته، إلى ترك عمله كطبيب ممارس في كييف، فجأة وبدون سابق انذار، وركب القطار إلى جهة مجهولة لديه عبر أراضي البلاد التي أضناها الحرب والجوع. وأدرك في الطريق فجأة، ما لم يحدسه من قبل وهو أنّ قدره أن يصبح كاتباً وليس طبيباً". حدث ذلك في سبتمبر عام ١٩١٩ وكانت منطقة القوقاز ما زالت تحت سيطرة الجنرال دينيكين، واعتبر بولغاكوف طبيباً عسكرياً يوجد في خدمته. ووصل إلى مدينة روستوف-على-الدون وهناك صدر إليه

الأمر بالتوجه إلى غروزني ومنها إلى قرية شيشين-اوْول (في جمهورية الشيشان حالياً) حيث توجب عليه العمل كطبيب ريفي. لكنه عرف في غروزني أن سلطة دينيكين غير موجودة إلا في جزء من المدينة لأن بلاد الشيشان الجبلية كانت تعيش حياتها الخاصة بها. وقد أعلن أمامها الشيخ حجي اوزون (تجاوز عمره آنذاك سن العامين بعد المائة) "الغزوات" - اي الجهاد - ضد قوات دينيكين التي ضمّت "الكفّار" أتباع القيصر الروسي السابق. كما نشطت مجموعة البلشفي المضمد السابق غيكالو المؤلفة من العمال والحرس الاحمر في غروزني. فشهد بولغاكوف المعارك الطاحنة بين مختلف الفصائل المسلحة. ووصف بولغاكوف الملحمة الشيشانية هذه في روايته "المغامرات العجيبة لطبيب" التي يعتبرها المؤرِّخون خير مرجع عن الأحداث في القوقاز في تلك الفترة. ولاسيما المعركة عند شيشين-أوْول حيث تقابل فرسان القوزاق ومشاة دينيكين مع فصائل الثوار والبلاشفة وسقط عدد كبير من القتلى والجرحى من الطرفين.

بقي بولغاكوف بعد الأحداث الدامية في شيشانيا في حيرة من أمره. وانتقل مع زوجته مرة أخرى إلى مدينة فلاديقوقاز الخاضعة للسلطة السوفيتية. وكتب عن هذه الفترة يقول:"لقد عانيت من وضع انعطاف نفسي حاد في ١٥ شباط عام ١٩٢٠ حين تركت الطب إلى الابد ووهبت نفسي للأدب". وكان جيش الفرسان الاحمر قد أقام السلطة السوفيتية في فلاديقوقاز. وبدأت تصدر في المدينة صحيفة أدبية بإسم "القوقاز" وعمل بولغاكوف فيها بصفة صحفي وتخلّى نهائياً عن مهنة الطب، بل حتى أخفى شهادته كخرّيج كلية الطب "بإمتياز". وذكرت زوجته لاحقاً أنّه مارس شتّى المهن فعمل ممثلاً في المسرح ومقدّم برامج حفلات وكممثّل مسرحي وكاتب برامج فنية ومحاضرا وألّف القواميس وعمل مهندساً وصحفياً. وسعى إلى إخفاء انتمائه إلى عائلته في كييف خشية ملاحقات السلطة الجديدة

له. وفي مطلع عام ١٩٢٠ لحقت الهزيمة قوات الحرس الابيض في القوقاز نهائياً. وحلّت ايام السلام الأولى بعد الحرب الأهلية. وكانت المنطقة مليئة بالآف الاطفال اليتامى– هم عبارة عن هياكل عظمية مغطاة بطبقة من الجلد – حسب وصفه. ووضعت السلطة كمهمة أولية لها تقديم المساعدة لهم. وجرت حملة لإيواء وإطعام هؤلاء الاطفال وكذلك تعليمهم. ونشأت منظومة تعليم وفي الوقت نفسه شُرع بنشر الأدب الكلاسيكي العالمي والروسي.. وتمّ تأسيس المسارح وفق البرنامج الذي اعدته مفوضية الشعب للتنوير. ونظراً لقلّة المثقّفين في المدينة التي هجرها مثقفوها في فترة الحرب، وكانت اللجنة الثورية التي تتولّى إدارة الامور بحاجة إلى أي شخص متعلّم، فقد تمّ تعيين بولغاكوف في منصب رئيس القسم الأدبي "ليتو" في اللجنة. وافتتح مسرح بإسم "المسرح السوفيتي الاول" في المدينة الجائعة. وقدّمت فيه العروض المجانية للعمّال والجنود من رجال الجيش الأحمر. لكن المسرح كان بحاجة إلى نصوص مسرحية تناسب المرحلة الثورية. فبدأ بولغاكوف بكتابة المسرحيات. وكتب أربع مسرحيات ذات مواضيع مختلفة ("دفاعا عن النفس" و"الأخوة من آل توربين" و"عرسان من طين" و" أبناء الملا" و" ثوار كومونة باريس")، والتي قام بإتلافها لاحقاً لأنّه اعتبرها ضعيفة. كما صار يكتب المقالات الهزلية في الصحيفة المحلية. و لم ينشر القسم الأدبي اي كتاب لعدم توفّر الورق، وحتى الصحيفة كانت تصدر بصفحتين أو أربع صفحات صغيرة الحجم. لهذا تركّز الاهتمام على تقديم حفلات فنية تتخلّلها المحاضرات عن بوشكين وتشيخوف وهايدن وباخ وموزارت يقدّمها لهم "الرفيق بولغاكوف". إذ لم يوجد غيره من يستطيع القيام بهذا العمل في المدينة أيامذاك. وأيامذاك أثنت صحيفة "كومونيست" المحلية على نشاط الرفاق الشباب العاملين في "ليتو" من أجل نشر الثقافة البروليتارية. لكنها أشارت أيضاً إلى أن "واجبهم الثوري والحزبي" يقضي بعدم

تقديم الأدب والفن البرجوازيين بل نشر الأدب البروليتاري والمستقبلي (نسبة إلى تيار المستقبليين)، فالبروليتاريا لا تحتاج إلى بوشكين وتشيخوف وأمثاله.

دخل بولغاكوف في فلاديقوقاز عالم المسرح المحترف لدى تقديم مسرحياته على خشبة المدينة ذات التقاليد الفنية العريقة منذ العهد القيصري. وهناك بالذات قدم مسرحيته "الاخوة من آل توربين" التي طوّرها لاحقاً بموسكو حين عرضت بعد ستة اعوام في مسرح موسكو الفني بعنوان "أيام آل توربين". وأصبحت من رموز المسرح السوفيتي والروسي حيث يتواصل عرضها في روسيا حتى اليوم. وتطورت في فلاديقوقاز مهاراته في الكتابة المسرحية. ولم يكن راضياً عن مسرحياته هذه لأنها كُتبت على عجل كما ذكر ذلك في رسالة موجهة إلى شقيقته. لهذا فإن نجاح هذه المسرحيات لم يخدع كاتبها. كانت نصوص مسرحياته تُرسل إلى "قسم التأليف المسرحي الشيوعي" في مفوضية الشعب للتنوير(وزارة الثقافة) بموسكو، والذي كان يترأسه فسيفولود ميرهولد المخرج المسرحي المجدد الذائع الصيت فيما بعد. وقد ارتبط بولغاكوف معه فيما بعد بأوصر صداقة حميمية وعمل معه سوية في مسارح موسكو.

إن مصير بولغاكوف عموماً يتسم بمسحة دراماتيكية منذ أن توفي والده وعانت عائلته من العوز ومشقة الحياة. لكن بذور موهبته قد غرست فيه منذ الطفولة في أجواء حب الأدب والفن والموسيقى والمسرح والشيء الأهم حبّ المطالعة التي أعطت ثمارها لاحقاً حين ترك مهنة الطب ومارس الإبداع الأدبي. ولهذا وجد سهولة بالغة في الكتابة بأسلوب رشيق وجميل كان يحسده عليه الكثير من كتّاب عصره. وثمّة أسطورة بأنّ بولغاكوف بدأ الكتابة في وقت مبكر بأصالة ونضوج كشفتا موهبته الفذة والأصيلة.

وبدت "مذكرات على كم القميص" التي نشرت في عامي ١٩٢١ و١٩٢٢، وكأنّها من إبداع كاتب قدير تجاوز مرحلة النضوج، وظهر في الأدب كاتباً "جاهزا". غير أن الواقع يُبيّن أنّ الكاتب مرّ بمراحل إخفاق، وكذلك راودته الشكوك في قدراته الأدبية قبل أن يصبح كاتباً شهيراً في الثلاثين من العمر تقريباً. وكان متشدداً وحازماً في تقييم أعماله مع نفسه، وغالباً ما كان يعيد كتابة أجزاء كاملة منها لأنّه كان يعتبرها دون المستوى المطلوب. ويقول الباحث فلاديمير لاكشين أن بولغاكوف تعلّم بهذه الصورة كيف يجب ألا يكتب في عمله الإبداعي. وتعلم أنّه يجب ألا يكتب بـ"طلبية" من أحد ما ولا "حول مناسبة معينة" وأن يشعر بـ" الخجل الاستيتيكي" من عمله- كما قال ليف تولستوي- الذي هو أفضل دافع للكمال في الأدب. وتعتبر مقالاته الساخرة المنشورة في فترة ١٩٢٢ - ١٩٢٥ حين انتقل للإقامة بموسكو بمثابة "توطئة" لكتابة أعمال نثرية ناضجة. وكان قد بدأ العمل في القسم الأدبي بمفوضية الشعب للتنوير (وزارة الثقافة) التي ترأسها الكاتب والفيلسوف البلشفي اناتولي لوناتشارسكي. ونشرت المقالات في جريدة "غودوك" لسان حال عمال السكك الحديدية وجريدة " في العشية " الصادرة في برلين باللغة الروسية. وقد كشفت مقالاته نضوجه وخبرته الكبيرة في الحياة، حيث شهد خلال الربع الاول من القرن أحداثا مصيرية غيرت وجه روسيا وقلبت النظام القيصري ومن ثم البرجوازي، وكوارث الحرب الأهلية وأحداثها الدامية وخراب البلاد ماديا ومعنويا. وقد استمد بولغاكوف من هذه الوقائع المأساوية كلها مادة أعماله النثرية. وفي الواقع ان بولغاكوف الطبيب يشبه تشيخوف الطبيب في بداية حياته الأدبية حين كان ينشر في الصحف مقالات هزلية صغيرة شحذ بها قلمه ككاتب مبدع لاحقا. وكتب بولغاكوف مثل تشيخوف عن نفوره من العمل الأدبي "حسب الطلب" البعيد عن الابداع الحقيقي. لكنه مثل تشيخوف لم

يكن منصفا لدى تقييم أعماله الأدبية المبكرة. فقد طور الكثير منها في أعماله لاحقاً وضمنها رواياته ومسرحياته التي جلبت له الشهرة. اذن ان تجربة عمله في "ليتو" في فلاديقوقاز ومن ثم بموسكو وفي الصحف لم تذهب عبثا.

استقر بولغاكوف في نهاية المطاف بموسكو في أواخر ايلول ١٩٢٠ بعد فترات تجول قصيرة في تفليس (تبليسي حاليا) وباطومي وكييف. ووجد على الفور عملا في القسم الأدبي "ليتو" التابع للسوفيت الأدبي العام في موسكو. وانغمر في الأوساط الأدبية للعاصمة حيث يوجد الكثير من الأدباء المعروفين، بينما لم يكن قد نشر ايامذاك سوى "مذكرات على كم القميص". وجاء في رسالة موجهة إلى والدته في عام ١٩٢١ انه يفكر بكتابة دراما عن نيقولاي الثاني وراسبوتين وأحداث ١٩١٦ –١٩١٧، وأعدّ خطة العمل. لكنّه عدل عن الفكرة حيث انشغل بكتابة مجموعته القصصية "مذكرات طبيب ريفي" المنشورة في هذه المجموعة وواصل العمل في روايته الملحمية "الحرس الابيض".

وقد انطلق بولغاكوف في رواياته من تجاربه الأدبية السابقة، وامتزج أسلوبه الأدبي الرفيع المتسم بالشاعرية المتفتحة والطليقة بالكلام اليومي الذي يتردّد في الشارع. مما جعل قراءته ميسرة وسهلة لدى القارئ المثقف والبسيط على حدّ سواء. وقد ساعدت الكلمة المتداولة في الحياة اليومية بولغاكوف لدى تأليف الأعمال الدرامية التي تعتمد على الحوار. فهو شاعري وراوية في الدراما وفي الوقت نفسه هو كاتب درامي لدى تأليف القصص والروايات. إن السمة الأخرى المميزة للكاتب هو التزامه بالدقة في وصف الحدث وتحديده الزمان والمكان بأسلوب الريبورتاج لحد ذكر التواريخ والاماكن في المدينة بدقة متناهية. وهذا يرتبط أيضاً بعمله كصحفي وكاتب ريبورتاجات

وكطبيب ممارس يتوخى الدقة في كل شيء. وادخل بولغاكوف في العمل الأدبي ما كان يعتبر " شيئاً وضيعا ومبتذلا " في وصف الوقائع والأحداث اليومية وتقديمه بشكل جميل. وساعده في ذلك انه اعتاد كتابة يومياته التي ضمنها كل سمات الحياة اليومية، ومنها حتى حالة الطقس والاسعار في المتاجر ووسائل المواصلات ووصف الناس الذين كان يلتقيهم. لكن الشرطة صادرت هذه الدفاتر لدى تحري بيته واعيدت إليه لاحقاً فقام بحرقها و لم يعاود كتابة اليوميات بعد هذا. وكان بولغاكوف يشعر بأنه المؤرخ الذي يدون أحداث زمانه وحياته الشخصية. وبما ان الحوادث العابرة اليومية قد لاتبقى في الذاكرة فانه كان يدونها بصورة دقيقة. ولهذا نجده في نثره يطلق العنان لخياله وفي الوقت نفسه يصور "لون" و" مذاق " الزمن بصورة واقعية. وفي هذا الترابط يغدو نثره تجسيدا لجاذبية أعماله الأدبية المتسمة بروح العصر.

لا يعرف الكثير عن عمل بولغاكوف في "ليتو".بموسكو، وبقيت فقط مقاطع من أعماله الأدبية غير المكتملة في تلك الفترة. وكتب عندئذ بقية "مذكرات على كم القميص" و"المغامرات العجيبة لطبيب" التي نشرت في ١٩٢١-١٩٢٢ بمجلتي "في العشية" و"البوق". وأنجز في هذه الفترة رواية "الحرس الابيض" ومسرحية " أيام أسرة توربين" وشرع بكتابة مسرحية "الهروب" حول أحداث نهاية الحرب الأهلية. كما واصل كتابة رواية قصيرة اسمها " الداء". وقد شغلت الرواية فكره كما ورد في رسائله إلى شقيقته. وفيما بعد تحولت إلى رواية "المورفين" عن حياة طبيب ريفي أدمن تعاطي المخدرات. و لم تنشر هذه الرواية الا في عام ١٩٢٧ في مجلة "مديتسينسكي رابوتنيك" غير واسعة الانتشار الخاصة بأخبار الطب، والتي نشر فيها أيضاً في عامي ١٩٢٥ - ١٩٢٦ المجموعة القصصية "مذكرات طبيب شاب". وكان بولغاكوف حسب أقوال معارفه في ذلك الوقت قليل الكلام كما لو أنّه لا يريد الإفصاح عما يدور في فكره، وإذا

ما تحدّث فإنّ حديثه كان مترعاً بالهزل الطريف الذي لم يكن يميز الزملاء الشباب من الصحفيين الجادين والمتحمسين للأحداث في فترة بناء الدولة السوفيتية الفتية في العشرينيات من القرن الماضي. ونظراً لقلّة ما نشره من أعمال أدبية في تلك الفترة وعدم وجود تجاوب من قبل القراء فقد كان بولغاكوف يشعر بنوع من العزلة الشديدة. وكان القلائل ممن تفهّموه وقَدّروا موهبته ومنهم زوجته الثالثة يلينا سيرغييفنا التي رافقته حتى اليوم الأخير من حياته، وكذلك بيوتر بوبوف أحد القرّاء المعجبين به والذي سجّل لاحقاً سيرة حياته. وكان الكاتب يحتاج إلى ردود فعل القرّاء والتجاوب معهم وهو أمر بالغ الاهمية بالنسبة إلى كل اديب في بداية درب الابداع. زد على ذلك أنّه كان بطبيعته يميل إلى معاشرة الناس، ويتوق إلى التعارف مع الآخرين، لكنّه اضطر في هذه الفترة إلى تجنّب صخب الصالونات واللقاءات في النوادي والاجتماعات الأدبية لأنّه وجد فيها الكثير من النفاق والزيف والتي كان يصفها بأنّها "حفلات ساهرة في غرفة الخدم". تغير الوضع حين عرض عليه تقديم النص المسرحي لروايته "الحرس الابيض" والذي تقرّر إخراجه بعنوان "أيام أسرة توربين" على خشبة مسرح موسكو الفني في مطلع الثلاثينات. وكان بولغاكوف معجباً جداً بهذا المسرح وبأعمال ستانيسلافسكي ونيميروفتيش- دانشينكو فيه. وحدث الأمر عندما تلقّى رسالة جاء فيها:

"المحترم ميخائيل افاناسوفيتش"!

بِودّي للغاية أن أتعرّف عليك والتحدّث حول بعض الأمور التي تهمّني وربما تكون شيّقة لديك أيضاً. فإذا وجدت متّسعاً من الوقت سيسرّني لقاءك غداً مساء (٤/٤) في مبني الاستديو. التوقيع :بوريس فيرشيلوف".

وكانت الرسالة مكتوبة على ورقة فيها شعار "استديو مسرح موسكو الفني". وقد وجّهت الدعوة إلى بولغاكوف لكتابة النص

المسرحي لروايته التي أنجز كتابتها لتوّه ونُشرت أجزاء كبيرة منها في نيسان ١٩٢٥ في احدى المجلات الأدبية هي "روسيا". وكانت هذه الدعوة بمثابة معجزة، لأنها جاءت في وقت كان الكاتب في أمسّ الحاجة للتخلّص من العمل الروتيني في "ليتو" الذي كان يستنزف القسم الأكبر من وقته وجهده، بدلاً من التفرّغ للعمل الإبداعي. وقيل لاحقاً أنّ الدعوة تمت بتوصية من صديقه الشاعر بافل انتوكولسكي الذي كان يعمل في مسرح فاختانغوف وأراد أن يخرج هذه المسرحية هناك أيضاً. وقد وعده بولغاكوف لاحقاً بمسرحيته التالية "شقة زويا" بدلاً من"آل توربين". علماً أن مسرح موسكو الفني كان بعد جولته في أمريكا وأوروبا بحاجة ماسة إلى ربرتوار يتضمّن مسرحيات جديدة غير مسرحيات تشيخوف وغوركي وألكسي تولستوي التي أخرجت في فترة أصبحت في طيات الماضي... وبالذات إلى مسرحيات تتحدّث عن الأحداث الثورية في عام ١٩١٧ لتقديمها في ذكرى قيام الثورة.

عكف بولغاكوف على كتابة المسرحية طوال الصيف. وفي هذه الفترة أيضاً نشر قسماً آخر من روايته "الحرس الابيض" وأعدّ للطبع كتابه "أقاصيص شيطانية" وتضمّنت هذه المجموعة القصة الطويلة "بيوض الشأم" التي حظيت كثيراً بإعجاب مكسيم غوركي. لكنّها أثارت غضب ليونيد افيرباخ المسؤول في الاتحاد الثوري للكتّاب البروليتاريين الذي نشر في صحيفة "الازفستيا" مقالة هاجم فيها بولغاكوف واعتبره كاتباً بعيداً عن نهج الثورة. لكن غالبية أدباء روسيا رحّبوا بظهور موهبة شابة جديدة يمكن مقارنته بتولستوي ودوستويفسكي. وغدا بولغاكوف بين ليلة وضحاها حديث المنتديات الأدبية والمسرحية في روسيا.

وعموماً ان بولغاكوف تحدّث فيما بعد في روايته الساخرة "رواية مسرحية" عن مجيئه إلى مسرح موسكو الفني وعمله هناك. وأبدى

رجال المسرح حماساً كبيراً لدى إخراج المسرحية التي حقّقت نجاحاً باهراً وقُدّمت على خشبة المسرح الموسكوفي حتى الآن أكثر من ألف مرة. وتولّى مهمة الإخراج ايليا سوداكوف تحت إشراف ستانيسلافسكي. وشارك بولغاكوف نفسه في جميع البروفات واعترف ستانيسلافسكي فيما بعد في رسالة إلى بولغاكوف في٤ ايلول ١٩٣٠ قائلاً: "لقد عملت معك في عدة بروفات فقط من "آل توربين"... وتحسّست فيك عندئذ موهبة المخرج وربما الممثل؟". وهكذا وجد بولغاكوف في أعوام الثلاثينات الوسط الذي يمكن أن يعيش فيه وخرج من عزلته القسرية السابقة. فالمسرح عمل جماعي، وعيد دائم لجميع العاملين فيه بالرغم من جميع المصاعب التي ترافق العمل المسرحي. وكان من أكبر الصعوبات بالنسبة له عدم تقبّل ستانيسلافسكي لرؤية بولغاكوف في التأليف المسرحي. ومن المعروف أن ستانيسلافسكي رفض في حينه قبول تقديم مسرحيات تشيخوف في مسرح موسكو الفني، لولا تدخل نيميروفيتش - دانشينكو المربي المسرحي والكاتب والمخرج المسرحي الذي كان معجبا بتشيخوف، وتنازل حتى عن جائزة بوشكين الأدبية التي منحت له لصالح تشيخوف. وقد كشف نيميروفتش-دانشسنكو لستانيسلافيكي الابعاد الفنية القيمة لمسرحيات تشيخوف وقام شخصيا بتدريب الممثلين على الادوار. وحدث الشيء ذاته هذه المرة مع مسرحيات بولغاكوف حيث طلب ستاتنيسلافسكي تغيير العديد من المشاهد وحتى التركيز على ابطال معينيين فيها. الامر الذي أثر غضب بولغاكوف. وحدثت مناقشات حادة خلال البروفات. وحدث الشيء ذاته لدى العمل في مسرحيات بولغاكوف الأخرى في هذا المسرح ومنها "موليير". وفي آخر المطاف اضطر بولغاكوف إلى تقديم استقالته والانتقال للعمل في مسرح البولشوي في كتابة ليبرتو الاوبرات. وكتب بولغاكوف في رسالة مفعمة بالسخرية المريرة إلى صديقه بيوتر بوبوف يشكو فيها من

إدارة مسرح موسكو الفني جاء فيها:" لدي عيد اليوم.. انني اجلس عند المحبرة وانتظر ان يفتح الباب ويظهر وفد من ستانيسلافسكي ونيميروفيتش يحمل رسالة تحية وهدية ثمينة. ويشار في التحية إلى جميع مسرحياتي المشوهة والقتيلة ... كما تدرج قائمة بجميع الافراح التي انعموا بها علي خلال عشرة اعوام في زقاق مسرح موسكو الفني. اما الهدية الثمينة فستتمثل بأناء من معدني نبيل ما (النحاس مثلا) فيه الدم الذي امتصّاه من عروقي خلال عشرة اعوام". وتعبر هذه الرسالة بشكل مؤثر عن معاناة بولغاكوف من العمل في المسرح المذكور الذي احبه وعمل وصقل مواهبه فيه كاتبا ومخرجا وممثلا ومنحه كل قواه خلال العقد الاخير من حياته. إن اقوال بولغاكوف هذه تجسد أيضاً الصراع بين عبقريتين ارادت كل واحدة اثبات وجهة نظرها في العمل الفني. وبعد هذا منعت مسرحياته من قبل الرقابة الحزبية.

وترتبط بفترة عمل بولغاكوف في المسرح شخصية أخرى أثرت في مصير بولغالكوف هي شخصية الزعيم السوفيتي يوسف ستالين. وعرف الأدب السوفيتي الكثير من الكتاب الذين لم يمارس ستالين في حياتهم تأثيرا يذكر باستثناء مكسيم غوركي. اما علاقته ببولغاكوف فهي علاقة خاصة جديرة بالذكر. فمنذ العروض الاولى لمسرحية "أيام آل توربين" التي قدمت في مسرح موسكو الفني في عام ١٩٢٦ ابدى ستالين اهتماما بعمل بولغاكوف. ورغم ان ستالين كان يشجع احتدام الصراع السياسي في الأدب والذي ترك آثاره المؤلمة في حياة بولغاكوف الا انه عمل في الوقت نفسه على بسط نوع من الحماية على الكاتب بصورة خفية. وقد صور بولغاكوف هذا الوضع بصورة مجازية في مسرحيته عن موليير وعلاقته بالملك لويس الرابع عشر. وثمة شبه فعلي بين الحالتين.

وفيما وصف ستالين مسرحيات بولغاكوف في رساته إلى الكاتب

المسرحي بيل - بيلوتسيرسكي بأنها مسرحيات " غير بروليتارية " بلاشك، فأنه دافع في الوقت نفسه عن " آل توربين" من هجمات اتحاد الكتاب البرولتياريين بقوله :" طبعاً ان من السهل توجيه " النقد" والمطالبة بحظر الأدب غير البروليتاري. لكن الشيء السهل جدا لا يمكن اعتباره شيئاً جيدا... اما بصدد مسرحية " أيام آل توربين" فهي فهل ليست رديئة لهذا الحد كما انها تجلب المنفعة أكثر من الضرر. ولا تنسوا ان الانطباع الرئيسي المتبقي لدى الجمهور من هذه المسرحية هو انطباع جيد بالنسبة إلى البلاشفة". وقال ستالين الشيء ذاته عن مسرحية بولغاكوف الأخرى " الهروب" بعد مطالعته لمسودتها:" انها من ناحية "ظاهرة معادية للسوفيت" لكن من ناحية أخرى انا لا اعارض في تقديمها على خشبة المسرح إذا ما اضاف بولغاكوف إلى مشاهد الاحلام الثمانية فيها حلما آخر أو اثنين آخرين يصور فيهما المحور الداخلي للولب الحرب الأهلية في الاتحاد السوفيتي...". ويشير الباحث فلاديمير لاكشين إلى ان ستالين شاهد عرض " أيام آل توربين ٥١" مرة كما شاهد عرض " شقة زويا" في مسرح فاختانغوف ٨ مرات. ولربما اعجب ستالين بصراحة بولغاكوف الذي يطرح الامور بدون لف ودوران. ان ستالين الذي كانت تساوره الريبة والخوف من الطعنة في الظهر قد ثمن في بولغاكوف تمسكه برأيه وبشعور الكرامة الذاتية لديه، والتي تجلت في رسائل بولغاكوف الموجهة إلى الحكومة السوفيتية. وقد كتب بولغاكوف عدة رسائل إلى ستالين. فكتب في ٣ ايلول ١٩٢٩ إلى ستالين راجيا السماح له ولزوجته بالسفر إلى الخارج. لكن ستالين لم يرد وربما لم تصل الرسالة إليه اصلا من مساعديه. وكتب بولغاكوف الرسالة الثانية في عام ١٩٣٠ في لحظة يأس عندما منعت مسرحياته وفقد الأمل في نشر أعماله والحصول على اي عمل عموما. وجاء فيها:" بعد ان منعت جميع أعمالي وتعالت اصوات كثير من المواطنين الذين يعرفونني ككاتب ناصحين بقولهم : اكتب مسرحية "

شيوعية"، وكذلك ابعث إلى الحكومة السوفيتية برسالة غفران تتضمن التخلي عن افكاري السابقة التي اوردتها في أعمالي الأدبية، مع التأكيد بأن اعمل منذ الآن فصاعدا ككاتب - مساير مخلص لفكرة الشيوعية. ان الهدف هو انقاذ نفسي من الملاحقات والفقر والهلاك الحتمي في نهاية المطاف.

لكنني لم اصغ إلى هذه النصيحة. وهيهات ان ابدو امام حكومة الاتحاد السوفيتي بشكل نافع إذا ما كتبت رسالة زائفة تصورني كبهلول وبهلوان سياسي ساذج. كما انني حتى لم احاول كتابة مسرحية شيوعية لأنني أعرف مقدما بأنني لن افلح في كتابة مثل هذه المسرحية. لقد نضجت لدي الرغبة في التوقف عن عذاباتي هذه في الكتابة مما ارغمني على التوجه برسالة صادقة إلى حكومة الاتحاد السوفيتي"... وأورد بولغاكوف الامثلة عن النقد الظالم والهدام لمسرحياته بقوله : " إنني لم اورد افكاري بالهمس في ركن منعزل. أنني اوردتها بشكل عمل دراماتيكي ساخر وقدمتها على خشبة المسرح. فكتبت الصحافة السوفيتية عن مسرحيتي " الجزيرة الحمراء" - بتحريض من لجنة الربرتوار العامة - تقول انها تشنيع بالثورة. وهذا افتراء غير عادل. فالمسرحية تخلو من التشنيع بالثورة لأسباب كثيرة سأورد احدها لقلة المجال وهو ان من المستحيل كتابة تشنيع بالثورة لعظمتها البالغة. ان الكتابة الساخرة هي غير التشنيع. كما ان لجنة الربرتوار العامة هي ليست الثورة... ان النضال ضد الرقابة مهما كانت وفي ظل اية سلطة وجدت هو واجبي ككاتب، وكذلك من واجبي الدعوة إلى حرية الصحافة. انا من اشد المعجبين بهذه الحرية واعتقد انه ذا ما أراد أحد الكتاب اثبات انه لا يحتاج إليها فمثله مثل السمكة التي تعلن جهارا انها ليست بحاجة إلى الماء.

تلكم هي احدى سمات ابداعي...لكن مع السمة الاولى وجميع

السمات الباقية الموجودة في أعمالي الساخرة تبدو : صبغات سوداء وغيبية (فأنا كاتب غيبي الاتجاه) تجسد القبائح الكثيرة لواقعنا المعيشي، والسم الزعاف في لساننا، والتشكك الشديد بالعملية الثورية الجارية في بلدي المتخلف، ومقابلتها ب"الارتقاء العظيم "، والشيء الرئيسي تصوير السمات البشعة لشعبنا، وفي رواية " الحرس الابيض" اظهرت السمات التي اثارت قبل الثورة بوقت طويل المعاناة الشديدة لدى استاذي الكاتب سالتيكوف- شيدرين.

ناهيك عن القول ان الصحافة السوفيتية لم تمعن الفكر في هذا كله وانشغلت بالانباء غير المقنعة الزاعمة ان الأعمال الساخرة لميخائيل بولغاكوف هي " افتراء"...

وفي نهاية المطاف ان سماتي الاخيرة في مسرحيتي القتيلتين " أيام آل توربين" و"الهروب" تصور الانتلجنسيا الروسية باصرار بكونها الفئة الافضل في بلادنا. وبضمن ذلك تصور عائلة من المثقفين - النبلاء القت بها المصائر التأريخية المحتومة في اعوام الحرب الأهلية في معسكر الحرس الابيض، وفقا لتقاليد " الحرب والسلام". وتصوير ذلك هو شيء طبيعي بالنسبة إلى الكاتب المرتبط بالانتلجنسيا ارتباطا وثيقا.

لكن مثل هذا التصوير يقود إلى الاستنتاج بأن صاحب هذه المؤلفات يلقي في الاتحاد السوفيتي على قدم المساواة مع ابطاله - بالرغم من كل جهوده الكبيرة في ان يقف محايدا فوق الحمر والبيض - مصير وصفه بالعدو- واحد رجال الحرس الابيض، ولا يمكن ان يطلق هذا الوصف، كما يدرك ذلك الجميع، الا على من يعتبر نفسه شخصا ضائعا ومنتهيا في الاتحاد السوفيتي.

.. لقد لحق الهلاك ليست أعمالي الماضية فقط بل والحاضرة والقادمة أيضاً. وقد ألقيت شخصيا بيدي في نيران الموقد مسودة

رواياتي حول الشيطان ومسودة كوميديا وبداية رواية " المسرح". واضحت جميع أعمالي بلا أمل.

إنني أرجو الحكومة السوفيتية ان تأخذ بعين الاعتبار انني لست شخصية سياسية بل اديب، وانني وهبت جميع أعمالي إلى خشبة المسرح السوفيتي...

يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار ان منعي من الكتابة يعادل بالنسبة لي دفني حيا.

انني اناشدكم باسم الروح الانسانية للسلطة السوفيتية اطلاق حريتي ...انا الكاتب الذي لا يستطيع ان يكون نافعا في وطنه. واذا كان ما اوردته غير مقنع وحكم علي بالصمت مدى الحياة في الاتحاد السوفيتي، فانني ارجو الحكومة السوفيتية ان توفر لي العمل باختصاصي وانتدابي للعمل في المسرح بصفة مخرج على الملاك الدائم.. انني اقدم نفسي إلى الاتحاد السوفيتي بكل نزاهة وبدون اي ظل لالحاق الضرر اختصاصيا - مخرجا وممثلا يعمل بنزاهة على اخراج اية مسرحية ابتداءا من مسرحيات شكسبير ولحد مسرحيات اليوم الراهن... واذا لم يتم تعييني كمخرج فارجو قبولي كممثل كومبارس دائم. واذا لا يمكن تعييني بصفة كومبارس فارجو قبولي كعامل في خشبة المسرح. واذا ما كان ذلك غير ممكن فأرجو الحكومة السوفيتية البت في أمري كما تراه ضروريا، لكن يجب القيام بذلك لأنني، انا الكاتب المسرحي صاحب ٥ مسرحيات والمعترف به في الاتحاد السوفيتي وخارجه، أرى أمامي في اللحظة الراهنة - الفقر والشارع والهلاك".(الرسالة محفوظة في ارشيف ميخائيل بولغاكوف في مكتبة الدولة "لينين سابقا" بموسكو).

ارسلت هذه الرسالة في ٢٨ آذار عام ١٩٣٠ إلى سبعة عناوين، اما النسخة المخصصة لستالين فقد سلمها إليه شخصيا ي. ليونتييف نائب

مدير مسرح البولشوي آنذاك. وجاء الرد بصورة متأخرة وبشكل رد واحد هو المكالمة الهاتفية الشهيرة بتاريخ ١٨ نيسان ١٩٣٠ حين تحدث ستالين مع الكاتب شخصيا. وجاء في نص المكالمة الذي دونته زوجته يلينا بولغاكوفا:

"- نحن استلمنا رسالتك. وقرأناها ...انا والرفاق. ستتلقى ردا ايجابيا على الرسالة. ولكن ربما ينبغي ان نسمح لك حقا بالسفر إلى الخارج ؟ فهل اننا اضجرناك جدا؟

- انني في الفترة الاخيرة فكرت كثيرا فيما إذا يستطيع الكاتب الروسي العيش خارج وطنه، وخلصت إلى الاعتقاد بانه لا يستطيع ذلك.

- انت على حق. انا اعتقد ذلك أيضاً. اين تريد ان تعمل ؟ في مسرح موسكو الفني؟

- نعم، بودي ذلك. لكنني تحدثت حول الموضوع ـ فرفضوا طلبي.

- قدم طلبا إلى هناك. اعتقد انهم سيوافقون".

لقد دفع هذا الحديث بولغاكوف إلى اتخاذ قرار نهائي بالعمل في ارض وطنه، ووضع حد لشكوكه وتردده.

ويبدو ان هـذه المكالمة الهاتفية مع ستالين قد قـررت مصير بولغاكوف نهائيا. وكان لابد ان يجد هذا القرار تثمينا لدى ستالين. ففي عام ١٩٢٣ تحدث ستالين مع ادارة المسرح في فترة استراحة لدى تقديم مسرحية اوستروفسكي " القلب الحار" عن سبب التوقف عن تقديم مسرحية "آل توربين" فجرى فورا اعادتها إلى الربرتوار. بعد ذلك تولد في وعي بولغاكوف والمقربين منه رأي يشبه الاسطورة مفاده ان ستالين بسط حمايته عليه. وصدق ذلك حتى بولغاكوف

نفسه الذي كان ينتظر دعوة من الكرملين للقاء الزعيم السوفيتي. وفيما بعد حين طلبت منه ادارة مسرح موسكو الفني في ٩ ايلول ١٩٣٨ كتابة مسرحية "باطوم" عن حياة ستالين في شبابه، عندما قاد الزعيم السوفيتي في ٨-٩ آذار عام ١٩٠٢ مظاهرة العمال في مدينة باطوم الجورجية، رحب بالفكرة أملا في ان تقربه منه. وكان المقرر ان تقدم في الذكرى الستينية لمولد يوسف ستالين - لقبه الاصلي جوغاشفيلي.

عكف بولغاكوف على العمل بكل جد على كتابة هذه المسرحية التي لم تعرف النور على خشبة المسرح كما لم تنشر في حياته. وتشير زوجته لينا في يومياتها إلى ان الكاتب وجد صعوبة في البحث عن مواد تتعلق بنشاط ستالين وحياته في تلك الفترة حين كان ما زال طالبا في المدرسة الدينية التابعة للكنيسة. وانجز المسودة الاولى للمسرحية في ١٦ كانون الثاني ١٩٣٩ بعنوان "القس" أو " الكاهن". ثم استبدل العناوين عدة مرات منها "الخلود" و"المعركة" و" مولد المجد" و"هرقل" و" القبطان" غيرها. وفي نهاية المطاف استقر قراره على تسمية " باطوم". وبما ان أحداث المسرحية تجري في مدينة تقع على ساحل البحر الاسود وترتبط بالمستوطنات اليونانية القديمة هناك حاول بولغاكوف ربطها بأبطال الاساطير اليونانية القديمة وتشبيه ستالين بهم. كما راجع جميع المصادر عن ستالين عله يستشف شيئاً ما عن شخصيته. فراجع المصادر عن الأحداث الثورية في باطوم في مطلع القرن. زد على ذلك انه تابع خطب ستالين ومنها خطابه في المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي الروسي(البلشفي) في ١٠ آذار عام ١٩٣٩. وقد تحدث فيه ستالين عن الهزات التي تعصف بالعالم الرأسمالي في المجالين الاقتصادي والسياسي وعن الحرب الامبريالية التي يسري لهيبها في منطقة واسعة تمتد من شنغهاي إلى جبل طارق بمشاركة ٥٠٠ مليون نسمة.وسعي اليابان والمانيا وايطاليا إلى اعادة رسم خارطة العالم. اما الاتحاد السوفيتي فيشهد فترة نهوض في الانتاج

الصناعي وتوفير تقنية عالية في الانتاج واعداد الكوادر للصناعة والزراعة. كما تحدث "عن تطهير المنظمات والمؤسسات السوفيتية من الجواسيس والقتلة والمخربين امثال تروتسكي وزينوفييف وكامينيف وياكير وتوخاتشيفسكي وبوخارين وروزنغولتس وريكوف وغيرهم من الانذال"الذين جرى اعدامهم. وقد اكتشف بولغاكوف بعد هذا ان ستالين بالغ في خطابه في تصوير متانة الصداقة بين الشعوب والروح الوطنية السوفيتية ودمقراطية الانتخابات وافضليات الدستور الجديد الذي نص على احترام الحريات والحقوق المدنية ومنها حرية الضمير والكلمة والصحافة والاجتماعات وحصانة الفرد ومسكنه وسرية المراسلات البريدية. لأن هذا كله كان حبرا على الورق و لم يكن له وجود على ارض الواقع. وقرر بولغاكوف التركيز في مسرحيته على الحركة الثورية بروسيا في بدايتها فقط. وبعد مراجعة طويلة لفصول المسرحية لدى انجازها قرأها بولغاكوف على اعضاء اللجنة الحزبية في المسرح الذين صفقوا للمؤلف وابدوا اعجابهم بها. كما رحب بالمسرحية فلاديمير نيميروفتش - دانشينكو المدير الفني للمسرح. وتقرر ارسال الكاتب مع مجموعة فنية إلى باطوم لغرض اعداد تصاميم الديكورات وجمع الاغاني وغير ذلك من التحضيرات للعرض. وفجأة وردت برقية إلى المجموعة بالعودة إلى موسكو حيث ان الكرملين لم يوافق على اخراج المسرحية. ويقال ان ستالين اعجب بالمسرحية وقال ذلك لدى زيارته إلى مسرح موسكو الفني وحديثه مع نيميروفيتش - دانشنكو. لكنه خشى كما يبدو من تقديمها على خشبة المسرح لأنها صورته شابا رومانسيا ثوريا ناضل من أجل الحرية والعدالة بينما يقف المعارضون لسلطته الدكتاتورية في أواخر الثلاثينيات تحت هذه الشعارات أيضاً. كما تضمنت المسرحية مشاهد يمكن اعطاء تفسيرات مزدوجة لها قد تظهر ما نسبه المؤرخون لاحقاً إلى الزعيم السوفيتي حول قسوته وشكوكه بالمحيطين به. وقال

ستالين يجب أن لا يظهر ستالين الشاب على خشبة المسرح. وفيما بعد قال المخرج بوريس ساخنوفسكي :" لقد لقيت المسرحية في الكرملين موقفا سلبيا. فلا يجوز تصوير شخصية مثل يوسف ستالين بشكل بطل رومانسي، ولا يجوز وضعه في مواقف مفتعلة ووضع كلام مفتعل على شفتيه. لا يجوز اخراج ونشر المسرحية. ثانيا – يرون في الكرملين ان تقديم بولغاكوف لهذه المسرحية يمثل رغبته في اقامة جسر واقامة العلاقات معه".

لقد استقبل بولغاكوف في البداية لدى تعيينه في المسرح في ايار عام ١٩٣٠ من قبل فناني مسرح موسكو الفني بابتهاج كبير. اذ كان من المقرر تقديم رواية غوغول "الانفس الميتة" على خشبة المسرح. وكان النص الموجود لديهم من اعداد الكاتب سمولني ضعيفا ولهذا كلف بولغاكوف باعداد نص جديد للمسرحية. و لم يكن بولغاكوف مسرورا ببدء العمل في المسرح كمساعد مخرج من كتابة نص مسرحي لرواية احبها كثيرا لكن فشل جميع الكتاب قبله في اعداد نص مسرحي لها. مع هذا اقبل على العمل مضطرا ولكن بهمة كبيرة. وتضمن النص المسرحي وجود غوغول في روما حيث كتب غوغول الرواية، ولدى بدء البروفات اعترض ستانيسلافسكي على ذلك فحذفت روما وكذلك دور الراوية ومشاهد أخرى. فقد كانت لدى ستانيسلافسكي رؤيته عن "الانفس الميتة" واراد التركيز على جانب الاضحاك والهزل في العرض متناسيا شاعرية غوغول الساخرة. وقدم العرض المسرحي في نوفمبر ١٩٢٣ بنجاح منقطع النظير وتواصل العرض خلال اعوام طويلة في ربرتوار المسرح. وامتدح النقاد الممثلين وانهالوا مجددا بالهجوم على بولغاكوف لكونه بعيدا عن " الفن الاشتراكي". وغي عام ١٩٢٣ اعيدت مسرحية "آل توربين " إلى ربرتوار المسرح. وكتب بولغالكوف مسرحية "آدم وحواء" لكنها لم تقدم على الخشبة. بينما صدرت روايته عن موليير في عام ١٩٣٣ في سلسلة "حياة مشاهير

الرجال". وفي عام ١٩٣٤ كتب مسرحية"بلاجينستفو " من أجل مسرح ساتيرا وهي مسرحية كوميدية من الأدب الخيالي عن ماكينة الزمن التي تنقل ثلاثة افراد إلى عوالم المستقبل. لكن الادارة طلبت منه تعديل المسرحية ففعل ذلك وقدمها باسم "ايفان فاسيليفتش". ولم تقدم هذه المسرحية الا بعد وفاته. وفي أواخر عام ١٩٣٤ كتب مسرحية "الكسندر بوشكين" التي تبارى على طلب اخراجها مسرح موسكو الفني ومسرح فاختانغوف. ولم تقدم المسرحية بعد تغيير الاسم إلى "الايام الاخيرة" الا في عام ١٩٤٣ في مسرح موسكو الفني باخراج نيميروفيتش- دانشينكو الذي أبرز فيها الروح الوطنية لأهمية ذلك في زمن الحرب.

وفي أواخر الثلاثينات تعرض بولغاكوف في سنوات القمع الستالينية إلى حملة تشهير وتشنيع في الصحافة مجددا، ومنعت مسرحياته واصدار رواياته ومنها "موليير" (كابالا سفياتوش) التي كتبها في عام ١٩٢٩ ولم يسمح بعرضها على خشبة المسرح. ويصور الكاتب فيها صراع موليير مع النفاق الاجتماعي المتمثل بكبير الاساقفة شارون،وهوعمليا الصراع بين الخير والشر،بين الفنان والسلطة، كما يرد ذلك في مسرحية موليير "طرطوف". انه يشبه الصراع ذاته الذي خاضه بولغاكوف مع الموظفين الحزبيين. وربما ان الرقابة الحزبية منعت المسرحية لوجود هذا التشابه. وكان ستانيسلافسكي قد واصل العمل في اخرج مسرحية "موليير" في فترة طويلة خلال اعوام ١٩٣٢-١٩٣٣-١٩٣٤ وفي نهاية المطاف طلب ستانيسلافسكي الذي أصبح عجوزا في عام ١٩٣٥ تغيير عدة مشاهد من المسرحية. لكن بولغاكوف رفض ذلك واعلن ان المسرح قبل النص الاصلي بموجب العقد الموقع معه، وطلب اعادة المسرحية إليه وعدم تقديمها بالرغم من البروفات التي استغرقت عدة اعوام. وتوقف ستانيسلافسكي عن البروفات بسبب مرضه. لكن ادارة المسرح قررت في عام ١٩٣٦ مواصلة البروفات تحت اشراف نيميروفتش- دانشينكو الذي قرر عدم اجراء اي تغيير في

المسرحية وقدمت في ١٥ شباط ١٩٣٦ بنصها الاصلي لضيق الوقت. وحقق العرض المسرحي نجاحا كبيرا بالرغم من عدم رضى المؤلف عنها. وعلى الفور نشرت مقالات في الصحف تصف المسرحية بالابتذال وغلبة الروح البرجوازية الصغيرة فيها. ثم نشرت "برافدا" مقالة افتتاحية انتقدت فيها المسرحية بعنف، وفي أعقاب ذلك رفعت من ربرتوار المسرح. ثم نشرت مجلة " المسرح " مقالة شديدة اللهجة ضد أعمال بولغاكوف، واطلع الكاتب عليها حين كان يستجم في مصيف سينوب على ساحل البحر الاسود. وكان يستجم هناك أيضاً فنانو مسرح موسكو الفني مثل ماركوف مدير القسم الأدبي في المسرح والمخرج غورتشاكوف اللذان حاولا اقناعه بتغيير موقفه من تعديل"موليير" وترجمة "ساحرات وندسور" التي كلفه المسرح بترجمتها واعداد النص المسرحي لها. وأكد له ماركوف ان من الواجب ارضاء السلطات فهذا في مصلحته، ووعده بأن يدعمه المسرح. بيد ان بولغاكوف رفض ذلك وقال ان المسرح لن يدعمه. فترك المصيف وسافر إلى تفليس ومنها إلى فلاديقوقاز. ولدى عودته إلى موسكو في ايلول عام ١٩٣٦ قدم طلبا إلى ادارة المسرح باعفائه من منصب مساعد المخرج وفسخ عقد ترجمة "ساحرات وندسور". وبعد عدة اشهر كتب إلى اخيه يقول: "كان من الصعب علي العمل في المسرح بعد مقتل"موليير". وقبل عرض العمل في مسرح البولشوي في كتابة ليبرتو الاوبرات. فكتب ليبرتو اربع اوبرات هي "مينين وبوجارسكي" و"بطرس الاكبر" و"البحر الاسود" (حول القائد العسكري فرونزه والحرب الأهلية) و"راشيل" (عن رواية موباسان "مدام فيفي)". استغل بولغاكوف فترة عمله في البولشوي وتوفر كثير من الوقت لبدء التأليف من جديد وتنفيذ خططه المؤجلة. وعكف على كتابة " رواية مسرحية" التي يسخر فيها من قيادة مسرح موسكو الفني وادارته. وكتب القسم الاول من الرواية بسرعة دون توقف وحتى

بلا اي تنقيح. وتتضمن الرواية التي هي مزيج من الواقع والخيال قصته نفسه في المسرح العريق منذ دعوته لكتابة النص السرحي لروايته" ايـام آل توربين". وتوقف بولغاكوف عن كتابة الرواية في عام ١٩٣٧. وقد أجل الكتابة دون ان يعرف بأنه لن يستطيع مواصلة العمل لانجازها ليبدأ تأليف اروع أعماله " المعلم ومرجريتا". لقد نشرت رواية " المعلم ومرجريتا " بشكل مختصر في مجلة " موسكفا" في عام ١٩٦٦ اي بعد وفاة الكاتب بفترة طويلة. وتعتبر هذه الرواية من اعظم الأعمال الأدبية الروسية المعاصرة وترجمت إلى جميع اللغات العالمية تقريبا ومنها اللغة العربية. وتتمحور الفكرة الرئيسية لهذه الرواية حول العدالة التي يجب ان تنتصر حتما ولو ان هذا قد يحدث بصورة متأخرة. وتدور أحداث الرواية في مسارين احدهما قصة يشوع الناصري (المسيح) وبونتيوس بيلاط والأخرى قصة المعلم ومرجريتا. والقصتان متلازمتان حيث ان الفكرة هي علاقة المبشر بالعدالة سواء اكان رسولا ام شاعرا بالحاكم أو السلطان. ويعتقد كثير من الباحثين ان بولغاكوف صور فيها علاقته نفسه بستالين. وكانت صحة الكاتب قد تدهورت كثيرا في مطلع عام ١٩٤٠. وكان يعتبر هذه الرواية رسالته إلى الاجيال القادمة ويخشي الا يلحق باكمالها. وفعلا املى الاقسام الاخيرة منها وتنقيحها على زوجته بعد ان عجز عن الكتابة وهو طريح الفراش وفقد بصره تقريبا. وفي ٨ شباط ١٩٤٠ توجه فريق من فناني مسرح موسكو الفني بينهم كاتشالوف وخميليوف وتاراسوفا برسالة إلى سكرتير ستالين راجين ابلاغ الزعيم السوفيتي بحالة الكاتب الخطيرة املا في تلقي مساعدته. ولكن لم يأت الرد على الرسالة الا بعد وفاة بولغاكوف. ويذكر الجميع فيما بعد ان ستالين استخدم في خطابه الشهير إلى الامة في ٣ تموز عام ١٩٤١ لدى الهجوم الالماني على الاتحاد السوفيتي عبارة الكسي توربين أحد ابطال مسرحية " أيام آل توربين"، ربما عن قصد أو ربما عن غير

قصد،قائلا :" انني ادعوكم يااصدقائي في هذه اللحظات العصيبة..".
توفي بولغاكوف في ١٠ آذار عام ١٩٤٠. وودّعه إلى مثواه الاخير في مقبرة دير نوفوديفيتشيه بموسكو نفر قليل من الأدباء والفنانين ونسي أمره تقريبا خلال أكثر من عقدين من الزمان تقريبا، علما ان أعماله لم تصدر في الاتحاد السوفيتي في كتب منذ أواخر العشرينيات وحتى عام ١٩٦١. وفي هذا العام بالذات انبثقت فجأة "ظاهرة بولغاكوف". وذاع صيته في اوساط واسعة من القراء في الاتحاد السوفيتي وخارجه. ونشر في عام ١٩٦٢ كتابه حول سيرة حياة موليير بعنوان "السيد موليير". وفي عام ١٩٦٣ نشرت "مذكرات طبيب شاب" وفي عام ١٩٦٥ نشرت مجموعة مسرحياته مع " رواية مسرحية" وفي عام ١٩٦٦ نشرت المؤلفات المختارة ومنها روايته الكبيرة " الحرس الابيض" وفي فترة ١٩٦٦ - ١٩٦٧ نشرت روايته الفلسفية "المعلم ومرجريتا" في مجلة "موسكفا". كما نشرت مسرحياته ورواية "بيوض الشؤم" و "قلب كلب".وجرى هذا كله بفضل جهود ارملته يلينا بولغاكوفا التي سلمت ارشيفه فيما بعد إلى مكتبة لينين بموسكو.
ان حياة بولغاكوف شبيهة بحياة كثير من المبدعين في العالم العربي الذين لقوا الامرين من "السلطان" مهما كان اسمه، فاضطروا اما إلى النفي والتشرد واما إلى معاناة الازمات النفسية وحتى الانتحار أو دخول السجون والموت في ظروف مجهولة.

(المترجم)

"قلب كلب"

١

أو – و – و – و – هو – هو – هوو! أوه، انظروا اليّ، إنني أهلك. إن العاصفة الثلجية تزمجر في فسحة عقد البناية مرددة صلاة روح الميت عليّ، وأنا أعوي معها. لقد هلكتُ، هلكتُ. فهذا النذل الذي يرتدي القلنسوة الوسخة، هذا الطباخ في مطعم التغذية العمومية لموظفي المجلس المركزي للاقتصاد الوطني، سكب عليّ الماء المغلي فسمط به جنبي الأيسر. يا له من دنيء، ويدّعي أنه بروليتاري. يا ربّي، يا آلهي، ما أشدّ ألمي! لقد تسلل الماء المغلي في جسدي حتى العظام. وأنا الآن أعوي، وأعوي، وهل ينفع العواء.

بم أزعجته يا ترى؟ فهل انني سالتهمُ مجلس الاقتصاد الوطني إذا ما نبشتُ في القمامة؟ يا له من مخلوق جشع! انظروا إلى وجهه القبيح: إنه أعرض من جسده نفسه. إنه لص نحاسي الخلقة. آه، يا ناس، يا ناس. في منتصف النهار أذاقني صاحب القلنسوة هذا الماء المغلي، والآن احلولكت الدنيا في عيني، والوقت يقارب الرابعة مساءً، اعتمادا على رائحة البصل المنبعثة من مبنى فريق الإطفاء في بريتشيستينكا. فرجال الإطفاء يتناولون العصيدة عند العشاء كما هو معروف. لكن هذه الأكلة غير لذيذة، كشأن الفطر. وقد حدثتني الكلاب من شارع بريتشيستينكا زاعمة أن البشر يأكلون في مطعم "بار" في شارع "نيغلينايا" أكلة واحدة دائما هي الفطر، والمرق الحريف لقاء ٣ روبلات و٥٧ كوبيكا للطبق الواحد. إنها مسألة ذوق، شأنها شأن من يهوى لحس الكالوش... أو – و – و – و...

إن الألم في جنبي لا يطاق. وأرى بجلاء تماما آفاق مستقبلي: فغدا ستظهر القروح، وبمَ يا ترى سأعالجها؟ إذ بوسعي في الصيف الانطلاق إلى منتزه سوكولنيكي، وثمة عشب خصوصي، جيد للغاية هناك، وعلاوة على ذلك.بميسوري أن أشبع بطني مجانا برؤوس النقانق. والمواطنون يرمون هناك الورق الملطخ بالشحم، فألعقه قدر ما أشتهي. وإذا ما خلا المكان من شخص ثقيل الدم يطلق عقيرته بالغناء هناك في ضوء القمر منشدا – "يا حلوتي يا عايدة" – بشكل يقبض القلب، فإن الحال تغدو على أحسن ما يرام. أما الآن فإلى أين أولّي وجهي؟ ألم يرفسوني على مؤخرتي بالجزم؟ نعم، لقد رفسوني. ألم اتلق الطوب المتساقط على أضلاعي؟ تلقيت منه ما فيه الكفاية. لقد امتحنت بجميع المحن، واستسلمت لقدري، ولئن صرت أبكي الآن، فهذا فقط بسبب الألم الجسماني والقر، لأن روحي لم تخمد بعد... إن روح الكلاب ذات قوة حياتية كبيرة.

أما جسدي فقد عانى من الكسور والضرب وإذلال الناس.بما فيه الكفاية. طبعاً إن الشيء الأساسي هو أنه حين سكب عليّ الماء المغلي تشقق الجلد، و لم تعد هناك أية حماية للجنب الايسر، إنني قد أصاب بالتهاب الرئتين في غاية البساطة، وإذا ما أصبت به، أيها المواطنون، فسأموت جوعا. إذ يتعين لدى الإصابة بالتهاب الرئتين الرقاد تحت السلالم عند المدخل الرئيسي، ومن سيمضي بدلا مني، أنا الكلب الاعزب طريح المرض، إلى صناديق القمامة بحثا عن الطعام؟ وإذا ما اعتلت رئتي فسأزحف على بطني، وتوهن قواي، وبوسعي أي فرد أن يضربني بعصاه حتى الموت. فيما سيحملني البوابون ذوو الشارات من أرجلي ويرموني في عربة القمامة...

إن البوابين، من بين جميع البروليتاريين، أحقر المخلوقات الدنيئة. إنهم حثالات البشر ومن أكثر الفئات خسة وضعة. وقد يختلف

الأمر بشأن الطهاة. مثلا، المرحوم فلاس من بريتشيستينكا. فما أكثر الكلاب التي أنقذها من الجوع. لأن الشيء الأساسي أبان المرض هو الحصول على اللقمة. .ويروي الكلاب الشيوخ أن فلاس كان يلقي عظمة وعليها شيء من اللحم. رحمه الله لأنه كان رجلا حقيقيا، وعمل طاهيا خصوصيا لدى المركيزات من آل تولستوي، وليس من مجلس التغذية العمومية. وماذا يفعلون من الأفاعيل هناك بهذه التغذية العمومية – هذا ما يعجز عقل الكلب عن إدراكه. فهم الأنذال يطهون حساء الملفوف من قطعة لحم فاسدة شديدة الملوحة. أما الناس المساكين فلا يعرفون شيئاً عن ذلك. إنهم يأتون ويمضغون ويلحسون بألسنتهم.

إن أية كاتبة طابعة تتقاضى بموجب المرتبة التاسعة خمسة واربعين روبلا، صحيح أن عشيقها سيهديها أجربة حريرية. لكن ما أكثر ما تتحمل من إذلال مقابل هذه الأجربة. فهو لا يتعامل معها كما هو مألوف، بل ينقضّ عليها بالحب على الطريقة الفرنسية. والكلام بيننا أن هؤلاء الفرنسيين أوغاد. بالرغم من أنهم يأكلون جيدا، ويحتسون النبيذ الأحمر. نعم... وقد تأتي كاتبة الطابعة، فالمرء لا يستطيع ارتياد "البار" إذا كان يتقاضى خمسة وأربعين روبلا، كما أن هذا لا يكفيها لغرض الذهاب إلى السينما، بينما تعتبر السينما السلوى الوحيدة في الحياة لدى النساء. إنها ترتجف وتبرطم ومع ذلك تأكل... فتصوروا فحسب: إن ثمن الوجبة من طبقين يبلغ اربعين كوبيكا، بينما لا يساوي هذان الطبقان خمسة عشر كوبيكا، لأن مدير التجهيزات سرق بقية الخمسة وعشرين كوبيكا. لكن هل أنها تحتاج إلى مثل هذا الطعام؟ فإن قمة رئتها اليمنى ليست على ما يرام، كما أنها مصابة بمرض نسائي بسبب الحب على الطريقة الفرنسية، وتم في مكان العمل استقطاع قسم من راتبها. وقدم لها الطعام الفاسد في المطعم العمومي، وها هي ذا... إنها تسرع تحت فسحة عقد البناية مرتدية الأجربة المهداة من عشيقها. وقدماها باردتان، والريح تهب على بطنها، لأن معطفها

الفرو شبيه بشعر جلدي أنا، فيما ترتدي سراويل داخلية خفيفة. إنها مجرد دنتلاّ، وخرق ممزقة من أجل عشيقها. ولتحاول أن ترتدي سراويل فانلاّ، فيصرخ فيها: لكم انت غير أنيقة! إنني سئمت زوجتي ماتريونا، وتعذبت مع سراويل الفانلا، والآن حانت الساعة لأكون سيد حياتي. أنا الآن رئيس. ومهما سرقت من مال فإنني أنفقه كله على جسد المرأة والمقبلات من رقبة السرطان ونبيذ شمبانيا "أوبراو – ديورسو". أنا عانيت الأمرين في أيام شبابي أما حياة الآخرة فلا وجود لها.

أسفي عليها، أسفي! لكنني آسف على نفسي أكثر. أنا لا أقول هذا بدافع الأنانية، كلا. بل لأننا لسنا في ظروف متكافئة فعلا. إنها تشعر بالدفء في بيتها على الأقل. أما أنا... أما أنا... إلى أين أذهب؟ أو– أو– أو– أو– أو!..

– كوت – كوت – كوت! شاريك، يا شاريك... ما لك تنشج يا مسكين؟ من آذاك؟ أوه...

هبت ريح العاصفة الثلجية الجافة فهدرت البوابة، وعصفت في أذن الآنسة. ورفعت تنورتها حتى الركبتين، وعرت الأجربة العاجية اللون وشريط ضيق من ملابسها الدنتللا الداخلية غير المغسولة جيدا، واختنقت الكلمات في حنجرتها وغمرت الكلب بالثلج.

يا آلهي... يا له من طقس... أوه... وبطني تؤلمني... إنها اللحمة المملحة الفاسدة... اللحمة الفاسدة... ومتى ستحل نهاية هذا كله؟

خفضت الآنسة رأسها واندفعت مقتحمة العاصفة الثلجية، وشقت طريقها في البوابة، وصارت العاصفة في الشارع تلفها وتلفها وتتقاذفها، ثم دارت في لولب ثلجي واختفى أثرها. أما الكلب فقد بقي في فسحة عقد البناية، والتصق بالجدار البارد معانيا من الآلام في جنبه المسموط، وزفر وقرر بعزم أنه لن يذهب بعد هذا إلى أي مكان،

وليلق حتفه هنا في فسحة عقد البناية. لقد هدّه اليأس. وغمر روحه الألم والمرارة بقدر بالغ، وشعر بالخوف الشديد، حتى صارت الدموع الكلبية الدقيقة كالخرز تترقرق من عينيه ثم تجفّ لتوها. وتدلى الجنب المصاب مع كتل متجمدة متهرئة. ولاحت من بينها بقع حمراء بشعة ناجمة عن الحروق. ما أشد عقم وغباوة وقساوة الطهاة. لقد دعته "شاريك"[1]... أي "شاريك" هو! إن شاريك يعني الكروي والممتلئ والأحمق، والذي يأكل

عصيدة الشوفان، وينحدر من أبوين كريمين، أما هو - إنه كلب أشعث الشعر، وطويل الأرجل، وممزق الجلد، ومتسكع وهزيل الجسد، ومتشرد. وعموما شكرا على الكلمة الطيبة.

اصطفق باب المحل الساطع النور في الجهة المقابلة من الشارع، وظهر منه مواطن. مواطن بالذات، وليس رفيقا، وحتى وأغلب الظن أنه سيد. وحين اقترب بدا بجلاء أنه سيد.

أو تعتقد أنني أحكم عليه من معطفه؟ هراء. فإن الكثيرين من البروليتاريين أيضا يرتدون المعاطف. حقا، إن الياقات ليست ثمينة، ولا مجال للكلام عن ذلك، لكن قد يخطئ المرء لدى النظر إليهم من بعيد. غير أنني لا أخطئ في الحدس اعتمادا على العينين، سواء من قريب أم من بعيد. أوه - إن العين أمر عظيم الشأن. إنها كالبارومتر ويرى كل شيء - الرجل الصارم في قرارة نفسه، ومن يستطيع ركلي ببوز جزمته في ضلوعي بدون أي سبب، ومن يخاف من كل شيء. والوضيع الشأن الاخير يسرني أحيانا أن اعضه من لحمة ساقه. فما دام يخاف، إذن ليأخذ حقه. وما دام يخاف فهو جدير بالعضّ... ر- ر - ر... هاو - هاو...

---

(١) شاريك - الكرة الصغيرة بالروسية. المترجم.

عبر السيد الشارع بثقة في دوامة العاصفة الثلجية واتجه نحو فسحة عقد البناية. نعم، نعم، إن هذا الرجل كريم المحتد كما يبدو. فهذا لن يأكل قطعة لحم مملحة فاسدة، واذا ما قدموها له في مكان ما، فسيرفع عقيرته بالصراخ وسيكتب في الصحف: أنا فيليب فيليبوفيتش أطعمت أكلة مسمومة.

ها هو ذا يقترب أكثر فأكثر. إن هذا يأكل حتى الشبع ولا يسرق، وهذا لن يركلك بساقه، كما أنه لا يهاب أحدا، ولا يهاب أحدا لأنه شبعان دائما. إنه من رجال العمل الذهني. وله لحية فرنسية مدببة، وشاربان كثان وخطهما الشيب كما لدى الفرسان الفرنسيين، لكن تفوح منه رائحة كريهة وسط العاصفة الثلجية، إنها رائحة المستشفى. وكذلك رائحة السيجار.

أي شيطان، يا ترى، جاء به إلى تعاونية "سنتروخوز"! ها هو ذا بات قريبا مني... عما يبحث! أو - أو - أو - أو... ماذا بميسوره أن يشتري من المحل الحقير، ألا تكفيه محلات "أوخوتني رياد"[٢]؟ ما هذه؟ إنها نقانق. أيها السيد لو شاهدت مم تصنع هذه النقانق لما اقتربت من محل بيع المأكولات. أعطني إياها.

واستجمع الكلب بقايا قواه، وزحف بجنون من فسحة عقد البناية إلى رصيف الشارع. وطقطقت العاصفة الثلجية فوق رأسه مثل طلقة بندقية الصيد، وارجحت الحروف الضخمة للافتة القماشية المعلقة هناك "هل يمكنك استعادة شبابك؟".

ممكن طبعاً، إن الرائحة أعادت إليّ شبابي، وأنهضتني من على بطني، وحكت بموجات ملتهبة معدتي الخاوية على مدى يومين،

---

(٢) شارع في وسط المدينة حيث كانت محلات بيع المأكولات المختلفة. المترجم.

والرائحة التي غلبت روائح المستشفى، الرائحة السماوية للحم الخيل المفروم مع الثوم والفلفل.

كنت أشعر وأعرف أن النقانق موجودة في الجيب الأيمن لمعطفه الفرائي. ومرّ بمحاذاتي وصار فوقي، أوه، يا سلطاني! انظر إليّ. إنني أموت جوعا. إن روحنا الذليلة هي قدرنا الغادر.

وزحف الكلب على بطنه كالثعبان، وقد اغرورقت عيناه بالدموع. ولسان حاله يقول: ألقِ نظرة على فعلة الطباخ. إنك لن تعطيني النقانق على أي حال. أوه، إنني أعرف حق المعرفة الرجال الاغنياء! وفي جوهر الأمر، ما حاجتك إليها؟ لأي غرض تحتاج إلى لحم الخيل العفن؟ ولن تحصل على مثل هذه السموم إلا في معامل مؤسسة "موسسيلبروم"[٣]، لكنك تناولت طعام الفطور اليوم، فأنت رجل شهير في العالم بفضل أبحاثك عن الغدد التناسلية للذكور. أو - أو - أو - أو... ماذا يحدث في هذه الدنيا؟ أظن أن من السابق للأوان أن أموت واليأس حرام فعلا. ولا يتبقى لي سوى أن ألحس يديه.

انحنى السيد الغامض على الكلب، وتألقت فوق عينيه النظارات الذهبية، وأخرج من الجيب الأيمن لفة طويلة بيضاء. وفك الرجل الورق دون أن ينزع قفازه البني، فحملت العاصفة الثلجية الورق فورا، وكسر قطعة من النقانق المسماة "الخصوصية من كراكوف"، وقدم تلك القطعة إلى الكلب. أوه، يا له من شخصية خالية من الطمع! أو - أو - أو!

- فيت، فيت، - صفر السيد وأردف بصوت حازم: خذ! شاريك، شاريك!

---

(٣) مؤسسة معالجة منتجات الصناعات الزراعية بموسكو. المترجم.

شاريك مرة أخرى. بأي اسم نعتوني. لكن ادعوني بأي اسم تريدون. أنا قانع مقابل هذه الفعلة الخيرة للغاية.

مزق الكلب القشرة في لحظة خاطفة، وقضم نقانق "كراكوف" بنشيج، وابتلعها في لمح البصر. فاختنق عندئذ بالنقانق وبالثلج حتى سحّت الدموع من عينيه. لأنه كاد أن يبتلع لجشعه الحبل المشدود عليها. أعطني المزيد، أعطني المزيد، إنني ألحس يدك مرة أخرى. وأقبل سروالك يا فاعل الخير.

قال السيد بلهجة متقطعة، وكأنه يأمره:

– كفى، الآن.

ثم انحنى على شاريك وأمعن النظر فيه، وعلى حين غرة أمرر يده ذات القفاز على بطن شاريك بمودة ولطف. ونبس بلفظة ذات مغزى:

–آها، هو بدون طوق في عنقه. شيء ممتاز، أنت بالذات من أحتاج إليه. هيا اتبعني.

وطقطق بأصابعه. – فيت، فيت.

هل اتبعك؟ من كل بد، حتى إلى آخر الدنيا. واركلني بحذاءيك اللباديين، فلن تبدر مني كلمة احتجاج.

كانت المصابيح تتألق في شارع بريتشيستينكا بأجمعه. وآلام الجنب لا تطاق، لكن شاريك كان ينساها أحيانا، وقد اعتملته فكرة واحدة – ألا يضيع وسط الزحام الرؤية الرائعة الملتفعة بمعطف من الفراء، وأن يظهر له بصورة ما المحبة والوفاء. وقد أعرب عنها نحو سبع مرات على امتداد الشارع حتى زقاق أوبوخوف. فلثم حذاءه، وعند زقاق ميورتفي شق طريقه بعداء وحشي أثار فزع سيدة ما مما جعلها تتهاوى على الدكة، وأصدر عويلا مرتين بغية استثارة الشفقة عليه.

وانطلق من خلف أنبوب تصريف المياه قط متشرد – له مظهر حقير ويشبه القطط السيبيرية. وكان بالرغم من العاصفة الثلجية تشمم رائحة نقانق "كراكوف". واعتمل شاريك غيظ عنيف لدى التفكير في أن السيد الغني الغريب الأطوار الذي يحنو على الكلاب الجريحة الراقدة في فسحة عقد البناية، لربما سيأخذ معه هذا اللص أيضا. ويتعين عليه عندئذ أن يشاركه منتوج مؤسسة "موسسيلبروم". لذلك كشر عن أنيابه أمام القط مهددا بشكل جعل ذاك يتسلق الأنبوب إلى الطابق الثاني، مطلقا فحيحا يشبه الفحيح الصادر عن خرطوم مثقوب. – ف – ر – ر – ر... هاو! وليّ. لن تكفي احتياطيات "موسسيلبروم" لإطعام أصناف الشحاذين أمثالك الذين يتسكعون في شارع بريتشيستينكا.

وقد ثمّن السيد هذا الوفاء، فأكرم الكلب بقطعة نقانق أصغر يبلغ وزنها نحو خمسة غرامات، حين بلغا مبنى فريق الإطفاء عند نافذة كان ينبعث منها عزف لطيف على آلة الفالتورنا.

ايه، يا لك من غريب الأطوار. إنه يغريني، لا تقلق! فأنا نفسي لن أذهب إلى أي مكان. سأمضي وراءك إلى أي مكان تأمر.

– فيت – فيت – فيت. تعال إلى هنا!

إلى زقاق أوبوخوف؟ تفضل. أنا أعرف حق المعرفة هذا الزقاق.

– فيت – فيت –فيت.

إلى هنا؟ بكل ارتيا... آه، كلا، أرجوك. لا. هنا يقف بواب. ولا يوجد في الدنيا من هو أسوأ منه. إنه أكثر خطرا من الكناس بمرات كثيرة. إنه من سلالة بغيضة تماما. وأحقر من القطط. إنه جلاد حيوانات يرتدي بزة مزركشة بالقصب.

– لا تخف، تعال.

– مرحبا، يا فيليب فيليبوفيتش.

– مرحبا، يا فيودور.

هذا شخصية محترمة فعلا. يا آلهي، إلى من حملتني الأقدار أنا الكلب! ما هذا المحترم الذي بوسعه أن يُدخل الكلاب المشردة إلى مبنى التعاونية السكنية متفاديا البوابين؟ انظروا إلى هذا النذل – لم تبدر منه كلمة ولا حركة! حقا، إن العبوس يتجلى في عينيه. لكنه غير مبال عموما، ويقف ببزته المزركشة وقبعته الموشاة بإطار ذهبي، كما لو أن الأمر مألوف لديه. إنه يحترمه، يا سادة، وما أكثر احترامه له. حسنا، إنني سأرافقه وأمشي خلفه. ماذا، هل سأمضي معه؟ هاك مني شماتة. لكم أتمنى لو أعض ساق هذا البروليتاري ذات المسامير، عقابا على جميع إذلالكم لي. فما أكثر ما ضربتموني على بوزي بفرشاة التنظيف، ها؟

– امش، امش.

مفهوم، مفهوم. لا تزعج نفسك. سأرافقك إلى حيث تذهب. فقط أرني الطريق، ولن أتخلف عنك. بالرغم من جنبي المصاب. يخاطب الرجل من السلم إلى الأسفل:

– ألم ترد لي رسائل يا فيودور؟

من الأسفل إلى السلم:

–لا يا فيليب فيليبوفيتش (بلطف، وبشبه همس في أعقابه). لقد تم إسكان رفاق تعاونيين في الشقة الثالثة.

التفت فاعل الخير الوقور إلى الوراء بشدة، ومال على سياج السلالم وسأل بفزع:

– حقا؟

وجحظت عيناه، وانتصب شعر شاربيه.

رفع البواب رأسه من تحت ووضع راحة يده على شفتيه وأكد بقوله:

– بالضبط، أربعة أفراد تماما.

– يا آلهي. أنا أتصور ما سيحدث الآن في الشقة. وماذا يفعلون؟

– لا شيء.

– وفيودور بافلوفيتش؟

–لقد ذهب لجلب الحواجز والطوب. سيقيمون حواجز في الغرف. الشيطان وحده يعلم ما سيكون.

–سيتم إسكان الأهالي في جميع الشقق باستثناء شقتك. لقد عقد اجتماع قبل قليل. وتم انتخاب لجنة تعاونية جديدة، أما القديمة فقد طردت.

–أية أحداث تدور. أي – أي – أي !... فيت – فيت.

أنا ذاهب. لدي أشغال مستعجلة. إن جنبي كما ترون يؤلمني. اسمح لي بلحس الجزمة.

اختفت الزركشة بالقصب لبزة البواب في الأسفل. وأحسست بدفء الأنابيب فوق الفسحة المرمرية للسلالم، واستدرنا مرة أخرى وها قد بلغنا الطابق الثاني.

٢

لا حاجة البتة لتعلم القراءة، حين أستطيع أن أتشمم رائحة اللحم بكل بساطة من على بعد فرسخ واحد. مع هذا فإذا كنت تسكن في موسكو، ولديك ولو قدر قليل من الفطنة، فإنك ستتعلم القراءة والكتابة سواء شئت أم أبيت، علما أن هذا يتم بدون أية دورات تعليمية. فمن مجموع أربعين ألف كلب بموسكو، تجد غبيا واحدا تماما فقط يعجز عن تجميع حروف كلمة "نقانق".

بدأ شاريك التعلم اعتمادا على الألوان. وحالما بلغ شهره الرابع، وكانت تعلق في موسكو كلها لافتات خضراء ضاربة إلى الزرقة كتب عليها "تجارة اللحم". وأكرر ألا حاجة إلى هذا كله، لأن رائحة اللحم تفوح في المكان أصلا. لكن حدث خطأ مرة واحدة: إذ عندما بلغ شاريك اللون الأخضر الضارب إلى الزرقة، وكانت حاسة الشم لديه قد خمدت بسبب رائحة البنزين المنبعثة من محرك سيارة، دخل دكانا لبيع التجهيزات الكهربائية لأصحابه "الإخوان غولوبيزنير" والواقع في شارع مياسنيتسكايا. وهناك شاهد الكلب لدى الإخوان الأسلاك المعزولة، وهي أسوأ من سوط الحوذي. ويجب اعتبار هذه اللحظة بداية تعليم شاريك. وقد بدأ شاريك لتوه على الرصيف يدرك أن الأزرق لا يعني دوما "منتجات لحوم"، وصار، وهو يخفي ذنبه بين ساقيه الخلفيين من الألم ويعوي، يتذكر أنه في جميع محلات بيع اللحم يبدو على اليسار بهيئة ملتوية شيء بلون ذهبي وأحمر شبيه بالزحافة. ثم مضت الأمور بنجاح أكبر. لقد تعلم حرف "ك" في عبارة "هيئة الأسماك" عند ناصية شارع موخوفايا، ثم حرف "م" - كان الأيسر له متابعته من نهاية كلمة "سمك"، لأن رجل الميليشيا كان واقفا عند بداية الكلمة.

وكان يعرف من المربعات التي تكسي جدران المحلات الكائنة في الناصية بشوارع موسكو أنه هناك يباع دائما وحتما "جـ - بـ - ن". ويتصدر الكلمة خطاف يعني الحرف الأول من اسم صاحب المحل جيجكين. وهناك أكوام من الجبن الهولندي الأحمر الغلاف، والباعة الهمج الذين يكرهون الكلاب، ونشارة الخشب على الأرضية وجبن (باكشتين) النتن الرائحة.

وإذا ما كان أحدهم يعزف على الأرمونيكا شيئاً ما أفضل قليلا من لحن "حبيبتي عايدة"، وتنبعث من المحل رائحة النقانق المغلية فإن الأحرف الأولى على اللافتات البيض تتجمع بشكل مريح في كلمة "غير محتشمة"، مما يعني وجوب عدم إطلاق فاحش الكلام وعدم تقديم البقشيش. وفي بعض الأحيان كانت تندلع المشاجرات هناك، ويتبادل الأشخاص اللكمات بالقبضات، حقا ان هذا نادر، لكن رفس الكلاب كان يجري دائما.

وإذا ما علقت في الواجهات قطع لحم الخنزير المقدد غير الطازجة ووضعت فاكهة اليوسفي... ما - ما - فهو محل مأكولات ومقبلات. وإذا ما وجدت القناني القاتمة اللون الحاوية على سائل رديء الرائحة. نـ.. بـ.. يـ.. ذ.. فهو محل الأخوين يليسييف سابقا.

دق الجرس الرجل المجهول الذي اقتاد الكلب إلى باب شقته الفاخرة الكائنة في الطابق الثاني. أما الكلب فقد رفع عينيه لحظتئذ إلى لوحة كبيرة سوداء نقشت عليها عبارة بأحرف ذهبية وعلقت إلى جانب الباب ذي الزجاج الوردي المتموّج. وقد جمع فورا الأحرف الثلاثة الأولى: "ب - ر - و" لكن بعد هذا نقشت صورة حقارة بدينة ذات بطنين[٤] لا يعرف معناها "هل هي بروليتاري". هذا ما فكر

---

(٤) المقصود بها حرف (Ф) الروسي و(ف) العربي، والاسم المكتوب هو - البروفيسور. المترجم.

فيه شاريك بعجب. "مستحيل ذلك". ورفع أنفه إلى الأعلى وتشمم المعطف مرة أخرى، ودار في خلده بثقة "لا، لا توجد هنا رائحة بروليتاري". "كلمة علمية، الله يعلم ما معناها".

أضاء وراء الزجاج الوردي نور بهيج مفاجئ، مما جعل اللوحة تبدو أكثر قتامة. وفتح الباب على مصراعيه بلا ضجيج، وبدت أمام الكلب وسيده شابة حسناء ترتدي صديرية بيضاء وعلى رأسها قلنسوة من دنتلا خفيفة. ووهبت أولهما دفئا سماويا، وفاحت تنورة المرأة بعبير سوسن الغابة.

وفكر الكلب في قرارة نفسه:

"هذا رائع، هذا جدير بالإعجاب".

ودعاه السيد ساخرا بقوله:

–تفضل أيها السيد شاريك.

فدخل شاريك باحترام هازا ذنبه.

كانت غرفة المدخل مليئة بأشياء كثيرة. وعلى الفور انطبعت في ذاكرته مرآة تصل إلى الأرضية، عكست صورة شاريك آخر مهترءا وبائس الهيئة، وقرون آيل معلقة في الأعلى، وعدد كبير من معاطف الفراء والكالوشات وتدلت من السقف زهرة خزامى بيضوية تضاء بالكهرباء.

سألت المرأة مبتسمة:

–أين وجدته يا فيليب فيليبوفيتش؟

وساعدت السيد في نزع معطف الفراء الثقيل ذي البطانة المصنوعة من فراء الثعلب الأسود الذي تنبعث منه شرارات ضاربة إلى الزرقة، – يا آلهي، لكم هو أجرب؟

فسأل السيد بصرامة وبلهجة متقطعة:

– هراء ما تقولين، أين هو الجرب؟

وحين نزع المعطف ظهر في بدلة سوداء من الجوخ الانكليزي، ولمعت سلسلة ذهبية على بطنه لمعانا بهيجا وغير ساطع.

–مهلا، لا تتحرك، فيت... لا تتحرك، أيها الأحمق الصغير... هِمْ..هذا ليس جربا... مهلا، يا للشيطان. هِمْ ! أها – أها.. هذه حروق. أي نذل سكب عليك الماء المغلي؟ ها؟ قف، بلا حراك.

ونبر الكلب بعينين شاكيتين، وعوى قليلا:

"الطاهي المجرم، الطاهي".

فأمر السيد قائلا:

– زينا، خذيه إلى غرفة المعاينة فورا، وأعطني الصديرية.

صفرت المرأة وطقطقت بأصابعها فتبع الكلب أثرها بعد هنيهة من التردد. فولجا الاثنان ممرا ضيقا خابي النور، وعبرا بابا صقيلا، وبلغا نهاية الدهليز ثم مشيا نحو اليسار ودخلا غرفة صغيرة معتمة لم تعجب الكلب فورا بسبب رائحتها الكريهة. وزالت العتمة بعد صوت قرقعة وحل محلها نور نهار ساطع، كما لمعت وتألقت ونصعت الأشياء من كافة الأنحاء. وعوى الكلب في دخيلة نفسه: "ايه، لا، العفو، لن أسمح لكم. أفهم، ليأخذهم الشيطان مع نقانقهم تلك. لقد جاءوا بي إلى مستوصف للكلاب. ويسرغموني الآن على تناول زيت الخروع، وسيقطعون جنبي كله بالمشارط، في حين أن مسه غير ممكن أصلا!".

وصاحت تلك التي اسمها زينا:

– ايه، لا، إلى أين؟

فانتزع الكلب نفسه من قبضتها ولوى جسده متوترا، وفجأة ضرب الباب بجنبه السليمة بشكل جعل صوت الضربة يتردد في الشقة كلها. ثم اندفع راجعا ودار حول نفسه كالخذروف فأسقط الدلو الأبيض على الأرض والذي تطايرت منه لفات القطن. وفيما كان يدور حول نفسه بدا وكأن الجدران تدور سوية معه، بما وضعت إلى جانبها من خزانات تحتوى على الأدوات اللامعة، وتقافزت أمامه الصديرية البيضاء، ووجه المرأة الذي أصبح مشوها.

وصرخت زينا بصوت عال:

- إلى أين أنت ذاهب يا إبليس الاشعث... أيها الملعون!

وفكر الكلب:

"أين توجد السلالم الخلفية هنا؟"

واستجمع قواه وضرب وضرب الزجاج بكامل جسده، آملا في أن يكون الباب الثاني هناك. وتطايرت سحابة الشظايا مولدة طقطقة وصليلا، وقفزت علبة زجاجية مدورة فيها قذارة حمراء، انسكبت في لحظة على الأرضية وتعالت رائحتها الكريهة. ثم فتح الباب الحقيقي.

صاح السيد قافزاً في صديريته التي لبس كمّا واحداً فيها:

- قف، يا بهيمة.

ثم أمسك بالكلب من أرجله وقال:

- زينا، أمسكي من تلابيبه.

- يا أبتاه، يا له من كلب!

وفتح الباب أوسع ودخل آخر يرتدي صديرية، واندفع ماشيا فوق الزجاج المحطم ليس إلى الكلب بل إلى الخزانة، وفتحها فملأت الغرفة كلها رائحة حلوة وتبعث على الغثيان. ثم جثم الرجل فوق الكلب

ببطنه، علما ان الكلب عضّه في ساقه، بأعلى خيوط جزمته بولع. فتأوه الرجل لكن لم يرتبك. واستولى السائل الباعث على الغثيان على أنفاس الكلب، وأصاب رأسه الدوار، ثم ارتخت أرجله وانهار جانباً في مكان ما. "شكراً، إنها النهاية، – دار ذلك في قرارة نفسه حالماً وراقداً على شظايا الزجاج الحادة: – وداعا يا موسكو، ولن أرى بعد هذا جيجكين والبروليتاريين ونقانق كراكوف. سأنتقل إلى الجنة لقاء صبري الطويل، أنا الكلب. يا إخوان، يا جلادي الحيوانات، لماذا فعلتموها معي؟"

ولحظتئذ استلقى على جنبه تماماً وهمد.

عندما بعث الكلب من جديد، شعر بدوار خفيف وبشيء من التجشؤ في بطنه، أما جنبه فبدا وكأنه لا وجود له، ولزم الصمت بوداعة، وفتح الكلب العين اليمنى الناعسة ورأى بطرفها أن الضمادات تلتف بشدة على امتداد جنبيه وبطنه. "مع هذا فعلوها يا أبناء الكلاب، – فكر في هذا والغشاوة تغمر ذهنه، – لكن بشطارة ولا بد من إنصافهم".

وأنشد فوقه صوت شارد الفكر ونشاز:

–"من اشبيليا إلى غرناطة... في حلكة الليل الهادئة"(٥).

فدُهش الكلب، وفتح كلتا عينيه تماماً، وشاهد على بُعد خطوتين منه ساق رجل تستند على الطابورية البيضاء، وكان السروال والكلسونات عليها مرفوعة، وبدت بطانتها العارية الصفراء ملطخة بالدم الناشف واليود.

---

(٥) مقطع من ألحان سرينادا "دون جوان" للملحن تشايكوفسكي والكلمات للشاعر بوشكين. المترجم

ودار في خلد الكلب:

"فاعلو الخير، لا بد وأنني عضضته، هذه فعلتي. إذن سيضربونني".

– تنطلق ألحان السريناداو صليل السيوف! لماذا عضضت الدكتور يا متشرد؟ ها؟ لماذا حطمت الزجاج؟ ها؟

فشكا الكلب: أو – أو – أو...

– ارقد يا أهبل.

وسأل صوت رجالي عذب:

–كيف تسنّى لك يا فيليب فيليبوفيتش إغواء مثل هذا الكلب العصبي المزاج؟

ونزلت الكلسونات التريكو إلى الأسفل. وفاحت رائحة التبغ، ورنّت الأوعية الزجاجية في الخزانة.

– باللطف. إنها الوسيلة الوحيدة الممكنة في التعامل مع الكائن الحيّ. لا يجوز عمل شيء مع الحيوان بالإرهاب. مهما كان مستوى تطوره. لقد أكدت ذلك وأؤكده وسأواصل تأكيده. إنهم عبثا يتصورون أن الإرهاب سيساعدهم. لا، لا، لن يساعدهم، مهما كان أبيض أم أحمر أم حتى بنّيا! إن الإرهاب يشل الجهاز العصبي تماما. زينا! لقد اشتريتُ نقانق كراكرف من أجل هذا الوغد بمبلغ روبل وأربعين كوبيكا. فاعملي على إطعامه حين يكف عن التجشؤ.

وصلصل الزجاج الجاري جمعه بالمكنسة ولاحظ صوت نسائي بدلال:

– نقانق كراكرف! آلهي، كان يجب أن تشتري له نفايات من قسم بيع اللحم – بمبلغ عشرين كوبيكا. أما نقانق كراكرف فالأفضل أن أتناولها بنفسي.

- لتحاولي فقط. وسأريك كيف تتناوليها. إنها سم بالنسبة إلى معدة الإنسان. أنت فتاة ناضجة بينما تضعين في فمك أصناف القذارات. لن تجرأي على هذا! إنني أحذرك: لن نضيع الوقت معك لا أنا ولا الدكتور بورمنتال حين تصيبك نوبة ألم في البطن. "وسأدعو جميع من يقول إن هناك من تضارعك في الجمال..."

تردد رنين ناعم في تلك اللحظة بكافة أرجاء الشقة وكان يسمع من بعيد، من غرفة المدخل، لغط متواصل. كما دق جرس التلفون. واختفت زينا.

ترك فيليب فيليبوفيتش عقب سيكارته في الدلو، وزرر صديريته، وعدل شاربيه الكثين في المرآة المعلقة على الجدار. ودعا الكلب بقوله:

- فيت - فيت. لا بأس، لا بأس. سنذهب لاستقبال المرضى.

نهض الكلب على أرجله الواهنة وتأرجح وارتجف، لكنه استعاد عافيته بسرعة واقتفى أثر أطراف صديرية فيليب فيليبوفيتش المرفرفة، وقطع الكلب مرة أخرى الدهليز الضيق، لكنه شاهد عندئذ أنه كان مضاءاً بمصباح شديد النور معلق في السقف. وحين فتح الباب الصقيل ولج غرفة المكتب سوية مع فيليب فيليبوفيتش، فانبهر الكلب لما فيها من محتويات. وبادئ ذي بدء كانت الغرفة كلها تسبح في نور ساطع: إذ كانت المصابيح تضيء تحت السقف المزين بنقوش بارزة، وعلى المنضدة وعلى الجدار في الخزانات الزجاجية. وغمر النور جملة الأشياء الموضوعة هناك كلها، والتي كان أكثرها طرافة بومة ضخمة تقف على طرف قضيب.

وأمره فيليب فيليبوفيتش: ارقد.

وفتح الباب ذو النقوش المحفورة في الجهة المقابلة. ودخل ذاك الذي كان ضحية العضّة، وبدا عندئذ في النور الساطع وسيم الطلعة للغاية وشابا وبلحية مدببة الطرف، فسلم كشفا وقال:

–السابق...

وعلى الفور اختفى بلا ضجيج، أما فيليب فيليبوفيتش فقد أبعد أطراف صديريته وجلس في مقعد ضخم، واكتسب فورا مظهرا وقورا ومحترما للغاية.

"لا، ما هذا بمستوصف للحيوانات. إنني جئت إلى مكان آخر ما، – فكّر الكلب في قرارة نفسه بحيرة، واستلقى على السجاد المنقوش عند الديوان الجلدي الثقيل، – أما هذه البومة فسنستقصي أمرها..."

فتح الباب بخفة ودخل أحدهم أثار دهشة الكلب إلى حد جعله يهرّ، لكن بوجل للغاية...صه... باه... باه، ليس بمقدوري معرفتك يا صاحبي.

انحنى القادم بكل احترام وحيرة إلى فيليب فيليبوفيتش. ونبر مرتبكا:

– هيه – هيه... أنت ساحر يا دكتور.

وأمره فيليب فيليبوفيتش ونهض:

– انزع السروال يا صاحبي.

"يا إلهي، يا سيدي المسيح، يا له من فاكهة!" – بهذا فكر الكلب.

كان شعر رأس "الفاكهة" أخضر تماما. أما في القذال فكان بلون صدئ كالتبغ، وانداحت التجاعيد على محياه، لكن لون المحيا كان ورديا كالطفل، وساقه اليسرى لا تنطوي، ووجب جرجرتها على السجاد، لكن اليمنى كنت تقفز كما في لعبة الأطفال النطاطة. وتدلى حجر كريم من ياقة الجاكتة الفاخرة، وكان يلمع كالعين. وأثار هذا اهتمام الكلب حتى أن الغثيان قد فارقه.

ونبح قليلا:

- تياو - تياو!

- صه. كيف تنام يا صديقي؟

فقال الزائر بامتعاض وارتباك:

-هيه، هيه. هل نحن وحدنا يا بروفيسور؟ هذا شيء عسير على الوصف. "بارول دونير[٦] - لم أشهد على مدى ٢٥ عاما مثل هذا الأمر. - وبدأ الرجل بفك أزرار البنطلون، - هل تصدق يا دكتور في كل ليلة... أسراب من الفتيات العاريات. إنني معجب بهذه الحالة. أنت ساحر.

وحمحم فيليب فيليبوفيتش باهتمام:

- احم!

وصار يتطلع في حدقتي عيني الزائر.

في نهاية المطاف فك هذا الأزرار ونزع البنطلون المخطط، وبدت تحته كلسونات لا نظير لها، فقد كانت بلون عاجي وطرزت بصور قطط سوداء وفاحت منها الروائح العطرية.

و لم يطق الكلب صبرا على القطط فنبح نباحا شديدا جعل الرجل يتراقص في مكانه.

- آي!

- سأضربك، لا تخف، إنه لا يعضّ.

- "أنا لا أعضّ؟" - واعتلت الكلب الدهشة.

وأسقط الزائر مظروفا صغيرا من جيب البنطلون على السجادة،

---

(٦) كلمة شرف بالفرنسية. المترجم.

وبدت على المظروف صورة حسناء محلولة الشعر، وقفز الرجل وانحنى والتقطه واصطبغ وجهه بحمرة قانية.

وقال فيليب فيليبوفيتش محذرا بإصبعه علامة التهديد:

– خذ حذرك، على أي حال خذ بالك ولا تسرف.

وهمهم الرجل مرتبكا:

– أنا لا أسر...، – وواصل نزع ملابسه – إنني يا بروفيسور أفعل هذا على سبيل التجربة فقط.

فسأل فيليب فيليبوفيتش بحزم:

– وبعد، ما هي النتيجة؟

ولوح الرجل بيده منتشيا.

–إنني على مدى ٢٥ عاما، وأقسم لك يا بروفيسور، لم أشهد أمرا كهذا. كانت آخر مرة في عام ١٨٩٩ بباريس في ريو دي لا بيه.

– ولماذا أصبحت أخضر الشعر؟

وبدت على الزائر سمات الحزن.

– إنها "الجيركوست"[٧] اللعينة. لا يمكنك أن تتصور يا بروفيسور ماذا أعطاني هؤلاء العاطلون بدلا من الصبغة. انظر فقط، – همهم الرجل وعيناه تبحثان عن المرآة وأردف بغيظ أشد، – يجب اعطاؤهم علقة ساخنة عقابا على ذلك – وسأل ناشجا: ماذا ينبغي عليّ القيام به الآن يا بروفيسور؟

–أحم..احلق شعر رأسك حتى الصلع.

---

(٧) الجيركوست – شركة لإنتاج مواد التجميل. المترجم.

وهتف الزائر شاكيا:

لكنه سينمو أشيب مرة أخرى. علاوة على ذلك، فلن أستطيع عندئذ مد أنفي إلى مكان عملي، فأنا انقطعت عن العمل أصلا منذ ثلاثة أيام. ايه يا بروفيسور أتمنى لو أنك وجدت وسيلة لإعادة الشباب إلى الشعر أيضا.

وتمتم فيليب فيليبوفيتش:

– ليس دفعة واحدة، ليس دفعة واحدة يا عزيزي. ثم انحنى وصار يفحص بطن الزائر العارية بعينين متألقتين:

– حسنا، رائع. كل شيء على ما يرام تماما. إنني في الحقيقة لم أتوقع مثل هذه النتيجة. الكثير من الدماء والكثير من الغناء. البس يا صاحبي.

فواصل المريض الغناء بصوت متهدج: "أنا من أحلى الجميع"[٨]، وأخذ يرتدي ملابسه مبتهجا وجذلا. وعندما أكمل ارتداء ملابسه، صار يتقافز وينشر رائحة العطور وعدّ حزمة من الأوراق النقدية البيضاء وسلمها إلى فيليب فيليبوفيتش، وصافحه بحرارة من كلتا يديه.

وقال فيليب فيليبوفيتش:

– بوسعك عدم المجيء إليّ على مدى أسبوعين. لكن مع هذا أرجوك أن تلتزم الحذر.

وصاح من وراء الباب صوته الجذل:

– لتكن في غاية الاطمئنان، يا بروفيسور.

وضحك بعذوبة ثم اختفى.

---

(٨) شعر بوشكين. المترجم.

تردد رنين جرس متقطع في أرجاء الشقة، ففتح الباب الصقيل ودخل "المعضوض"، وسلم ورقة إلى فيليب فيليبوفيتش وأعلن بقوله:

-العمر مدون بشكل غير صحيح. أغلب الظن أنه ٥٤ - ٥٥. ونبضات القلب مكتومة غير واضحة.

واختفى وبدت محله سيدة ينبعث حفيف من ملابسها، تضع على رأسها قبعة شديدة الميلان جانبا، ويزين عنقها المجعد والمتهدل عقد من المجوهرات المتألقة. وتدلت تحت عينيها تجاعيد سوداء بشعة، أما خداها فكانا أحمرين كخديّ دمية. وبدت عليها علائم القلق البالغ.

فسألها فيليب فيليبوفيتش بصرامة جدا:

-أيتها السيدة، كم لك من العمر؟

ارتعبت السيدة، وحتى شحب محياها تحت قشرة الحمرة.

-أنا يا بروفيسور أقسم، لو عرفت أية دراما داهمتني!..

فكرر فيليب فيليبوفيتش بحزم أشد:

-كم لك من العمر، يا سيدتي؟

-كلمة شرف... حسنا، خمسة وأربعين..

وصاح فيليب فيليبوفيتش:

يا سيدة، الناس ينتظروني. لا تؤخريني، رجاء، فأنت لست الوحيدة!

انتفخ صدر السيدة بصورة جامحة.

-سأخبرك وحدك، باعتبارك من جهابذة العلم. أقسم لك أن هذا فظيع للغاية...

وسأل فيليب فيليبوفيتش بغيظ صارخا، ولمعت نظاراته:

- كم لك من العمر؟

فردّت السيدة متلوية من الفزع:

- واحد وخمسين.

وقال فيليب فيليبوفيتش متنفسا الصعداء وأشار إلى مقعد أبيض في ركن الغرفة:

- انزعي الكلسونات يا سيدة.

وتمتمت السيدة وهي تفك بأصابع مرتجفة مشابك ما على الحزام:

- أقسم لك يا بروفيسور، هذا ذنب موريتس... أنا أعترف لك كما لو كنت عند كرسي الاعتراف.

وأنشد فيليب فيليبوفيتش شارد الذهن:

- من اشبيليا إلى غرناطة...

ثم ضغط على المدوسة في المغسلة المرمرية. وانبعثت قرقرة الماء.

وقالت السيدة:

-أقسم لك بحق الرب! - وبانت بقع حمراء على خديها تحت البقع الاصطناعية، - أنا أعرف بأن هذا حبي الأخير. فهو نذل وأي نذل. أوه يا بروفيسور. إنه محتال في لعب الورق. وتعرف هذا موسكو بأسرها. كما أنه لا يفوت أية فتاة من خياطات الموضة. فهو ما زال في ريعان الشباب.

كانت السيدة تهمهم ونزعت من تحت التنورة ذات الحفيف الكلسونات المكرمشة. وأصابت عيني الكلب الغشاوة التامة، وانقلب كل شيء في عقله رأسا على عقب.

"ليأخذكم الشيطان" - جال ذلك في خاطره في شبه غيبوبة واضعا

رأسه على ساقيه واستسلم إلى الغفوة لخجله. - "إنني حتى لن أجهد نفسي في إدراك ما هذا الشيء، فإنني لن أفهم ذلك على أي حال".

واستيقظ لدى سماع رنين، ورأي فيليب فيليبوفيتش وقد ألقى بأنابيب لامعة ما. وكانت السيدة ذات البقعتين على خديها تتطلع بأمل نحو فيليب فيليبوفيتش. فعبس هذا بوقار، وبعد أن جلس إلى الطاولة دوّن شيئاً ما.

ثم أعلن قائلا: سأضع لك يا سيدتي مبيض قرود.

ورمقها بصرامة.

– آه، يا بروفيسور، هل أنه مبيض قرود حقا؟

فرد فيليب فيليبوفيتش بلا هوادة.

– نعم.

فسألت السيدة وقد أصابها الشحوب ووهن صوتها:

– ومتى ستجري العملية؟

– من اشبيليا إلى غرناطة... احم... في يوم الاثنين. سترقدين في المستشفى صباحا، ويتولى مساعدي إعدادك للعملية.

– آخ، إنني لا أريد الذهاب إلى المستشفى. ألا يمكن إجراؤها عندك يا بروفيسور؟

– المسألة أنني لا أجري العمليات في بيتي إلا في الحالات الاستثنائية للغاية وستكلف غاليا جدا – خمسمائة روبل.

– أنا موافقة يا بروفيسور!

بقبق الماء مرة أخرى، وتململت القبعة ذات الريش، ثم ظهر رأس أصلع كالطبق. وعانق فيليب فيليبوفيتش. كان الكلب قد استسلم

إلى غفوة، وزال عنه الغثيان، وراح يتمتع بجنبه الذي لم يعد يؤلمه وبالدفء، وحتى شخر، ولحق في رؤية جزء من حلم لذيذ: إذ تراءى له وكأنه انتزع حزمة ريش كبيرة من ذنب البومة... ثم عوى صوت منفعل فوق رأسه.

– أنا معروف كثيرا بموسكو يا بروفيسور! فما العمل؟

وصاح فيليب فيليبوفيتش مستنكرا:

– يا سادة، هذا غير ممكن! يجب أن يمسك المرء نفسه. كم عمرها؟

– أربعة عشر عاما يا بروفيسور. أتفهم أن كشف المسألة سيقضي على مستقبلي. فمن المتوقع أن أستلم بعد أيام مأمورية رسمية للسفر إلى الخارج.

– لكنني يا صديقي لست محاميا. انتظر عامين ثم تزوجها.

– أنا متزوج يا بروفيسور.

– آخ، يا سادة، يا سادة.

كان الباب ينفتح وتتغير الوجوه، وتصلصل الأدوات في الخزانة، وفيليب فيليبوفيتش يعمل بلا توقف.

وفكر الكلب في قرارة نفسه: "شقة فسق وفجور. لكن ما أروع الحياة هنا! يا ترى لأي غرض يحتاجني؟ هل من المعقول أنه يبقيني للعيش هنا؟ يا له من رجل غريب الأطوار. يكفيه أن يلمّح فقط فيحصل على أفضل كلب يثير الإعجاب! ولربما أنا جميل الهيئة. أظن أنني سعيد الحظ. أما هذه البومة فهي حقيرة... ووقحة".

استيقظ الكلب نهائيا في وقت متأخر من المساء حين توقف الرنين. وبالذات في اللحظة التي بدأ يدخل الباب زائرون من طراز خاص. وكان عددهم أربعة دفعة واحدة. وجميعهم في ميعان الشباب ويرتدون ملابس بسيطة جدا.

ففكّر الكلب متعجباً: "وماذا يريد هؤلاء؟"

راح فيليب فيليبوفيتش يستقبل الزائرين بلا بشاشة أبدا. كان يقف عند المكتب وينظر إلى القادمين نظرة قائد عسكري إلى الأعداء. وينفرج المنخران في أنفه الصقري. وصار القادمون يدوسون على السجاد.

قال أحدهم الذي كانت تعلو رأسه كومة من الشعر الكثيف المنتصب بنحو ربع أرشين[٩]:

– لقد جئنا إليك يا بروفيسور بشأن القضية التالية...

فقاطعه فيليب فيليبوفيتش بقوله ناصحا:

– عبثا يا سادة أن تخرجوا بدون كالوشات في مثل هذا الطقس. فأولا انكم ستصابون بالبرد، وثانيا إنكم لوثتم سجادي بالأوساخ، وجميع السجاد لدي فارسي.

لاذ صاحب كومة الشعر بصمت، وصار الأربعة جميعا يحملقون في فيليب فيليبوفيتش. واستمر الصمت على مدى بضع لحظات، و لم يعكره سوى صوت طقطقة أصابع فيليب فيليبوفيتش على الطبق المزخرف الموجود على الطاولة.

في نهاية المطاف نبر أصغرهم سنا، وله هيئة فارسية:

– أولا نحن لسنا سادة.

وقاطعه فيليب فيليبوفيتش:

– أولا هل أنت رجل أم امرأة؟

---

(٩) الأرشين يعادل ١٧ سم. المترجم.

وصمت الأربعة مرة أخرى وفغروا أفواههم. وفي هذه المرة ثاب الرجل الأول ذو كومة الشعر إلى رشده، وسأل بكبرياء:

– وما الفرق يا رفيق؟

واعترف الفتى الفارسي المظهر ذو الجاكتة الجلدية:

– أنا امرأة.

واصطبغ وجهها بالحمرة. وفي أعقابها احمر أيضا لأمر ما وجه أحد الزائرين – وهو فتى أشقر يرتدي قبعة فراء عالية.

فقال فيليب فيليبوفيتش بحزم:

– في هذه الحالة بوسعكِ عدم نزع القبعة، أما أنتم أيها السادة المحترمون فأرجوكم نزع غطاء الرأس.

وأعلن الأشقر نازعا القبعة:

– لست بسيد محترم بالنسبة لك.

وعاود الكلام الأسود صاحب كومة الشعر:

– لقد جئنا إليك...

– أولا من أنتم؟

وقال الأسود وهو يكظم غيظه:

–نحن الهيئة الجديدة للإدارة السكنية، أنا شفوندر وهي فيازيمسكايا وهو الرفيق بيستروخين و وكذلك الرفيق جاروفكين. وقد جئنا...

– هل أنتم من تم إسكانهم في شقة فيودور بافلوفيتش سابلين؟

فردّ شفوندر: نعم نحن.

هتف فيليب فيليبوفيتش يائسا ولوح بذراعيه:

– يا آلهي، لقد ضاعت بناية كالابوخوف.

فقال شفوندر باستنكار:

– ماذا يا بروفيسور، هل أنت تسخر منا؟

وصاح فيليب فيليبوفيتش:

– أية سخرية، إنني يائس تماما. ماذا سيحدث الآن للتدفئة البخارية؟

– هل أنت تهزأ بنا يا بروفيسور بريوبراجينسكي؟

– ما القضية التي جاءت بكم إليّ؟ قولوا بسرعة قدر الإمكان، إنني ذاهب إلى الغداء الآن.

فقال شفوندر بحقد:

– نحن هيئة الإدارة السكنية جئنا إليك بعد الاجتماع العام لساكني بنايتنا، وطرحت فيه قضية تكثيف ساكنيها...

وصرخ فيليب فيليبوفيتش:

– من طرح وأين؟ أرجو أن توردوا أفكاركم بوضوح أكثر.

– قضية التكثيف.

– كفى. أنا فاهم! أتعرفون أن شقتي أعفيت من أي تكثيف أو إعادة إسكان بموجب القرار المؤرخ في ٢١ أغسطس الماضي.

فرد شفوندر بقوله:

– نعرف ذلك، لكن الاجتماع العام بحث قضيتك وخلص إلى استنتاج مؤداه أنك تشغل إجمالا حيزا كبيرا للغاية من المسكن، كبيرا بصورة بالغة. فأنت لوحدك تعيش في سبع غرف.

وأجاب فيليب فيليبوفيتش:

– أنا أعيش وأعمل في سبع غرف، وأرغب أيضا في أن تكون لدي غرفة ثامنة. فأنا بحاجة إليها من أجل المكتبة.

فبهت الأربعة وقال الأشقر الحاسر الرأس:

–غرفة ثامنة؟ هيـ...هيه.. هذا طريف حقا.

وهتف الفتى الذي تبين أنه فتاة:

– هذا شيء عسير على الوصف.

– لدي غرفة لعيادة المرضى، وأحيطكم علما بأنها غرفة مكتبة أيضا، وغرفة طعام، وغرفة المكتب – ٣، وغرفو للمعاينة – ٤، وغرفة للعمليات – ٥. وغرفة نومي – ٦. وغرفة الخدم – ٧. وعموما إنها لا تكفي... وبالمناسبة ليس لذلك أهمية. إن شقتي معفية من إعادة الإسكان، انتهى الكلام. هل بوسعي الذهاب إلى الغداء؟

فقال الرابع الشبيه بالجُعل القوي البنية:

– عفوا...

لكن شفوندر قاطعه وقال:

–عفوا إننا جئنا للتحدث بصدد غرفتي الطعام والمعاينة بالذات. إن الاجتماع العام يرجوك أن تتخلى عن غرفة الطعام طوعا، وعلى أساس الانضباط في العمل. لا توجد غرفة طعام لدى أي أحد بموسكو.

وهتفت المرأة بصوت عال:

–حتى لدى أيسيدورا دونكان.

أصاب فيليب فيليبوفيتش إحساس ما، مما أدى إلى احمرار وجهه احمرارا خفيفا، و لم ينبس ببنت شفة، منتظرا ما سيحدث لاحقا.

وأردف شفوندر قائلا:

– وعن غرفة المعاينة أيضا. فيمكن اتخاذ غرفة المكتب كغرفة للمعاينة بكل يسر.

وتفوه فيليب فيليبوفيتش بصوت غريب ما قائلا:

–أوهو... وأين يتعين عليّ أن أتناول طعامي؟

فرد الأربعة جميعا:

–في غرفة النوم.

شابت حمرة وجه فيليب فيليبوفيتش مسحة رمادية، وقال بصوت مخنوق:

–أنا أتناول الطعام في غرفة النوم. وأطالع في غرفة المعاينة، وأرتدي ملابسي في غرفة استقبال المرضى، وأجري العمليات في غرفة الخدم، فيما أقوم بفحص المرضى في غرفة الطعام. من الممكن تماما أن أيسيدورا دونكان تفعل هذا بالذات. ولربما أنها تتناول وجبة الغداء في غرفة المكتب، وتذبح الأرانب في الحمام. ربما. ولكنني لست أيسيدورا دونكان!.. – وقد صرخ بهذا فجأة وغدا احمرار سحنته اصفرارا. – إنني سأتغدى في غرفة الطعام، وأجري العمليات في غرفة العمليات. أبلغوا ذلك إلى الاجتماع العام، وأرجوكم كل الرجاء العودة إلى شؤونكم، وأعطوني الفرصة لتناول طعامي حيث يتناوله جميع الناس العاديين الطبيعيين – في غرفة الطعام، وليس في غرفة المدخل أو غرفة الأطفال.

فقال شفوندر بانفعال:

–إذن يا بروفيسور، ونظرا لمقاومتك العنيدة، سنقدم شكوى ضدك إلى المراجع العليا.

وردد فيليب فيليبوفيتش:

-أها، هكذا؟

واكتسب صوته نبرة تأدب مريبة.

-لحظة، أرجوكم أن تنتظروا.

وجال في خلد الكلب: "يا له من فتى، إنه يشبهني تماما. أوخ، سيعضّهم الآن، وكيف سيعضّهم. أنا لا أعرف بعد - كيف سيفعل هذا، لكنه سيعضهم بقوة بالغة. إلى الأمـام، واهجم عليهم! فهذا المكتنز الساقين، يمكن أن يعضّ من فوق الجزمة، في الأوتـار تحت الركبة... ر - ر- ر...".

دق فيليب فيليبوفيتش آلة التلفون ورفع السماعة وقال فيها:

-أرجو... نعم... شكرا... أرجو استدعاء بيوتر ألكسندروفيتس رجاء. البروفيسور بريوبراجينسكي. بيوتر ألكسندروفيتس؟ يسرني جدا أن وجدتك. شكرا، إنني في تمام العافية. بيوتر ألكسندروفيتس، ستلغى عمليتك. ماذا؟ إنها ستلغى كليا. وكذلك جميع العمليات الأخرى. السبب هو أنني سأتوقف عن العمل بموسكو وفي روسيا عموما... لقد جاء إليّ الآن أربعة أشخاص، بينهم امرأة واحدة تتزين بزي رجال واثنان مسلحان بمسدسين، إنهم يرهبونني في شقتي بهدف استلاب قسم منها.

وراح شفوندر يقول وقد تغيرت سحنة وجهه:

- اسمح يا بروفيسور...

- العفو... لا توجد لدي فرصة لتكرار كل ما قالوه. أنا لست من هواة تكرار السخافات. يكفي القول أنهم عرضوا عليّ التخلي عن غرفة المعاينة. بعبارة أخرى إنهم فرضوا عليّ أن أجري لك العملية في

المكان الذي كنت فيه حتى الآن أشرّح الأرانب. في مثل هذه الظروف لا أستطيع بل ولا يحق لي العمل. لهذا فإنني أتوقف عن العمل، وأغلق الشقة وأسافر إلى سوتشي. بمقدوري تسليم المفاتيح إلى شفوندر. ودعه يجري هو العمليات.

تسمّر الأربعة في مكانهم. وذاب الثلج على جزمهم.

– ما العمل؟.. إن ذلك لا يسرّني كثيرا... كيف؟ أوه، لا يا بيوتر ألكسندروفيتس، أوه لا. لا أوافق على ذلك أكثر. لقد نفد صبري. إنها الحادثة الثانية منذ شهر أغسطس. كيف؟ أهم... كما يحلو لك. ولو على الأقل. لكن بشرط واحد، مع أي كان، وفي أي وقت كان، أي شيء كان، لكن على أن تكون ورقة لا يستطيع شفوندر ولا أي شخص آخر، لدى وجودها، حتى الدنو من باب شقتي. ورقة نهائية. حقيقية. حقيقية! تؤكد حصانة الشقة. وبغية حتى ألا يذكر اسمي. انتهى. إنني بالنسبة لهم ميت. نعم، نعم. أرجوك. مع من؟ أها... هذه مسألة أخرى. أها... حسنا. سأسلم السماعة الآن.

وقال فيليب فيليبوفيتش مخاطبا شفوندر بصوت كفحيح الأفعى:

– سيتحدثون معك الآن.

فقال شفوندر منفعلا تارة وهادئا تارة أخرى:

– مهلا، يا بروفيسور. لقد شوهت كلامنا.

– أرجو ألا تستخدم مثل هذه العبارات.

وتناول شفوندر السماعة بحيرة وارتباك ونبس:

– أنا سامع. نعم. رئيس اللجنة السكنية... لقد عملنا بموجب التعليمات... إن البروفيسور يتمتع أصلا بوضع استثنائي للغاية... ونحن نعلم بأبحاثه وتجاربه. لقد أردنا أن نبقي له خمس غرف كاملة... حسنا، ما دام الأمر كذلك، حسنا...

وضع السماعة بوجه محمر تماما وأشاح بوجهه.

وفكر الكلب بإعجاب:

"وكيف بصق عليهم! يا له من فتى! هل أنه يعرف كلمة سحرية ما؟ الآن، بوسعكم أن تضربوني كما تريدون، لكنني لن أغادر هذا المكان".

كان الثلاثة يتطلعون فاغري الأفواه إلى شفوندر.

ونبس هذا بلا جرأة:

- يا للعار!

وقالت المرأة بانفعال وقد اصطبغ وجهها بالحمرة:

- لو جرت الآن مناقشة لبرهنت عندئذ لبيوتر ألكسندروفيتش...

فسأل فيليب فيليبوفيتش في لطف:

- المعذرة، هل بودك بدء المناقشة في التو واللحظة؟

تألقت عينا المرأة وقالت:

- أنا أفهم سخريتك يا بروفيسور، سنذهب الآن. لكنني باعتباري رئيس القسم الثقافي للمسكن...

فصحّح فيليب فيليبوفيتش قولها:

- رئيسة القسم.

-أريد أن أعرض عليك، - وفي هذه اللحظة أخرجت المرأة من تحت ابطها عدة مجلات زاهية الألوان ومبللة نوعا بالثلج الذائب، - خذ عدة مجلات لمنفعة أطفال ألمانيا. سعر الواحدة - خمسين كوبيكا.

فرد فيليب فيليبوفيتش باقتضاب متطلعا شزرا إلى المجلات:

–لا، لن آخذها.

وبانت على وجوه الحاضرين الدهشة البالغة، بينما اصطبغ وجه المرأة بحمرة قانية.

–ولماذا ترفض؟

–لا أريد.

–هل أنت لا تتعاطف مع أطفال ألمانيا؟

–أتعاطف.

– هل تبخل بدفع خمسين كوبيكا؟

– لا.

– إذن ما السبب؟

– لا أريد.

ولاذ الجميع بالصمت. ثم قالت الفتاة بأنفاس ثقيلة:

– أتعرف يا بروفيسور، لو لم تكن من الشخصيات المعروفة في أوربا، ولو لم يدافعوا عنك بأسلوب منكر للغاية (سحب الرجل الأشقر طرف جاكتتها، لكنها لوحت بذراعها له) أشخاص لي ثقة بأننا سنتقصى حقيقتهم لوجب اعتقالك.

وسأل فيليب فيليبوفيتش بفضول:

– ولأي سبب؟

فقالت المرأة بكبرياء:

– أنت تحقد على البروليتاريا.

ووافق فيليب فيليبوفيتش:

– نعم، أنا لا أحب البروليتاريا.

ثم ضغط على زر الجرس. وتردد رنين في مكان ما، وفتح باب الدهليز وصاح فيليب فيليبوفيتش:

– زينا، هيئي طعام الغداء. أتسمحون لي يا سادة؟

خرج الأربعة من غرفة المكتب صامتين، ومضوا إلى غرفة الاستقبال بصمت، وإلى غرفة الدخول بصمت، وسمع كيف أغلق وراءهم الباب الخارجي بتثاقل وبصليل.

نهض الكلب قائما على رجليه الخلفيتين وأدى أمام فيليب فيليبوفيتش صلوات ابتهال ما.

٣

وضعت في أطباق نقشت برسوم ملائكية وذوات حواشي سوداء شرائح رقيقة من سمك حوت سليمان والحنكليس المخلل. وبدت على لوح ثقيل قطعة من الجبن المرصع بقطرات الطل. ووضع الكافيار في وعاء فضي يحيط به الجليد. وكانت توجد بين الأطباق عدة أقداح رقيقة وثلاث سراحيات بلّور فيها فودكا من شتى الألوان. وجميع هذه الأشياء رتبت فوق خوان مرمري صغير، يتصل بأناقة مع خزانة البوفيه المصنوعة من خشب البلوط المنقوش، تتألق فيها حزم من شعاع بلون البلور والفضة. وكانت توجد بوسط الغرفة مائدة ثقيلة كالواح القبور، تتلفع بغطاء أبيض، ووضعت فوقها لوازم الطعام لشخصين ومنديلان ملفوفان بهيئة تاج البابا وثلاث قناني قاتمة اللون. وحملت زينا وعاء فضيا بغطاء كان ينتصب فيه شيء ما وانبعث من الوعاء عبير جعل فم الكلب يمتلئ فورا باللعاب السائل. ودار في خلده "الجنائن المعلقة" وصار يلطم الباركيه بذنبه كالعصا.

وأمر فيليب فيليبوفيتش بجشع:

– هاتها. دكتور بورمنتال، أرجوك دع الكافيار وشأنه. وإذا أردت الإصغاء إلى نصيحة طيبة... فاسكب لا الفودكا الانكليزية بل الروسية العادية.

كان الرجل الوسيم "المعضوض" قد نزع الصديرية، وبدا في بدلة سوداء محترمة – فهزّ كتفيه العريضتين، وضحك بأدب وسكب سائلا رقراقا. وسأل:

– هل أنها من صنع السلطة "المباركة"؟

فرد صاحب البيت:

– حرام عليك، هذا كحول. إن داريا بتروفنا تعد نفسها الفودكا إعدادا ممتازا.

– لا تقل ذلك يا فيليب فيليبوفيتش، فالجميع يؤكدون على أنها ممتازة جدا، ٠٣ درجة.

وقاطعه فيليب فيليبوفيتش بلهجة معلم:

– أما الفودكا فيجب أن تكون ذات ٠٤ وليس ٠٣ درجة. هذا أولا، وثانيا، الله يعلم ماذا يخلطون فيها. هل بوسعك القول ماذا يدور في خاطرهم؟

ونبس "المعضوض" بثقة:

–كل شيء ممكن.

وأضاف فيليب فيليبوفيتش:

– هذا رأي أيضا، – وتجرع محتويات القدح دفعة واحدة،... م – م...، – يا دكتور بورمنتال، أتوسل إليك، خذ هذه الأكلة في لحظة خاطفة، وإذا ما قلت لي ما هي فإنني عدوك اللدود على مدى الحياة. من اشبيليا إلى غرناطة...

ومع هذه الأقوال غرز بنفسه شوكته الفضية العريضة في شيء ما شبيه بقطعة خبز صغيرة، وحذا "المعضوض" حذوه. فتألقت عينا فيليب فيليبوفيتش. وسأل وهو يمضغ اللقمة: – هل أنها رديئة المذاق؟ رديئة؟ أجبني أيها الدكتور المحترم.

فأجاب "المعضوض" بإخلاص:

– إنها أكلة لا نظير لها.

– طبعاً... ولاحظ ايفان أرنولدوفيتش، لا يأكل المقبلات الباردة والحساء سوى أصحاب الأطيان الذين لم يذبحهم البلاشفة. إن اي إنسان يحترم نفسه ولو قليلا يبدأ طعامه بتناول المقبلات الساخنة، وهذه تعتبر من خيرة المقبلات الساخنة بموسكو. وكانت تطهى في زمان بشكل رائع في مطعم "السوق السلافية". هاك، تفضل.

وتردد صوت نسائي يقول:

– لَمَ أنتَ تطعم الكلب في غرفة الطعام؟ فبعد ذلك لن يمكن طرده من هنا بأية صورة.

– لا بأس. لقد جاع المسكين.

وقدم فيليب فيليبوفيتش قطعة المقبلات إلى الكلب بطرف الشوكة، فالتقطها بخفة الحاوي. وألقى بالشوكة في وعاء به ماء. ثم تعالى من الطبقين بخار تفوح منه رائحة السرطان.

وكان الكلب جالسا في ظل غطاء المائدة يشبه حارسا عند مستودع بارود. أما فيليب فيليبوفيتش فقد دس طرف المنديل المتصلّب وراء ياقته وقال واعظا:

– إن الأكل يا ايفان أرنولدوفيتش مسألة تحتاج إلى فطنة وعلم. يجب على الإنسان أن يتعلم كيفية الأكل. وتصور أن غالبية الناس لا يحسنون تناول الطعام عموما. يجب أن يعرف الإنسان ليس ماذا يأكل فقط، بل ومتى وكيف. (وهزّ فيليب فيليبوفيتش الملعقة بحركة لها دلالتها). وماذا يجب التحدث عنه إبان تناول الطعام. نعم. وإذا ما كنت معتما لهضمك للطعام، فنصيحتي لك – لا تتحدث في أثناء الطعام عن البلشفية وعن الطب. ولا تقرأ، والعياذ بالله، الصحف السوفيتية قبيل الغداء.

– هِمْ... لكن لا توجد غيرها.

- إذن لا تطالع أي صحف. أتعرف أنني أجريت دراسة لثلاثين مريضا لديّ في العيادة. فماذا تظن؟ إن المريض الذي لا يطالع الصحف يكون في أتم عافية. أما الذين أرغمتهم خصيصا على مطالعة "البرافدا" فقد أصابهم الهزال.

ورد "المعضوض" باهتمام:

- هِمْ...

وكان وجهه متوردا بتأثير الحساء والنبيذ.

- زد على ذلك أن ردود الفعل في ركبهم ضعيفة وشهيتهم رديئة وحالتهم النفسية تتسم بالاكتئاب.

- يا للشيطان...

- نعم. ما هذا الذي أقوله. أنا نفسي صرت أتحدث عن الطب.

واستلقى فيليب فيليبوفيتش عل ظهر المقعد ودق الجرس فظهرت زينا من بين الستائر القرمزية. وحصل الكلب على قطعة سمك سلمون ثخينة وفاقعة اللون، لكنها لم تحز على إعجابه، وفي أعقاب ذلك حصل على قطعة من "الروست بيف" بالدم. وبعد أن التهمها الكلب، شعر بالرغبة في النوم، و لم يستطع أن يرى بعد هذا أي طعام. "أي إحساس غريب"، - جال هذا في خاطره محركا جفونه الثقيلة، - إن عينيّ ما كانتا لتلقيان بالا إلى أي طير. أما التدخين بعد الغداء فهو - سخافة".

وغمرت غرفة الطعام سحب الدخان الأزرق. وغفا الكلب واضعا رأسه على ساقيه الأماميتين.

وتناهى إلى سمع الكلب وهو نائم صوت يقول:

- إن "سان جوليان" نبيذ ممتاز، بيد أنه غير متوفر الآن.

وتردد غناء فرقة انشاد مكتوم، اخمدته قليلا السقوف والسجاجيد، من مكان ما في الأعلى ومن الجوانب.

فدق فيليب فيليبوفيتش الجرس، وجاءت زينا.

– زينوشا، ما معنى هذا؟

وأجابت زينا:

– إنهم عقدوا اجتماعا عاما مرة أخرى.

وهتف فيليب فيليبوفيتش:

– مرة أخرى! إذن، إنها البداية. لقد ضاعت بناية كالابوخوف. يجب أن أسافر، لكن السؤال – إلى أين. ستمضي الأمور كلها على أحسن ما يرام. في البداية غناء في كل أمسية، ثم ستتجمد أنابيب المراحيض، وبعد ذلك سينفجر مرجل التدفئة البخارية وهكذا دواليك. إنها نهاية كالابوخوف.

ولاحظت زينا مبتسمة:

– إن فيليب فيليبوفيتش يتكدر.

وحملت كومة الأطباق.

وهتف فيليب فيليبوفيتش:

– وكيف لا أتكدر؟! فأية بناية كانت هذه، أتدركين!

فعارضه الرجل الوسيم "المعضوض":

– أنت تنظر إلى الأشياء نظرة قاتمة للغاية يا فيليب فيليبوفيتش. إنها تغيرت الآن بحدة.

– يا صديقي، أنت تعرفني؟ أليس كذلك؟ أنا رجل حقائق، ورجل ثاقب البصر. أنا عدو التنبؤات غير المدعمة بالحجج. وهذا معروف

جيدا جدا ليس في روسيا فقط، بل وفي أروبا أيضا. ولئن قلت شيئاً فمعنى ذلك وجود حقيقة ما كأساس له، استخلص منها الاستنتاج. وإليك الحقيقة: المشجب ومسند الكالوشات في بيتنا:

– هذا طريف...

"هراء، كالوشات. السعادة لا تكمن في الكالوشات"، – فكر الكلب في سره، – "لكنه شخصية فذة".

– لنأخذ مسند الكالوشات. فأنا أعيش في البيت منذ عام ١٩٠٣. وطوال هذه الفترة وحتى مارس عام ١٩١٧ لم يحدث أبدا – أؤكد بالخط الأحمر – لم يحدث مرة واحدة أن ضاع حتى زوج واحد من الكالوشات من المجاز في بيتنا، في الأسفل، علما أن الباب المشترك كان مفتوحا دائما. ولاحظ، توجد هنا اثنتا عشرة شقة، ولديّ عيادة. ففي مارس عام ١٩١٧ اختفت في أحد الأيام جميع الكالوشات، وبضمنها زوج من كالوشاتي، وثلاث عصى، ومعطف وسماور البوّاب. ومنذ ذلك الحين كفّ مسند الكالوشات عن الوجود. يا صديقي، ناهيك الحديث عن التدفئة البخارية. فأنا لا أتحدث عنها. ليكن... وما دامت هناك ثورة اجتماعية فلا حاجة إلى التدفئة. لكنني أتساءل، لماذا صار الجميع بعد هذا الحدث يمشون فوق السلالم المرمرية في الكالوشات الوسخة والجزم اللبادية؟ ولماذا يجب وضع الكالوشات منذ ذلك الوقت في صندوق مقفل؟ علاوة على هذا يجب وضع جندي لحراستها كيلا يسرقها أحد. لماذا رفع السجاد من سلالم المدخل؟ فهل يمنع كارل ماركس وضع السجاد على السلالم؟ وهل أن ماركس يقول في مكان ما، إن من الواجب غلق المدخل الثاني من بناية كالابوخوف في شارع بريتشيسينكا بالألواح، والالتفاف حولها من أجل الدخول عبر المدخل الخلفي؟ من يحتاج إلى هذا كله؟ لماذا لا يستطيع البروليتاري إبقاء كالوشاته في الأسفل، بل يلطخ المرمر بالأوحال؟

وراح "المعضوض" يقول:

– لكنه يا فيليب فيليبوفيتش بدون كالوشات أصلا.

فرد فيليب فيليبوفيتش بصوت هادر:

–كلا، أبدا، – وسكب لنفسه النبيذ، – هِـمْ... أنا لا أعترف بتناول أصناف الليكور بعد وجبة الغداء. فهي تعسر الهضم وتؤثر تأثيرا سيئا على الكبد... كلا، أبدا، فهو يرتدي الكالوشات الآن. وهذه الكالوشات كانت تعود لي. إنها بالذات تلك الكالوشات التي اختفت في ربيع عام ١٩١٧. وأنا اتساءل: من سرقها؟ هل أنا سرقتها، هذا غير ممكن. هل سرقها البرجوازي سابلين؟ (وأشار فيليب فيليبوفيتش بإصبعه إلى السقف). من المضحك حتى التفكير بهذا. هل سرقها صاحب مصنع السكر بولوزوف؟ (وأشار فيليب فيليبوفيتش جانبا). كلا، أبدا! لقد فعل هذه الفعلة المنشدون أولاء. نعم! لكن دعهم ينزعوها قبل صعود السلالم (وعلت محيا فيليب فيليبوفيتش الحمرة). وأي شيطان جعلهم يرفعون أصص الأزهار من فسحات السلالم. ولماذا ينطفئ الكهرباء في الوقت الحاضر مرة في الشهر، بينما انطفأ على مدى عشرين عاما مرتين فقط كما أذكر. يا دكتور بورمنتال، إن الإحصاء شيء فظيع! وأنت تعرف هذا، لاطلاعك على عملي الأخير، خيرا من أي شخص آخر.

– إنه الخراب يا فيليب فيليبوفيتش.

فعارضه فيليب فيليبوفيتش بكل ثقة:

– لا، لا، يجب عليك أولا، يا عزيزي ايفان أرنولدوفيتش، أن تمتنع عن استخدام هذه الكلمة نفسها. إنها سراب، ودخان، وخيال، – ونشر فيليب فيليبوفيتش أصابعه القصيرة في حركة واسعة فتململ فوق غطاء المائدة شبحان من الظل شبيهان بسلحفاتين، – وما معنى

الخراب لديك؟ هل انها عجوز بعصا؟ هل انها ساحرة حطمت جميع الزجاج وأطفأت جميع المصابيح؟ إنها غير موجودة أصلا. فماذا تقصد بهذه الكلمة؟، – سأل فيليب فيليبوفيتش محتدما البطة الورقية التعيسة المعلقة رأسا على عقب إلى جانب خزانة البوفيه، ثم ردد نفسه بدلا عنها: – إنها تعني ما يلي: إذا ما عمدت في كل مساء، بدلا من إجراء العمليات إلى ممارسة الغناء في جوقة داخل شقتي، فسيحلّ بي الخراب. وإذا ما دخلتُ المرحاض وأخذت أبول – وأرجو المعذرة على هذا القول – جانبا، كما وتفعل الشيء ذاته زينا وداريا بتروفنا فسيبدأ الخراب في المرحاض. إذن، فالخراب ليس في المراحيض بل في الرؤوس. إذن، حين تأخذ أصوات الغناء الجهورية هذه بالصراخ: "اقضوا على الخراب" – فإنني أضحك. (إلتوت سحنة فيليب فيليبوفيتش بشكل جعل "المعضوض" يفغر فاه). إنني أقسم لك بأن هذا شيء مضحك! ومعنى هذ أن من واجب كل واحد منهم توجيه صفعة إلى قفاه! وعندما سيطرد من دماغه جميع هذه الأوهام، ويبدأ بتنظيف العنابر الملحقة بالبيت – بعمله المباشر نفسه – فإن الخراب سيزول بحد ذاته. لا يمكن عبادة آلهين اثنين! ومن المستحيل القيام في آن واحد بكنس طرق الترام وبتدبير شؤون المشردين الإسبان المزعومين! فهذا ما لا يستطيعه أي أحد. لا سيما الناس الذين تخلفوا عموما في تطورهم عن الأوربيين بنحو مائتي عام، وما برحوا يزررون بنطلوناتهم أنفسهم بدون ثقة تماما.

واعتمل الحماس روح فيليب فيليبوفيتش. وانفرج منخراه الكاسران. وكان قد استجمع قواه بعد وجبة الطعام الدسمة فصار يهدر مثل نبي من أنبياء الأيام الغابرة، وتألق رأسه بلون فضي.

كانت عباراته تنهال على الكلب الناعس، مثل هزيم رعد آت من تحت الأرض. وكانت البومة تنبجس تارة بعينيها الصفراوين،

في رؤيا يراها في الحلم، وتارة أخرى يتراءى له بوز الطباخ الدنيء، المعتمر طرطورا أبيض وسخا، وتارة ثالثة ينبجس مشهد شارب فيليب فيليبوفيتش المنتصب والمضاء بنور الكهرباء الشديد المتساقط من الأباجور، وتارة أخرى تتراءى زحافة ذات صرير ثم تختفي، فيما كانت تفور في معدة الكلب قطعة "الروست بيف" الممزقة في العصارة الهضمية.

"كان بوسعه كسب النقود في الاجتماعات مباشرة - حلم الكلب بغموض، - إنه رجل أعمال ممتاز. بالمناسبة، يبدو أن لديه أصلا أموالا لا تعد ولا تحصى".

صاح فيليب فيليبوفيتش:

- الشرطي، الشرطي ! " - أوهو - هو - هو !" - فقست فقاعات ما في مخ الكلب -... الشرطي، الشرطي فقط ينقذ الوضع. ولا يهم البتة فيما إذا كان يضع شارة على صدره أم يعتمر قبعة حمراء. ويجب وضع شرطي إلى جانب كل شخص، وإرغام هذا الشرطي على قياس ولع مواطنينا بالغناء. أنت تقول، خراب. وأنا أقول لك يا دكتور، إن ما من شيء سيتغير نحو الأفضل في بيتنا وكذلك في أي بيت آخر، حتى يتم ترويض هؤلاء المنشدين! وحالما يوقفون حفلاتهم الغنائية سيتغير الوضع إلى الأحسن بحد ذاته.

ولاحظ "المعضوض" مازحا:

- أنت تقول كلاما مضادا للثورة يا فيليب فيليبوفيتش، عسى ألا يسمعك أحد.

فعارض فيليب فيليبوفيتش بحماس:

- ليس ثمة أي خطر. ولا أية ثورة مضادة. بالمناسبة، هذه كلمة أخرى لا أطيقها البتة - فلا يعرف إطلاقا ماذا يكمن وراءها؟ الشيطان

وحده يعرف! وهذا ما أقول: لا وجود لأية ثورة مضادة في كلامي. ففيه يكمن التفكير السليم وخبرة الحياة.

لحظتئذ استخرج فيليب فيليبوفيتش من تحت ياقته طرف المنديل، وكرمشه ثم وضعه إلى جانب قدح النبيذ الذي لم يكمل شربه. أما "المعضوض" فقد نهض على الفور، وشكره بقوله "ميرسي".

وأوقفه فيليب فيليبوفيتش:

– لحظة يا دكتور، – وأخرج محفظة النقود من جيب البنطلون. وخزر عينيه وعدّ مجموعة من الأوراق البيض ومدّها إلى "المعضوض" قائلا: – إن حصتك اليوم، يا ايفان أرنولدوفيتش، هي – أربعون روبلا. تفضل.

فشكره "المصاب بعضة الكلب"، ودس النقود في جيب الجاكتة وقد علت محياه الحمرة. واستفسر بقوله:

– هل تحتاجني مساء اليوم، يا فيليب فيليبوفيتش؟

– لا، شكرا يا صاحبي. لن نعمل شيئاً اليوم. فأولا، إن الأرنب نفق، وثانيا، تقدم في مسرح البلشوي اليوم أوبرا "عايدة". وأنا لم استمع إليها منذ وقت طويل. أنا أحبها... أتذكر؟ الثنائي... تاري - را – ريم.

وسأل الطبيب باحترام:

–كيف يتسنى لك اللحاق بعمل هذا كله، يا فيليب فيليبوفيتش؟

–يلحق في كل مكان ذاك الذي لا يعجل في الذهاب إلى أي مكان، – أوضح رب البيت قائلا، – طبعاً لو أنني صرت أروح وأجيء إلى الاجتماعات وأمضي اليوم كله في الغناء كالعندليب، فبدلا من ممارسة عملي المباشر لن ألحق بعمل شيء، – وانبعثت الموسيقى في

ساعة الجيب حين ضغطت عليها أصابع فيليب فيليبوفيتش، – إنها بداية الساعة التاسعة... سأذهب لدى بدء الفصل الثاني. أنا من أنصار تقسيم العمل. دعهم يغنون في البولشوي، أما أنا فسأجري العمليات الجراحية. وهكذا، سيكون كل شيء على ما يرام. ولن يحدث أي خراب... اسمع يا إيفان أرنولدوفيتش، مع هذا تابع باهتمام.. وحالما تحدث حالة وفاة مناسبة، لتضعها في السائل المغذي وتأتي بها إليّ!

– لا تقلق يا فيليب فيليبوفيتش. لقد وعدني أطباء التشريح بذلك.

– أما نحن فسنراقب هذا المشرد الواهن الأعصاب. ودع جنبه يلتئم.

"إنهم يعنون بأمري – فكر الكلب في سرّه، – إنه رجل طيب جدا. أنا أعرف من هو. إنه ساحر، ساحر شيطاني ورد ذكره في حكاية للكلاب... إذ لا يعقل بأنني رأيت ما رأيت في الحلم. وماذا لو تبين لي فجأة أنه حلم؟ (وجفل الكلب في نومه) وإذا بي أعود إلى اليقظة فلا أجد شيئا. لا نور المصباح المكسي بالحرير، ولا الدفء والشبع. وتبدأ مرة أخرى الحياة في فسحة مدخل الفناء، والزمهرير الشديد، والأسفلت المتجلّد، والجوع، والناس الأشرار... المطعم العمومي، الثلوج... يا آلهي، كم ستكون حياتي صعبة!.. "

لكن لم يحدث شيء من هذا، فقد اضمحلت فسحة مدخل الفناء كحلم كريه شنيع و لم ترجع إلى ذاكرته مرة أخرى.

يبدو أن الخراب لم يكن رهيبا إلى ذلك الحد. فبالرغم منه كانت بطاريات التدفئة الرمادية تحت رف النافذة تسخن مرتين في اليوم، فتنتشر موجات الدفء في أرجاء الشقة بأسرها.

وبات واضحا تماما: إن الكلب فاز بالجائزة الكبرى في يانصيب الكلاب. وصارت عيناه تترقرقان بدموع الامتنان ما لا يقل عن مرتين

في اليوم تجاه حكيم بريتشيستينكا. وعلاوة على ذلك فإن جميع المرايا في غرفة الاستقبال والعيادة بين الخزانات كانت تعكس صورة "الكلب الجميل" المحظوظ.

"أنا جميل الطلعة، ولربما أنا كلب – أمير ما مجهول – هذا ما كان يدور في خلد الكلب لدى التطلع إلى الكلب الأشعث البني اللون ذي البوز المبسوط الذي يتحرك في أبعاد المرايا – ومن المحتمل تماما أن جدتي قد قارفت الإثم مع الكلب الغطّاس. فأنا أرى بقعة بيضاء على بوزي. وقد يسأل سائل: من أين هي؟ إن فيليب فيليبوفيتش رجل مرهف الذوق، وهو لن يأوي أي كلب متشرد يلقاه".

لقد التهم الكلب على مدى أسبوع ذاك القدر من الطعام ذاته الذي أكله في غضون الشهر ونصف الشهر الأخير في الشارع. لكن طبعاً من حيث الوزن فقط، ناهيك الحديث عن نوعية الطعام لدى فيليب فيليبوفيتش. وحتى إذا لم يؤخذ بنظر الاعتبار، إن داريا بتروفنا كانت تشتري يوميا أكواما من بقايا اللحم في سوق سمولينسكي بمبلغ ٨١ كوبيكا، فيكفي التنويه بوجبات الغداء في الساعة ٧ مساء في غرفة الطعام، والتي كان الكلب يحضرها، بالرغم من احتجاجات الحسناء زينا. وفي أثناء هذه الوجبات حصل فيليب فيليبوفيتش نهائيا على لقب الآله. وكان الكلب يقف على رجليه الخلفيتين ويمضغ جاكتة سيده، كما درس طريقة فيليب فيليبوفيتش في دق الجرس – بدقتين متقطعتين قويتين آمرتين، وعندئذ يهب للقائه نابحا عند المدخل. أما سيده الذي يدخل ملفعا بمعطف من فراء الثعلب الأسود، والمتألق بملايين الشرارات الثلجية، والمعطر بروائح اليوسفي والسيجار والعطور والليمون والبنزين وماء الكولونيا والجوخ فكان يتردد صوته، مثل بوق العساكر، صادحا في جميع أرجاء المسكن قائلا:

–لماذا يا خنزير مزقت البومة إربا إربا ؟ فهل كانت تضايقك،

هل كانت تضايقك، أنا أسألك؟ ولماذا حطمت صورة البروفيسور ميتشنيكوف؟

فقالت زينا مستكرة:

-يجب يا فيليب فيليبوفيتش معاقبته ولو مرة واحدة. وإلا فهو يغدو مدللا تماما. فانظر ما فعل بكالوشاتك؟

- لا تجوز معاقبة أحد، - قال فيليب فيليبوفيتش بانفعال مشوب بالقلق، - تذكري هذا مرة وإلى الأبد. يمكن التأثير على الإنسان وكذلك الحيوان عن طريق الإقناع والإيحاء فقط. هل أعطيتموه اللحم اليوم؟

- يا آلهي، لقد إلتهم كل طعام البيت. ما هذا السؤال يا فيليب فيليبوفيتش. أنا أعجب لكونه لا ينفجر من التخمة.

- دعوه يأكل بالعافية... بم أساءت لك البومة يا شقي؟

فعوى الكلب - المتملق، وزحف على بطنه ناشرا أرجله:

-أو - أو!

ثم اقتادوه بجلبة من قفاه إلى غرفة المكتب عبر غرفة الفحوص. وكان الكلب يعوي ويزمجر ويتشبث بالسجاد وينزلق على مؤخرته كما في السيرك. وكانت ترقد على السجاد في وسط الغرفة البومة الزجاجية العينين، وقد تمزق بطنها وتدلت منه خرقة حمراء ما تفوح منها رائحة النفتالين. ووضع على المنضدة بورتريه تحطم زجاجه.

وأبلغت زينا بكدر:

- إنني لم أرفعها عن قصد لكي تمتع ناظريك بها. فقد صعد الوغد إلى المنضدة وتلقف البومة من ذنبها: "تساب!" و لم ألحق في إدراك ما

جرى وإذا به يمزق أحشاءها كلها. لتخبطه من بوزه في البومة يا فيليب فيليبوفيتش بغية أن يعرف عاقبة إفساد الاشياء.

ثم بدأ العويل. إذ جرى سحب الكلب الملتصق بالسجاد لكي يخبطوه في البومة. علما أن الدموع أخذت تسحّ من عيني الكلب، وصار يفكر: اضربوني، لكن لا تطردوني من الشقة".

– يجب إرسال البومة إلى صانع الحيوانات المحنطة، علاوة على ذلك خذي ثمانية روبلات و ٦١ كوبيكا لركوب الترام واذهبي إلى متجر ميور[١٠] واشتري له طوقا جيدا للعنق مع سلسلة.

في اليوم التالي وضع في عنق الكلب طوق عريض لامع. وفي اللحظة الأولى تكدر للغاية حين تطلّع في المرآة، وطوى ذنبه وذهب إلى الحمام مفكرا في كيفية قطعه بحكه بالصندوق أو الخزانة. لكن الكلب سرعان ما أدرك بأنه أحمق فحسب. فقد اقتادته زينا للنزهة في زقاق أوبوخوف مربوطا بالسلسلة. ومضى الكلب كالمعتقل وقد اعتمله الخزي، لكنه حين مضى في شارع بريتشيستينكا حتى كاتدرائية المسيح المخلص أدرك كل الإدراك معنى الطوق في الحياة إذ لاحظ في عيون جميع الكلاب التي صادفته في الطريق أمارات الحسد الشديد. وعند زقاق مسدود نبح عليه كلب مشرد مقطوع الذنب ناعتا اياه بأنه "نذل الأسياد" ومتملق بلا كرامة. وحين عبرا سكة الترام نظر رجل الميليشيا إلى الطوق بارتياح وباحترام. وفي طريق عودتهما حدث شيء لا نظير له في حياته: فقد فتح البواب فيودور باب الدخول بيده وسمح لشاريك بالمرور، وقال إلى زينا لحظتئذ:

– أي كلب كثيف الشعر اقتنى فيليب فيليبوفيتش. إنه سمين بشكل عجيب.

---

(١٠) متجر كبير اسمه "تسوم" ويقع بوسط موسكو. المترجم.

فلاحظت زينا المتوردة الوجه والحسناء بفعل البرد:

-كيف لا، وهو يلتهم طعام ستة أفواه.

"إن الطوق شأنه شأن حقيبة الأوراق" - بهذا مزح الكلب في قرارة نفسه، ومضى إلى الطابق الثاني كالسيد متأرجحا بمؤخرته.

بعد أن قيم الكلب الطوق بما يستحقه، قام بأول زيارة إلى ذلك القسم الرئيسي من "الجنة" الذي كان يحظر عليه دخوله حتى الآن حظرا باتا - وبالذات إلى مملكة الطاهية داريا بتروفنا. إن الشقة باجمعها لا تساوي شبرين من مملكة داريا. وكان اللهب يحفحف ويتأجج في كل يوم في الموقد الأسود المكسي بالبلاط. وظهرت الشقوق في بوتقة الموقد، وكان وجه داريا بتروفنا يزداد احمرارا في أعمدة اللهب الحمراء بالعذاب الناري الأبدي وبالرغبة المكبوتة، وكان هذا الوجه لامعا ومكتنزا. كما تألقت ٢٢ جوهرة اصطناعية في تسريحة شعرها على آخر موضة، والذي يغطي الأذنين، ولفّت الخصلات الشقراء كالسلة على القذال. وعلقت القدور بخطاطيف على الجدران، وملأت الروائح المطبخ بأسره وفارت وأزّت محتويات القدور تحت الأغطية...

وصاحت داريا بتروفنا:

- اخرج، اخرج أيها اللص المتشرد! لا ينقصني سوى وجودك هنا! سأضربك بالمسعر.

- ما لك! ما لك تنبحين! - وضيق الكلب عينيه متوسلا بتملق-، أي لص انا؟ ألا تلاحظين الطوق في عنقي؟ - ومشى جانبا نحو الباب، مادا بوزه فيه.

كان الكلب شاريك يتمتع بسرّ ما يفتن به قلوب البشر. وبعد يومين كان راقدا إلى جانب سلة الفحم، وهو يتطلع إلى كيف تعمل داريا

بتروفنا. قطعت بسكين ضيق حاد رقبة ورجلي طير الطيهوج العاجز، ثم سلخت اللحم من العظام مثل جلاد شرس، واستخرجت الأحشاء من الدجاجات، وفرمت شيئاً ما في مفرمة اللحم. وفي تلك اللحظة كان شاريك يقضم رأس طير الطيهوج. واستخرجت داريا بتروفنا قطع خبز مبلل من قصعة الحليب. ومزجتها على لوحة مع اللحم المفروم، وسكبت القشدة فوق هذا كله ورشت عليه الملح وأخذت تصنع الكستليتة على اللوحة. وكان الموقد يئز كما لدى حدوث حريق. فيما كان شيء ما يجمجم ويبقبق ويتقافز في المقلاة. وفتحت بوابة الموقد هادرة وعرت الجحيم الرهيب الذي كانت ألسنة اللهب تطقطق وتتألق فيه.

وفي المساء تخمد الفوهة الحجرية، ويتراءى في نافذة المطبخ وراء نصف الستار الليل الكثيف والوقور في شارع بريتشيستينكا الذي تنيره نجمة يتيمة. وتغمر الرطوبة أرضية المطبخ، وتلمع القدور لمعانا غامضا وخابيا. وتوجد على الطاولة قبعة رجل مطافئ. وكان شاريك يرقد على الموقد الدافئ وكأنه تمثال أسد عند مدخل البناية، ويرفع إحدى أذنيه فضولا ويحدق في الرجل الأسود الشاربين والمنفعل، الذي يتمنطق بحزام جلدي عريض، حين يحتضن داريا بتروفنا في غرفة زينا وداريا بتروفنا ببابها نصف المفتوح. وكان وجه الأخيرة يتأجج بالعذاب والشهوة، باستثناء الأنف المغطى بالبودرة، فيما تساقطت حزمة من الضوء على محيا الرجل الأسود الشاربين، وتدلت منه وردة فصيحة.

وجمجمت داريا بتروفنا في شبه إغماءة:

– لقد انهال عليّ كإبليس. اتركني. فستأتي زينا الآن. ماذا بك، كما لو أعادوا إليك شبابك أيضا.

فرد الأسود الشاربين بصوت متحشرج وغير متمالك لنفسه:

- نحن لسنا بحاجة إلى هذا. لكم أنت مثيرة!

كانت نجمة شارع بريتشيستينكا تتوارى في الأمسيات خلف الستائر الثقيلة، وإذا لم يكن يقدم في مسرح البولشوي عرض أوبرا "عايدة"، و لم يعقد اجتماع للجمعية الجراحية لعموم روسيا، فإن "الآله" كان يجلس في المقعد الوثير في غرفة المكتب. ولا تضاء المصابيح تحت السقف. بل كان ينير المصباح الأخضر فقط على الطاولة. بينما يتخذ شاريك مكانه على السجاد في الظل، ويرنو إلى الاشياء الرهيبة دون أن يبعد ناظريه عنها. إذ توجد أدمغة بشرية في أوعية زجاجية مملوءة بسائل عكر وحريف. وكان "الآله" يرتدي قفافيز حمراء مطاطية تغطي ذراعيه العاريتين حتى المرفقين، فيما تنبش أصابعه في تلافيف الأدمغة... وبين الفينة والفينة يتسلح "الآله" بمشرط صغير لامع ويقطع بحذر الأدمغة الصفراء اللدنة.

- نحو ضفاف النيل المقدسة... - كان "الآله" يردد هذا بصوت خافت قاضما شفتيه ومستعيدا الذكريات عن الزخارف الذهبية لمسرح البولشوي. وكانت أنابيب التدفئة تشتد في السخونة إبان تلك الساعة. فيتصاعد الدفء منها إلى السقف، ومنه ينتشر في جميع أرجاء الغرفة، وكانت قد بقيت في جلد الكلب آخر قملة لم يفلح فيليب فيليبوفيتش في تمشيطها بعد، لكنها ستلقى نهايتها لا محالة. وتعمل السجاجيد على إخماد الضجيج في الشقة. وبعد ذلك يتناهى صرير باب الدخول من بعيد.

وجال في خلد الكلب: "لقد ذهبت زينا إلى السينما، وحالما تعود سنتناول طعام العشاء. لا بد وأنهم سيقدمون اليوم كستليتة لحم العجل!"

في ذلك اليوم الرهيب وخز شاريك منذ الصباح هاجس بوقوع أمر فظيع ما. وبنتيجة ذلك أصابته الكآبة فجأة. وتناول بلا أية شهية

فطور الصباح المؤلف من نصف صحن من عصيدة الشوفان مع عظمة خروف متبقية منذ يوم أمس. ومضى بسأم إلى غرفة العيادة، وزمجر بصوت خافت لدى مشاهدة انعكاس صورته.

لكن بُعيد الظهر وعقب ذهابه للنزهة مع زينا في البولفار سارت الأمور كالمعتاد يوميا. و لم يستقبل المرضى في ذلك اليوم، لأن يوم الثلاثاء يوم عطلة، وجلس "الآله" في غرفة المكتب فاتحا على الطاولة كتبا سميكة ما فيها صور زاهية الألوان. وانتظر الجميع موعد الغداء. ودارت في قرارة الكلب عدة مرات فكرة مؤداها أن الطبق الثاني الذي سيقدم اليوم، حسب ما عرف في المطبخ، هو الديك الرومي. وفيما كان الكلب ماشيا في الدهليز سمع كيف دق جرس التلفون في غرفة مكتب فيليب فيليبوفيتش برنين مفاجئ ومنفّر. فتناول فيليب فيليبوفيتش السماعة، وأصغى إلى المتحدث، ومن ثم تملكه الانفعال. وتردد صوته قائلا:

– رائع. اجلبه الآن، فورا.

وتململ، وتلفن، وأمر زينا التي دخلت بأن تقدم الغداء بصورة عاجلة.

– الغداء! الغداء! الغداء!

وعلى الفور تردد رنين الأطباق في غرفة الطعام، وأخذت زينا تمضي جيئة وذهابا، وسمع من المطبخ صوت داريا بتروفنا شاكية بأن الديك الرومي غير جاهز. وأحس الكلب بالقلق مرة أخرى. وجال في خاطره:

"إنني لا أحب الهرج والمرج في البيت"، ولكن ما إن فكر في هذا حتى اتخذ الهرج والمرج طابعا مزعجا أكثر. وقبل كل شيء بسبب ظهور الدكتور بورمنتال "المعضوض" في وقت ما. فقد جلب هذا

حقيبة ذات رائحة كريهة، وحتى لم يخلع معطفه بل اندفع بها إلى غرفة المعاينة عبر الدهليز. وترك فيليب فيليبوفيتش قدح القهوة دون أن يكمل شربه، الأمر الذي لم يحدث له من قبل أبدا، وهرع للقاء بورمنتال، الأمر الذي لم يحدث له من قبل أيضاً.

وصاح البروفيسور قائلا:

– متى توفي؟

فرد بورمنتال دون أن ينزع القبعة المغطاة بالثلج وفاتحا الحقيبة:

– قبل ثلاث ساعات.

"من الذي توفي–، فكر الكلب عابسا ودس نفسه بين الاقدام، – أنا لا أطيق حين يكون الناس في عجلة من أمرهم".

– ابتعد من بين الأقدام! بسرعة، بسرعة، بسرعة! – صرخ فيليب فيليبوفيتش في كافة الأنحاء، وأخذ يقرع جميع الأجراس، كما تراءى للكلب. وهرعت زينا.

– زينا! لتجلس داريا بتروفنا عند التلفون، ولتسجل، ولن أستقبل أحدا. وثمة حاجة إليك. يا دكتور بورمنتال، أتوسل إليك، بسرعة، بسرعة، بسرعة.

"لا يعجبني هذا، لا يعجبني" – عبس الكلب منزعجا، وأخذ يتجول في الشقة. بينما انحصر الهرج والمرج في غرفة المعاينة. وبدت زينا على غير انتظار مرتدية الصديرية الشبيهة بالكفن، وأخذت تهرول من غرفة المعاينة إلى المطبخ ثم تقفل راجعة.

وقرر الكلب في سره:

–"هل لي أن أذهب للأكل، ليأخذهم الشيطان"، وعلى حين غرة حدثت له مفاجأة.

إذ صدر أمر من غرفة المعاينة:

– لا يعطى أي شيء إلى شاريك.

– وهل بوسعي مراقبته، فسيلتهم قطعة ما حتما.

– يجب حبسه.

واقتيد شاريك بالغواية وحبس في الحمام. وفكر شاريك لدى جلوسه في الحمام شبه المعتم: "يا للوقاحة. هذا غباء فحسب".

وأمضى نحو ربع ساعة في الحمام وقد تملكه مزاج غريب في قرارة روحه – فتارة كان يشعر بالغيظ وتارة أخرى بكآبة ما ثقيلة. وكان كل شيء مملا وغير واضح.

ودار في خلده:

"حسنا، ستكون لديك كالوشات غدا، يا فيليب فيليبوفيتش المحترم، إنك اضطررت لشراء زوجين جديدين، وستشتري زوجا آخر، بغية ألا تحبس الكلاب".

لكن عكرت فكرته الحانقة فكرة أخرى: فقد تذكر فجأة ولسبب ما مشهدا صغيرا من طفولته المبكرة. كان ذلك في فناء فسيح تنيره أشعة الشمس عند مخفر بريوبراجينسكي، وشظايا الشمس في القناني، وحطام الطوب المكسر، وكلاب – شريدة حرة طليقة.

– "لا، أبدا، فلا مهرب من هذا المكان، ولِمَ الكذب، – واعتمل الكلب الحزن، ونخر بأنفه، – لقد اعتدت عليَ العيش هنا. أنا كلب سادة، كائن متمدن، وعرفت الحياة الهانئة. وما معنى الحرية؟ إنها دخان، وسراب، وخيال، وهذيان الديمقراطيين التعساء..."

ثم أصبح الحمام شبه المعتم رهيبا، فعوى وهجم على الباب وصار يخدشه.

وتردد في الشقة صوت كأنه صادر من داخل برميل:

- أو - أو - أو -...

"سأمزق البومة مرة أخرى" - فكر الكلب في سره بحنق، ولكن بعجز. ثم ضعف واستلقى، وحين نهض انتصب شعر جلده فجأة. فقد ومضت في الحمام لسبب ما عيون ذئاب كريهة.

وحين بلغ عذابه أوجه فتح الباب. فخرج الكلب ونفض جسده، وتوجه عابسا نحو المطبخ. لكن زينا اقتادته بإلحاح بالطوق إلى غرفة المعاينة. فسرت القشعريرة تحت قلبه.

"ما حاجتهم إليّ -، فكر بارتياب، - فقد إلتأم جنبي، انا لا أفهم شيئا".

ومشى فوق الباركيه الاملس بأرجله ذوات المخالب، وهكذا اقتيد إلى غرفة المعاينة. وقد أذهلته فورا الإنارة الشديدة فيها. وكان المصباح الكروي الأبيض تحت السقف يتألق بنور يعشي البصر. ووقف "الكاهن" في الألق الأبيض، وكان ينشد عبر أسنانه أنشودة عن ضفاف النيل المقدسة. و لم يكن بالمستطاع معرفة أن هذا فيليب فيليبوفيتش بالذات إلا عن طريق الرائحة غير الواضحة. وقد اختفى شعر رأسه الأشيب تحت القلنسوة البيضاء الشبيهة بقلنسوة البطريرك، وكان "الآله" ملفعا كله بالبياض، وارتدى فوق البياض مريلة مطاطية ضيقة وكأنها رداء البطرشيل. ووضع قفافيز سوداء في يديه - كما لبس "المعضوض" قلنسوة أيضا. ومدت المنضدة الطويلة، وتم من الجانب تحريك منضدة صغيرة ذات أرجل لامعة - وقد كره الكلب هنا "المعضوض" أكثر من غيره، وعلى الأخص بسبب عينيه اليوم. فهما تنمان عادة عن الجرأة والصراحة أما اليوم فكانتا تتفاديان النظر إلى عيني الكلب. وكانتا حذرتين وزائفتين، وكمن في أعماقهما شيء ما

غير طيب وحقير، إن لم تكن جريمة كاملة. وتطلع الكلب إليه بأنفاس ثقيلة وبعبوس وابتعد إلى ركن الغرفة.

ونبر فيليب فيليبوفيتش بصوت خافت:

– زينا، انزعي الطوق. لكن لا تستثيري قلقه.

وفي لحظة خاطفة غدت عينا زينا كريهتين كعيني "المعضوض". فدنت من الكلب ومسدته بزيف واضح. فنظر هذا إليها بكآبة وباحتقار.

"حسنا، أنتم ثلاثة، وستتغلبون عليّ إن أردتم. لكن هذا مبعث خزي لكم. وددت أن أعرف فقط ماذا ستفعلونه بي...".

نزعت زينا الطوق، وهزّ الكلب رأسه ونخر. واقترب "المعضوض" منه وانبعثت منه رائحة نتنة تثير الغثيان.

"يا للحقارة... مالي أشعر بمثل هذا التجشؤ والرهبة" – فكر الكلب في قرارة نفسه ونكص مبتعدا عن "المعضوض".

ونبس فيليب فيليبوفيتش بنفاد صبر:

– أسرع يا دكتور.

وفاحت في الهواء رائحة نفادة وحلوة. ولم يبعد "المعضوض" عينيه الحذرتين الكريهتين عن الكلب، وأخرج بيده من وراء ظهره ودس في أنف الكلب بسرعة كتلة من القطن الرطب. فتسمّر شاريك في مكانه، وأصاب رأسه دوار خفيف. لكنه أفلح في القفز جانبا، وقفز "المعضوض" وراءه. وعلى حين غرة غطا بوزه كله بالقطن. وفور ذلك احتبست أنفاس الكلب لكنه أفلح في الإفلات مرة أخرى. "نذل..." – ومض ذلك في فكره–، "لماذا، ماذا فعلت؟" ووضعت كمامة القطن على أنفه مرة أخرى. لحظتئذ تراءت بحيرة في وسط

غرفة المعاينة، وجلست فيها في زوارق كلاب وردية مرحة للغاية من العالم الآخر، لم ير لها مثيلا. وارتخت أرجله والتويت.

وترددت في مكان ما أقوال فيليب فيليبوفيتش بنبرة ابتهاج:

– احملوه إلى المنضدة.

ثم تبددت الكلمات في التلافيف البرتقالية لدماغ الكلب. واختفى الفزع وحلت محله البهجة. وفي غضون نحو ثانيتين شعر الكلب بالحب إزاء "المعضوض". وبعد ذلك انقلب العالم بأسره رأسا على عقب. كما أحس بيد باردة لطيفة تمسك به تحت البطن. ثم لم يحس بشيء.

٤

كان الكلب شاريك ممددا على الطاولة الضيقة لإجراء العمليات، ورأسه يرتجف فوق وسادة المشمع البيضاء. وكانت بطنه حليقة، ولحظتئذ انهمك الدكتور بورمنتال، بأنفاس ثقيلة وبعجلة، في قص شعر رأس شاريك والماكينة تنغرز فيه. فيما استند فيليب فيليبوفيتش براحتي يديه على طرف الطاولة، وراقب هذه العملية بعينين براقتين مثل إطار نظاراته الذهبية، وراح يقول بانفعال:

–ايفان أرنولدوفيتش، إن أهم لحظة هي حين ألج بالمشرط السرج التركي. وأرجوك أن تناولني الجزء المزروع وتخيطه على الفور. وإذا ما بدأت الدماء بالتدفق، فإننا سنضيع الوقت والكلب أيضا. بالمناسبة إن فرصته مفقودة أصلا، – ولزم الصمت خازرا عينيه، وتطلع إلى عين الكلب شبه المفتوحة وكأنها تسخر منه، وأضاف بقوله: – أتعلمون انني أشفق عليه. فتصوروا أنني اعتدت عليه.

في هذه اللحظة رفع يده كما لو كان يبارك الكلب التعيس شاريك في دربه الشاق. وأجهد نفسه لكي لا تقع ذرة غبار واحدة على القفافيز السوداء. وبدا من تحت الشعر المقصوص جلد الكلب الضارب إلى البياض. وألقى بورمنتال الماكينة وتناول موسى الحلاقة. وصوبن الرأس الصغير العاجز وأخذ يحلقه. فانبعث أزيز شديد تحت الموسى، وفي بعض الأماكن نزف الدم. وبعد أن أتم "المعضوض" حلاقة الرأس مسحه بقطعة قطن مغمسة بالبنزين. ثم عدّل بطن الكلب العاري ونبر متنفسا الصعداء:

– إنه جاهز.

وفتحت زينا الحنفية في المغسلة وصار بورمنتال يغسل يديه وسكبت زينا عليهما الكحول من القارورة. وسألت متطلعة إلى رأس الكلب الحليق:

– هل بوسعي الانصراف، يا فيليب فيليبوفيتش ؟

– بوسعك هذا.

واختفت زينا. أما بورمنتال فانشغل في العمل اللاحق ووضع حول رأس شاريك قطع شاش خفيفة. وعندئذ بدت جمجمة كلب عارية لم يقع بصر انسان على مثيل لها وبوز ملتح غريب.

وفور ذلك بدا "الكاهن" بالعمل. فعدل قامته ورنا إلى رأس الكلب وقال:

– حسنا، باركني يا رب! هات المشرط.

تناول بورمنتال مشرطا صغيرا بطينا من بين كومة الأدوات اللامعة على المنضدة، وسلمه إلى "الكاهن" وبعد ذلك لبس قفافيز سوداء كما لدى "الكاهن".

سأل فيليب فيليبوفيتش:

– هل هو نائم؟

– نعن نائم.

كز فيليب فيليبوفيتش على اسنانه، وتألقت عيناه ببريق حاد، وبحركة سريعة من المشرط قص بطن شاريك مولدا جرحا على امتداده. فانفرج الجلد فورا، ونزف من تحته الدم في كافة الاتجاهات. واندفع بورمنتال بخفة وأخذ يضغط جرح شاريك بقطع من الشاش، وبعد ذلك ثبّت أطرافه بمقارض شبيهة بمقارض تقطيع السكر، فجف.

وتصببت قطرات العرق من جبين بورمنتال. وقام فيليب فيليبوفيتش بقص الجرح مرة ثانية، وأخذ الاثنان يمزقان جسد شاريك بواسطة الخطاطيف والمقاصيص ومقارض ما. وبدت للعيان الأنسجة الوردية والصفر التي تسح منها قطرات الدم. وأعمل فيليب فيليبوفيتش مشرطه في الجسد، ثم صاح: "المقص!"

ومضت الأداة في يدي "المعضوض" كالحاوي، وتوغل فيليب فيليبوفيتش في الأعماق واستخرج في عدة حركات من جسد شاريك غدده المنوية مع بعض القطع. أما بورمنتال المبلل تماما لما بذله من جهد ولانفعاله فقد اندفع نحو الأناء الزجاجي واستخرج منه غددا منوية أخرى مبللة متدلية الأطراف. وتدلت بين أيدي البروفيسور ومساعده خيوط قصيرة ورطبة وترددت نقرات الإبر الملتوية في المشدات وتمت خياطة الغدد المنوية بدلا من غدد شاريك واعتدل "الكاهن" في وقفته مبتعدا عن الجرح، ودس فيه كتلة من الشاش، وأمر بقوله:

- خيط يا دكتور الجلد فورا.

ثم تطلع إلى ساعة الحائط المدورة البيضاء.

- أجرينا العملية في غضون ٤١ دقيقة. - قال ذلك بورمنتال عبر أسنانه، وغرز الإبرة الملتوية في الجلد المتهدل. ثم أصاب الاثنان القلق، مثل قاتلين، في عجلة من أمرهما.

وصاح فيليب فيليبوفيتش:

- هات المشرط!

جاء المشرط إلى يده كما لو كان بحاله. وبعد ذلك غدا وجه فيليب فيليبوفيتش مخيفا. وكزّ بتيجان أسنانه الذهبية والخزفية، وبحركة واحدة قطع الجلد في جبهة شاريك بهيئة إكليل أحمر. وانفرج الجلد الحليق مثل انسلاخ فروة الرأس، وانكشفت الجمجمة العظمية وصاح

فيليب فيليبوفيتش:

– التربان!

وناوله بورمنتال مثقبا لامعا. وصار فيليب فيليبوفيتش، قاضما شفتيه، يعمل بإدخال المثقب وبثقب فتحات صغيرة في جمجمة شاريك تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة سنتيمتر واحد، بحيث أحاطت الثقوب بالجمجمة كلها. وصرف لكل واحد منها فترة لا تزيد عن خمس ثوان. ثم أخذ منشارا غريب الشكل وأدخله في أول الثقوب وصار ينشر، كما ينشر صندوق حفظ الأشغال اليدوية النسائية. وكانت الجمجمة تئز وتهتز بصوت خافت. وبعد نحو ثلاث دقائق نزع غطاء جمجمة شاريك.

آنذاك انكشفت قبة دماغ شاريك الرمادي اللون وذي العروق الضاربة إلى الزرقة والبقع المائلة إلى الاحمرار. وأعمل فيليب فيليبوفيتش المقص في قشرة الدماغ وفتحها، فتدفقت مرة واحدة نافورة من الدم، وكاد أن يتساقط في عين البروفيسور، فتلطخت القلنسوة به – وراح بورمنتال يسدها بالملقط المعوج منتفضا كالنمر، فأفلح في ذلك. كان العرق ينسكب من بورمنتال كالسيول، وصار وجهه مكتنزا ومبقعا، وكانت عيناه تنتقلان من يدي البروفيسور إلى الصحن فوق منضدة الأدوات. وأصبح فيليب فيليبوفيتش رهيبا حقا. وغدت انفاسه ثقيلة. وانبجست أسنانه حتى اللثة. فمزق قشرة الدماغ، وتوغل في مكان ما في العمق، مستخرجا فصي الدماغ من القحف المكشوف. وفي تلك اللحظة بدأ الشحوب يزحف إلى وجه بورمنتال، فأمسك بيد واحدة صدر شاريك وقال بصوت متحشرج:

– إن النبض يهبط بشدة.

رشقه فيليب فيليبوفيتش بنظرة شزراء وجمجم بشيء ما وواصل

التوغل أعمق. فكسر بورمنتال أمبولة زجاجية بخشخشة، وملأ بمحتوياتها حقنة، وغرز شاريك بمكر في مكان ما عند القلب.

وجأر فيليب فيليبوفيتش:

- إنني أتوجه نحو السرج التركي!

ثم انتزع بالقفازين المخصبين بالدم واللزقين دماغ شاريك الرمادي الأصفر من الرأس. ورشق بعينيه بوز شاريك للحظة خاطفة، وعلى الفور كسر بورمنتال الأمبولة الثانية ذات السائل الاصفر وسحب محتوياتها بواسطة حقنة طويلة.

وسأل بوجل:

- هل أحقن في القلب؟

- ما هذا السؤال؟ - زمجر البروفيسور مغتاظا -، فالأمر سواء، إنه توفي خمس مرات بالنسبة إليك. احقن. فهل من المعقول هذا؟ - وبدا وجهه لحظتئذ مثل وجه قاطع طريق منفعل.

غرز الدكتور الحقنة بخفة وبدفعة واحدة في قلب الكلب. وهمس بتهيب:

- هو على قيد الحياة، لكنه بين الموت والحياة.

- لا وقت الآن للتأمل فيما إذا سيعيش أو لا يعيش، - قال فيليب فيليبوفيتش الرهيب بصوت مبحوح، - أنا عند السرج. فالأمر سيان، وسيموت. أخ، يا للشيء... نحو ضفاف النيل المقدسة... هات الغدة النخامية الواجب زرعها..

ناوله بورمنتال الوعاء الذي كانت تقوم في السائل داخله كتلة بيضاء معلقة بخيط. وأمسك بيد واحدة - "لا يوجد لها نظير في أوروبا... والله! "- هذا ما دار في خلد بورمنتال بغموض، - الكتلة

المتدلية الأطراف، وقطع باليد الأخرى كتلة مماثلة في العمق بمكان ما بين فصّي الدماغ المنفرجين. وألقى بكتلة من دماغ شاريك في الصحن، أما الجديدة فوضعها سوية مع الخيط وتحايل في لفها هناك بخيط أصفر بواسطة أصابعه القصيرة، التي غدت بقدرة قادرة رفيعة ومرنة. وبعد ذلك استخرج من الرأس كماشات ما، والملقط، وأخفى الدماغ ثانية في الحفرة العظمية، واستعدل في قامته وسأل بقلق أشد:

– لقد مات، طبعاً؟..

فرد بورمنتال:

– النبض ضعيف للغاية.

– إحقن الأدرينالين مرة أخرى.

سوى البروفيسور قشرة الدماغ ووضع القحف المنشور في مكانه، وأنزل جلد الرأس وجأر:

– خيطه.

أنجز بورمنتال خياطة الرأس في غضون نحو خمس ثوان، بعد أن كسر ثلاث إبر.

وظهر على الوسادة فوق الخلفية والمخضبة بالدم رأس شاريك الخامد الخالي من الحياة، وعليه جرح دائري. وعلى الفور استعدل فيليب فيليبوفيتش نهائيا مثل وطواط مصاص دماء أصابه الشبع. فنزع أحد القفازين، وتطايرت منه سحابة من البودرة، ومزق الثاني وألقى به أرضا، ودق الجرس بالضغط على زر في الجدار. وظهرت زينا في العتبة مشيحة وجهها كي لا ترى شاريك مضرجا بالدم. ونزع "الكاهن" القلنسوة المدماة بيده الملوثة بالطباشير، وهتف:

– هات لي يا زينا سيجارة فورا. وأعدي لي ملابس نظيفة والحمام.

واستلقى بذقنه على طرف الطاولة، وفتح بإصبعين الجفن الأيمن للكلب. ونظر في العين الميتة بجلاء ونبر:

– يا للشيطان... لم يفارق الحياة. مع ذلك سينفق. ايه، يا دكتور بورمنتال، أسفي على الكلب. لقد كان ودودا لكنه ماكر.

٥

من يوميات الدكتور بورمنتال

دفتر رقيق ذو أوراق بحجم ورق الرسائل. وامتلأت صفحاته بخط بورمنتال. وبدا الخط في الصفحتين الأوليين أنيقا وناعما وواضحا، وفيما بعد أصبح غير منتظم وينم عن القلق مع وجود بقع كبيرة من الحبر.

٢٢ ديسمبر عام ١٩٢٤. الاثنين.

بطاقة المرض.

كلب التجارب في سن نحو عامين. ذكر.

الصنف: كلب هجين. الكنية - شاريك. الشعر ناعم وكثيف. بني ضارب إلى الحمرة. الذنب بلون عاجي. تبدو على الجنب الأيمن آثار حروق ملتئمة تماما. كانت التغذية رديئة قبل أن يأويه البروفيسور. وبعد مرور أسبوع من وجوده لديه أصبح مكتنزا للغاية. الوزن ٨ كيلوغرامات (علامة تعجب). القلب، الرئتان، المعدة، درجة الحرارة...

٢٣ ديسمبر. في الساعة ٨ والدقيقة ٣٠ مساء أجريت أول عملية في أوروبا بموجب طريقة البروفيسور بريوبراجينسكي: فقد تم تحت تأثير الكلوروفورم استئصال بيضتي شاريك وزرعت في مكانهما بيضتا رجل مع الغدد الملحقة والقناتين المنويتين المأخوذة من رجل في الثامنة والعشرين من العمر توفي قبل أربع ساعات وأربع دقائق من وقت إجراء العملية، وحفظت في محلول فسيولوجي مطهّر أعد حسب طريقة البروفيسور بريوبراجينسكي.

وفي أعقاب ذلك مباشرة أزيلت الغدة النخامية - الهيبوفيس للكلب بعد شق الجمجمة، واستبدلت بأخرى بشرية مأخوذة من الرجل الآنف الذكر.

واستخدم مقدار ثماني مكعبات من الكلوروفورم وحقنة من الكافور وحقنتا أدرينالين في القلب.

حيثيات العملية الجراحية: إجراء تجربة بريوبراجينسكي سوية مع زرع الهيبوفيس والبيضتين من أجل استيضاح مسألة قدرة الهيبوفيس على البقاء حيا، ومن ثم تبيان تأثيره في مضمار إعادة جسم البشر إلى حيوية الشباب.

أجرى العملية البروفيسور ف.ف. بريوبراجينسكي. المساعد - الدكتور إ.أ.بورمنتال.

في الليلة التالية للعملية الجراحية: تكرر انخفاض النبض بشكل خطير. توقع حدوث الوفاة. حقن كميات كبيرة من الكافور وفق طريقة بريوبراجينسكي.

٢٤ ديسمبر. صباحا. تحسّن في الحالة الصحية. ازداد تردد الأنفاس بمقدار الضعفين، درجة الحرارة ٤٢°. تم حقن الكافور والكافيين تحت الجلد.

٢٥ ديسمبر. تدهورت الحالة الصحية مرة أخرى. النبض لا يكاد يتحسس باليد. برودة في الأطراف، انعدام رد الفعل في حدقتي العين. حقن الأدرينالين في القلب، حقن الكافور وفق طريقة بريوبراجينسكي، حقن المحلول الفسيولوجي في الوريد.

٢٦ ديسمبر. حدوث تحسن نوعا ما. النبض ١٨٠، التنفس ٩٢، درجة الحرارة ٤١°. حقن الكافور. التغذية بواسطة الحقن الشرجية.

٢٧ ديسمبر. النبض ١٥٢، التنفس ٥٠، درجة الحرارة ٣٩,٨°،
وجود رد الفعل في حدقتي العين. حقن الكافور تحت الجلد.

٢٨ ديسمبر. تحسن ملموس. في منتصف النهار بدأ العرق يتصبب مدرارا بصورة مفاجئة، درجة الحرارة ٣٧,٠°. جروح العملية باقية على حالها سابقا. تبديل الضمادات. ظهرت الشهية. التغذية سائلة.

٢٩ ديسمبر. بدأ على حين غرة تساقط الشعر من الجبين وجانبي الجسد. استدعي لغرض المشاورة: فاسيلي فاسيليفيتش بونداريف البروفيسور في قسم الأمراض الجلدية، ومدير معهد البيطرة النموذجي بموسكو. وقد اعترف بأن الأدبيات العلمية تخلو من وصف هذه الحالة، و لم يوضع تشخيص لها. درجة الحرارة طبيعية.

(التسجيل بالقلم الرصاص)

في المساء سمع النباح لأول مرة (عند الساعة ٨ والدقيقة ١٥). ويلفت الانتباه التغير الشديد في الجرس المميز للنباح، وانخفاض النبرة. والنباح بدلا من لفظة "هاو - هاو" يشبه في المقطع "أ - و"، الأنين من حيث الصبغة.

٣٠ ديسمبر. اتخذ تساقط الشعر طابع الصلع الشامل، ولدى إجراء الوزن تم الحصول على نتيجة مفاجئة. الوزن ٣٠ كغم نظرا لنمو (استطالة) العظام. الكلب راقد كالسابق.

٣١ ديسمبر. شهية بالغة للطعام.

(لطخة حبر في الدفتر. ودوّن بين اللطخة بخط كتب على عجل).

في الساعة ٢١ والدقيقة ٢١ بعد الظهر نبح الكلب بوضوح:

لفظة "ك – ا – م – س – أ"[11].

(توقف عن الكتابة في الدفتر. ومن ثم كتب كما يبدو خطأ بسبب الانفعال):

١ ديسمبر (شطبت وصححت الكلمة). ١ يناير عام ١٩٢٥. جرى تصويره صباحا. ينبح بوضوح: "كامسا". وكان يردد هذه الكلمة بصوت عال وبابتهاج كما يبدو. عند الساعة ٣ بعد الظهر (بأحرف كبيرة) ضحك مما أدى إلى غياب زينا عن وعيها. في المساء ردد ثماني مرات على التتابع "ثماعلا كامسا"[12]، كامسا.

(التسجيل بالقلم الرصاص، الحروف ملتوية)؟... فكّ البروفيسور عبارة "ثماعلا كامسا" أنها تعني الهيئة العامة للأسماك. شيء رهيب...

٢ يناير. جرى تصويره لدى ابتسامه في ضوء الوهج المغناطيسي. نهض من الفراش ووقف بثقة على قائمتيه الخلفيتين على مدى نصف ساعة. وطوله يعادل طول قامي تقريبا.

(أضيفت ورقة إلى الدفتر).

كاد العلم الروسي أن يمنى بخسارة فادحة.

بطاقة مرض البروفيسور ف.ف. بريوبراجينسكي.

في الساعة الواحدة والدقيقة ٣١ أصيب البروفيسور بريوبراجينسكي بحالة إغماء شديدة. وحين سقط اصطدم رأسه برجل الكرسي.قطرات تينكتورا فاليريانا. وحدث بحضوري وزينا

(١١) كلمة (أسماك) مقلوبة. المترجم.

(١٢) مقلوب: عبارة "الأسماك العامة" – أي مختصر الهيئة العامة للأسماك. المترجم.

أن أطلق الكلب (إن جازت تسميته بالكلب) شتيمة نابية موجهة إلى البروفيسور بريوبراجينسكي.

(توقف عن التسجيل)

٦ يناير. (تم التسجيل بالقلم الرصاص تارة وبالحبر البنفسجي تارة أخرى).

حدث اليوم بعد أن سقط ذنبه أن تلفظ بوضوح تام كلمة (الحانة). تم تشغيل آلة التسجيل (الفونوغراف). الشيطان وحده يعلم ما هذا.

إنني في حيرة من أمري.

توقف البروفيسور عن استقبال المرضى. وابتداء من الساعة الخامسة مساء صارت تنطلق من غرفة الفحوص حيث يعتنى بهذا المخلوق أصوات شتائم بذيئة بجلاء وكلمات: هات لي زوجا آخر.

٧ يناير. تلفظ كلمات كثيرة جدا: "يا حوذي" و"الأماكن جميعها محجوزة" و"الجريدة المسائية" و"أفضل هدية للأطفال". وكذلك جميع الشتائم الموجودة في اللغة الروسية.

إن مظهره غريب. لم يبق من الشعر سوى في الرأس والذقن وعلى الصدر. أما في الأماكن الباقية فهو أصلع وجلده متغضن وينمو في موضع الأعضاء التناسلية العضو الذكري. وازداد حجم الجمجمة بشكل ملموس. الجبهة مائلة وضيقة.

سأجن وحق الرب.

ما زالت حالة فيليب فيليبوفيتش الصحية سيئة. وأتولى بنفسي جل أعمال المراقبة العلمية. (الفونوغراف، الصور الفوتوغرافية).

ترددت الإشاعات في المدينة.

عواقب لا حصر لها. كان الزقاق بأجمعه يغصّ ظهر اليوم بشتى العاطلين والعجائز. كما يقف المتفرجون المتكاسلون تحت النوافذ الآن أيضا. ونشرت صحف الصباح ملاحظة عجيبة. "إن الإشاعات بصدد ظهور ساكني المريخ في زقاق أوبوخوف خالية من أي أساس. وقد روّجها الباعة من سوق سوخاريفكا. وسينزل العقاب الصارم بمروّجيها". عن أي ساكن مريخ - ليأخذه الشيطان - يدور الكلام؟ فهذا فظيع!

ونشرت صحيفة المساء نبأ أفضل من ذلك - إذ كتبوا أن طفلا قد ولد وهو يجيد العزف على الكمان. ونشرت هناك صورة آلة كمان وإلى جانبها صورتي الفوتوغرافية. وكتب تحتها: " البروفيسور بريوبراجينسكي الذي أجرى العملية القيصرية للأم". هذا شيء يعجز القلم عن وصفه... إنه يتلفّظ بكلمة جديدة: "شرطي".

لقد تبين أن داريا بتروفنا وقعت في غرامي، فسرقت صورتي الفوتوغرافية من ألبوم فيليب فيليبوفيتش. وبعد أن طردتُ المراسلين انسل أحدهم إلى المطبخ... وهكذا دواليك.

ماذا يدور في وقت استقبال المرضى! دق الجرس اليوم ٨٨ مرة. وقطع الخط الهاتفي. وتأتي السيدات العاقرات إلينا بلا توقف.

جاءت اللجنة السكنية بكامل قوامها وعلى رأسها شفوندر. ما السبب؟ إنهم أنفسهم لا يعلمون.

٨ يناير. وضع التشخيص في وقت متأخر من المساء. واعترف فيليب فيليبوفيتش بخطأه كأي عالم غيور آخر - فإن استبدال الهيبوفيس لا يؤدي إلى استعادة الشباب، بل إلى الاكتساب التام للصفات الإنسانية (وضعت ثلاثة خطوط تحت العبارة الأخيرة). ولكن هذا لا يجعل قيمة اكتشافه العجيب أقل قيمة أبدا.

تجول "المخلوق" لأول مرة في أرجاء الشقة. وضحك في الدهليز، لدى النظر إلى المصباح الكهربائي. ثم توجه إلى غرفة المكتب بمرافقة فيليب فيليبوفيتش وأنا شخصيا. وصار يقف على طرفيه الخلفيين بثبات (العبارة مشطوبة)، على قدميه، ويشبه في شكله رجلا قصير القامة، وأخرق الهيئة. ضحك في غرفة المكتب. و لم تكن ابتسامته لطيفة بل بدت وكأنها مصطنعة. ثم حك قفاه وأجال النظر في المكان، وسجلت كلمة جديدة تلفظها بوضوح: "بورجوازيون".. وأطلق شتيمة. وكانت شتائمه منتظمة ومتواصلة وكما يبدو لا مغزى لها أبدا. إنها تتسم بطابع تسجيلي مكرر: ويتراءى لي أن هذا المخلوق سمع في مكان ما سابقا كلمات الشتم هذه. وأنها دخلت في دماغه آليا وبلا وعي، وصارت الآن تتدفق منه في سيل لا ينقطع. بالمناسبة أنا لست طبيبا نفسيا، وليأخذني الشيطان.

كانت الكلمات البذيئة تترك لدى فيليب فيليبوفيتش، لسبب ما، انطباعا مضنيا أليما. ويحدث أحيانا أن يخرج من إطار المراقبة، المتسمة بضبط النفس وبرودة الأعصاب، للظواهر الجديدة ويفقد صبره بشكل ما. وهكذا ففي لحظة إطلاق الشتائم صرخ فجأة وبعصبية: كفى ! و لم يترك هذا أي تأثير لدى المخلوق.

وبعد التجوّل في غرفة المكتب اقتيد شاريك بالجهود المشتركة إلى غرفة الفحوص.

وفي أعقاب ذلك عقدنا، أنا وفيليب فيليبوفيتش، اجتماعا استشاريا. ولا بد لي من الاعتراف بأنها كانت أول مرة أرى فيها هذا الرجل الواثق بنفسه والفطن بشكل مذهل مرتبكا وحائرا. فسأل وهو ينشد لحنا ما على عادته: "ماذا سنفعل الآن؟" ورد نفسه على السؤال

بالقول حرفيا: "موسكوشفيا[13]، نعم... من اشبيليا إلى غرناطة... موسكوشفيا، يا عزيزي الدكتور". لكنني لم أفقه شيئاً من قوله، فأوضح قائلا: "إنني أرجوك، يا ايفان ارنولدوفيتش، أن تشتري له ملابس داخلية وبنطالا وجاكتة".

٩ يناير. تغتني المفردات لدى مرور كل خمس دقائق (بمعدل وسط) بكلمة جديدة. واعتبارا من صباح اليوم اغتنت بعبارات أيضا. يبدو أنها كانت قد تجمدت في الوعي وصارت واضحة، انها ترسخت في الذهن وصارت تنبثق مجددا إلى الوجود. وتبقى الكلمة المنبثقة قيد الاستعمال. ومنذ مساء يوم أمس سجل في الفونوغراف ما يلي: "لا تدفعني"، و"نذل"، و"ترجّل من سلم الترام"، و"سأريك"، و"باعتراف أمريكا"، و"البريموس".

١٠ يناير. جرى إلباسه. وقد سمح بأن يُلبس القميص الداخلي بكل طيب خاطر، وحتى ضحك بمرح. لكنه رفض ارتداء الكلسونات، معربا عن الاحتجاج بصرخات مبحوحة: "قفوا في الطابور يا أبناء الكلاب، في الطابور!" وتم إلباسه. كانت الأجربة كبيرة عليه.

(يتضمن الدفتر خطوطا بيانية ما تدل كافة الدلائل على أنها تصور تحوّل ساق الكلب إلى ساق إنسان).

يطول النصف الخلفي لعظام راحة القدم (planta)، تتمدد الأصابع. المخالب.

تكرار التعليم المنهجي لارتياد الملابس. الكآبة الشاملة تخيم على المرأتين اللتين تتوليان الخدمة.

لكن لا بد من الإشارة إلى فطنة المخلوق. فالأمور تسير على ما يرام.

---

(١٣) معمل الخياطة بموسكو. المترجم.

١١ يناير. استسلم تماما إلى ارتداء السراويل. وتلفظ بعبارة طويلة مرحة: "أعطني سيجارة. إن بنطالك مخطط".

شعر الرأس - خفيف، ناعم الملمس. يمكن بيسر التصور أنه شعر إنسان. لكن بقيت الغرّة على الجبهة. وسقط اليوم آخر زغب من الأذنين. الشهية عظيمة. يقبل عن طيب خاطر على أكل سمك الرنجة.

وقع حادث هام في الساعة الخامسة مساء: تلفظ الكائن لأوّل مرّة بكلمات لا تنفصم عن الظواهر المحيطة به. وانبثقت ردود أفعال حيالها وبالذات: حين أمره البروفيسور قائلا: "لا تسقط فضلات الطعام على الأرض"، - رد المخلوق بصورة مفاجئة: "دعني وشأني يا حقير".

فذهل فيليب فيليبوفيتش، ثم ثاب إلى رشده وقال:

-إذا سمحت لنفسك مرة أخرى بشتمي أو شتم الدكتور فستعاقب عقابا شديدا.

وقد صورتُ شاريك في تلك اللحظة. وأؤكد بأنه فهم كلمات البروفيسور. إذ تراءت على وجهه علائم التجهم. ونظر من تحت حاجبيه بانزعاج بالغ، لكنه هدأ وصمت.

هورا، إنه يفهم!

١٢ يناير. وضع اليدين في جيبي البنطال. نحن نعمل على تخليصه من عادة تلفظ الكلمات البذيئة. وصفر مرددا لحن "ايه يا تفاحة". يتبادل الأحاديث.

لا يسعني إيراد سوى بعض الفرضيات:

لا مجال للكلام عن استعادة علائم الشباب. وثمة شيء آخر بالغ الأهمية: إن التجربة العجيبة للبروفيسور بريوبراجينسكي قد كشفت

أحد أسرار دماغ الإنسان. فمنذ الآن وصاعدا صارت واضحة الوظيفة الغامضة للهيبوفيس – الغدة النخامية. إنها تحدد السمات البشرية للإنسان. ويمكن اعتبار أن هورموناتها الأهم في جسم الإنسان – هي هورمونات السمات الانسانية. وينكشف ميدان جديد في العلم: فبدون استخدام أنابيب الاختبار الفاوستية تم خلق إنسان الأنابيب. ووهب مشرط الجراح الحياة إلى مخلوق جديد. إنك يا بروفيسور بريوبراجينسكي – خالق. (بقعة حبر).

بالمناسبة إنني خرجت عن الموضوع... وهكذا، إنه يتبادل الأحاديث. واعتمادا على فرضياتي فإن الأمر هو كالتالي: لقد فتح الهيبوفيس المزروع والمتكيف لدماغ الكلب مركز الكلام فيه، وتدفقت الكلمات منه في سيل لا ينقطع. وباعتقادي إننا حيال دماغ خامد يعود إلى الحياة وأخذ يمارس وظائفه، وما هو بدماغ خلق من جديد. أوه، يا لها من سلسلة عظيمة للارتقاء من الكلب إلى مصاف الكيميائي–مندلييف! وثمة فرضية أخرى لي: لقد جمع دماغ شاريك في مرحلة وجوده ككلب جملة من المفاهيم. وجميع الكلمات التي صار يتلفظها قبل غيرها – كلمات يتناقلها أبناء الشوارع، وكان يسمعها ويخفيها في الدماغ. والآن حين أمشي في الشارع أتطلع برهبة إلى الكلاب المارة. فالله يعلم ماذا يكمن في أدمغتها.

كان شاريك يقرأ (ثلاث علامات تعجب). وقد حدست هذا اعتمادا على عبارة "كامسا تماعلا". فكان يقرأ الكلمات مقلوبة – أي من النهاية. وأنا حتى أعرف أين يوجد حل هذا اللغز: – في مواضع انقطاع أعصاب البصر لدى الكلاب.

ماذا يجري في موسكو – هذا ما لا يدركه عقل الإنسان. فزج في السجن بسبعة باعة من سوق سوخاريفكا لترويجهم الإشاعات عن يوم القيامة، الذي سيحل بذنب البلاشفة. وروت داريا بتروفنا ذلك،

وحتى ذكرت التاريخ: ٢٨ نوفمبر عام ١٩٢٥، ففي يوم عيد الشهيد القديس المفضال ستيفان ستصطدم الأرض بمحور السماء... وشرع محتالون ما بإلقاء المحاضرات حول هذا الموضوع. لقد أوقعنا الناس في حالة بلبلة بسبب الهيبوفيس الآنف الذكر، بحيث لا مفر لنا من الهرب من البيت. وكنت قد انتقلت للعيش في شقة بريوبراجينسكي بناء على طلبه، وأخذت أنام في غرفة استقبال المرضى سوية مع شاريك. وتم تحويل غرفة المعاينة إلى غرفة استقبال. وأظن أن شفوندر على حق. وغلبت رئيس اللجنة السكنية روح الشماتة. إذ خلت الخزانات من جميع الزجاج لأن شاريك كان يقفز ويحطمه. وقد جعلناه بعد جهد جهيد يقلع عن هذه العادة.

أمور غريبة تحدث لفيليب. فحين رويت له فرضياتي، وعن الأمر في تطوير شاريك إلى شخص رفيع من الناحية النفسية، قال:

- أتعتقد هذا؟

وكانت لهجته شريرة للغاية. هل من المعقول أنني أخطأت في القول. إن الشيخ كان يبيت أمرا في سره. وفيما كنت منهمكا في إعداد بطاقة المرض، كان مشغولا في دراسة بطاقة المرض للشخص الذي أخذنا منه الغدة النخامية.

(ورقة ملصقة في الدفتر)

كليم غريغوريفيتش تشوغونكين. العمر ٢٥ عاما، أعزب. لا حزبي، مناصر لأفكار الحزب. قدم إلى المحاكم ثلاث مرات، وصدرت الأحكام ببراءته: في المرة الأولى لعدم توفر الأدلة، وفي المرة الثانية أنقذه منحدره الطبقي، وفي المرة الثالثة صدر الحكم عليه

بالأشغال الشاقة لمدة ٥١ عاما مع وقف التنفيذ. التهمة – السرقة. المهنة – العزف على البالالايكا في الحانات.

قصير القامة، غير متناسق الهيئة. الكبد متضخم (الكحول). سبب الوفاة – طعنة بالسكين في القلب أصيب بها في خمارة "ستوب سيجنال" بالقرب من مخفر برويوبراجينسكايا.

كان الشيخ عاكفاً بلا كلل على دراسة بطاقة المرض الخاصة بكليم. أنا لا أفهم ما القضية. وقد تمتم بصدد انه لم يفكر بفحص جثمان تشوغونكين بنفسه في قسم التشريح. ما القضية، هذا ما لا أفهمه. أليس الأمر سيان من كان صاحب الغدة النخامية؟

١٧ يناير. لم أدوّن المذكرات على مدى عدة أيـام. إذ أصبت بالانفلونزا. وفي هذه الفترة استكملتْ الهيئة الخارجية للمخلوق نهائيا.

أ) إنسان متكامل من حيث البنية الجسدية.
ب) الوزن نحو ٣ بودات (حوالي ٨٤ كغم).
ج) قصير القامة.
د) الرأس صغير.
ه) بدأ يمارس التدخين.
و) يأكل طعام البشر.
ز) يرتدي ملابسه بنفسه.
ح) يتحدث بطلاقة.

ذلكم هو – الهيبوفيس (بقعة حبر).

بهذا تنتهي بطاقة المرض. ويتراءى أمامنا جسم جديد. ويجب القيام بمراقبته من جديد.

الملحقات: محضر الكلام، تسجيلات الفونوغراف، صور فوتوغرافية.

التوقيع: الدكتور بورمنتال، مساعد البروفيسور ف.ف.بريوبراجينسكي.

٦

أمسية شتائية. نهاية يناير. قبيل فترة استقبال المرضى. علقت ورقة بيضاء في أعلى باب غرفة الاستقبال كتب عليها بخط يد فيليب فيلبيوفيتش:

"ممنوع قزقزة اللبّ في الشقة"

ف. بريوبراجينسكي

كما كتب بالقلم الأزرق، وبحروف كبيرة مثل قطع التورته، بخط يد يورمنتال:

"ممنوع العزف على الآلات الموسيقية من الساعة الخامسة مساء وحتى الساعة السابعة صباحا".

ثم سجل بخط اليد:

"حين تعود أبلغ ذلك فيليب فيلبيوفيتش: أنا لا أعلم إلى أين ذهب هو. قال فيودور إنه ذهب مع شفوندر".

كما كتب بخط يد بريوبراجينسكي:

"هل سأنتظر عامل تركيب الزجاج مائة عام؟"

وكتب بخط يد داريا بتروفنا (بحروف طباعية):

"ذهبت زينا إلى المتجر وقالت إنها ستستدعيه".

كان الجو مظلما في غرفة الطعام تماما، كما في أوقات المساء، بفضل المصباح المضاء تحت الأباجور الحريري. أما النور المنبعث من خزانة الأواني فقد تساقط مشطورا إلى شطرين: لأن الزجاج المرآوي

كان ملصقا بورقة على هيئة علامة ضرب من الطرف المزخرف إلى الآخر. وكان فيليب فيلبيوفيتش منحنيا على الطاولة غارقا في مطالعة صفحات الجريدة الضخمة، وسحنات وجهه تتغير مع تغير انفعالاته الذاتية المحتدمة، وتتدفق عبر أسنانه الأقـوال المتقطعة والمبتسرة والمغمغمة. وانهمك في مطالعة الملاحظة التالية:

"لا أحد يماري في أن هذا ابنه غير الشرعي (كما كان يقال في المجتمع البرجوازي المتعفن). بهذا الشكل تتسلى البرجوازية شبه العالمة عندنا! بوسع اي إنسان أن يشغل سبع غرف، حتى ينهال سيف العدالة البتار عليه بشعاعه الأحمر.

شفـ... ر"

كان أحدهم يعزف على البلالايكا عبر جدارين عزفا ماهرا وبإلحاح للغاية، واختلطت أصوات اللحن المعقد لأغنية "الهلال ينير" في رأس فيليب فيلبيوفيتش مع الكلمات الواردة في الملاحظة متحولة إلى عصيدة مقيتة منفرة. وبعد مطالعتها بصق فيليب فيلبيوفيتش بصقة جافة عبر كتفه وأنشد تلقائيا عبر أسنانه:

– الهلال ينـ... يـ... يـ... ير... الهلال ينـ... يـ... يـ... ير... الهلال ينـ... يـ... يـ... ير...، تفو، لقد علق بي هذا اللحن اللعين!

ودق البروفيسور الجرس. فانبجس وجه زينا ما بين شطري الباب.

– أخبريه ان الساعة هي الخامسة، ويجب عليه التوقف، وادعيه إلى هنا، رجاء.

كان فيليب فيلبيوفيتش يجلس في المقعد عند الطاولة. وتدلى بين إصبعي يده اليسرى عقب سيجار بني اللون. فوقف عند الستار رجل قصير القامة كريه الهيئة، متكئا على ساكف الباب، واضعا ساقا على ساق. وبدا شعر رأسه منتصبا، مثل شجيرات تنمو في حقل اجتث

زرعه، وغطّى وجهه زغب غير محلوق. ومما كان يثير العجب كون جبهته ضيقة. كما أن فروة شعر الرأس الكثيف تبدأ مباشرة تقريبا فوق فرشتي حاجبيه العريضتين المنشورتين.

وعلق التبن بجاكتته الممزّقة تحت الإبط الأيسر، أما بنطاله المخطط فكان مهترئا عند الركبة اليمنى، وملطخا بصبغة بنفسجية عند الركبة اليسرى. وشدت على عنق الرجل ربطة ذات لون سماوي صارخ وثبت عليه دبوس مزين بحجر الياقوت الأحمر المزيف. وكان لون ربطة العنق زاهيا ببهرجة إلى حد جعل فيليب فيليبوفيتش يرى بين فينة وأخرى، لدى إغلاق عينيه المتعبتين، مشعلا متوهجا ذا هالة زرقاء في وسط القتام التام، تارة على السقف وتارة على الجدار. وحين فتحهما، أصابه العمى مرة أخرى، إذ انبعث من الأرض بريق بهيئة مروحة من نور، ولاح أمام بصره حذاءان لامعان يغطيهما غيتران أبيضان.

وفكّر فيليب فيليبوفيتش في قرارة نفسه بشعور من الانقباض: "كما لو انهما في كالوشين"، ثم تنهد ونخر وصار يلاعب السيجار المنطفأ. فيما كان الرجل الواقف عند الباب يتطلع إلى البروفيسور بعينين خابيتين ويدخن سيجارة زبانة ناثراً الرماد على صدر القميص.

دقّت خمس مرات الساعة المعلّقة على الجدار إلى جانب طائر الطيهوج. وأزّ شيء ما في داخلها، حين بدأ فيليب فيليبوفيتش الحديث:

– أظنني رجوتك مرتين ألا تنام على المصطبة في المطبخ، لا سيما نهارا؟

سعل الرجل بصوت تشوبه بحّة، كما لو اختنق بعظم، وأجاب بقوله:

– الهواء في المطبخ طيب أكثر.

كان صوته غير اعتيادي. فهو جهوري وفي الوقت نفسه مخنوق كما لو كان يصدر عن برميل صغير.

هزّ فيليب فيلبيوفيتش رأسه وسأل:

– من أين أخذت هذه القباحة؟ أنا أتحدث عن ربطة العنق.

تابع الرجل الصغير الحجم السبابة بعينيه ورشقها بنظرة عبر شفته الملتوية، ورنا بحنان إلى ربطة العنق. وقال:

– بم تكمن "قباحتها". إنها ربطة عنق فاخرة. لقد أهدتها لي داريا بتروفنا.

– إن داريا بتروفنا أهدتك هدية حقيرة، شبيهة بهذين الحذاءين. ما هذه السخافة اللامعة. من اين؟ ماذا طلبتُ منك؟ يجب شراء حذاءين محترمين، فما هذه؟ هل من المعقول أن الدكتور بورمنتال قد اختارهما لك؟

– إنني أمرته بشراء حذاءين من الجلد اللامع. فهل أنا أسوأ من باقي البشر؟ اذهب إلى شارع كوزنيتسكي فسترى أن الجميع يلبسون الأحذية اللامعة.

أدار فيليب فيلبيوفيتش رأسه وقال بحدة:

– لا تجرأ على النوم على المصطبة بعد اليوم. مفهوم؟ أية وقاحة هذه؟ فأنت تزعج الناس. هناك توجد النساء.

عبس وجه الرجل، وبرطم بشفتيه.

– أية نساء هن. فتأمل. أية سيدات راقيات. إنهن خادمتان عاديتان. لكن مطالبهما تعادل مطالب زوجة رئيس. إنها زينكا التي تمارس الوشايات.

نظر فيليب فيلبيوفيتش بصرامة:

– لا تجسر على تسمية زينا باسم زينكا! مفهوم؟

ران الصمت.

– مفهوم، أنا أسألك؟

– مفهوم.

– انزع هذه الشناعة التي على عنقك. أنتم... أنت... أنتم... انظر إلى نفسك في المرآة – فمن تشبه أنت؟ أرجو ألا أسمع بعد هذا شتيمة بذيئة واحدة في الشقة! ولا تبصق على الأرض. فهنا يوجد وعاء للبصاق. ويجب العناية بنظافة المرحاض. وأوقف شتى أنواع الأحاديث مع زينا. أنها تشكو من أنك تتربص لها في الظلام. فحذار! ومن الذي أجاب المريض الزائر: "الكلب وحده يعرف!" فهل أنت في خمارة؟

وعلى حين فجأة نبس الرجل متباكيا:

– ما لك يا عمّ تضيق عليّ الخناق.

فاحمر وجه فيليب فيلبيوفيتش وتألقت نظاراته:

– من هو العم هنا؟ ما معنى رفع الكلفة هذا؟ أرجو ألا تكرر هذه الكلمة أكثر! يجب أن تناديني باسمي مرفقا باسم أبي[١٤]!

ارتسم على وجه الرجل تعبير وقح.

– ما لك تعيد وتكرر... فتارة تقول: لا تبصق، وتارة لا تدخن، ولا تذهب إلى هناك... فما معنى ذلك حقا؟ كما في الترام تماما. لماذا تفسد عليّ حياتي؟ أما فيما يتعلق بتسمية "العم" فعبثا ذلك. وهل أنني رجوتك إجراء العملية الجراحية لي؟ – ثم نبح الرجل باستنكار:

---

(١٤) العادة المتبعة في المجتمع الروسي أن يخاطب الإنسان بالاسمين للاحترام. المترجم.

- شيء طريف. إنك أخذت حيوانا وشققت رأسه بالسكين، والآن بدأت تقرأ عليّ المواعظ. لربما أنني لم أكن سأعطي الرخصة بإجراء العملية لي. وكذلك (رفع الرجل عينيه إلى السقف كما لو كان يتذكّر صيغة ما)... وكذلك حال أهلي. لربما يحق لي إقامة الدعوى في المحكمة.

غدت حدقتا فيليب فيليبوفيتش دائرتين تماماً، وسقط السيجار من يده. "يا له من خلقة". وسأل وقد وصوص عينيه:

-هل انت غير راض لتحويلك إلى إنسان؟ لربما تفضّل أن ترتاد القمامة مجددا؟ وأن ترتجف من القر تحت فسحات مداخل أفنية البيوت؟ لو كنت أعلم...

- ما لك تلومني... وتردد الكلام عن القمامة، والقمامة. إنني كنت أكسب لقمتي. وماذا لو متُ تحت مشرطك؟ فما قولك بهذا يا رفيق؟

فهتف فيليب فيليبوفيتش بانزعاج قائلا:

- فيليب فيليبوفيتش. أنا لست رفيقا لك. هذا فظيع!

وفكر في دخيلة نفسه: "هذا كابوس، كابوس".

قال الرجل بلهجة انتصار:

- طبعاً، وهو كذلك...، - وقدم رجله إلى الأمام، - نحن نفهم. فأي رفاق نحن بالنسبة إليك! أنت رفيع المقام. ونحن لم ندرس في الجامعات. و لم نقطن في الشقق ذات خمس عشرة غرفة والحمامات. ولكن يجب وضع حد لهذا الآن. في الوقت الحاضر يتمتع كل فرد بحقوقه.

...كان فيليب فيليبوفيتش يصغي إلى أقوال الرجل وقد علا محياه

الشحوب ثم توقف الأخير عن الكلام وتوجه بحركة استعراضية نحو المنفضة، وبيده السيجارة الممضوغة الطرف. وكانت مشيته تنم عن الوقاحة، وانهمك طويلا في دعس عقب السيجارة في باطن المنفضة، ولسان حاله يقول: "هاك! هاك!" وبعد أن أطفأ عقب السيجارة طقطق فجأة بأسنانه ودس أنفه تحت إبطه.

وصرخ فيليب فيلبيوفيتش غاضباً:

– يجب اقتناص القمل بالأصابع. بالاصابع، وأنا لا أفهم من أين يأتيك هذا القمل؟

– ماذا تعتقد، هل أنني أربيها، أم ماذا؟ – قال الرجل ذلك مستاء، – يبدو أن القمل يحبني، – ولحظتئذ صار يحرك أصابعه في البطانة تحت الاكمام، واستخرج قطعة من القطن الأحمر الخفيفة وأطلقها في الهواء.

وجه فيليب فيلبيوفيتش ناظريه نحو النقوش البارزة في السقف، ونقر بأصابعه على الطاولة. اما الرجل فقد ابتعد بعد أن نفذ حكم الإعدام بالقملة، وجلس على الكرسي. ووضع راحتي يديه مسبلتين على طرفي جاكتته. وصارت عيناه تنظران إلى الخطوط المائلة للباركيه الأرضية. ثم رنا إلى حذاءيه وقد أثار لديه ذلك الارتياح البالغ. فنظر فيليب فيلبيوفيتش إلى هناك، حيث كانت تتألق بقع لامعة صارخة على البوزين العريضين، ووصوص عينيه وقال:

– ما المسألة التي أردت إبلاغي بها أيضا؟

– المسألة، إن المسألة بسيطة. أنا يا فيليب فيلبيوفيتش بحاجة إلى بطاقة هوية شخصية.

جفل فيليب فيليبوفيتش قليلا.

– هِمْ... يا للشيطان! بطاقة هوية شخصية! فعلا... هِمْ... لربما هذا ممكن بقدر ما...، – كان صوته ينم عن عدم الثقة والكآبة.

فرد الرجل بثقة:

– اسمح لي، كيف يمكن أن أعيش بدون هوية شخصية. هذا شيء، أرجو المعذرة... فأنت تعرف أن الإنسان ممنوع من الوجود بدون هوية. أولا، هناك اللجنة السكنية.

– وما علاقة اللجنة السكنية للبناية بالأمر؟

–كيف ما العلاقة؟ إنهم يلقونني ويسألوني:

– متى ستسجل إقامتك أيها الرجل المحترم؟

– آه، يا آلهي، – هتف فيليب فيليبوفيتش باكتئاب، – إنهم يلقونه ويسألونه. أنا أتصور ما تقوله لهم. أنا حظرت عليك التسكع على السلالم.

فقاله الرجل بعجب:

– ما رأيك، هل أنا محكوم بالأشغال الشاقة؟ – وانعكس إدراك كونه على حق حتى على حجر العقيق الأحمر المزيف فتألق. – ما هذا الكلام: التسكع؟! إن كلامك يشكل إساءة بالغة لي. إنني أمشي مثل جميع الناس.

وفي تلك اللحظة فرك حذاءيه اللامعين بالباركيه.

لاذ فيليب فيليبوفيتش بالصمت، وشرد ببصره جانبا. وفكر في قرارة نفسه: "يجب مع ذلك أن أضبط نفسي". ثم دنا من البوفيه وتجرع قدحا من الماء.

وقال بهدوء أكثر:

- رائع. المسألة لا تكمن في الكلمات. إذن ماذا يقول صاحبك رئيس اللجنة السكنية الظريف؟

- وماذا بوسعه القول؟ وعبثاً أن تشتمه بنعت الظريف. فهو يدافع عن المصالح.

- مصالح من، أرجوك أن تبلغني؟

- معروف مصالح من، مصالح الإنسان العامل.

فبحلق فيليب فيلبيوفيتش بعينيه.

- و لم تعتبر نفسك إنسانا عاملا؟

- هذا معروف، فلست من أهل الثراء - جماعة النيب[١٥].

- حسنا، إذن، ما حاجته للدفاع عن مصلحتك الثورية؟

-هذا معروف، إنه يريد تسجيل إقامتي. أنهم يقولون كيف يمكن أن يعيش الإنسان بموسكو دون تسجيل الإقامة. هذا أولا، والشيء الأساسي - وجود بطاقة الهوية. أنا لا أرغب في أن أكون بدون وثائق. ومرة أخرى - النقابة، وبورصة العمل.

-اسمح لي بالسؤال كيف واعتمادا على أية معطيات سأسجل إقامتك. بموجب غطاء المائدة هذا، أم بموجب جواز سفري أنا؟ إذ يجب مع هذا أخذ الوضع بنظر الاعتبار! ولا تنسى أنك، ايه... هِمْ... فأنت، إن جاز القول، مخلوق ظهر إلى الوجود فجأة، وفي المختبر، - وصار فيليب فيلبيوفيتش يتكلم بثقة أقل فأقل.

---

(١٥) نيب - مختصر "السياسة الاقتصادية الجديدة" التي كانت تطبق في فترة (١٩٢١ - ١٩٢٦) في الاتحاد السوفيتي. وسمح فيها بممارسة الأعمال الحرة. المترجم.

ولاذ الرجل بالصمت وعلى سحنته أمارات الظفر.

-ممتاز. في نهاية المطاف هل يجب تسجيلك وعموما، هل يجب أن تجري الأمور كلها وفق خطة صاحبك رئيس اللجنة السكنية؟ لكن لا يوجد لديك اسم ولا لقب.

-أنت غير محق في هذا. فبوسعي بكل بساطة اختيار اسم لي. وسأنشره في الصحف، وكل شيء سيغدو على ما يرام.

-وما هو الاسم بالخير؟

عدّل الرجل ربطة العنق وأجاب:

-بوليغراف بوليغرافوفيتش.

-لا تتباهل، - نبس فيليب فيليبوفيتش عابسا، - أنا أتحدث معك جادا.

فالتوى شاربا الرجل بابتسامة ساخرة.

- أنا لا أفهم مرادك، - وتكلم بمرح وبإدراك، - فمن الممنوع عليّ الكلام البذيء. والبصاق ممنوع. وأنا لا أسمع منك سوى: غبيّ، غبيّ، يبدو أن الشتائم يسمح بها إلى الأساتذة فقط في روسيا الاتحادية.

اصطبغ وجه فيليب فيليبوفيتش بالحمرة، وبينما كان يحاول سكب الماء في القدح كسره. فشرب من قدح آخر ودار في خلده: "بعد قليل سيبدأ بتعليمي، وسكون على حق تماما. إنني لا استطيع تمالك أعصابي".

والتفت دائرا في مقعده، واحنى هامته بأدب جمّ، ونبر بثبات شديد:

- العفو. إن أعصابي مرتبكة. وقد بدا اسمك غريبا بالنسبة لي. أين وجدته، فيسرني أن أعرف ذلك؟

– لقد نصحني رئيس اللجنة السكنية. ونحن بحثنا في التقويم – وسالني أي اسم يعجبك. فوقع اختياري على هذا الاسم.

–لا يمكن أن يوجد مثل هذا الشيء في أي تقويم.

فضحك الرجل ساخرا:

–شيء عجيب للغاية. لكنه معلق لديك في غرفة المعاينة.

مدّ فيليب فيلبيوفيتش يده إلى الزر المنبجس على ورق الجدار دون النهوض من مكانه. فجاءت زينا استجابة لرنين الجرس.

–اجلبي التقويم من غرفة المعاينة.

ومرت فترة صمت. وعندما رجعت زينا حاملة التقويم سأل فيليب فيلبيوفيتش:

–أين؟

–يحتفل به في ٤ من مارس.

–أرني إياه... هم... يا للعنة.. ارمه في الموقد، في التو واللحظة.

انصرفت زينا حاملة التقويم وعيناها ترفان فزعا. أما الرجل فقد هزّ رأسه معاتبا.

–بودي ان أعرف ما سيكون عليه لقبك.

–أنا اوافق على أخذ لقبي الموروث.

–كيف؟ الموروث؟ ما هو بالذات؟

–شاريكوف.

كان شفوندر رئيس اللجنة السكنية يقف في غرفة المكتب أمام

الطاولة مرتديا معطفا جلديا. فيما اتخذ الدكتور بورمنتال مكانه في المقعد. ولحظتئذ لاحت على الطبيب المتورد المحيا (الذي عاد لتوه من الخارج)، سمات الارتباك ذاتها كما هي الحال لدى فيليب فيليبوفيتش الجالس إلى جانبه. وسأل:

-كيف سيكتب؟

فقال شفوندر: – إن المسالة ليست صعبة. اكتب أيها المواطن البروفيسور وثيقة هوية شخصية، يرد فيها ان كذا وكذا... وحاملها هو فعلا بوليغراف بوليغرافوفيتش شاريكوف، هِمْ... وقد ولد في شقتكم.

تململ برومنتال في مقعده بحيرة دون أن يصدق ما تسمعه أذناه. أما فيليب فيليبوفيتش فقد لوى شاربيه.

-هِمْ... يا للشيطان! لا يمكن تصور وضع أكثر سخافة من هذا! إنه لم يولد هنا البتة. بل بمجرد... وصفوة القول...

ونبر شفوندر بشتامة:

-هذه المسألة تخصكم... ولد أم لم يولد... وعموما وإجمالا إنك أنت، يا بروفيسور، الذي أجريت التجربة! وأنت الذي خلقت المواطن شاريكوف...

-وبكل بساطة، – نبر شاريكوف من خزانة الكتب. وتطلع إلى ربطة العنق المنعكسة في قرار المرآة الذي لا نهاية له.

فزمجر فيليب فيليبوفيتش:

-بودي أن أطلب منك ألا تتدخل في الحديث. وعبثا تقول: بكل بساطة – فهذا ليس بسيطا أبدا.

وجمجم شاريك مستاء:

-كيف لا أتدخل.

وأيده شفوندر على الفور:

-المعذرة يا بروفيسور، إن المواطن شاريكوف على حق تماماً. فهذا من حقه: أن يشارك في مناقشة مصيره نفسه. لاسيما وأن القضية تتعلق بوثائق. إن الوثيقة هي أهم شيء في الدنيا.

في تلك اللحظة رن جرس التلفون بشدة وقطع الحديث. فقال فيليب فيليبوفيتش في السماعة:

-"نعم"... - ثم احمر وجهه وصاح:

-أرجو ألا تزعجوني بالتفاهات، فما علاقتكم بالأمر؟

ووضع السماعة في مكانها بعنف.

أضاء وجه شفوندر بابتهاج أزرق.

وصرخ فيليب فيليبوفيتش وقد اصطبغ وجهه بحمرة قانية:

-باختصار، انتهى الأمر...

وانتزع ورقة من المفكرة، وكتب عدة كلمات ثم تلا بانزعاج:

-"أؤكد بهذا..." الشيطان يعلم ما هذا. هِمْ... "إن حاملها رجل تم استنباطه لدى إجراء تجربة مختبرية عن طريق عملية جراحية للدماغ، يحتاج إلى وثائق"... يا للشيطان. وعموما، أنا عموما أعارض في منح مثل هذه الوثائق السخيفة. التوقيع - "البروفيسور بريوبراجينسكي".

فقال شفوندر باستياء:

-شيء غريب جدا يا بروفيسور. كيف تصف الوثائق بأنها سخيفة؟ أنا لا أسمح بوجود ساكن في البناية بدون وثائق، ناهيك عن كونه غير مسجل لدى الشرطة لأغراض الخدمة العسكرية. وماذا لو اندلعت على حين فجأة حرب مع الوحوش الامبريالية؟

وفجأة نبح شاريكوف من خزانة الكتب:

-أنا لن أذهب للقتال إلى أي مكان.

فذهل شفوندر، لكنه عاد إلى رشده بسرعة، وقال مخاطبا شاريكوف بوقار:

-أنت، أيها المواطن شاريكوف، تتحدث بدون أن يكون لديك شعور بالالتزام إلى أقصى حد. فينبغي أن تسجل لأغراض الخدمة العسكرية.

-سأسجل نفسي للخدمة، أما القتال - فهيهات...، - أجاب شاريكوف وهو يعدل برطة العنق.

آن الأوان لكي يبدي شفوندر انزعاجه. أما بريوبراجينسكي فتطلع إلى بورمنتال بغيظ وبكآبة. "انظر، ما هي أخلاقيات هذا الرجل..." وهز برومنتال رأسه بحركة ذات مغزى عميق.

وعوى شاريكوف عابساً:

-لقد أصبت بجرح شديد لدى إجراء العملية. انظر ماذا فعلا بي. - وأشار إلى وجهه، وبانت على عرض جبهته ندبة جرح طويلة.

سأل شفوندر رافعا حاجبيه عاليا:

-هل أنت فوضوي - فردي؟

فرد شاريكوف على هذا بقوله:

-يجب منحي بطاقة إعفاء من الخدمة العسكرية.

واجاب شفوندر مندهشا:

-حسنا، هذا لا يهم الآن إلى حين. المهم أننا سنبعث بوثيقة الهوية الشخصية الصادرة عن البروفيسور إلى الشرطة. وستزود بوثيقة.

وقاطعه فيليب فيليبوفيتش على حين غرة:

-بودي القول، ايه... - ويبدو أن أفكارا ما كانت تعذبه، - ألا توجد لديكم غرفة فارغة في البيت؟ أنا موافق على شرائها.

تطاير الشرر الأصفر في عيني شفوندر اللوزيتين:

-لا، يا بروفيسور، للأسف البالغ. ولا يتوقع وجودها.

ضغط فيليب فيليبوفيتش على شفتيه دون أن ينبس بكلمة. وهدر التلفون مرة أخرى كالمسعور. وضع فيليب فيليبوفيتش السماعة في مكانها صامتا دون أن يسأل شيئا، بشكل جعلها تتدحرج قليلا وتتعلق بالسلك الأزرق. فجفل الجميع، وفكر بورمنتال: "إن الشيخ متنرفز"، - أما شفوندر فقد احنى رأسه وعيناه تتألقان وانصرف.

ومضى شاريكوف في أثره، مطلقا صريرا بسير جزمته.

بقي البروفيسور وحيدا مع بورمنتال. وبعد أن لاذ فيليب فيليبوفيتش بالصمت برهة هزّ رأسه هزة خفيفة وانبرى يقول :

-هذا كابوس، كلمة حق. أترى؟ أقسم لك، أيها الدكتور العزيز، لقد تعذبت في غضون هذين الأسبوعين أكثر مما في خلال ٤١ سنة الأخيرة! يا له من شخصية، ذلكم ما أقول لك...

سمع من بعيد صوت تحطم الزجاج بصلصلة مكتومة، ثم انبعث صراخ مخنوق لامرأة، ثم توقف على الفور، واصطدمت قوة شريرة ما بورق جدران الدهليز، متجهة ؛لى غرفة المعاينة، فهدر شيء ما ساقطا هناك، ثم انكفأت راجعة على التو واصطفقت الأبواب. وصدرت عن المطبخ صرخة جهورية أطلقتها داريا بتروفنا. ثم ولول شاريكوف.

وهتف فيليب فيليبوفيتش مهرولاً إلى االباب:

- يا إلهي، ماذا حدث أيضاً!

– القط، – فطن برومنتال إلى مبعث الصراخ، واندفع في أعقابه.

هرولا في الدهليز إلى حجرة المدخل، واقتحماها، ثم استدارا من هناك في الدهليز باتجاه المرحاض والحمام. واندفعت زينا خارجة من المطبخ، والتقت بفيليب فيليبوفيتش وجها لوجه.

وصاح فيليب فيليبوفيتش غاضبا:

–كم من مرة أمرتك بألا يسمح بإدخال القطط؟ أين هو؟! ايفان أرنولدوفيتش هدئ، من فضلك، من روع المراجعين.

–إنه في غرفة الاستقبال! إنه في الحمام، في الحمام، يجلس ذلك الإبليس، – صرخت زينا محتبسة الأنفاس.

وصار فيليب فيليبوفيتش يحاول فتح الباب عنوة بكتفه، لكنه بقي موصدا.

– افتح حالا!

وجوابا على ذلك تقافز شيء ما على جدران الحمام، وتساقطت الطسوت، وانبعث عويل شاريك الشديد من وراء الباب بترجيعة جوفاء:

– سأقتله على الفور...

وتردد لغط الماء في الأنابيب وتدفق منهمرا. واتكأ فيليب فيليبوفيتش على الباب وصار يخلعه. وظهرت على عتبة المطبخ داريا بتروفنا المخضلة الوجه بالعرق بسحنة مشوهة. ثم ظهر شرخ متعرج في اللوح الزجاجي العالي المطل على المطبخ، وسقطت منه شظيتان، وفي إثرها تهاوى قط ضخم ذو شعر تزينه حلقات شبيهة بفروة النمر ولفّ على عنقه شريط أزرق وكأنه شرطي المنطقة. وسقط على المائدة تماما في صحن طويل فشطره إلى نصفين وتقافز من الصحن إلى الأرض، ثم استدار ماشيا على ثلاث أرجل، ولوح بالرجل اليمنى

كما يفعل الراقصون، ثم اختفى فورا في شق ضيق على الدرج الخلفي. بعد ذلك اتسع الشق، وظهر محل القط وجه عجوز تلف رأسها بمنديل، وأضحت في داخل المطبخ تنورة العجوز المفروشة بنقاط بيض. ومسحت العجوز بابهامها وسبابتها فمها الخالي من الأسنان، وتفحصت المطبخ بعينين متوريتين وثاقبتين، ونبست بفضول:

-أوه، بحق السيد المسيح!

عبر فيليب فيليبوفيتش المطبخ وقد شحب وجهه، وسأل العجوز مهددا: ماذا تريدين؟

-بودي إلقاء نظرة على الكلب المتكلم، - ردت العجوز بثأثأة ورسمت علامة الصليب.

فشحب وجه فيليب فيليبوفيتش أكثر، ودنا من العجوز عن كثب، وهمس بأنفاس مختنقة:

-اخرجي من المطبخ في هذه اللحظة!

انكفأت العجوز عائدة إلى الباب، وقالت مستاءة:

-ما لك يا أيها السيد البروفيسور، شديد الخشونة؟

-أقول لك اخرجي، - كرر فيليب فيليبوفيتش، وصارت عيناه واسعتين مثل عيني البومة. وصفق الباب الأسود بيديه وراء العجوز، - داريا بتروفنا، لقد رجوتك!

فردت داريا بتروفنا:

- فيليب فيليبوفيتش، - وجمعت قبضة يدها اليمنى، - ماذا بميسوري أن أفعل. إن الناس ينهالون عليّ طوال اليوم، حتى لو هربت إلى أقصى الدنيا.

تدفّق الماء في الحمام هادراً وبعنف. لكن لم يسمع أي صوت بعد هذا. ودخل الدكتور بورمنتال.

-ايفان أرنولدوفيتش، ألح! عليك في الرجاء... هِمْ... كم عدد المرضى المراجعين هناك؟

فأجاب بورمنتال:

-أحد عشر شخصا.

-لينصرفوا جميعا، لن أستقبل احدا اليوم.

ونقر فيليب فيليبوفيتش الباب بعظام أصابعه، ثم صرخ:

-اخرج في التو واللحظة! لماذا أغلقت عليك الباب؟

فرد صوت شاريكوف شاكيا ومكبوتا:

-هو - هو.

-يا للشيطان... أنا لا أسمع، أغلق حنفية المياه.

-هاو - هاو...

- أغلق حنفية المياه! ماذا فعل، أنا لا أفهم...، - صاح فيليب فيليبوفيتش وقد بلغ به الغيظ أقصاه.

وتطلعت زينا وداريا بتروفنا إلى الباب بفزع، وقد فغرتا افواههما. واضيفت إلى خرير الماء طرطشة مريبة. ضرب فيليب فيليبوفيتش الباب مرة أخرى بقبضته. وصاحت داريا بتروفنا من المطبخ:

-ها هو ذا.

فاندفع فيليب فيليبوفيتش إلى هناك. ظهرت وانبجست في المطبخ سحنة بوليغراف بوليغرافوفيتش عبر زجاج النافذة المكسور عند السقف. وكانت ملتوية، والعينان باكيتين، وامتد على طول الأنف خدش يضيء بلون الدم المتدفق حديثا.

وسأل فيليب فيليبوفيتش:

-هل جن جنونك؟ لماذا لا تخرج؟

فالتفت شاريكوف بكل كآبة وفزع وأجاب:

-لقد انغلق الباب عليّ.

-افتح القفل.

-هل لم تر القفل في حياتك أبدا؟

-إنه لا ينفتح، القفل اللعين.

-يا آلهي، لقد أنزل وصلة الأمان، - صاحت زينا وصفقت بيديها وضمتهما إلى صدرها.

فصرخ فيليب فيليبوفيتش ساعيا إلى أن يعلو صوته على هدير الماء:

-هناك زرّ ما. اضغط عليه من الأسفل، اضغط من الأسفل.

اختفى شاريكوف عن الأنظار وبعد لحظة ظهر في النافذة مرة أخرى وعوى في النافذة فزعا:

-لا يُرى أي كلب.

-أشعل النور.

فاشتاط غضبا وأجاب بقوله:

-إن القط اللعين كسر المصباح. عندما أردت أن أمسك أرجل النذل، انتزعتُ مقبض الحنفية من مكانه، والآن لا أستطيع العثور عليه.

ضرب الثلاثة كفّا على كف، وتسمّروا بمكانهم في هذه الوضعية.

بعد انصرام خمس دقائق كان بورمنتال وزينا وداريا بتروفنا يجلسون على السجاد المبلل إلى جانب بعضهم البعض، بعد ان لفوا

السجاد ووضعوه تحت عتبة الباب. ويضغطون بمؤخراتهم على الشق تحت الباب. أما البواب فيودور فقد تسلق فوق سلم خشبي إلى النافذة المطلة على المطبخ حاملا شمعة عرس داريا بتروفنا، بعد إشعالها. وومض عجزه ذو المربعات الكبيرة الرمادية في الهوة ثم اختفى في الفتحة.

وصاح شاريكوف مرددا قولا ما عبر لغط الماء المتدفق:

-هو... هو - هو!

وسمع صوت فيودور يقول:

- فيليب فيليبوفيتش، يجب فتح الباب بالرغم من كل شيء، ودع الماء ينساب، وسنصرفه من المطبخ.

فصرخ فيليب فيليبوفيتش غاضبا:

-افتح.

نهض الثلاثة من فوق السجاد، ودفعوا باب الحمام، وعلى الفور انهمر الماء في الدهليز. ثم انقسم فيه إلى ثلاثة تيارات: إلى الأمام نحو المرحاض المقابل، وإلى اليمين - نحو المطبخ، وإلى اليسار - نحو حجرة المدخل. وأغلقت زينا بابها، مطبطبة وقافزة وسط الماء. وخرج فيودور وقد غمر الماء كاحليه، وهو يبتسم لسبب ما. وكان مبللا بكامل جسده اللامع مثل المشمع.

-إنني اغلقته بهد جهد جهيد، فالدفق شديد.

وسأل فيليب فيليبوفيتش: وأين ذاك؟

ورفع إحدى ساقيه وهو يصب اللعنات.

فأوضح فيودور مبتسما ببلاهة:

-إنه يخاف الخروج.

-هل ستضربني يا عم، - سمع صوت شاريكوف من الحمام باكيا.

فقال فيليب فيليبوفيتش باقتضاب:

-أحمق.

وصارت زينا وداريا بتروفنا، وقد رفعتا تنورتيهما حتى الركب، تمشيان بأقدام حافية، أما شاريك مع البواب، فكانا يمشيان بأقدام حافية وقد رفعا سراويلهما، وصاروا جميعا يطبطبون بالخرق العارية فوق أرضية المطبخ، ويعصرونها في الدلاء القذرة والمغسّلة. فيما كان الموقد المهمل يئز ويزفر. وانساب الماء عبر الباب إلى السلالم ذوات الصدى، متجها إلى ما بين فسحة الطابقين، وسال في السرداب.

وقف بورمنتال منتصبا على أطراف أصابع رجليه في بركة عميقة على ارضية باركيه حجرة المدخل، وأجرى المفاوضات عبر الباب المفتوحة قليلا بقدر ما تسمح به السلسلة.

-لن يستقبل أحد اليوم، البروفيسور متوعك. أرجوكم ابتعدوا عن الباب، لقد انفجر أنبوب الماء لدينا...

واستفسر صوت من وراء الباب:

-ومتى سيكون الاستقبال؟ إنني للحظة فقط...

-لا أستطيع، - وتحول بورمنتال من الوقوف على أطراف الأصابع إلى الوقوف على العقبين، - إن البروفيسور طريح الفراش، كما انفجر الأنبوب. تعالوا غدا رجاء. زينا! عزيزتي! امسحي من هنا، وإلا فيسيل إلى السلم الرئيسي.

-إن الخرق لا تكفي لجمع الماء.

وتردد صوت فيودور:

–الآن سنجمعه بالأقداح.

تعاقبت دقات الجرس الواحدة تلو الأخرى، وكان بورمنتال يقف عندئذ على راحتي قدميه.

وألحّ صوت ما ساعيا إلى دس رأسه في شق الباب:

–ومتى ستجري العملية؟

–لقد انفجر أنبوب المياه...

–بوسعي المشي بالكالوشين.

وظهرت وراء الابواب أشباح ضاربة إلى الزرقة.

–لا يمكن، أرجو المجيء غدا.

–لكنني مسجل عندكم.تعال غدا. حدثت كارثة لأنابيب المياه.

انشغل فيودور في جمع الماء من البركة عند قدمي الدكتور. وكان يقشط الماء قشطا بالقدح، أما شاريكوف المخدش الوجه فقد ابتدع وسيلة جديدة، إذ لف خرقة كبيرة بهيئة ماسورة واستلقى ببطنه في الماء وصار يدحرجها من حجرة المدخل إلى الوراء باتجاه المرحاض.

فسألت داريا بتروفنا غاضبة:

–ما لك يا إبليس تدفع بالماء من مكان إلى آخرفي كافة ارجاء الشقة؟ اسكبه في المغسلة.

ورد شاريكوف جامعا الماء العكر بيديه:

–كيف أسكبه في المغسلة، فهو سيسيل إلى السلم الرئيسي.

تحركت من الدهليز المصطبة مصحوبة بصرير، ووقف عليها فيليب فيليبوفيتش متوازنا في وقفته مرتديا جوربين مخططين أزرقين.

-إيفان ارنولدوفيتس، دعك من الإجابة. اذهب إلى غرفة النوم، وسأعطيك حذاءين.

-لا بأس يا فيليب فيليبوفيتش، هذه أمور تافهة.

-البس الكالوشين.

-لا حاجة. إن قدميّ مبللتان على أي حال.

-آه، يا آلهي، - قال ذلك فيليب فيليبوفيتش بكدر.

وفجأة نبر شاريكوف:

-يا له من حيوان حقير!

ومضى ماشيا القرفصاء وبيده مغرفة الحساء.

أغلق بورمنتال الباب، ولكنه لم يطق صبرا فانخرط في الضحك. وانفرج منخرا فيليب فيليبوفيتش، ولمعت نظاراته وسأل شاريكوف من عليائه:

-عمن تتحدث، أرجو أن تنورني.

فاجاب شاريكوف وعيناه تبرقان:

-عن القط أتحدث. يا له من نذل!

وقال فيليب فيليبوفيتش مستجمعاً أنفاسه:

-أتعرف يا شاريكوف، أنني لن أر، في الواقع، مخلوقا سفيها مثلك.

فضحك بورمنتال ضحكا محبوسا.

وتابع فيليب فيليبوفيتش قوله:

-أنت مجرد وقح. كيف تتجرأ على قول هذا. فأنت اقترفت هذه

الفعلة كلها، بينما تسمح لنفسك بالقول... كلا، هذا مخلوق لا يعلم حتى الشيطان ما هو!

ونبس بورمنتال:

–شاريكوف قل لي رجاء، كم من الوقت ستنفق في مطاردة القطط؟ اخجل! فهذه شناعة يا متوحش!

فرد شاريكوف عابساً:

–أي متوحش أنا؟ لست متوحشاً. إن من المستحيل احتمال وجوده في الشقة. فهو لا يني يبحث فقط عما يسرقه. مثلا، التهم اللحم المفروم لدى داريا. وأردت أن ألقنه درسا.

وأجاب فيليب فيليبوفيتش:

–أنت نفسك بحاجة إلى درس! انظر إلى سحنتك في المرآة.

ونبر شاريكوف بحزن ماسا عينه باليد المبللة الوسخة:

–كاد أن يفقأ عيني.

حين جفّ نوعا ما الباركيه المسود بسبب الرطوبة تغبشت جميع المرايا كما في الحمام، فيما توقف رنين الجرس. ووقف فيليب فيليبوفيتش في خفين منزليين في حجرة المدخل.

–هاك يا فيودور.

–جزيل الشكر.

–غيّر ملابسك على الفور. كما اشرب قدحا من الفودكا لدى داريا بتروفنا.

–جزيل الشكر، – ثم تردد فيودور واضاف قوله: – ثمة شيء آخر، يا فيليب فيليبوفيتش، والمعذرة لأنني اشعر حقا بعدم الارتياح من

القول، لكن فقط يجب دفع ثمن الزجاج المحطم في الشقة السابعة... إذ رجمها المواطن شاريكوف بالحجارة...

–هل رجم القط؟ – سأل فيليب فيليبوفيتش، متجهما، كالسحابة.

–تلك هي المسألة، إذ رجم صاحب الشقة أيضا. وقد هدد بإقامة الدعوى في المحكمة.

–يا للشيطان.

–إن شاريكوف احتضن طباختهم، فأخذ ذاك يطرده، وعندئذ تشاجرا.

–لخاطر الله، خبرني فورا لدى وقوع مثل هذه الأشياء! كم يجب أن أدفع؟

–روبلا ونصف الروبل.

استخرج فيليب فيليبوفيتش ثلاث قطع لامعة من فئة خمسين كوبيكا، وسلّمها إلى فيودور.

–يتعين دفع روبل ونصف بسبب هذا الوغد، – وتردد صوت متحشرج عند الباب، – إنه هو بالذات...

التفت فيليب فيليبوفيتش، وعض على شفته، ودفع شاريكوف صامتا، وحبسه في غرفة الاستقبال وأغلق الباب بالمفتاح. فراح شاريكوف يقرع الباب بيديه بعنف على التو.

وصرخ فيليب فيليبوفيتش بصوت ينم عن مرضه بجلاء:

–لا تجرأ!

ولاحظ فيودور بلهجة ذات مغزى:

–هذا سفيه فعلا، إنني لم أر في حياتي مثل هذا...

انبجس بورمنتال كما لو نبت من تحت الأرض.

– فيليب فيليبوفيتش، أرجوك لا تقلق نفسك.

وفتح الطبيب باب غرفة الاستقبال بنشاط وسمع صوته من هناك يقول:

–ماذا جرى لك، هل أنت في خمارة؟

وأضاف فيودور بحزم:

–هذا صحيح، هذا صحيح... كما يستحق لطمة على أذنه.

–ما هذا الكلام يا فيودور؟ – جمجم فيليب فيليبوفيتش باكتئاب.

٧

قال بورمنتال بإلحاح:

-لا، لا، لا. اسمح بوضعها.

وغمغم شاريكوف بعدم رضى:

-ما لك علقت بي، والله...

فقال فيليب فيليبوفيتش بلطف:

-شكرا لك، يا دكتور. فإنني تعبت من إبداء الملاحظات.

-بالرغم من ذلك لن أسمح لك بالأكل حتى تضع الفوطة. زينا أبعدي المايونيز عن شاريكوف.

تكدر شاريكوف وقال:

-كيف تقول "أبعدي"، إنني سأضعها الآن.

وحجب الطبق عن زينا بيده اليسرى، بينما دس باليمنى طرف الفوطة وراء ياقته، وأصبح شبيها بأحد الزبائن في صالون الحلاقة.

واضاف بورمنتال:

-خذ الشوكة أيضا رجاء.

أطلق شاريكوف تنهدة طويلة، وراح يلتقط قطع سمك الزجر في المرقة الكثيفة. وأعلن مستفسرا:

-سأشرب أيضا شيئاً من الفودكا؟

واستعلم بورمنتال:

–ربما يكفيك ما شربت؟ لقد أصبحت في الآونة الأخيرة تكثر من الإقبال على الفودكا.

–وهل تأسف عليها؟

ثم تطلع من تحت حاجبيه.

وتدخل فيليب فيليبوفيتش الحازم:

–هراء ما تقول.

لكن بورمنتال قاطعه بقوله:

–لا تقلق، يا فيليب فيليبوفيتش، فسأتولى هذا بنفسي. إنك يا شاريكوف تردد السخافات، ومما يثير الاستنكار على الأخص أنك ترددها بشكل قاطع وبثقة. طبعاً، أنا لا آسف على الفودكا. لا سيما وأنا لست صاحبها بل إنها تعود إلى فيليب فيليبوفيتش. لكنها مضرة فحسب. هذا – أولا، وثانيا – إنك بدون فودكا أصلا تسلك سلوكا شائنا.

وأشـار بورمنتال إلى زجـاج البوفيه الملصوق بـالـورق. قال البروفيسور:

– زينوشا، أعطيني رجاء قطعة أخرى من السمك.

وفي تلك اللحظة مد شاريكوف يده إلى السراحية، وسكب قدحا وهو يرمق بورمنتال بنظرة جانبية خاطفة.

فقال بورمنتال:

–يجب أن تقدم إلى الآخرين أيضا. وهكذا ينبغي أولا أن تصب إلى فيليب فيليبوفيتش ثم لي وبعد ذلك لنفسك.

انفرج فم شاريكوف عن ابتسامة ساخرة لا تكاد تلحظ، وسكب الفودكا في الأقداح. ونبس:

-كل شيء عندكم كما في الحفلات. الفوطة هنا، وربطة العنق هناك، وعفوا، وتفضل "ميرسي"، بينما لا يوجد عندكم شيء حقيقي. أنتم تعذبون أنفسكم بأنفسكم كما في أيام القيصر.

-اسمح لي بالسؤال وكيف الحال لدى الشيء الحقيقي، - سأل فيليب فيليبوفيتش.

فلم يردّ شاريكوف على كلام فيليب فيليبوفيتش هذا، بل رفع القدح وقال:

-هيا، أتمنى للجميع...

فأجاب بورمنتال بشيء من السخرية:

-ولك أيضا.

وتجرع شاريكوف محتويات القدح، وتغضنت سحنة وجهه، ورفع قطعة من الخبز إلى أنفه، وتشممها، ثم التهمها، علما أن عينيه امتلأتا بالدموع.

وفجأة نبر فيليب فيليبوفيتش بصورة متقطعة:

-خبرة... طويلة.

ورشقه بورمنتال بنظرة متعجبا:

-المعذرة، لم أسمعك.

-خبرة طويلة، - كرر فيليب فيليبوفيتش قوله، وهزّ رأسه مرارة، - فهنا ليس بمقدورنا عمل شيء... إنه كليم.

رشق بورمنتال عيني فيليب فيليبوفيتش بنظرة حادة وباهتمام بالغ:

-هل تظن يا فيليب فيليبوفيتش؟

-لا حاجة للظن، فأنا واثق من ذلك.

فقال بورمنتال:

-هل من المعقول...

ورنا إلى شاريكوف بنظرة جانبية. فيما برطم هذا مرتابا.

وهمس فيليب فيليبوفيتش بصوت خافت:

- spater[١٦]

فرد المساعد:

- Gut[١٧]

جلبت زينا طبق الديك الرومي. فسكب بورمنتال النبيذ الأحمر في قدح فيليب فيليبوفيتش، وعرضه على شاريكوف أيضا.

-أنا لا أريد، الأفضل أن أشرب الفودكا.

واكتسى محياه بطبقة زيتية، وتصببت جبهته عرقا، وغلبته البهجة. كما أن فيليب فيليبوفيتش أصبح أكثر رقة ولطفا بعد شرب النبيذ. وغمر الصفاء عينيه. وكان يتطلع بمودة إلى شاريكوف الذي بدا رأسه الأسود وسط الفوطة البيضاء كالذبابة في القشدة.

أما بورمنتال، الذي انتعش وانشرح صدره فقد اكتشف في ذاته ميلا إلى النشاط.

فاستفسر من شاريكوف قائلا:

---

(١٦) فيما بعد (بالألمانية).

(١٧) حسنا (بالألمانية).

-حسنا، ماذا سنفعل أنا وأنت في المساء؟

ورمش ذاك بعينيه وأجاب:

-أفضل شيء، هو أن نذهب إلى السيرك.

ولاحظ فيليب فيليبوفيتش بمودة: - في كل يوم إلى السيرك، باعتقادي أن ذلك ممل جدا. لو كنت مكانكما لذهبت ولو مرة إلى المسرح.

فأعقب شاريك:

-أنا لن أذهب إلى المسرح.

ورسم علامة الصليب على فمه[١٨].

-إن عادة الحزق عند المائدة تسلب الآخرين الشهية، - أبلغ بورمنتال تلقائيا، - وارجو المعذرة... فلِمَ لا يعجبك المسرح؟

حدق شاريكوف في القدح الفارغ وكأنه منظارا، وأمعن الفكر هنيهة ثم حزق ولوى شفتيه.

-إنه مجرد سخافات. فهم يتحدثون ويتحدثون... إنها ثورة مضادة فحسب.

استلقى فيليب فيليبوفيتش على ظهر مقعده الغوطي الطراز وقهقه بشكل جعل أسنانه الذهبية تنبجس متألقة. بينما هزّ بورمنتال رأسه فقط. وعرض اقتراحا بقوله:

-لو طالعت شيئاً ما. والا...

---

(١٨) من عادة بسطاء الناس الروس رسم علامة الصليب على الفم لدى الحزق. المترجم.

–أنا اصلا أطالع وأطالع...، – أجاب شاريكوف ثم سكب على حين غرة لنفسه قدحا من الفودكا بشراهة.

وصاح فيليب فيليبوفيتش بلهجة تنم عن القلق:

–زينا، خذي، يا ابنتي، الفودكا. ليس ثمة حاجة إليها أكثر. وماذا أنت تطالع؟

وفجأة ومضت في خياله صورة: "جزيرة مهجورة ونخلة ورجل يرتدي فروة وحش وطرطورا. يجب أن يُعطى كتاب روبنسون كروزو للمطالعة".

–هذا... ما اسمه... الرسائل المتبادلة بين أنجلس وذاك، كيف اسمه... الشيطان – كاوتسكي.

أوقف بورمنتال شوكته في منتصف الطريق وبها قطعة من اللحم. أما فيليب فيليبوفيتش فطرطش النبيذ. فيما احتال شاريكوف عندئذ في تجرع قدح الفودكا.

ووضع فيليب فيليبوفيتش مرفقيه على المائدة، وتفرس في شاريكوف وسأله:

–اسمح لي أن أعرف رأيك بما قرأته؟

هزّ شاريكوف كتفيه.

–أنا غير موافق.

–مع من؟ مع أنجلس أم مع كاوتسكي؟

فرد شاريكوف:

–مع الاثنين.

–هذا رائع، وحق ربي. "سأفتّك بجميع القائلين إنها

الأخرى"[١٩]... وماذا كان بوسعك أن تقترح من جانبك؟

-وما الذي يمكن اقتراحه، إنهم يكتبون ويكتبون، المؤتمر والمان ما... إن الرأس يتورم من هذا الكلام. فليتقاسم الناس كل شيء على قدم المساواة...

وهتف فيليب فيليبوفيتش لاطما غطاء المائدة بقبضته:

-هذا ما كنت أظنه بالذات، وهو بالذات ما كنت أفترضه.

وسأل بورمنتال باهتمام:

-وأنت تعرف الوسيلة؟

فاوضح شاريكوف وقد أصبح سلس اللسان بعد الفودكا:

-وأية وسيلة هناك، فالمسألة بسيطة. وإلا ستجد أحدهم قد احتل سبع غرف، ولديه اربعون بنطالا، بينما يضطر الآخر إلى التشرد والبحث عن الطعام في صناديق القمامة.

وصوص فيليب فيليبوفيتش عينيه باعتزاز وقال:

-فيما يخص الغرف السبع، أنت تقصدني طبعاً؟

فتململ شاريكوف ولاذ بالصمت.

-إذن، حسنا، أنا لست ضد التقاسم. دكتور، كم عدد المرضى الذين رفضت استقبالهم يوم أمس؟

ورد بورمنتال على الفور:

-٩٣ شخصاً.

---

(١٩) مقطع من سيرينادا "دون جوان" لتشايكوفسكي. المترجم.

–هِمْ... أي. ٠٩٣ روبلا. لنقسم هذه الخسارة على ثلاثة رجال. و لم نحسب زينا وداريا بتروفنا. لتدفع يا شاريكوف حصتك البالغة ٠٣١ روبلا، فتفضل بتسديدها.

فأجاب شاريكوف فزعا:

–يا لها من لعبة، وثمن أي شيء هذا؟

وجأر فيليب فيليبوفيتش فجأة، وقد تجاوز حالة الهدوء المشوب بالسخرية:

–ثمن الحنفية و القط.

– فيليب فيليبوفيتش، – هتف بورمنتال بقلق.

–مهلا. ثمن الشناعة التي اقترفتها، وبفضلها أفسدت استقبال المرضى. هذا شيء لا يطاق. أن يتقافز إنسان في كافة أرجاء الشقة مثل كائن بدائي. ويكسر الحنفيات. من قتل قطة مدام بالاسوهير؟ من...

وأضاف بورمنتال قائلا:

–أنت يا شاريكوف الذي عضضت سيدة على الدرج منذ ثلاثة أيام.

وزأر فيليب فيليبوفيتش:

–لأنك تقف...

فولول شاريكوف قائلا:

–لقد لطمتني على بوزي، بوزي ليس من أملاك الدولة.

وصاح بورمنتال وهو يقلب القدح:

لأنك قرصتها من نهدها. أنت تقف...

وزأر عليه فيليب فيليبوفيتش صائحا:

-أنت تقف في أدنى درجة من درجات التطور، أنت مخلوق ضعيف العقل ما زلت في قيد التكوين، وجميع أفعالك حيوانية صرفة، وأنت تسمح لنفسك بحضور رجلين من ذوي التعليم الجامعي وبوقاحة لا تطاق أبدا بتقديم نصائح ما، ذات نطاق كوني وغباء كوني أيضا. عن كيف يمكن تقاسم كل شيء... وفي الوقت نفسه ابتلعت مسحوق تنظيف الأسنان...

-قبل ثلاثة أيام. - أكد بورمنتال.

وهدر فيليب فيليبوفيتش قائلا:

-وهكذا..تذكر دائما وأبدا - بالمناسبة لماذا أزلت مرهم الزنك من على أنفك؟ - إن من الواجب عليك السكوت والإصغاء إلى ما يقال لك، والتعلم، والسعي إلى أن تغدو عضوا مقبولا بقدر ما في المجتمع المتمدن. بالمناسبة، من هو النذل الذي زودك بذلك الكتاب؟

أجاب شاريكوف مرتبعا، وقد سحقته الهجمات من الجانبين:

-الجميع لديك أنذال.

وهتف فيليب فيليبوفيتش بغيظ وقد اصطبغ وجهه بالحمرة:

-أنا أحدس من...

-ليكن، إن شفوندر أعطاني إياه... وما هو بنذل...من أجل أن أتطور...

وصاح فيليب فيليبوفيتش وعلا وجهه الشحوب:

-أنا لا أرى مدى تطورك بعد كاوتسكي.

ثم ضغط فورا على الزرّ في الجدار.

وصرخ بورمنتال:

–إن حادث اليوم يبين ذلك بأفضل وجه. زينا! زينا!

وصاح شاريكوف مرتعبا:

–زينا!

هرعت زينا شاحبة الوجه.

–زينا، هناك في غرفة الاستقبال، هل هو في غرفة الاستقبال؟

فرد شاريكوف طائعا:

–في غرفة الاستقبال. إنه أخضر مثل محلول الكوباروس.

–هناك كتاب أخضر...

وهتف شاريكوف يائسا:

–إذن، هل ستحرقونه الآن، لكنه ملك الدولة، واستعرته في المكتبة.

–مراسلات... ما اسمه... أنجلس.. مع ذلك الشيطان، ارمه في الموقد.

انصرفت زينا مسرعة.

وصاح فيليب فيليبوفيتش وهو يقضم جناح الديك الرومي:

–بودي لو أشنق شفوندر هذا. كلمة شرف، سأشنقه على أول غصن شجرة.

انه يجلس الحقير العجيب في البيت مثل الدملة، ولا يكفي أنه يكتب شتى الأكاذيب في الجرائد...

صار شاريكوف ينظر إلى البروفيسور شزرا. فيما رد عليه فيليب فيليبوفيتش بنظرة شزراء أيضا، ولاذ بالصمت.

وعلى حين غرة فكر بورمنتال في قرارة نفسه:

-"أوه، أظن لن يحدث أي خير في الشقة عندنا".

جلبت زينا في طبق مدور كعكة محمرة من الجانب الأيمن ومحمصة من الجانب الأيسر ودورق القهوة.

فأعلن شاريكوف فورا مهددا باشمئزاز:

-لن آكلها...

- لم يقدمها أحد إليك. ليكن سلوكك مؤدبا.

-يا دكتور، تفضل.

وانتهى الغداء في سكون.

استخرج شاريكوف من جيبه سيجارة مكسورة وصار ينفث الدخان. وتطلع فيليب فيليبوفيتش إلى الساعة بعد أن رشف القهوة، وضغط على الزر فدقت برنين عذب معلنة الثامنة والربع. واستلقى فيليب فيليبوفيتش كعادته على ظهر المقعد الغوطي الطراز، وتناول الجريدة من على الطاولة.

-دكتور، أرجوك، اذهب معه إلى السيرك. لكن لخاطر الله انظر إلى البرنامج، وتأكد من عدم وجود القطط.

ولاحظ شاريكوف بعبوس هازّا رأسه:

-لا أدري كيف يسمحون لمثل هذه اللئام بدخول السيرك.

فقال فيليب فيليبوفيتش بلهجة ذات مغزى:

-ما أكثر المخلوقات التي يسمح لها بالدخول إلى هناك، ماذا سيعرضون اليوم؟

وأخذ بورمنتال يقرأ:

-في سيرك سولومونسكي يقدمون عرضا لأربعة ما باسم يوسيمس[٢٠] وللشخص ذي النقطة الميتة.

فاستفسر فيليب فيليبوفيتش برية:

-من جماعة يوسيمس هؤلاء؟

-الله يعلم، إنها أول مرة ألاقي فيها هذا الاسم.

-إذن، فالأفضل أن تشاهدا العرض في سيرك آل ميكيتين. من الضروري أن يكون كل شيء واضحا.

-لدى آل نيكيتين... لدي آل نيكيتين... هِمْ... الأفيال، والذروة في خفة الحركة لدى البشر.

سأل فيليب فيليبوفيتش مخاطبا شاريكوف بلهجة متشككة:

-حسنا، ما قولك بصدد الأفيال، يا شاريكوف العزيز؟

فاستاء هذا. ثم أجاب شاريكوف:

-ما رأيك، هل أنني لا أفهم. القطط مسألة أخرى. أما الأفيال فهي حيوانات نافعة.

-إذن، ممتاز. ما دامت نافعة، فاذهب لمشاهدتها. ويجب إظهار الطاعة لإيفان أرنولدوفيتش. كما ينبغي عدم تبادل أي أحاديث في البوفيه هناك. وأرجوك، يا إيفان أرنولدوفيتش عدم تقديم البيرة إلى شاريكوف.

بعد مضي عشر دقائق كان إيفان أرنولدوفيتش وشاريكوف،

---

(٢٠) أسرة من لاعبي الأكروبات، من ذوي الأصل الإسباني. كانوا يقدمون عروضهم بموسكو في تلك الأعوام. المترجم.

الذي ارتدى قبعة كاسكيت ذات طرف شبيه بمنقار البط ومعطف من قماش الجوخ السميك رفعت ياقته، قد انصرفا إلى السيرك. وران الصمت على الشقة. واعتكف فيليب فيليبوفيتش في غرفة مكتبه. فأشعل المصباح تحت الغطاء الأخضر الثقيل. مما جعل الجو في الغرفة الكبيرة يشي بالطمأنينة البالغة، وصار يذرع الغرفة رواحا ومجيئا. وأخذ الضوء ينبعث من طرف السيجار بصورة مديدة وساخنة بشعلة خضراء باهتة. وكان البروفيسور يضع يديه في جيبي البنطال، ويعاني من عذابات فكرة ثقيلة مما انعكس على جبهته الصلعاء المميزة للعلماء. وراح يتمطّق ويردد عبر أسنانه "نحو ضفاف النيل المقدسة..." ثم همهم بشيء ما. وفي نهاية المطاف وضع السيجار في المنفضة، ودنا من الخزانة الزجاجية بالكامل، وأضاء غرفة المكتب كلها بثلاثة مصابيح تتدلى من السقف. واستخرج فيليب فيليبوفيتش وعاء ضيقا من الخزان، من الرف الزجاجي الثالث، وأخذ يتفحصه عابسا في ضوء النور. كانت تعوم فيه كتلة صغيرة بيضاء في المحلول الشفاف الثقيل دون أن تترسب في القاع - إنها استخرجت من باطن دماغ شاريكوف. وراح فيليب فيليبوفيتش يهز كتفيه ويلوي شفتيه وينخر ويلتهم الكتلة بنظراته، كما لو كان يريد أن يستنبط من الكتلة البيضاء العائمة سبب تلك الأحداث العجيبة االتي قلبت الحياة رأسا على عقب في الشقة الكائنة في شارع بريتشيستينكا.

لربما، وهذا محتمل تماما، أن هذا العالم الرفيع المقام كان يرى السبب ذاك. وعلى أي حال تفحص الغدة النخامية بما فيه الكفاية وأخفى الوعاء في الخزانة، وأغلق عليه الباب بالمفتاح، ووضع المفتاح في جيب الصديرية، بينما هوى نفسه في الديوان الجلدي، وزوى رأسه بين كتفيه، ودس يديه عميقا في جيبي الجاكتة. ودخن السيجار الثاني لفترة مديدة، ومضغ طرفه الثاني تماما، وفي نهاية المطاف هتف في وحدته الكاملة، وقد اصطبغت سحنته بالخضرة مثل فاوست، قائلا:

-أظنني، وحق ربي، سأقدم على ذلك.

لكن لم يجب أحد على كلامه ذاك. وخمدت جميع الأصوات في الشقة. فالمعروف أن الحركة تهدأ في زقاق أوبوخوف عند الساعة الحادية عشرة مساء. وكانت تتردد في فترات نادرة ونادرة أصوات خطوات بعيدة، لأحد المشاة العائد متأخرا، إنها تدق في مكان ما وراء الستائر ثم تهمد. ورن في غرفة المكتب منبه الساعة برقة في الجيب الصغير تحت أصابع فيليب فيليبوفيتش... وأخذ البروفيسور ينتظر على أحرّ من الجمر عودة الدكتور بورمنتال وشاريكوف من السيرك.

٨

لا يعرف القرار الذي اتخذه فيليب فيليبوفيتش. و لم يفعل شيئاً ما على الأخص في الأسبوع التالي، ولربما أدت سلبيته إلى أن أصبحت الحياة في الشقة مترعة بالأحداث.

فبعد مضي ستى أيام على حادث الماء والقط، جاء شاب من اللجنة السكنية إلى شاريكوف، وقد تبين أنها امرأة، وسلمه وثائق وضعها شاريكوف في جيبه على الفور. ثم استدعى على التو الدكتور بورمنتال:

–بورمنتال!

رد بورمنتال وقد تغيرت سحنته:

–لا، أرجوك أن تدعوني باسمي وباسم أبي!

ولا بد من ملاحظة أن الجراح قد أفلح في غضون الأيام الستة المذكورة في التشاجر ثماني مرات مع ربيبه، وصار الجو متوترا في الغرف بزقاق أوبوخوف.

فلاحظ شاريكوف بكل جد:

–وأنت أيضا ادعوني بالاسم وباسم الأب!

وزأر فيليب فيليبوفيتش عند الباب:

–لا. أنا لا أسمح بدعوتك بهذا الاسم وباسم الأب في شقتي. وإذا ما رغبت في أن يكف الناس عن دعوتك مع رفع الكلفة - "شاريكوف". فإنني والدكتور بورمنتال سندعوك بـ"السيد شاريكوف".

ونبح شاريكوف:

-أنا لست سيدا، فالسادة جميعا في باريس!

وصاح فيليب فيليبوفيتش:

-هذه فعلة شفوندر! حسنا، سأصفي الحساب مع ذلك الوغد. ولن يكون أحد في شقتي سوى السادة ما دمت موجودا فيها! وإلا فيجب على أحد منا مغادرتها، وأغلب الظن - أنت. سأنشر اليوم إعلانا في الصحف، وصدقني بأنني سأجد لك غرفة.

فرد شاريكوف بدقة للغاية:

-أي كلام هذا، لست بذلك الأحمق لكي أترك هذه الشقة.

-كيف؟ - سأل فيليب فيليبوفيتش، وقد تغيرت سحنته إلى درجة جعلت بورمنتال يهرع إليه، ويمسك بكمه في قلق وحنان، - اسمع، لا تكن وقحا يا مسيو شاريكوف! - صاح بورمنتال بصوت عال. فتراجع شاريكوف، واستخرج من جيبه ثلاث أوراق: خضراء وصفراء وبيضاء وقال مشيرا إليها بأصابعه:

-هاكم، أنا عضو في التعاونية السكنية، ومن حقي أن اشغل مكانا للسكن في الشقة رقم ٥، لدى المستأجر بريوبراجينسكي، مساحة ٦١ أرشينا[٢١] مربعا - وفكر شاريكوف هنيهة ثم أضاف كلمة سجلها بورمنتال تلقائيا في دماغه باعتبارها كلمة جديدة، - تخيروا[٢٢].

عض فيليب فيليبوفيتش شفته ونبس عبرها بلا حذر:

-أقسم بأنني سأقتل شفوندر هذا في نهاية الأمر.

---

(٢١) وحدة لقياس الطول بروسيا تعادل ١٧ سم. المترجم.

(٢٢) كونوا أخيارا.

وتقبل شاريكوف هذا القول بكل اهتمام وحدة، وقد بان ذلك في عينيه.

فقال بورمنتال محذرا:

– فيليب فيليبوفيتش، vorsichtig[٢٣]...

وصرخ فيليب فيليبوفيتش بالروسية:

–لكن، ما العمل... ما دام يقدم على مثل هذه النذالة! اعلم يا شاريكوف.. أيها السيد، بأنني سأحرمك من الغداء ومن الأكل عموما في بيتي إذا ما سمحت لنفسك بأية فعلة سفيهة أخرى. إن ٦١ أرشينا شيء رائع، لكنني غير ملزم بإطعامك بموجب هذه الورقة الخضراء!

عندئذ ارتعب شاريكوف وفغر فاه. وتمتم:

–أنا لا أستطيع بدون طعام. وأين سآكل؟

فأعلن الطبيبان في آن واحد:

–إذن لتكن مؤدبا في سلوكك.

لزم شاريكوف الهدوء بصورة ملموسة، وفي ذلك اليوم لم يجلب الأذى إلى أي أحد باستثناء نفسه: فقد استغل فرصة غياب بورمنتال لفترة قصيرة فاستولى على موسى الحلاقة منه، وجرح خده بشكل جعل فيليب فيليبوفيتش وبورمنتال يخيطانه، فعوى شاريكوف لهذا السبب طويلا وساحت من عينيه الدموع.

في الليلة التالية جلس رجلان اثنان في غرفة مكتب البروفيسور، وسط العتمة الخضراء هما فيليب فيليبوفيتش وبورمنتال الوفي الملازم له.

---

(٢٣) حذار (بالألمانية).

كان الجميع قد أخلدوا للكرى في البيت. وارتدى فيليب فيليبوفيتش الروب دي شمبر اللازوردي وخفين أحمرين، بينما كان بورمنتال يرتدي قميصا وحمّالات زرقاء. وانتصبت على طاولة مستديرة قنينة كونياك إلى جانب ألبوم سميك، وطبق فيه ليمون وعلبة سيجار. وقد ملأ العالمان الغرفة بالدخان وانهمكا بحماس في مناقشة آخر حدث: ففي ذلك المساء استحوذ شاريكوف على عشرين روبلا من غرفة فيليب فيليبوفيتش كانت موضوعة تحت النشّافة، واختفى من البيت، وعاد في وقت متأخر في حالة سكر شديد. لكن هذا لم يكفه. إذ جاء برفقته شخصان مجهولان وأثارا ضجة على السلم الرئيسي، وأعلنا عن رغبتهما في المبيت لدى شاريكوف. ولم ينصرف هذان الشخصان إلا بعد أن تلفن فيودور، الذي كان في معطف خريفي ارتداه فوق الملابس الداخلية، إلى قسم الشرطة رقم ٥٤. فاختفى الشخصان حالما وضع فيودور سماعة التلفون. وبعد انصرافهما ضاع أثر منفضة من حجر الملاخيت كانت موضوعة على المائدة عند المرآة في المدخل، وكذلك قبعة فيليب فيليبوفيتش المصنوعة من فراء القندس وعصاه أيضا، وكان منقوشا على هذه العصا بحروف مذهبة: "إلى فيليب فيليبوفيتش العزيز المحترم من المساعدين الشكورين في يوم..."، ثم ورد الرقم الروماني XXV.

صاح فيليب فيليبوفيتش ملوحا قبضته تجاه شاريكوف:

–من هما؟

فتمتم هذا مترنحا وملتصقا بمعاطف الفراء بصدد كونه لا يعرف الشخصين، وأنهما ليسا من أبناء الكلاب بل رجلان طيبان.

–وأعجب ما في الأمر أنهما الاثنان كانا سكرانين. فكيف تسنى لهما ذلك؟ – أبدى فيليب فيليبوفيتش متطلعا إلى ذلك المكان في المشجب، حيث كانت الهدية التذكارية موضوعة سابقا.

فأوضح فيودور:

-هما خبيران في المهنة.

وانصرف للنوم وفي جيبه روبل.

أنكر شاريكوف بشكل قاطع موضوع العشرين روبلا، وجمجم لحظتئذ بشيء مبهم حول كونه ليس الوحيد في الشقة.

فاستفسر فيليب فيليبوفيتش بصوت خافت ولكن بلهجة وعيد:

-أها... لربما لفلف الدكتور بورمنتال الورقتين من فئة عشرة روبلات؟

ترنح شاريكوف، وفتح عينين شاردتين تماما وأورد الفرضية التالية:

-لربما اخذتهما زينكا...

صاحت زينا التي بدت عند الباب كالشبح، مغطية بيدها فتحة صدرها:

-ماذا تقول؟ كيف يتجرأ...

احتقنت رقبة فيليب فيليبوفيتش مصطبغة بلون أحمر.

-اهدئي يا زينوشا - قال لها مادّا يده إليها، - لا تقلقي، فإننا سندبر الأمر كله.

انفجرت زينا في البكاء فورا، وقد انفجرت شفتاها، ووضعت راحة يدها على عظم الترقوة.

فقال بورمنتال بارتباك:

-زينا، ألا تخجلين؟ من كان يتصور؟ تفو، أي عار!

ونبس فيليب فيليبوفيتش:

-أوه، زينا، أنت حمقاء، وليغفر لي الرب.

لكن بكاء زينا توقف لشأنه، ولاذ الجميع بالصمت. إذ ساءت حالة شاريكوف. فقد أخذ يدق رأسه بالجدار ويصدر صوتا: ما هو "ي"، ولا "ايه" - بل أشبه بـ"أي أي أي أي !" وشحب وجهه، وتدلى فكه بتشنج.

-اجلبوا الدلو إلى الوغد من غرفة المعاينة.

وهرع الجميع للعناية بشاريكوف المريض. وحين أخذوه للرقاد، كان يترنح بين يدي بورمنتال ويطلق الشتائم البذيئة برقة وتناغم، ويتلفظها بصعوبة.

وقع الحادث المذكور كله في نحو الساعة الواحدة ليلا، والآن أشارت الساعة إلى الرابعة بعد منتصف الليل، ولكن غمر الانشراح الرجلين كليهما في غرفة المكتب، بعد أن انتشيا بالكونياك مع الليمون. وأفرطا في التدخين لحد أن الدخان كان يتحرك بطبقات كثيفة بطيئة حتى دون أن يمتزج.

كان الدكتور بورمنتال شاحب المحيا وبعينين حازمتين للغاية، فرفع قدحا رفيع الساق وكأنه خصر يعسوب. وهتف بانفعال:

- فيليب فيليبوفيتش، أنا لن أنسى أبدا، كيف جئت إليك أيام كنت طالبا شبه جائع، فأويتني في القسم. وصدقني، يا فيليب فيليبوفيتش، إنك بالمناسبة لي أكثر من أستاذ ومعلم... تقبّل مني بالغ الاحترام... واسمح لي بتقبيلك أيها العزيز فيليب فيليبوفيتش.

وجمجم فيليب فيليبوفيتش بارتباك:

-نعم، يا صديقي.

ونهض للقائه.

فاحتضنه بورمنتال، وقبّله في شاربيه الكثيفين اللذين تنبعث منهما رائحة دخان نفاذة.

–والله يا فيليب فيليب...

وقال فيليب فيليبوفيتش:

–أنا متأثر، غاية التأثر، شكرا لك، يا صديقي، إنني أحيانا أصرخ فيك إبان العمليات، فاغفر لي انا الشيخ طبعي الحاد. وفي جوهر الأمر إنني وحيد بقدر كبير. من اشبيليا إلى غرناطة...

وهتف بورمنتال المتحمس بإخلاص:

– فيليب فيليبوفيتش، ألا تخجل؟... وإذا كنت لا تريد الإساءة إليّ فلا تتحدث معي أكثر بهذه الصورة...

–شكرا لك. نحو ضفاف النيل المقدسة... شكرا... إنني أحببتك بصفتك طبيبا ماهرا.

وصاح بورمنتال بانفعال:

– فيليب فيليبوفيتش...

ونهض من مكانه وأحكم إغلاق الباب المؤدي إلى الدهليز ثم عاد وأردف هامسا:

–إنها الخاتمة الوحيدة. طبعاً، أنا لا أتجاسر على تقديم النصائح إليك، لكن انظر إلى نفسك، يا فيليب فيليبوفيتش، فأنت قد تعذبت تماما، ولا يجوز مواصلة العمل بهذه الصورة!

فأكد فيليب فيليبوفيتش، متنهدا:

–من المستحيل على الإطلاق.

وهمس بورمنتال:

-إذن، هذا شيء لا يطاق. في المرة السابقة قلت بأنك تخاف عليّ، ولو عرفت، أيها الأستاذ العزيز، كيف أثر فيّ كلامك هذا. لكنني لم أعد طفلا. وأنا نفسي أتصور مدى خطورة الأمر. بيد أن قناعتي راسخة بأنه لا يوجد مخرج آخر.

نهض فيليب فيليبوفيتش، ولوح ذراعيه نحوه وهتف:

-لا حاجة لغوايتي، وحتى لا تأتي على ذكر الأمر، - وراح البروفيسور يذرع الغرفة، مؤرجحا أمواج الدخان، - كما أنني لن أصغي إليك. أتفهم ماذا سيحدث إذا ما كشف أمرنا. فلن نستطيع الإفلات "أخذا بنظر الاعتبار منحدرنا الطبقي"، بالرغم من أنها أول محكومية لنا. وأنت يا عزيزي، بدون منحدر طبقي مناسب؟

فرد بورمنتال بكآبة وهو يكمل احتساء الكونياك:

-أي شيطان! كان أبي محققا قضائيا في فيلنو.

-إذن، أترى. فهذا موروث سيء. ولا يمكن أن تتصور ما هو أسوأ منه. لكن، المعذرة، فهو لدي أسوأ. لقد كان والدي قمصا. ميرسي. من اشبيليا إلى غرناطة... في قتام الليالي الهادئة. ليأخذها الشيطان.

- فيليب فيليبوفيتش، أنت شخصية عالمية. ولن تؤخذ بسبب ابن كلبة ما... وهل بوسعهم التعرض لك، هذا مستحيل...

وعارض فيليب فيليبوفيتش ساهما وغارقا في التأملات:

-ولهذا بالذات لن أقدم على ذلك.

وتوقف وأمعن النظر في الخزانة الزجاجية.

-لكن لم لا ؟

-لأنك لست شخصية عالمية.

-أين أنا من ذلك؟

-أترى. أما أن أترك زميلا لي في لحظة عصيبة، والارتقاء بنفسي إلى المكانة العالمية، فأرجو المعذرة، ان هذا غير لائق، أنا طالب موسكوفي، ولست بشاريكوف.

رفع فيليب فيليبوفيتش كتفيه بكبرياء، وصار شبيها بأحد ملوك فرنسا القدامى.

وتمتم بورمنتال بحزن:

- فيليب فيليبوفيتش، ايه...

-إذن، ما العمل؟ هل ستنتظر الآن لكي يتسنى تحويل هذا الشقي إلى إنسان؟

فأوقفه فيليب فيليبوفيتش بحركة من يده. وسكب لنفسه قدح كونياك، وتجرعه، ومص الليمون وقال:

-إيفان أرنولدوفيتش، ما رأيك. هل أفقه انا شيئاً في علم التشريح والفسيولوجيا، وجهاز الدماغ لدى الإنسان؟ ما هو رأيك؟

أجاب بورمنتال بانفعال كبير ولوح بذراعيه:

- فيليب فيليبوفيتش، ما لك تسأل؟

-حسنا. بدون تواضع زائف. أنا أيضا لا أعتبر نفسي من أفهم الناس في هذا الميدان بموسكو.

فقاطعه بورمنتال بعنف:

-أما أنا فأعتبرك الأول، ليس بموسكو فقط بل وفي لندن وأوكسفورد!

-حسنا، ليكن كذلك. لكن يا بروفيسور المستقبل بورمنتال، لن يتسنى لأي أحد القيام بذلك. انتهى الأمر. بوسعك ألا تسأل.

وبميسورك الاستشهاد بكلامي. وقل إن بريوبراجينسكي قال: Finita. كليم! - هتف فيليب فيليبوفيتش فجأة بلهجة ظفر، وأجابته الخزانة بالرنين، وكرر - كليم! اسمع يا بورمنتال. أنت أول مريد لي في طريقتي العملية، وعلاوة على ذلك أنت صديقي، كما اقتنعت بهذا اليوم. وأنا أبلغك كصديق، - أنا طبعاً أعرف بأنك لن تأخذ بالتشنيع بي، - بالقول إن الحمار العجوز بريوبراجينسكي أقدم على هذه العملية مثل طالب في السنة الثالثة. حقا، لقد تم التوصل إلى الاكتشاف. وأنت تعرف ما هو. - لحظتئذ أشار فيليب فيليبوفيتش بيديه الاثنين نحو ستائر النافذة، قاصدا موسكو كما يبدو - لكن اعلم، يا إيفان أرنولدوفيتش، بأن النتيجة الوحيدة لهذا الاكتشاف ستكون أن يجلس شاريكوف هذا لدينا جميعا في هذا المكان - ولطم بريوبراجينسكي على رقبته - وكن على ثقة من ذلك! - ومضى البروفيسور يقول بتلذذ: ولو ألقاني أحدهم أرضا هنا وجلدني بالسياط، لكنتُ، وأقسم انني كنت سأدفع ٥٠ روبلا! من اشبيليا إلى غرناطة... وليأخذني الشيطان... فإنني عكفت طوال خمسة أعوام على استخراج الغدد النخامية من الأدمغة... وأنت تعرف العمل الذي أنجزته، فهذا أمر لا يدركه العقل. والآن يطرح السؤال: لأي غرض؟ لكي يتحول في أحد الأيام كلب ظريف جدا إلى مخلوق حقير غاية في الحقارة، يجعل شعر الرأس يقف في مكانه؟

-شيء خارق!

-أنا اتفق معك تماما. هذا يا دكتور ما يحدث حين يعمد الباحث بدلا من المضي بصورة موازية للطبيعة، ويدا بيد معها، إلى التعجيل بالقضية، ويحاول إماطة اللثام عن أسرار الطبيعة: هاك، خذ شاريكوف وتناوله مع العصيدة.

- فيليب فيليبوفيتش، وإذا ما زرع دماغ سبينوزا؟

زأر فيليب فيليبوفيتش:

-نعم! نعم، إذا لم يمت الكلب التعيس تحت مشرطي. وأنت رأيت اي نوع من العمليات هي. صفوة القول، إنني فيليب بريوبراجينسكي لم انفذ شيئاً في حياتي أصعب من هذا. فيمكن زرع هيبوفيس سبينوزا، أو أحد ما آخر من هذا النوع، وتحويل الكلب إلى مخلوق ذكي جدا. لكن السؤال هو لأي شيء؟ أوضح لي رجاء ما الحاجة إلى استنباط السبينوزات إذا ما كانت أية امرأة قادرة على ولادتهم في أي وقت. فقد ولدت المدام لومونوسوفا في بلدة خولموغوري ابنها العالم الشهير! يا دكتور، إن البشرية ستهتم نسفها بهذا. وإنها تعطي في سياق الارتقاء، في كل سنة وبإصرار، وتبرز من جملة من شتى الأراذل عشرات من العباقرة البارزين الذين يشكلون زينة الكرة الأرضية. هل أن الأمر مفهوم الآن، لماذا دحضت استنتاجك في موضوع مرض شاريكوف. إن اكتشافي، ولتأخذه الشياطين، الذي تدلل به، يساوي قرشا أعوج ليس إلا... نعم، لا تجادل، يا ايفان أرنولدوفيتش، فإنني فهمت فعلا. وأنا لا ألقي الكلام على عواهنه، وأنت تعرف هذا حق المعرفة. ومن الناحية النظرية هذا أمر شيق. إذن، حسنا، سيكون علماء الفسيولوجيا مبتهجين. ويجن جنون موسكو للنبأ... أما من الناحية العملية فما قيمة ذلك؟ من هناك الآن أمامك؟ – وأشار بريوبراجينسكي بإصبعه نحو غرفة المعاينة حيث كان شاريكوف نائما.

-وغد لا نظير له.

-لكن من هو؟ – كليم، كليم، – صاح البروفيسور، كليم تشوغونوف (فغر بورمنتال فاه)، – ذاك هو. رجل محكوم بالسجن مرتين. وإدمان على الكحول، و"نتقاسم كل شيء"، كما وفقدتْ القبعة، وورقتان من فئة عشرة روبلات. (عندئذ تذكر فيليب فيليبوفيتش عصاه المهداة إليه بمناسبة يوبيله فاحتقن وجهه احمرارا). وقح وخنزير... إنني سأجد تلك العصا. باختصار، إن الهيبوفيس صومعة مغلقة تحدد المعطيات عن سمات وجه إنسان ما. المعطيات!

من اشبيليا إلى غرناطة... - صاح فيليب فيليبوفيتش وعيناه تدوران في محجريهما بعنف - وليس المعطيات عن البشرية. هذا يمثل الدماغ نفسه بصورة مصغرة. وانا لست بحاجة إليه ابدا. وليذهب إلى جميع الخنزير. إنني كنت أهتم بشيء آخر تماما. باليوجينيا(٢٤). وبتحسن النوع الإنساني. وها أنا ذا قد واجهت موضوع إعادة الشباب. وهل تتصور أنني أجريها من أجل النقود؟ فأنا عالم بالرغم من كل شيء.

نبر بورمنتال محتسيا الكونياك: أنت عالم عظيم بالذات!

واكتست عيناه بحمرة قانية كالدم.

-لقد أردت القيام بتجربة صغيرة بعد أن حصلت لأول مرة قبل عامين على خلاصة الهورمون الجنسي من الهيبوفيس. وبدلا من ذلك ماذا حدث؟ يا ربّي! إن هذه الهورمونات في الهيبوفيس، أوه يا ربّي... تواجهني يا دكتور حالة يأس مطبق. وأقسم بأنني ضعت.

وعلى حين فجأة جمع بورمنتال أكمامه، وقال محدقا في أرنبة أنفه:

-إذن المسألة، أيها المعلم العزيز، إذا لا ترغب، فإنني سأجازف بإطعامه الزرنيخ. ومع الشيطان، إن أبي كان محققا. وفي نهاية المطاف إن هذا المخلوق التجريبي يعود لك شخصيا.

أصاب فيليب فيليبوفيتش الكدر وانزوى واستلقى في مقعده وقال:

-لا، لن أسمح لك بهذا أيها الصبي العزيز. أنا في الستين من العمر، وبوسعي تقديم النصح إليك. لا تقارف الجريمة أبدا، مهما كان الطرف الذي توجه ضده. وعش حتى الشيخوخة نظيف اليدين.

---

(٢٤) علم تحسين النوع البشري. المترجم.

-رحماك، يا فيليب فيليبوفيتش، فلو واصل التأثير فيه شفوندر هذا، ماذا سيحدث له عندئذ. يا آلهي. إنني الآن فقط أخذت أدرك ماذا يمكن أن يتمخض عنه شاريكوف هذا!

-أها! هل فهمت الآن؟ أنا فهمت ذلك بعد عشرة أيام من إجراء العملية الجراحية. وهكذا فإن شفوندر هو الغبي الرئيسي. إنه لا يفهم بأن شاريكوف يشكل خطرا عليه أكثر مني. والآن تراه يسعى بكل السبل إلى تأليبه ضدي، دون إدراك أنه إذا ما عمد شخص آخر إلى تأليبه ضد شفوندر فلن تبقى منه سوى بقايا عظام.

-طبعاً، فالقطط وحدها تساوي ما تساوي. إنسان ذو قلب كلب.

رد فيليب فيليبوفيتش مادا كلماته:

-أوه، لا، لا. أنت، يا دكتور، ترتكب خطأ فادحا، ولخاطر الله لا تتهم الكلب. إن القطط ظاهرة مؤقتة... إنها مسألة انضباط وتربية ولمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. أؤكد لك. وبعد مضي شهر آخر سيكف عن مهاجمتها.

-و لم ليس الآن؟

-إيفان أرنولدوفيتش، هذا في غاية البساطة... فما لك تسال في الواقع؟ إن الهيبوفيس لن يبقى معلقا في الهواء. إنه مزروع في دماغ كلب. ودعه يتكيف لوسطه. إن شاريكوف يظهر الآن فقط بقايا طباع الكلب، وافهم أن مطاردة القطط تمثل أفضل ما يفعله. تصور أن الفظاعة كلها تكمن في أن ما لديه هو ليس قلب كلب بل قلب إنسان. زد على أنه من أقبح القلوب الموجودة في الطبيعة!

استجمع بورمنتال، الذي كان مغتاظا حتى اللحظة الأخيرة، يديه القويتين، وأمررها على كتفيه وقال بعزم:

-طبعاً، إنني سأقتله!

فأجاب فيليب فيليبوفيتش بصورة جازمة:

-أنا أمنعك من هذا!

-رحماك...

وعلى حين غرة ابدى فيليب فيليبوفيتش حذره، ورفع إصبعه.

-مهلا... إنني سمعت وقع خطوات.

فأصغى الاثنان السمع. لكن ران الصمت في الدهليز. ونبر فيليب فيليبوفيتش:

-لقد تراءى لي ذلك.

ثم أخذ يتحدث بالألمانية بحماس. وكانت تتردد في أقواله مرات عديدة الكلمة الروسية "الإجرام".

وفجأة تيقظ بورمنتال وخطى نحو الباب:

-دقيقة.

وسمعت بجلاء وقع خطوات مقتربة من غرفة المكتب. علاوة على ذلك همهم صوت ما. فاستغلق بورمنتال الباب وتسمر في مكانه من الدهشة، فيما جمد فيليب فيليبوفيتش الذاهل تماما في مقعده.

بدت داريا بتروفنا في فتحة الدهليز المستطيلة المضاءة. وكانت ترتدي قميص النوم فقط، وارتسمت على وجهها أمارات العزم، وذهل الطبيب والبروفيسور لمرأى ضخامة جسدها القوي والعاري تماما كما بدا لهما بسبب الفزع. وكانت يدا داريا بتروفنا الجبارتان تسحبان شيئاً ما، وكان هذا "الشيء" يبدي مقاومة ويجلس عجزه ويجرجر على الباركيه ساقيه الصغيرتين اللتين يغطيهما الزغب الأسود. وقد

تبين ان ذاك "الشيء" هو شاريكوف طبعاً. كان ذاهلا تماما، وما برح في حالة سكر وبدا أشعث الشعر، وعليه قميص النوم فقط. وهزت داريا بتروفنا، الضخمة الجسم والعارية تقريبا، شاريكوف كما يهز كيس البطاطس، وتلفظت الكلمات التالية:

–تفضل وانظر أيها البروفيسور إلى زائرنا بوليغراف بوليغرافوفيتش. أنا كنت متزوجة، وزينا فتاة عذراء. لحسن الحظ أنني استيقظت.

وبعد أن أنهت داريـا بتروفنا كلمتها غمرها شعور بالخجل، فصرخت وغطت صدرها بيديها وولت منطلقة بسرعة.

فقال فيليب فيليبوفيتش، وقد احمرت سحنته وبعد أن ثاب إلى رشده، في أعقابها:

–داريا بتروفنا، أرجو المعذرة، لخاطر الله.

ورفع بورمنتال أكمامه عاليا وتوجه نحو شاريكوف، وحدق فيليب فيليبوفيتش في عينيه وانتابه الرعب.

–ماذا تفعل يا دكتور؟ أنا امنعك...

أمسك بورمنتال بياقة شاريكوف وهزّه بشكل أدى إلى تمزق قماش القميص من الأمام.

فاندفع فيليب فيليبوفيتش وسد عليه الطريق وأخـذ يخلص شاريكوف الهزيل البدن من قبضتي الجراح.

وصاح شاريكوف شبه مختنق وقد جلس على الأرض وبدأ بالصحو:

–لا يحق لك أن تعاركني.

ثم ولول فيليب فيليبوفيتش:

–دكتور...

عاد بورمنتال إلى وعيه نوعا ما فأخلى سبيل شاريكوف. وبعد ذلك أخذ هذا بالنشيج. وهمس بورمنتال كالحفيف:

–حسنا، لننتظر حتى الصباح. وسأقيم له حفلة "بينيفيس"[٢٥] خصيصا من أجله حين يصحو من السكر.

ولحظتئذ أمسك بشاريكوف من تحت إبطه وجرجره إلى غرفة الاستقبال لكي يرقده.

وحاول شاريكوف عندئذ أن يرفسه بقدميه، بيد أن ساقيه خذلتاه.

ونشر فيليب فيليبوفيتش ساقيه فانفجرت أطراف الروب دي شامبر، ورفع ذراعيه وعينيه إلى المصباح المعلق في سقف الدهليز ونبس: – يا للعجب العجاب...

---

(٢٥) عيد الممثل في المسرح لدى تقديم عرض خاص به. المترجم.

٩

لكن لم يقدر لحظة "البينيفيس" التي وعد بها الدكتور بورمنتال أن تتحقق في صباح اليوم التالي لأن بوليغراف بوليغرافوفيتش اختفى من البيت. فأصاب بورمنتال الكدر الشديد. ونعت نفسه بالحمار لأنه لم يخف المفتاح الرئيسي، وصاح بأن هذا أمر لا يغتفر، وأنهى كلامه بالتمني بأن يقع شاريكوف تحت عجلات الحافلة. أما فيليب فيليبوفيتش فقد جلس في غرفة المكتب، وقد دس أصابعه في خصلات شعره، وقال:

-أتصور ما سيحدث في الشارع.. أتـ... صو... ر.. من اشبيليا إلى غرناطة، يا آلهي.

وفقد بورمنتال أعصابه فقال:

-لربما ذهب إلى اللجنة السكنية...

-ثم انصرف إلى مكان ما.

وقد تشاجر بورمنتال مع الرئيس شفوندر في اللجنة السكنية لحد أن هذا جلس وانهمك في كتابة عريضة إلى المحكمة الشعبية بمنطقة خاموفنيكي، صارخا لحظتئذ بأنه ليس حارسا لربيب البروفيسور بريوبراجينسكي، لا سيما وأن هذا الربيب بوليغراف قد تبين يوم أمس فقط بأنه نذل، لأنه أخذ من اللجنة السكنية سبعة روبلات بحجة شراء كتب دراسية في الجمعية التعاونية.

وقام فيودور، الذي كسب من هذا الوضع ثلاثة روبلات، بتفتيش البناية من أعلاها إلى أسفلها. فلم يجد أثرا لشاريكوف.

وتم استيضاح شيء واحد فقط هو أن بوليغراف غادر البيت عند

الفجر مرتديا قبعة الكاسكيت والوشاح والمعطف، وأخذ معه قنينة من شراب الغبيراء في البوفيه وقفافيز الدكتور بورمنتال وكذلك جميع وثائقه. وأعربت داريا بتروفنا وزينا عن بهجتهما البالغة، دون إخفاء ذلك، وعن أملهما في ألا يعود شريكوف بعد هذا أبدا. وكان شاريكوف قد استدان من داريا بتروفنا في العشية ثلاثة روبلات وخمسين كوبيكا.

وزأر فيليب فيليبوفيتش ملوحا بقبضتيه:

–لقد نلتم ما تستحقونه من جزاء.

واستمر التلفون بالرنين طوال اليوم، كما رنّ في اليوم التالي أيضا. واستقبل الطبيبان عددا كبيرا للغاية من المرضى.وفي اليوم الثالث طرح في غرفة المكتب بصورة عاجلة موضوع إبلاغ الشرطة، التي يجب أن تبحث عن شاريكوف في دوامة موسكو. وما إن تم تلفظ كلمة "الشرطة" حتى عكر الكون الشامل هدير شاحنة في زقاق أوبوخوف. واهتزت النوافذ في البيت. ثم دق جرس الباب برنين ينم عن ثقة. وولج بوليغراف بوليغرافوفيتش بشعور من الاعتزاز البالغ، فنزع قبعته بصمت تام وعلق المعطف على المشجب وظهر بهيئة جديدة. إذ كان يرتدي جاكتة جلدية لا تناسب قيامته، وبنطالا جلديا مهترئا، وجزمتين انكليزيتين عاليتين مشدودتين بأربطة حتى الركبتين. واجتاحت حجرة المدخل فورا الرائحة النفاذة للقطط. فرسم برويوبراجينسكي وبورمنتال علامة الصليب على صدريهما كما لو جرى هذا بإيعاز من أحد، ووقفا عند الباب المفتوح في انتظار أولى الأنباء الصادرة عن بوليغراف بڤليغرافوفيتش، فمسد هذا شعره الخشن وسعل وتطلع حواليه لكي يرى الآخرون بأن بوليغراف يرغب في إخفاء ارتباكه عن طريق إبداء عدم التكلف.

في نهاية المطاف بدأ كلامه بالقول:

-أنا، يا فيليب فيليبوفيتش، حصلت على وظيفة.

فصدر عن حنجرة الطبيبين صوت جاف في آن واحد وتململا. وكان بريوبراحينسكي أول من ثاب إلى صوابه، فمد يده ونبر:

-هات الورقة.

كان مكتوبا بالآلة الكاتبة هناك: "نؤكد لحاملها أن الرفيق بوليغراف بوليغرافوفيتش شاريكوف يعمل فعلا رئيسا لشعبة تطهير مدينة موسكو من الحيوانات السائبة (القطط وغيرها) في قسم المرافق العمومية بموسكو".

فنبس فيليب فيليبوفيتش بتثاقل:

-هكذا، إذن، من أعطاك هذه الوظيفة. آه، بالمناسبة، أنا احدس هذا بنفسي.

وأجاب شاريكوف:

-آه، نعم، شفوندر.

-اسمح لي بأن أسألك - لماذا تنبعث منك هذه الرائيحة الكريهة؟

فتشمم شاريكوف الجاكتة باهتمام.

-حسنا، وإذا كانت تنبعث رائحة... هذا طبيعي، إنها ذات علاقة بالاختصاص. ففي الأمس خنقنا القطط، وخنقناها.

جفل فيليب فيليبوفيتش ونظر إلى بورمنتال. وكانت عينا الأخير شبيهتين بفوهتي بندقية سوداوين موجهتين نحو شاريكوف مباشرة عن كثب. فانطلق نحو شاريكوف بلا سابق إنذار وأمسك بتلابيبه بيسر وبثقة.

-النجدة! - صأصأ شاريكوف، وقد شحبت سحنته.

–دكتور!

–لن أسمح لنفسي بأي شيء سيئ، يا فيليب فيليبوفيتش، لا تقلق، – قال بورمنتال بصوت حازم وصرخ:–زينا وداريا بتروفنا!

فظهرت الاثنتان في حجرة المدخل. وقال بورمنتال:

–هيا، كرر، – وضغط على شاريكوف دافعا إياه باتجاه معطف الفراء، أطلب منكما المغفرة...

ورد شاريكوف المهزوم تماما بصوت مبحوح:

–حسنا، سأكرر...

وفجأة شهق وارتعش وحاول الصراخ "النجدة"، لكن لم تنبعث منه الصرخة، وغاص رأسه في معطف الفراء تماما.

–دكتور، أتوسل إليك.

وهزّ شاريكوف رأسه ملمحا إلى أنه استسلم وسيكرر القول.

–...اعذراني، يا أيتهما المحترمة داريا بتروفنا وزينائيدا...

فهمست زينا بفزع:

–بروكوفييفنا...

وقال شاريكوف مبتلعا الهواء:

–أوف... بروكوفييفنا... لأنني سمحت لنفسي...

–باقتراف الفعلة الدنيئة ليلا حين كنت في حالة سكر...

–سكر...

–ولن أفعل هذا أبدا...

–لن أفـ...

وتوسلت المرأتان في وقت واحد قائلتين:

–اتركه، اتركه، يا ايفان أرنولدوفيتش، إنك ستخنقه.

أخلى بورمنتال سبيل شاريكوف وقال:

–هل الشاحنة في انتظارك؟

فرد بوليغراف باحترام:

–لا... لقد جاءت بي فقط.

–زينا، أبلغي سائق الشاحنة بالانصراف. والآن يجب أن تضع في بالك ما يلي: إنك رجعت مرة ثانية إلى شقة فيليب فيليبوفيتش.

أجاب شاريكوف بعينين شاردتين:

–وإلى أين أرجع أيضا؟

–ممتاز. ويجب أن تغدو هادئا ووديعا. وإلا فسأحاسبك عن كل فعلة خسيسة. مفهوم؟

فرد شاريكوف:

–مفهوم.

كان فيليب فيليبوفيتش يلتزم الصمت طوال فترة تعنيف شاريكوف. وبدا كما لو احدودب ظهره بصورة بائسة، وراح يقضم ظفره وعيناه ترنوان إلى الباركيه. ثم رفعهما فجأة نحو شاريكوف وسأل بصوت متحشرج وبنبرة تلقائية:

–وماذا تفعلون بهذه... القطط الميتة؟

أجاب شاريكوف: إنها لصنع المعاطف. ستصنع منها ما يشبه معاطف فراء السنجاب لكي تباع إلى العمال بالأقساط.

وبعد ذلك، ران الصمت على الشقة. واستمر ذلك على مدى يومين. وكان بوليغراف بوليغرافوفيتش يذهب صباحا في الشاحنة، ويعود مساء فيتناول طعام الغداء بهدوء، برفقة فيليب فيليبوفيتش وبورمنتال.

وبالرغم من أن بورمنتال وشاريكوف يناماني في غرفة واحدة، هي غرفة الاستقبال، فلم يكونا يتبادلان الأحاديث مع أحدهما الآخر، لذا فإن بورمنتال شعر بالملل قبل الآخر.

وعقب يومين ظهرت في الشقة آنسة نحيفة القوام وبعينين مكحلتين ترتدي جوربين بلون عاجي، وأصابها الارتباك الشديد لدى رؤية فخامة الشقة.وقد جاءت ترتدي معطفا مهلهلا ماشية في أثر شاريكوف، واصطدمت بالبروفيسور عند حجرة المدخل. فتوقف هذا متعجبا، ووصوص عينيه وسأل:

-اسمحي لي بمعرفة ما حاجتك؟

-إنني سأعقد قراني عليها، إنها كاتبة الطابعة عندنا. وستعيش معي. ويجب إخراج بورمنتال من غرفة الاستقبال، فلديه شقته، - أوضح شاريكوف بنفور بالغ وبعبوس.

رفرف فيليب فيليبوفيتش عينيه، وفكر هنيهة متطلعا إلى الآنسة التي احمرت سحنتها، ودعاها بكل دماثة قائلا:

-أرجوك المجيء معي إلى غرفة المكتب للحظة. ونبس شاريكوف بسرغة وبريبة:

-وأنا معها أيضا.

وعندئذ انبجس بورمنتال فورا، كما لو طلع من تحت الأرض. وقال:

-العفو. إن البروفيسور يريد التحدث إلى السيدة. أما نحن، أنا وأنت فسنبقى هنا.

فقال شاريكوف بحنق:

-أنا لا أريد هذا.

وحاول التوجه في اعقاب الآنسة المتضرجة خجلا وفيليب فيليبوفيتش.

-لا، المعذرة.

وأمسك بورمنتال برسغ يد شاريكوف وتوجها إلى غرفة المعاينة.

لم يبدر صوت من غرفة المكتب على مدى خمس دقائق تقريبا، ثم سمع فجأة بكاء الآنسة بصوت مكتوم.

كان فيليب فيليبوفيتش يقف عند الطاولة أما الآنسة فكانت تبكي في منديلها الوسخ المزين بالدنتلا. وراحت الآنسة تولول باكية وتقول:

-لقد قال النذل إنه جرح في المعارك.

فرد فيليب فيليبوفيتش بلهجة قاطعة:

-إنه يكذب.

ثم هز رأسه وواصل الكلام:

-أنا اشفق عليك بصدق. لكن لا يجوز هذا، القبول بالزواج بأول من تلقيه لمجرد أن لديه منصب. يا صغيرتي، هذا أمر شنيع... اسمعي، - وفتح درج مكتبه واستخرج منه ثلاث أوراق نقدية من فئة العشرة روبلات.

وانتحبت الآنسة وقالت:

-سأسمم نفسي، إنني آكل اللحم المملح الفاسد في المطعم

العمومي يوميا... كما أنه يهددني: وقال إنه قائد في الجيش الأحمر، كما قال: إنك ستعيشين معي في شقة فاخرة... وستأكلين الأناناس في كل يوم... وقال:إن طبعي طيب، سوى أنني اكره القطط. وأخذ مني خاتما للذكرى...

وجمجم فيليب فيليبوفيتش:

-هكذا... هكذا... هكذا... الطبع طيب... من اشبيليا إلى غرناطة. يجب عليك إبداء الصبر فما زلت في ريعان الشباب...

-هل من المعقول أنك وجدته في فسحة المدخل هذه...

وزأر فيليب فيليبوفيتش: خذي حين يعطونك المال.

ثم فتح الباب على مصراعيه، وقاد بورمنتال شاريكوف تنفيذا لأمر فيليب فيليبوفيتش. فصار شاريكوف يحلق بعينيه، وانتصب شعر رأسه كالفرشاة.

-نذل، - قالت الآنسة، وعيناها الباكيتان الملطختان تتألقان، وأنفها المغطى بالبودرة قد صار مخططا.

فسأل فيليب فيليبوفيتش باقتضاب:

-ما سبب الندبة على جبهتك؟ اجهد نفسك في شرح الأمر إلى هذه السيدة.

وقرر شاريكوف أن يلعب بأوراقه الخاسرة كلها. ونبح قائلا:

-لقد جرحت في جبهة القتال ضد كولتشاك[٢٦].

---

(٢٦) الأميرال كولتشاك (ألكسندر فاسيلييفيتشش، ١٨٧٢ - ١٩٢٠) - أحد قادة الثورة المضادة في الحرب الأهلية بعد قيام ثورة أكتوبر. المترجم.

فنهضت الآنسة وغادرت الغرفة بعويل مديد. وصاح فيليب فيليبوفيتش في إثرها:

-كفّي عن البكاء. انتظري. اسمح بإعطاء الخاتم، - قال ذلك مخاطبا شاريكوف.

فنزع هذا من إصبعه طائعا خاتما أجوف مرصعا بحجر الزمرد. ثم قال فجأة بحنق:

-حسنا، ستدفعين ثمن هذا. غدا ساطردك بتقليص وظيفتك.

-لا تخافيه، - صاح بورمنتال في إثرها، - لم اسمح له بعمل أي شيء. - واستدار ونظر إلى شاريكوف نظرة جعلت الأخير يتراجع القهقرى، واصطدم قذاله بالخزانة.

وسأله بورمنتال: -ما هو لقبها؟ - ثم صاح: اللقب! - وفجأة غدا متوحشا ورهيبا.

-فاسنتسوفا، - أجاب شاريكوف، باحثا بعينيه، عن مخرج للإفلات.

-يوميا، - نبر بورمنتال بعد أن تعلق بياقة جاكتة شاريكوف، - سأقوم يوميا بالاستعلام في شعبة التطهير فيما إذا جرى تسريح المواطنة فاسنتسوفا وإذا ما تجرأت فحسب... وإذا ما علمت بأنها سرحت فـ... فساطلق عليك النار بيدي هاتين. حذار، يا شاريكوف. أقول لك هذا باللغة الروسية.

واصل شاريكوف النظر إلى أنف بورمنتال الضيق دون أن يبعد بصره عنه.

-بوسعي أن أحصل على مسدس أيضا، - همهم بوليغراف لكن بصوت واهن للغاية. وفجأة انفلت من القبضة الممسكة به واندفع إلى

الباب.

وتردد في إثره صياح بورمنتال:

-احذر.

ران الصمت على الشقة في الليل وفي نصف النهار التالي كالسحابة الثقيلة قبيل هبوب العاصفة الرعدية. ولاذ الجميع بالسكوت. لكن في صباح اليوم التالي حين وخز بوليغراف بوليغرافوفيتش شعور سيئ مسبق محذرا وتوجه كئيبا إلى مكان عمله، استقبل البروفيسور بريوبراجينسكي أحد مرضاه السابقين، وكان رجلا بدينا وطويل القامة يرتدي بزة عسكرية، خارج مواعيد استقبال المرضى. وقد طلب الرجل اللقاء معه بإلحاح وكان له ما أراد. وعندما دخل غرفة المكتب دقّ بكعبي جزمتيه محييا البروفيسور.

فسأل فيليب فيليبوفيتش الذي أحدودب ظهره:

-هل عادت إليك آلام الرأس يا عزيزي؟ تفضل بالجلوس، رجاء.

-ميرسي، لا، يا بروفيسور، - أجاب الضيف واضعا خوذته على طرف الطاولة، - أنا في غاية الامتنان إليك... هِمْ.. لقد جئت إليك لأمر آخر، يا فيليب فيليبوفيتش... إنني أكن لك احتراما كبيرا... هِمْ... أريد تحذيرك... الأمر سخيف بجلاء. إنه مجرد نذل... - ومد المراجع يده إلى الحقيبة واستخرج ورقة، - لحسن الحظ أنني أبلغت بذلك مباشرة...

ركّب فيليب فيليبوفيتش عوينات البنسنيه فوق نظارتيه وصار يقرأ. وتمتم فترة طويلة مع نفسه، وسحنته تتغير في كل لحظة. "... وكذلك وعد بقتل الرفيق شفوندر رئيس اللجنة السكنية، ويتبين من هذا حيازته لسلاح ناري. كما أنه يقول كلاما معاديا للثورة، وحتى

أمر خادمته زينائيدا بروكوفييفنا بونينا بإلقاء أنجلس طعمة لنيران الموقد، لكونه منشفيا جليا سوية مع مساعده ايفان ارنولدوفيتش بورمنتال، الذي يعيش في شقته سرا دونما تسجيل رسمي. أؤكد صحة توقيع رئيس شعبة التطهير رئيس اللجنة السكنية شفوندر، بستروخين السكرتير".

وسأل فيليب فيليبوفيتش وقد غطت محياه البقع:

-أتسمح لي بإبقاء هذا لدي؟ أو، المعذرة، لربما انت بحاجة إليها، من أجل أن تمضي الأمور بالطرق القانونية؟

فاستاء المراجع كثيرا وانفرج منخراه:

-العفو، يا بروفيسور. إنك تنظر إلينا حقا نظرة ازدراء شديدة. - أنا؟ - وعلى التو انتفخت اوداجه مثل الديك الرومي.

فجمجم فيليب فيليبوفيتش:

-العفو، العفو يا عزيزي. أرجو المعذرة، انني لم أرغب حقا في الإساءة إليك. لا تغضب يا عزيزي، لقد عذبني أشد العذاب.

-أنا على يقين، - وعاد المراجع إلى هدوئه تماما،- لكن مع هذا أي حقير هو! ولي فضول في النظر إليه. إن شتى الأساطير تروى عنك في موسكو...

أما فيليب فيليبوفيتش فقد لوح ذراعيه يائسا فحسب. وعندئذ لاحظ المراجع لدى إمعان النظر أن البروفيسور قد احدودب، وحتى بدا وكأن شعر رأسه ازداد بياضا في الآونة الأخيرة.

* * *

نضجت الجريمة وسقطت كالحجر، كما يحدث ذلك عادة. وعاد

بوليغراف بوليغرافوفيتش في الشاحنة ينوء بشعور ثقيل في قلبه. وتناهى إليه صوت فيليب فيليبوفيتش داعيا إياه إلى غرفة المعاينة. فجاء شاريكوف مندهشا، ونظر برعب غامض إلى الفوهة في وجه بورمنتال، ثم إلى فيليب فيليبوفيتش. وبدت هيئة المساعد منذرة متوعدة، وارتجفت يده اليسرى الممسكة بالسيجارة ارتجافة خفيفة فوق المتكئ اللامع لكرسي التوليد.

قال فيليب فيليبوفيتش بهدوء ينذر بالسوء:

–خذ الآن حاجياتك: السراويل والمعطف وكل ما تحتاجه، واترك الشقة!

فأبدى شاريكوف دهشة صادقة: كيف ذلك؟

وكرر فيليب فيليبوفيتش برتابة، ممعنا التحديق في أظافره:

–اترك الشقة – اليوم.

لقد جثمت فوق بوليغراف بوليغرافوفيتش روح شريرة ما:وبدا أن الهلاك راح يتربص به، وربض القدر وراء ظهره. فاندفع بنفسه في أحضان ما لا مناص منه ونبح نباحا عنيفا ومتقطعا قائلا:

–ما القضية حقا؟ هل تتصورون أنني لن أجد قوة توقفكم عند حدكم؟ إنني أجلس في ٦١ أرشينا الخاصة بي وسأجلس فيها.

وهمس فيليب فيليبوفيتش برقة:

–اترك الشقة.

إن شاريكوف نفسه قد دعا الموت إليه، فرفع اليد اليسرى وأظهر إلى فيليب فيليبوفيتش علامة الرفض بإبهامه المقطوع الظفر الذي تنبعث منه روائح القطط التي لا تطاق. ومن ثم أخرج مسدسا من جيبه باليد اليمنى موجها إياه نحو بورمنتال الخطر. فسقطت السيجارة المشتعلة

من يد بورمنتال، وبعد مضي لحظات صار فيليب فيليبوفيتش يتقافز فوق الزجاج المحطم ويهرول ما بين الخزانة والأريكة. وكان رئيس شعبة التطهير يرقد فوقها بلا حراك ومطلقا الشخير، وقد جثم الجراح بورمنتال فوق صدره، وهو يكتم انفاسه بوسادة صغيرة بيضاء. بعد عدة دقائق توجه الدكتور بورمنتال بسحنة غريبة إلى المدخل وعلق إلى جانب زر الجرس ورقة كتب عليها: "يلغى استقبال المراجعين اليوم بسبب مرض البروفيسور. نرجو عدم الإزعاج بدق الجرس".

وقطع سلك الجرس بواسطة مطواة صغيرة. وتطلع في المرآة إلى وجهه المخدش الذي نزف منه الدم، وإلى يديه المرتعشتين ارتعاشة خفيفة. ثم ظهر عند باب المطبخ وقال إلى زينا وداريا بتروفنا اللتين بان عليهما القلق:

-يرجو البروفيسور منكما عدم مغادرة الشقة.

-حسنا، - اجابت زينا وداريا بتروفنا بوجل.

وقال بورمنتال وهو يتخفى وراء ظل الباب ويغطي وجهه براحة يده.

-اسمحا لي بإغلاق باب المدخل الخلفي، وبأخذ المفتاح معي. هذا إجراء مؤقت، ليس لعدم الثقة بكما. لكن قد يأتي أحد ما، ولن تتحملا فتفتحان له الباب. بينما لا يجوز إزعاجنا. نحن مشغولان.

فردت المرأتان:

-حسنا.

وعلاهما الشحوب فورا.

أغلق بورمنتال باب المدخل الخلفي، وأغلق باب المدخل الرئيسي، وأغلق الباب الفاصل بين الدهليز والمدخل الرئيسي، واختفى وقع

خطواته عند غرفة المعاينة.

ران الصمت على الشقة، وزحف إلى جميع الزوايا. وخيمت على المكان عتمة منفرة مشوبة بالقلق. صفوة القول ظلام داج. حقا، روى الجيران فيما بعد أن جميع الأضواء أنيرت في غرفة المعاينة في ذلك المساء، وحتى ادعوا أنهم شاهدوا القلنسوة البيضاء للبروفيسور نفسه... ومن العسير التحقق من ذلك. حقا، إن زينا ثرثرت عندما انتهت القصة كلها قائلة إنه عندما غادر البروفيسور وبورمنتال غرفة المعاينة أخافها ايفان ارنولدوفيتس لحد الرعب عند الموقد. وزعمت بأنه كان يجلس القرفصاء في غرفة المكتب ويحرق بيده في الموقد دفترا ذا غلاف أزرق، من تلك الحزمة التي تسجل فيها وقائع سريان المرض لدى مراجعي البروفيسور! كما زعمت بأن سحنة الدكتور كانت خضراء تماما. ووجهه بأجمعه تغطيه الخدوش. و لم يكن فيليب فيليبوفيتش في ذلك المساء بحالة طبيعية. زد على ذلك... بالمناسبة، لربما ان الفتاة العذراء الساكنة في الشقة الكائنة بشارع بريتشيستينكا تلفق الأحاديث...

لكن لا أحد يماري في أن السكون الرهيب المطبق كان يخيم على الشقة في ذلك المساء.

الخاتمة

في مثل تلك الليلة وبعد عشرة أيام بالضبط من وقوع المعركة في غرفة المعاينة دق جرس الباب بعنف في شقة البروفيسور بريوبراجينسكي الكائنة في زقاق أوبوخوف.

وهرولت الخطوات وترددت الطرقات وبدأ الأشخاص بالدخول، وظهرت جمهرة كبيرة من الناس في غرفة الاستقبال المتلألأة بالأضواء، وأثاث الخزانات المزججة حديثا. ودخل اثنان يرتديان زي الشرطة، ورجل ذو معطف أسود يحمل حقيبة أوراق، والرئيس شفوندر الشامت والشاحب المحيا، والفتى - المرأة، والبواب فيودور، وزينا وداريا بتروفنا، وبورمنتال الذي لم يرتد ملابسه كاملة ويغطي رقبته بيده لعدم ارتداء ربطة العنق.

وعبر فيليب فيليبوفيتش من باب غرفة المكتب مرتديا الروب دي شامبر اللازوردي المعروف لدى الجميع، وعلى الفور استطاع الجميع التيقن من أن فيليب فيليبوفيتش قد تعافى كثيرا خلال الأسبوع الأخير. وبدا أمام زوار الليل ذاك الرجل الواثق بنفسه والمترع بالحيوية والنشاط والشعور بالكرامة كالسابق. واعتذر لكونه في الروب دي شامبر.

وقال الرجل ذو الملابس المدنية بارتباك بالغ:

-ألا تخجل يا بروفيسور.

ثم تململ وقال:

-شيء غير سار أبدا. فلدينا أمر بتفتيش شقتك. و... - ورشق

الرجل شاربي فيليب فيليبوفيتش بنظرة جانبية، وأضاف، – والاعتقال وفقا لما يسفر عنه التفتيش.

وصوص فيليب فيليبوفيتش عينيه وسأل:

– وهل يمكن أن أسأل بأية تهمة واعتقال من؟

حك الرجل خده، وصار يقرأ ورقة استخرجها من الحقيبة:

–اتهام برويوبراجينسكي وبورمنتال وزينائيدا بونينا وداريا ايفانوفا بقتل بوليغراف بوليغرافوفيتش شاريكوف رئيس شعبة التطهير لدى دائرة المرافق العامة بموسكو.

وغطى نحيب زينا على نهاية أقواله وحدثت بلبلة وحركة وأجاب فيليب فيليبوفيتش هازا كتفيه مثل الملوك:

–أنا لا أفهم شيئا. أي شاريكوف؟ آه، المعذرة. تقصدون كلبي الذي أجريت له العملية؟

–العفو، ليس الكلب، بل حين أصبح إنسانا. تلك هي المسألة.

فسأل فيليب فيليبوفيتش:

–أي، يعني كان يتحدث؟ لكن هذا لا يعني أنه إنسان. على أي حال، ذاك غير مهم. إن شاريك موجود الآن. و لم يقتله أحد أبدا.

وقال الرجل الأسود بعجب شديد ورفع حاجبيه:

–إذن، ينبغي أن ترينا إياه. لقد فقد منذ عشرة أيام، فيما أن المعلومات المتوفرة – وأرجو المعذرة – سيئة جدا.

–أرجو، يا دكتور بورمنتال، أن تعرض شاريك على المحقق، قال فيليب فيليبوفيتش متناولا ورقة الأمر.

ابتسم الدكتور بورمنتال ابتسامة ملتوية وخرج.

وحين عاد وأطلق صفيرا بدا كلب من خلفه. وكان مظهره غريبا. ففي بعض الأماكن كان أصلع، وفي أماكن أخرى نما الشعر. وخرج الكلب ماشيا على قائمتيه الخلفيتين مثل حيوانات السيرك، ثم مضى على قوائمه الأربع جميعا وتطلع حواليه. وران السكون المطبق على غرفة الاستقبال. ثم انتصب الكلب ذو المظهر الرهيب، والندبة الحمراء على جبهته، على قائمتيه الخلفيتين مرة أخرى، وجلس مبتسما فوق المقعد.

رسم الشرطي الثاني علامة الصليب بحركة واسعة من يده، ثم تقهقر وداس على الفور فوق كلتا قدمي زينا. أما الرجل ذو المعطف الأسود فقال دون أن يغلق فمه:

–كيف، اسمح لي، فقد كان يعمل في شعبة التطهير.

ورد فيليب فيليبوفيتش:

–إنني لم أعينه هناك، إن السيد شفوندر أعطاه توصية العمل، إن لم اكن على خطأ.

وقال الأسود:

–أنا لا أفهم شيئا.

وخاطب الشرطي الأول:

–هل هو نفسه؟

فأجاب الشرطي بلا صوت:

–نعم هو، هو بلا ريب.

وجاء صوت فيودور قائلا:

–هو بالذات. لكن النذل أصبح مشعرا مرة أخرى.

–لقد كان يتحدث... هيـ... هيـ...

–والآن يتحدث أيضا، لكن بقدر أقل فأقل، إذن، فانتهزوا الفرصة، وإلا فسرعان ما سيكف عن الكلام.

واستفسر الرجل الأسود بصوت خافت:

–ولكن لِمَ؟

هزّ فيليب فيليبوفيتش كتفيه.

–إن العلم لا يعرف بعد وسيلة لتحويل الحيوانات إلى البشر. وقد حاولت ذلك، لكنني لم أفلح في هذا كما ترون. وقد تحدث ثم أخذ يعود مرة أخرى إلى حالته الأولية. هذا أتافيزم – ردّة طبيعية.

وفجأة نبح الكلب من مقعده وقال:

–لا تقل كلاما بذيئا.

ثم نهض من مكانه.

شحب وجه الرجل الأسود على حين غرة، وأسقط حقيبة الأوراق، وصار يهوى على جنبه. فأسنده الشرطي من الجانب، أما فيودور فمن الخلف. وحدثت جلبة وهرج، و لم يكن يسمع في أثنائها بجلاء سوى ثلاث عبارات:

صوت فيليب فيليبوفيتش: – هاتوا قطرات حشيش الهر، فقد أصيب بالإغماء.

صوت الدكتور برمنتال: – سألقي بيدي شفوندر من الدرج، إذا كا ظهر مرة أخرى في شقة البروفيسور بريوبراجينسكي.

صوت شفوندر: – أرجو تسجيل هذا القول في المحضر.

كانت أنابيب التدفئة الرمادية ساخنة. وأخفت الستائر الليل

الدامس في شارع بريتشيستينكا، بنجمته اليتيمة. وجلس في مقعده البروفيسور "الكائن الاعلى"، والمحسن الوقور إلى الكلب، أما الكلب شاريك فقد رقد متمددا على السجاد، بالقرب من الديوان الجلدي. وكان الكلب يعاني من آلام في الرأس صباحا بسبب ضباب شهر مارس، إنها تعذبه في الحلقة التي خيطت حول رأسه، لكنها سرعان ما تزول بحلول المساء وسريان الدفء. والآن أيضا بدأت الآلام تخف وتخف، وراودت رأس الكلب أفكار طيبة ودافئة.

"لكم حالفني الحظ، لكم حالفني الحظ، – كان يفكر بهذا في أثناء غفوته، – لقد حالفني الحظ بشكل يفوق الوصف. فقد استقر بي المقام في هذا البيت. ولديّ ثقة أكيدة بأن هناك بعض شكوك فيما يتعلق بأصلي وفصلي. والمسألة مرتبطة بالكلب الغوّاص بلا ريب. لقد كانت جدتي العجوز – لها ملكوت السماء – عاهرة. حقا، إنهم شقوا رأسي كله لأمر ما. لكن هذا سيلتئم بمرور الأيام. ولا حاجة لي لإشغال فكري بهذا".

كانت أنابيب الاختبار ترن من بعيد. إنه "المعضوض" منهمك في ترتيب الخزانات في غرفة المعاينة...

أما الساحر الأشيب الشعر فقد جلس وأنشد:

–نحو ضفاف النيل المقدسة...

ورأى الكلب أمورا عجيبة رهيبة. فقد كان الرجل الوقور يغوص بيديه ذواتي القفازين اللزجين في وعاء، ويستخرج منه الأدمغة، إنه رجل عنيد ودؤوب لا يني يبحث ابتغاء الحصول على شيء ما. فتراه يقطع ويتفحص ويوصوص عينيه ويردد:

–نحو ضفاف النيل المقدسة...

يناير– مارس ١٩٢٥



بيوض الشؤم



الفصل الاول

كوريكولوم فيته[27] البروفيسور بيرسيكوف

في مساء يوم ١٦ ابريل عام ١٩٢٩ دخل البروفيسور بيرسيكوف استاذ علم الحيوان في الجامعة الحكومية الرابعة، مدير معهد علم الحيوان بموسكو، في مكتبه في مبنى المعهد الواقع في شارع هيرتسن. وأشعل البروفيسور المصباح الكروي العلوي المغبش وتطلع في ارجاء المكان.

لابد من القول ان بداية الكارثة كانت بالذات في ذلك المساء النحس، ويجب القول ان السبب الاول لهذه الكارثة كان فلاديمير ايغناتوفيتش بيرسيكوف بالذات لا غيره.

كان قد بلغ سن ٥٨ عاما، رأسه رائع، مهروس، أصلع، تتدلى على جانبيه خصلات مائلة إلى الاصفرار. ووجهه حليق أملس، وتتدلى شفته السفلى نحو الامام. ولهذا ارتسمت على وجه بيرسيكوف دائما سمات النرفزة لحد ما. وركنت فوق انفه الاحمر نظارات قديمة باطارات فضية، وعيناه براقتان وصغيرتان،قصير القامة، محدودب الظهر. وكان يتحدث بصوت مبحوح ورقيق النبرة ويشبه نقيق الضفادع، ومن السمات الغربية الأخرى في شخصيته انه حين يقول شيئاً ما بشكل جازم وبثقة يرفع سبابة يده اليمنى بشكل خطاف ويخزر عينيه.

---

(٢٧) سيرة حياة (باللاتينية)

وبما أنه كان يتحدث بثقة دائما، حيث ان سعة اطلاعه في مجال عمله فذة ليس لها نظير، فإن الخطاف غالباً ما يظهر أمام عيون محدثي البروفيسور بيرسيكوف. علما ان البروفيسور بيرسيكوف كان لا يتحدث تقريبا في أمور خارج نطاق اختصاصه أي علم الحيوان وعلم الاجنة وعلم النبات والجغرافية.

كما ان البروفيسور بيرسيكوف لم يطالع الجرائد و لم يرتد المسارح أما زوجة البروفيسور فقد هربت منه مع زيمين مغني "التينور" في الاوبرا في عام ١٩١٣ وتركت له قصاصة ورق جاء فيها:" ان ضفادعك تولد في رجفة نفور لاتطاق. وسأكون تعيسة طوال حياتي بسببها".

لم يتزوج البروفيسور مرة أخرى و لم يرزق بأطفال. كان سريع الانفعال جدا، لكنه سريع الهدوء أيضا، ويحب احتساء الشاي مع ثمار الغابة، وكان يقطن في شارع بريتشيستينكا، في شقة مؤلفة من خمس غرف، تشغل احداها مدبرة المنزل ماريا ستيبانوفنا التي ترعى البروفيسور وكأنها مربيته.

في عام ١٩١٩ اخذت منه السلطات ثلاثا من الغرف الخمس في شقته. ويومئذ أعلن البروفيسور لماريا ستيبانوفنا قائلا:

– إذا لم يتوقفوا عن هذه القباحات، ياماريا ستيبانوفنا، فسأرحل إلى الخارج.

لا ريب في انه لو نفذ البروفيسور خطته هذه لا ستطاع ايجاد عمل بسهولة في قسم علم الحيوان في أية جامعة في العالم، لأنه عالم ممتاز، ولا يضارعه أحد في معرفة الامور المتعلقة بهذا الشكل أو ذاك بالزواحف البرمائية أو الملساء الجلد باستثناء البروفيسور فيكل في كمبردج والبروفيسور جياكومو بورتولوميو في روما. وكان البروفيسور يطالع بأربع لغات باستثناء اللغة الروسية، ويتحدث بطلاقة

باللغتين الفرنسية والالمانية كما يتحدث بالروسية. لكن بيرسيكوف لم ينفذ خطته بشأن السفر إلى الخارج. بينما كان عام ١٩٢٠ أسوأ من عام ١٩١٩. فقد وقعت أحداث..علما انها تواترت الواحد تلو الآخر. فجرى استبدال اسم شارع بولشايا نيكيتسكايا إلى شارع هرتسن. بينما توقفت الساعة المثبتة في جدار المبنى عند ملتقى شارعي موخوفايا وهرتسن في الساعة الحادية عشرة والربع صباحا. وفي نهاية المطاف نفقت في اقفاص معهد الحيوان في البداية ثمان من النماذج الممتازة ذات النقيق ومن ثم خمسة عشر علجوما عاديا، واخيرا نفق نموذج ممتاز للغاية من ضفادع سورينام، بعد ان لم تتحمل جميع ارزاء ذلك العام المشهود.

وفي اعقاب العلاجيم مباشرة حيث ترك موتها فراغا في تلك الفصيلة الاولى من الزواحف العارية الملساء الجلد ،والتي اطلقت عليها بحق تسمية الزواحف العديمة الذنب، انتقل إلى العالم الآخر العجوز "فلاس" حارس المعهد بلا تغيير، علما انه لا ينتمي إلى صنف الزواحف العارية. بالمناسبة ان سبب وفاته هو نفسه سبب نفق الزواحف المسكينة، وقد حدده بيرسيكوف فورا:

– نقص الطعام!

لقد كان العالم على حق تماما: اذ وجب اطعام فلاس بدقيق الحنطة ، بينما وجب اطعام العلاجيم بدقيق الديدان، ولكن بما انه فقد الاول اختفى الثاني. وحاول بيرسيكوف بعد ان بقي عشرون نموذجا من ذوات النقيق اطعامها بالصراصير، لكن الصراصير اختفت أيضاً في مكان ما، للاعراب عن موقفها الحاقد حيال نظام"الشيوعية العسكرية". وهكذا وجب إلقاء النماذج الاخيرة في حفرة القمامة في باحة المعهد.

من العسير وصف تأثير هذه الوفيات في بيرسيكوف، وبالاخص

نفق علجوم سورينام. ولأمر ما ألقى باللائمة عن جميع هذه الوفيات على مفوض الشعب لشؤون التعليم آنذاك.

وقف بيرسيكوف لابسا القبعة والكالوشين وقال لمساعده ايفانوف، وهو جنتلمان انيق ذو لحية مدببة شقراء:

– ان قتله، يا بيوتر ستيبانوفيتش، هو قليل جزاء ذلك. ماذا يفعلون؟ انهم سيقضون على المعهد! ها؟ ذكر لا نظير له، ونموذج فذ من "بيبا اميريكانا" يبلغ طوله ١٣ سنتيمترا.

وفيما بعد تدهورت الأوضاع أكثر. فعقب وفاة فلاسا تجمدت النوافذ في المعهد كليا وتجمع الجليد الزاهي الالوان على سطح الزجاج الداخلي. ونفقت الارانب والثعالب والذئاب والاسماك ولم يبق أحد منها. ولزم بيرسيكوف الصمت اياما كاملة ثم اصيب بالتهاب الرئتين، لكنه لم يمت. وعندما تماثل إلى الشفاء صار يأتي مرتين في الاسبوع إلى المعهد حيث لم يتغير شيء، لسبب ما، في القاعة المدورة اذ كانت درجة الحرارة هناك خمس درجات تحت الصفر بغض النظر عما كانت عليه في الشارع. وكان يلقي المحاضرة، لابسا الكالوشين وعلى رأسه قبعة يغطي طرفاها الاذنين ولفاحة حول رقبته، امام ثمانية طلاب مستمعين، تحت عنوان "زواحف المناطق الحارة". اما بقية الوقت فكان بيرسيكوف يستلقي على الكنبة في بيته في شارع بريتشيستينكا، في غرفة ممتلئة بالكتب حتى السقف، تحت البطانية، ويسعل ويتطلع إلى لهيب الموقد الفاغر فاهه بالنيران والذي كانت ماريا ستيبانوفنا تشعل فيه حطام الكراسي المذهبة، ويستعيد في ذاكرته جلعوم سورينام.

لكن كل شيء في هذه الدنيا له نهاية. فقد انتهى عام ٢٠ ثم عام ٢١ وبدأ عام ٢٢ بالتحرك في الاتجاه المعاكس. اولا ظهر الفتى "بانكرات" بدلا من الراحل "فلاسا"، وهو ما زال في ميعان الشباب وعقدت

عليه الآمال كحارس للحيوانات. وبدأوا بتدفئة المعهد قليلا شيئاً فشيئا. وفي الصيف اصطاد بيرسيكوف بمساعدة بانكرات في بحيرة كلازما اربعة عشر جلعوما عاديا. ودبت الحياة مجددا في الصناديق الزجاجية... في عام ٢٣ صار بيرسيكوف يلقي المحاضرات ثماني مرات في الاسبوع - ثلاث محاضرات في المعهد وخمس محاضرات في الجامعة.. وفي عام ٢٤ صار يلقي ثلاث عشرة محاضرة في الاسبوع علاوة على المحاضرات في الكليات العمالية "راب فاك"، وفي ربيع عام ٢٤ ذاع صيته في انه وضع درجات رسوب في الامتحانات لسبعين طالبا، وجميعهم رسبوا بسبب ضعف ملعوماتهم حول الزواحف.

وكان بيرسيكوف يتسائل:- كيف لا تعرف الفرق بين الزواحف العارية الملساء الجلد والزواحف العادية.. هذا شيء مضحك فحسب يافتى. ان الزواحف العارية الملساء الجلد بلا كليتين في الحوض. لاوجود لهما هناك. هكذا الأمر. شيء مخجل. انت كما يبدو ماركسي؟

فأجاب الطالب الراسب بكدر : نعم، ماركسي.

وقال بيرسيكوف بلطف: تعال مرة أخرى في الخريف - وصاح مناديا بانكرات بنشاط: ادعو التالي!

دبت الحياة في البروفيسور بيرسيكوف في عام ١٩٢٦ كما تدب الحياة في البرمائيات بعد فترة الجفاف الطويلة لدى هطول الامطار الغزيرة أول مرة، حينما قامت شركة امريكية - روسية ببناء خمسة عشر مبنى ذي خمسة عشر طابقا بوسط موسكو عند ملتقى زقاق غازيتني وشارع تفيرسكايا، وثلثمائة بيت من ثماني شقق للعمال في الاطراف، وبهذا قضت إلى الابد على أزمة السكن الفظيعة والمضحكة التي عانى منها اهالي موسكو كثيرا في فترة اعوام ١٩١٩ - ١٩٢٥.

وعموما كان ذلك الصيف مشهودا في حياة بيرسيكوف وكان

احيانا يقهقه بصوت خافت وبارتياح حين يتذكر كيف كان مع ماريا ستيبانوفنا ينكمشان بضيق في غرفتين. والآن استعاد البروفيسور جميع الغرف الخمس، وتوسع وصف ورتب الالفين وخمسمائة كتاب والحيوانات المحنطة والرسوم البيانية والمستحضرات واشعل المصباح الاخضر على الطاولة في المكتب.

كما طرأت تغييرات في المعهد أيضاً فكاد لا يعرف، فقد طلي بلون حليبي، ومدت انابيب المياه إلى غرفة الزواحف، وتم استبدال جميع زجاج النوافذ بآخر مرآوي، وأرسلت خمسة ميكروسكوبات جديدة، ومناضد زجاجية جديدة للمستحضرات، وكرات انارة ذات ألفي مصباح ونور عاكس، ومرايا عاكسة، وخزانات للمتحف.

وبعثت الحيوية في بيرسيكوف وعلم العالم بأسره بذلك فجأة، ففي ديسمبر عام ١٩٢٦ فقط صدرت كراسة بعنوان :" مرة آخرى حول مسألة تكاثر الرخويات أو الخيتونات"، ١٢٦ صفحة، " اخبار الجامعة الرابعة ".

وفي خريف عام ١٩٢٧ صدر بست لغات منها اللغة اليابانية بحث في ٣٥ صفحة بعنوان :" الحالة الجنينية للبيبات والثوميات والضفادع "، السعر٣ روبلات.دار النشر الحكومية".

في صيف عام وقع حادث رهيب لا يصدق...

الفصل الثاني
الخصلة الملونة

هكذا أشعل البروفيسور كرة المصباح وتطلع حواليه. ثم اشعل النور العاكس فوق طاولة التجارب الكبيرة، وارتـدى الصديرية البيضاء، وطقطق ببعض الادوات فوق الطاولة..

كان عدد كبير من العربات الميكانيكية التي تسير بموسكو في عام ١٩٢٨، تمر منطلقة في شارع هيرتسن، مطلقة صريرا فوق السكك الملساء، وبعد مضي كل دقيقة تنطلق من شارع هيرتسن إلى شارع موخوفايا عربات التراموای رقم ١٦ و٢٢ و٤٨ أو ٥٣ مصحوبة بهدير وصرير. وكان بريق شتى الانوار الملونة ينعكس على الزجاج المرآوي للصالة ويرى هلال شاحب بعيدا وعاليا إلى جانب القبة القائمة والصارمة لكاتدرائية المسيح المخلص.

لكن الروفيسور بيرسيكوف لم يلق بالا ابدا إليه ولا إلى ضجيج موسكو في الربيع. وجلس على المقعد اللولبي الدوار ذي الارجل الثلاث، وادار باصابعه التي غدت بنية بسبب تدخين التبغ ترس ميكروسكوب "زايس" الممتاز، الذي وضع تحت منظاره مستحضر اعتيادي غير ملون من الاميبات الطازجة. وفي اللحظة التي قام فيها بيرسيكوف بتكبير الرؤية من خمس إلى عشرة الآف مرة فتح الباب واطلت لحية مدببة وصديرية جلدية وقال المساعد:

– فلاديمير ايباتوفيتش، لقد اعددت غلاف الامعاء، هل تود إلقاء نظرة عليه؟

نهض بيرسيكوف بحيوية من المقعد، وابقى مقبض العدسات في المدى المتوسط، ومضى وهو يلف ببطء السيجارة بيديه نحو غرفة المساعد. كانت مصلوبة هناك فوق الطاولة الزجاجية ضفدعة شبه مخنوقة وتعاني سكرات الموت فوق غطاء من الفلين لانبوبة الاختبار، وتدلت احشاؤها اللزجة الشفافة من بطنها الدامية تحت الميكروسكوب.

قال بيرسيكوف - حسنا جدا! - ثم ألقى نظرة عبر فتحة عدسة الميكروسكوب.

يبدو انه يوجد هناك امر يثير الاهتمام جدا لدى تفحص غلاف امعاء الضفدعة حيث ترى كما في راحة اليد كيف تنطلق الكريات الدموية الحية عبر انهر الاوعية. وقد نسي بيرسيكوف اميباته واستمر طوال نصف ساعة، بالتناوب مع ايفانوف، في النظر عبر زجاج الميكروسكوب. وكان العالمان يتبادلان بحيوية عبارات لا يفهمها الانسان البسيط العادي.

في نهاية المطاف ابتعد بيرسيكوف عن الميكروسكوب: - الدم يتخثر، ولا يمكن عمل شيء.

حركت الضفدعة رأسها بصعوبة وتطلعت نحوهما بعينين خابيتين ولسان حالها يقول : " انتما وغدان، لا أكثر ولا اقل..".

حرك بيرسيكوف ساقيه الخدرتين يمينا ويسارا. ونهض وعاد إلى مكتبه، وتثاءب، ومسح باصابعه جفنيه الملتهبين دائما، وجلس على المقعد، وتطلع في الميكروسكوب، ووضع أصابعه على الترس وهم بتدويره لكنه عدل عن ذلك. فقد رأي بيرسيكوف بعينه اليمنى قرصا ابيض مغبشا وفي داخله اميبات بيض غير واضحة، وفي وسط القرص بدت جعدة ملونة تشبه خصلة شعر المرأة. وقد رأى بيرسيكوف

والمئات من طلابه هذه الخصلة مرات كثيرة دون ان يهتم بها أحد، ولم تكن هناك حاجة إلى ذلك. وكانت حزمة الضوء الملونة فقط تعيق الرؤية وتبين ان المستحضر خارج مجال تركيز العدسات. ولهذا كانوا يمسحونه بلا هوادة بإدارة الترس مرة واحدة، وبهذا يفسح المجال للانارة بالضوء الابيض المنسجم. وكانت الاصابع الطويلة لعالم الحيوان قد مست اسنان الترس ولكنها جفلت وابتعدت فجأة. والسبب هو عين بيرسيكوف اليمنى، فقد تملكه الاحتراس والعجب وحتى غمره القلق. اذ كان يجلس عند الميكروسكوب ليس رجلا ضيق الافق وعديم الموهبة، وليس نحسا لا فائدة منه للجمهورية. كلا، لقد جلس هناك البروفيسور بيرسيكوف! وقد تركزت في عينه اليمنى حياته كلها، وافكاره بأسرها. وراقب الكائن الاعلى خلال خمس دقائق في صمت مطبق ما يوجد تحت بصره، وهو يتعذب ويجهد بصره فوق المستحضر خارج مجال التركيز. وخيم السكون على المكان كله فقد غفا بانكرات في غرفته في البهو. وتردد مرة واحدة فقط بعيدا الرنين الموسيقي العذب في الخزائن – انه ايفانوف يغلق مكتبه لدى خروجه. بعد ذلك سمع صوت البروفيسور. لمن وجه السؤال – هذا ما لا يعلمه أحد.

– ما هذا ؟ انا لا أفهم شيئا...

اهتزت جدران المعهد القديمة لدى مرور شاحنة متأخرة في شارع هرتسن وارتج على الطاولة فنجان زجاجي مسطح فوقه ملقط. واصفر وجه البروفيسور، وانحنى فوق الميكروسكوب مثل الأم التي تحنو على طفلها الذي يتهدده الخطر. والآن لم يعد هناك مجال للحديث عن قيام بيرسيكوف بتحريك الترس. أوه، كلا. لقد كان يخشى ان تبعد قوة ما خارجية عن مجال نظره ما كان يراه.

بزغ صباح ابيض كامل تشوبه غلالة ذهبية، قاطعة الجدار الحليبي،

عندما ابتعد البروفيسور عن الميكروسكوب ودنا من النافذة برجلين خدرتين. وضغط الزر باصابع مرتعشة، فحجبت الستائر السوداء المحكمة الانسداد نور الصباح، وساد في المكتب ظلام الليل العلمي الحكيم. وباعد بيرسيكوف المتقع السحنة وعليه علائم الالهام ما بين ساقيه، وتطلع نحو الباركيه بعينين دامعتين، وردد مخاطبا العلاجيم في الصناديق الزجاجية قائلا:"كيف حدث ذلك؟ هذا أمر فظيع". لكن العلاجيم كانت تغط في النوم و لم تجبه.

لزم الصمت، ثم اقترب من زر الكهرباء، ورفع الستائر، واطفأ جميع الانوار وحدق في الميكروسكوب. وبان التوتر على وجهه ورفع حاجبيه الكثين الصفراوين.

ودمدم قائلا :- اوهو.. اوهو.. لقد اختفى. انا أفهم. أ- ف- ه- م ! - مطط الكلمة وهو يتطلع بجنون وإلهام إلى الكرة الضوئية المنطفأة فوق رأسه وقال:- هذا امر بسيط.

وانزل الستائر من جديد واشعل كرة الضوء مجددا. ثم عاد وحدق في الميكروسكوب مرة أخرى، وبدت على محياه تكشيرة متوحشة تنم عن البهجة.

وقال بلهجة احتفالية وجادة رافعا اصبعه إلى الاعلى:

- سأمسك به.. سأمسك به. ولربما بمعونة الشمس.

سمع صرير الستائر مرة أخرى. وبانت الشمس الآن بكامل ضوئها. وقد غمرت جدران المعهد ومالت على جوانب الابنية في شارع هرتسن. نظر البروفيسور في النافذة متأملا اين ستكون عند الظهر. وصار يبتعد تارة ويقترب تارة أخرى من النافذة، في حركات راقصة خفيفة، وفي نهاية المطاف استلقى ببطنه على حافة النافذة.

شرع بأداء عمل هام وغامض. فغطى الميكروسكوب بقمع

زجاجي. ثم أذاب على لهب الموقد الازرق قطعة من الشمع الاحمر ولصق حوافي الدورق على الطاولة بالشمع وسوى قطع الشمع المنصهر بابهامه. واطفأ موقد الغاز وخرج واغلق باب المكتب بالقفل الانجليزي.

كانت ممرات المعهد نصف مضاءة. ووصل البروفيسور إلى غرفة بانكرات. وطرق الباب طويلا وعبثا. واخيرا سمع خلف الباب هراءة تشبه هراءة كلب مربوط بالسلاسل، واعقبتها خرخرة وحشرجة، ثم ظهر بانكرات في بقعة النور بسروال مخطط مربوط برسغ الارجل. وتطلع باستغراب إلى العا لم، وكان ما زال تحت تأثير النوم بقدر خفيف.

قال البروفيسور من فوق نظاراته :"- بانكرات، ارجو المعذرة لايقاظك. ياصديقي يجب ألا يدخل أحد إلى غرفة مكتبي صباحا. لقد اوقفت هناك عملا ويجب عدم تحريكه. مفهوم ؟

فأجاب بنكرات: -"او- أو - أو - أو - مف-ه-وم " دون ان يفهم وتابع التمايل والهراءة.

-لا، اسمع، استيقظ يا بانكرات،- قال عا لم الحيوان ذلك ولكم بانكرات برفق على اضلاعه، فبانت على محياه الرهبة وظهر في عينيه ظل من الفهم، وتابع بيرسيكوف قوله:- غرفة المكتب مغلقة، ولا حاجة لتنظيفها حتى رجوعي. فهمت ؟

فقال بانكرات بصوت مبحوح :

- سمعا وطاعة.

- حسنا. اذهب وتابع النوم.

استدار بانكرات واختفى وراء الباب ثم استلقى على السرير. اما البروفيسور فصار يرتدي ملابس الخروج. فلبس المعطف الرمادي

الصيفي والقبعة الخفيفة، ومن ثم تذكر المشهد في الميكروسكوب، وصار يحدق في كالوشيه وبقي ناظرا إليهما عدة ثواني، كما لو انه يراهما لأول مرة. وبعد ذلك لبس الفردة اليسرى بقدمه اليمنى لكن القدم لم تدخل.

قال العالم:– يالها من مصادفة عجيبة ان دعـاني..وإلا ما كنت سألاحظ ذلك. ياترى ماذا سيحدث؟.. الشيطان وحده يعرف ما سيحدث!

ضحك البروفيسور بسخرية وحدق في الكالوشين ونزع الفردة اليسرى ولبس الفردة اليمنى.

– يا إلهي. وحتى من الصعب التكهن بكل العواقب.

وسحب البروفيسور فردة الكالوش اليسرى بإحتقار، حيث كانت تزعجه، دون ان يرغب بإرتداء الكالوش الايمن، ومضى خارجا مرتديا كالوشا واحدا. وعندئذ فقد المنديل، وخرج بعد ان اغلق الباب الثقيل باصطفاق.

وصار عند مدخل المبنى يبحث عن علبة الثقاب في جيوبه، وبدأ يتحسس جيوبه بيديه، فلم يجدها وسار في الشارع وفي فمه السيجارة غير المشتعلة.

لم يصادف اي أحد في طريقه حتى بلوغه الكاتدرائية نفسها. وهناك رفع البروفيسور رأسه وتطلع إلى قبتها الذهبية بهيئة خوذة. وكانت الشمس تلثمها بعذوبة من جانب واحد.

– كيف لم أره من قبل؟ يالها من مصادفة؟..تفو.. أحمق – وانحنى البروفيسور واستغرق في التأمل، وهو يتطلع إلى فردتي الكالوشين المختلفتين في قدميه – حم.. ما العمل؟هل اعود إلى بانكرات؟ فلا يمكن ايقاظه. هل ارمي الفردة الدنيئة..نفسي تشفق على ذلك فهي

بحالة جيدة.. سيتعين علي حملها بيدي- ونزع الكالوش وحمله بازدراء.

انطلقت في شارع بريشيستينكا سيارة عتيقة فيها ثلاثة اشخاص. وكان اثنان منهم في حالة سكر شديد وفي احضانهما امرأة طليت وجهها بمساحيق صارخة اللون وارتـدت سروالا من موضة عام ١٩٢٨.

صاحت المرأة بصوت عال فيه بحة :

- ايها الأب.. هل سكرت بثمن الكالوش الآخر؟

فقال السكير من الجهة اليسرى :-"يبدو ان العجوز أو لم وقصف في مطعم " الكازار" -، بينما صاح السكير من الجهة اليمنى وقد اخرج رأسه من نافذة السيارة :- يا أب هل ان الحانة في " فولخونكا" ما زالت مفتوحة، نحن ذاهبون إلى هناك.

نظر البروفيسور إليهم بصرامة من فوق نظاراته، وسقطت السيجارة من فمه ونسي وجودهم فورا. بدت بقع الشمس في بولفار بريتشيستينكي ، وتألقت بنور ساطع قبة كاتدرائية المسيح المخلص الشبيهة بالخوذة. وهكذا طلعت الشمس تماما.

الفصل الثالث
بيرسيكوف يمسك الشعاع

حدث ذلك كالآتي: عندما ما قرب البروفيسور عينه العبقرية من عدسة الميكروسكوب لفت انتباهه لأول مرة في حياته تميز شعاع بشكل متألق وكثيف على الاخص في الخصلة المختلفة الالوان. وكان هذا الشعاع بلون احمر ساطع وصار يخرج من الخصلة، مثل ابرة صغيرة.

انها لمصيبة حقا..ان هذا الشعاع جعل عين النابغة مصوبة إليه خلال عدة ثوان.

ولاحظ البروفيسور فيه، اي في الشعاع، أمرا أكثر جسامة وأهمية بألف مرة من الشعاع نفسه، ومن ذلك الوليد غير الثابت، الذي انبجس فجأة بالصدفة لدى تحريك مرآة وعدسة الميكروسكوب. فقد بقيت الاميبات طوال ساعة ونصف لدى استدعاء المساعد للبروفيسور تحت تأثير هذا الشعاع، فحدث ما يلي: بينما كانت الاميبات الحبيبية راقدة بلا حراك وعاجزة في القرص خارج تأثير الشعاع، حدثت ظواهر غيبة في المكان الذي وجد فيه كالابرة السيف الحاد الاحمر. فقد كانت المنطقة الحمراء الصغيرة تضج بالحياة. وبدأت الاميبات الرمادية تمد الاذرع الكاذبة بأتجاه المنطقة الحمراء بكامل قواها واخذت تتحرك بنشاط فيها (كما لوكان ذلك بفعل قوة سحرية). ان قوة ما بثت فيها روح الحياة. وكانت تندفع باسراب وتتصارع فيما بينها للحصول على مكان في الشعاع. وحدث فيها تكاثر جنوني، اذ لا يوجد وصف آخر لها. وكانت تتجمع في حزم وبهذا تحطم

وتخرق كافة القوانين المعروفة لدى بيرسيكوف معرفته لاصابع يديه الخمسة.كانت تتجمع في حزم امام ناظريه بسرعة خارقة. وكانت تتحلل إلى اجزاء في الشعاع، ويصبح كل جزء في لمح البصر وخلال ثانيتين كائنا جديدا ناضجا. وكانت هذه الكائنات تنمو وتنضج خلال عدة لحظات، من أجل ان تعطي لتوه جيلا جديدا. وضاق بها المكان في المنطقة الحمراء وفي القرص كله وبدأ صراع لا مفر منه. وتأخذ الكائنات الوليدة بمهاجمة بعضها البعض وتمزقها شذر مذر وتلتهمها. وتوجد بين الكائنات الوليدة جثث القتلى في الصراع من أجل البقاء. وكان البقاء من نصيب الاحسن والاقوى من بينها. اولا، ان حجمها يزيد بمقدار مرتين تقريبا عن حجم الاميبات العادية، وثانيا انها تتصف بشراسة وحيوية على الاخص. فقد كانت سريعة الحركة، واذرعها الكاذبة أطول أيضاً، وكانت تستخدمها - بلا مبالغة!- مثل اذرع الاخطبوط.

في المساء الثاني درس البروفيسور، الذي ازداد انحناء ظهره وأصبحت سحنته شاحبة لعدم تناول الطعام،وهو يلف لنفسه السجاير،الجيل الجديد من الاميبات . وفي اليوم الثالث رجع إلى المصدر الاولي اي الشعاع الاحمر.

كان الغاز يطلق ازيزا خفيفا في موقد المختبر، ومرة أخرى سمع الضجيج في الشارع. فاستلقى البروفيسور بعد ان سمم نفسه بالسيجارة المائة،على ظهر المقعد الدوار، وقد اغمض عينيه.

وتمتم بيرسيكوف مخاطبا نفسه:

- نعم، لقد بات كل شيء واضحا الآن. لقد بعث الشعاع الحياة فيها. انه شعاع جديد، لم يدرسه احد، ولم يكتشفه احد. واول ما يجب استيضاحه هو فيما إذا كان ينبعث من الكهرباء فقط ام من الشمس أيضا.

وانهمك في استيضاح ذلك طوال ليلة أخرى. وحصل بيرسيكوف

في ثلاثة ميكروسكوبات على ثلاثة اشعة، بينما لم يحصل على اي شيء من الشمس، وعبّر عن افكاره بما يلي:

- في اغلب الظن انه مفقود في طيف الشمس... هِمْ.. حسنا، وصفوة القول،وفي اغلب الظن ان من الممكن الحصول عليه من النور الكهربائي فقط. - وألقى نظرة ود على الضوء الكروي المغبّش المتدلي من الاعلى، واستغرق في التأمل بالهام واستدعى ايفانوف إليه في غرفة المكتب. فروى له كل شيء وأراه الاميبات.

ذهل مساعد الاستاذ - الخصوصي، وسحق تماما: كيف ان شيئاً بسيطا كهذا، سهما رفيعا كهذا، كان بمنأى عن البصر، ليأخذه الشيطان! كان بميسور أي انسان، هو ايفانوف مثلا، ان يراه. هذا عجيب حقا! انظر فحسب...

وقال ايفانوف، لاصقا عينه بمنظار الميكروسكوب في فزع:

- انظر يا فلاديمير ايباتيتش! فماذا يجري؟! انها تنمو امام سمعي وبصري... تطلّع، تطلّع...

فاجاب بيرسيكوف بحماس:

- انني اراقبها لليوم الثالث.

ثم دار حوار بين العالمين يتلخص مغزاه فيما يلي: يتعهد مساعد الاستاذ - الخصوصي بصنع صومعة بواسطة العدسات والمرايا يمكن فيها الحصول على هذا الشعاع مكبّرا وخارج الميكروسكوب. ويأمل ايفانوف، بل وهو على يقين، بان هذا في منتهى البساطة. وسيحصل على الشعاع، وبوسع فلاديمير ايباتيتش الا تراوده الشكوك بهذا الصدد. ولحظتئذ برزت عقبة بل عقدة صغيرة.

- انني، يا بيوتر ستيبانوفيتش سأكتب لدى نشر البحث بانك صنعت الصومعة.

قال بيرسيكوف ذلك شاعرا بان من الواجب حل هذه العقدة:
- اوه، هذا ليس مهما، ... ولكن، طبعاً...

وعلى الفور حلت العقدة. ومنذ تلك اللحظة شغل الشعاع كل اهتمام ايفانوف أيضاً. وبينما كان بيرسيكوف يرابط النهار ونصف الليل عند الميكروسكوب، وهو يزداد هزالا وانهاكا، كان ايفانوف يعمل في مختبر الفيزياء المتألق بنور المصابيح، في تركيب العدسات والمرايا. ويساعده عامل ميكانيكي في ذلك.

وارسلت إلى بيرسيكوف من المانيا، بعد تقديم طلب عن طريق مفوضية الشعب للمعارف ثلاثة طرود، فيها مرايا وعدسات محدبة ضعفين ومقعرة ضعفين وحتى الواح زجاجية ما محدبة - مقعرة صقيلة. وانتهى الامر بان صنع ايفانوف الصومعة وتم الحصول على الشعاع الاحمر فيها فعلا. والحق يقال انه ابدى مهارة في الحصول عليه: فقد كان الشعاع ثخينا، يبلغ عرضه نحو ٤ سنتيمترات، وحادا وشديدا.

وفي اول يونيو وضعت الصومعة في غرفة مكتب بيرسيكوف فاقبل بنهم على اجراء التجارب على بيوض الضفادع، باسقاط الشعاع عليها. واعطت هذه التجارب نتائج مذهلة. ففي غضون يومين تفقست هذه البيوض عن الاف الدعاميص. لكن هذا قليل، اذ نمت الدعاميص في غضون يوم واحد إلى ضفادع بصورة غير عادية، وكانت شرسة ونهمة إلى درجة ان نصفها إلتهم على الفور النصف الآخر. لكن البقية الباقية على قيد الحياة بدأت بوضع البيوض بدون اية فترات محددة، وفي غضون يومين اعطت بدون أي شعاع جيلا جديدا، علما ان عدده يفوق الحصر. وبدأت في غرفة مكتب العالم امور عجيبة، الشيطان وحده يعرف ماذا واختلط الحابل بالنابل: اذ زحفت الدعاميص من الغرفة إلى جميع ارجاء المعهد، وفي الاقفاص

وعلى الارض، وفي جميع الزوايا، صارت تنقنق في جوقات جهورية الصوت، كما في المستنقعات. اما بانكرات الذي كان يخاف بيرسيكوف اصلا، فقد بات يساوره شعور واحد تجاهه الآن هو شعور من الرعب القاتل. وبعد مرور اسبوع أحس العالم نفسه، بان افعاله تنم عن طيش. وامتلأ المعهد برائحة الاثير وحامض السيانيد الذي كاد ان يسمم بانكرات حين نزع القناع في غير الوقت المناسب. وفي نهاية المطاف تسنى القضاء على جيل المستنقعات بالسموم، وتمت تهوية الغرف.

وقال بيرسيكوف مخاطبا ايفانوف: أوتعرف، يا بيوتر ستيبانوفيتش، ان تأثير الشعاع على الديتيروبلازما وعموما على البيضة–الخلية مذهل.

لكن ايفانوف، وهو جنتلمان بارد الاعصاب ومتمالك لنفسه، قاطع البروفيسور بلهجة غير عادية بقوله:

– فلاديمير ايباتيتش، ما لك تتحدث عن التفاصيل الصغيرة كالديتيروبلازما. ولنقل بصراحة: لقد اكتشفتَ شيئاً لم يعرف له نظير – واردف ايفانوف بجهد كبير كما يبدو، لكنه تلفظ الكلمات: – يا بروفيسور بيرسيكوف، لقد اكتشفت شعاع الحياة!

وظهر تورد خفيف على وجنتي بيرسيكوف الشاحبتين غير الحليقتين.

فهمهم:

– لا – لا – لا.

وتابع ايفانوف يقول:

– انك، انك ستحصل على الاسم... ان رأسي يصيبه الدوار.

- ثم اردف يقول بانفعال - أتعرف، يا فلاديمير ايياتيتش، ان ابطال ويلز يبدون قياسا اليك مجرد لا قيمة لهم... وانا كنت اظن بان هذه حكايات وخيالات... اوتذكر كتابه "غذاء الارباب"؟

فاجاب بيرسيكوف:

- آه، انها رواية.

- نعم، يا الهي، انها رواية معروفة.

ورد بيرسيكوف:

- لقد نسيتها، اذكر انني قرأتها، لكنني نسيتها.

- كيف لا تذكر، فانظر - ورفع ايفانوف ضفدعة هائلة الحجم ذات بطن منتفخة من على الطاولة الزجاجية ممسكا بها من رجليها. ولاح على بوزها حتى بعد الموت تعبير شرس، - انها وحش رهيب!

الفصل الرابع
زوجة القس دروزدوف

الله يعلم ما السبب، فلربما يقع الذنب على ايفانوف، أو لان الاخبار المثيرة تنتشر وحدها في الهواء، لكن موسكو الفائرة العملاقة طفقت على حين فجأة تتحدث عن الشعاع وعن البروفيسور بيرسيكوف. حقا ان هذا جرى بصورة غير مباشرة وغامضة جدا. وتقافز نبأ الاكتشاف ذي المفعول العجيب كالطائر المصاب بطلقة، في العاصمة المنيرة، فكان يختفي تارة ويظهر تارة أخرى، حتى اواسط يونيو حين نشرت على الصفحة العشرين لجريدة "ازفستيا" تحت عنوان "اخبار العلم والتكنيك" ملاحظة مقتضبة، تتحدث عن الشعاع. وجاء فيها بجفاء ان استاذا معروفا من الجامعة الرابعة اخترع شعاعا يزيد بصورة عجيبة من النشاط الحيوي للكائنات الدنيا، وان من الواجب اختبار وفحص هذا الشعاع. وورد اللقب مقلوبا، طبعاً، ونشر كالآتي: "بيفسيكوف".

وجاء ايفانوف بالجريدة واراها إلى بيرسيكوف.

فغمغم بيرسيكوف، منهمكا في العمل بالصومعة في غرفة مكتبه:

- "بيفسيكوف"، من أين يعرف هؤلاء الكثيرو الضجيج كل شيء؟

لكن كتابة اللقب بصورة خاطئة لم تنقذ البروفيسور من الأحداث، وقد بدأت في اليوم التالي، فعكرت على الفور صفو حياة بيرسيكوف كلها.

اذ جاء بانكرات إلى الغرفة، بعد ان طرق بابها مسبقا، وسلم بيرسيكوف بطاقة زيارة فخمة صقيلة، واضاف بوجل:

- هو هناك.

وكتب على البطاقة بحروف انيقة:

الفريد اركاديفيتش

برونسكي

المحرر في المجلات الموسكوفية "الضوء الاحمر" و"الفلفل الاحمر" و"الجورنال الاحمر" و"البروجكتور الاحمر" وجريدة "موسكو المساء الحمراء".

وقال بيرسيكوف برتابة:

- ابعث به إلى الشيطان.

والقى بالبطاقة إلى ما تحت الطاولة.

فاستدار بانكرات، وخرج ثم رجع بعد خمس دقائق وعلى محياه امارات العذاب حاملا نسخة ثانية من البطاقة المذكورة.

وأز بيرسيكوف:

- هل انت تسخر مني؟

وأصبحت هيئته مرعبة.

فاجاب بانكرات وقد علاه الشحوب:

- يقول انه من دائرة الامن.

فاختطف بيرسيكوف البطاقة بيد، واوشك ان يمزقها إلى نصفين، بينما رمى باليد الأخرى الملقط على المائدة. وكان مكتوبا على البطاقة

بخط غير منتظم: "ارجوك بالغ الرجاء مع الاعتذار بان تستقبلني ايها الاستاذ المحترم لمدة ثلاث دقائق من أجل قضية عامة للصحافة والمحرر في المجلة الهزلية الساخرة "الغراب الاحمر"، الصادرة عن الدائرة السياسية للدولة[٢٨]؟

قال بيرسيكوف وفي حلقه غصة:

- ادعوه إلى هنا.

وعلى الفور انبجس من وراء ظهر بانكرات شاب ذو وجه حليق ناعم ولماع. وكان يثير العجب الحاجبان المرفوعان دائما، كما لدى صيني، والعينان بلون العقيق تحتهما اللتان لا تنظران في عيني محدثه لحظة واحدة. وكان الشاب انيق المظهر وعلى آخر موضة، ويرتدي جاكتة ضيقة وطويلة حتى الركبتين، وسراويل عريضة بهيئة جرس، وبحذاءين عريضين بشكل غير طبيعي وتشبهان الحوافر في مقدمتيهما، ويحمل بيده عصا صغيرة، وقبعة مدببة من الاعلى، ومفكرة.

- ما حاجتك؟ - سأل بيرسيكوف بصوت جعل بنكرات يختفي وراء الباب فورا. - فقد ابلغوك انني مشغول.

وبدلا من الجواب انحنى الشاب إلى البروفيسور مرتين، من الجهة اليسرى ومن الجهة اليمنى، ثم اخذت عيناه تجوب في ارجاء الغرفة بحركة دائرية. وعلى التو دوّن الشاب في مفكرة شيئاً ما.

- انا مشغول. - قال ذلك البروفيسور متطلعا إلى عيني الضيف باشمئزاز، لكنه لم يحقق أي تأثير، لأن العينين كانتا في شرود دائما.

وقال الشاب بصوت رفيع:

---

(٢٨) لجنة امن الدولة. المترجم.

– ارجو المعذرة الف مرة، ايها الاستاذ المحترم، لكوني اقتحم خلوتك واسلبك وقتك الثمين، لكن نبأ اكتشافك العالمي الذي اجتاح العالم بأسره، يرغم مجلتنا على التوجه اليك لاعطاء بعض الايضاحات.

قال بيرسيكوف بأنين وباشمئزاز وقد علاه الشحوب:

– أية ايضاحات إلى العالم أجمع، انا غير ملزم بتقديم ايضاحات أو أي شيء لكم... انا مشغول... مشغول جداً.

وسأل الشاب بلطف:

– ما هو العمل الذي تقوم به؟

ودوّن ملاحظة ثانية في مفكرته.

– انا... ماذا تقول؟ هل تريد نشر شيء ما؟

اجاب الشاب:

– نعم.

وفجأة، سجل عبارات ما في مفكرته.

– اولا، انني لا اعتزم نشر أي شيء، لحين انجاز العمل... لا سيما في صحفكم هذه... وثانيا من اين عرفتم بهذا كله؟..

وفجأة شعر بيرسيكوف بالارتباك.

– هل حقا ما جاء في الانباء بانك اخترعت شعاع حياة جديدة؟

فاستشاط البروفيسور غيظا:

– اية حياة جديدة هذه؟ ما هذا السخف الذي تقوله! ان الشعاع الذي ابحثه، لم يدرس بعد ابدا، وعموما لا يعرف عنه أي شيء بعد! لربما، انه سيزيد النشاط الحيوي للبروتوبلازم...

وسأل الشاب بعجلة: بكم مرة؟

فأسقط في يد بيرسيكوف نهائيا... "يا له من رجل غريب الاطوار. الشيطان وحده يعلم ما هذا!".

- ما هذه الاسئلة المبتذلة؟.. لنفرض انني سأقول انه سيزداد بألف مرة!

واضاءت بهجة متوحشة عيني الشاب.

- ويتم الحصول على كائنات عملاقة؟

- لا ابدا! حقا ان الكائنات التي حصلت عليها أكبر من العادية. وانها ذات خواص جديدة ما... فالمهم عندئذ ليس الحجم، بل سرعة التكاثر المذهلة.

قال بيرسيكوف ذلك لسوء حظه ثم تملكه الفزع توا. فقد ملأ الشاب صفحة كاملة، وقلبها وواصل الكتابة.

وقال بيرسيكوف مستسلما وشاعرا بانه أصبح في قبضة الشاب:

- ما هذا الذي تسجله؟

ثم سأل يائسا:

ما هذا الذي تكتبه؟

- هل صحيح انه بالامكان الحصول من البيوض في غضون يومين على مليوني دعموص؟

وصاح بيرسيكوف وقد علاه الشحوب مجددا:

- من أي كمية من البيوض؟ وهل رأيت في أي وقت بيوض... مثلا الضفدعة النقناقة؟

فسأل الشاب بلا ارتباك:

- بوزن نصف باوند.

واصبطغ وجه بيرسيكوف بالحمرة.

- من الذي يجري المعايرة بهذه الصورة؟ تفو! ما هذا الذي تقوله؟ طبعاً، إذا ما اخذنا نصف باوند من بيوض الضفادع.. عندئذ لربما... يا للشيطان، تؤخذ هذه الكمية تقريبا، أو ربما أكثر بقدر كبير!

وتألقت الجواهر في عيني الشاب، وملأ دفعة واحدة صفحة أخرى.

- هل صحيح ان هذا سيحدث انقلابا في تربية الحيوان؟

فقال بيرسيكوف شاكيا:

- ما كلام الجرائد هذا، وعموما انني لا اسمح لك بكتابة سخافات. انني ارى من ملامح وجهك بانك تكتب امورا شنيعة ورذائل.

ونبر الشاب:

- ارجوك يا بروفيسور كل الرجاء اعطني صورتك الفوتوغرافية.

ثم اغلق مفكرته.

- ماذا؟ صورتي الفوتوغرافية؟ من أجل مجلاتكم؟ لتنشر سوية مع هذه الترهات التي تكتبها. لا، لا، لا.. انا مشغول.. ارجوك!

- ولو صورة قديمة. وسنعيدها اليك فورا.

وصاح البروفيسور بغيظ: بانكرات!

فقال الشاب: إلى اللقاء.

ثم اختفى.

وبدلا من بانكرات سمعت من وراء الباب قرقعة ماكينة غريبة، وطقطقة وكركبة على الارض كوقع حذاء ذي نعل حديدي، وظهر في الغرفة رجل بدين بصورة غير عادية، يرتدي بلوزة طويلة وسراويل مصنوعة من قماش صوفي. وكانت ساقه الاصطناعية اليسرى تطقطق وتقرقع، وبيده حقيبة اوراق. وارتسمت ابتسامة بشوشة على وجهه المدور الحليق، المتورم المشوب باصفرار. فانحنى امام البروفيسور على طريقة العسكريين واعتدل في قامته مما جعل ساقه تقلقل. وفقد بيرسيكوف القدرة على الكلام.

وقال الرجل المجهول بصوت عذب ومتحشرج:

- السيد البروفيسور. إغفر لرجل بسيط وفانٍ ان يعكر صفو خلوتك.

- هل انت مراسل؟ بانكرات!!

فرد الرجل البدين:

- لست ذاك ابدا ايها السيد البروفيسور. اسمح لي بتقديم نفسي، قبطان الرحلات البعيدة، والمحرر في جريدة "اخبار الصناعة" الصادرة عن مجلس مفوضي الشعب.

وصرخ بيرسيكوف بهستيرية:

- بانكرات!!

وفي تلك اللحظة اشتعل الضوء الاحمر ودق جرس التلفون.

وكرر البروفيسور:

- بانكرات، انا سامع.

فسمعت حشرجة بالتلفون باللغة الالمانية:

- فيرتسايين زي بيته، هر بروفيسور، داس ايخ شتيوريه. ايخ بين ميتاربيتير ديس برلينر تاغيبلاتس.[٢٩]

وصرخ البروفيسور في سماعة التلفون:

- بانكرات! بين مومينتال زير بيشيفتيغت اوند كان زي بيسهالهب يتست نيخت يمبافانغن[٣٠]!.. بانكرات!!..

وفي تلك اللحظة بدأ الجرس يرن عند مدخل المعهد.

* * *

- جريمة قتل رهيبة في شارع برونّايا!! - كانت تردد ذلك اصوات مبحوحة في حومة انوار المصابيح بين عجلات السيارات، فوق ارضية الشارع الساخنة في شهر يونيو. - مرض فظيع يصيب دجاجات زوجة القس دروزدوف مع صورتها! الاكتشاف الرهيب لاشعة الحياة من قبل البروفيسور بيرسيكوف!!

ترنح بيرسيكوف لدى سماع ذلك حتى كاد يقع تحت عجلات سيارة في شارع موخوفايا، واختطف جريدة من البائع بعنف.

وصاح الصبي، بائع الصحف:

- ثلاثة كوبيكات، ايها المواطن!

ثم اندس وسط الجمهرة على رصيف الشارع وطفق يصرخ مرة أخرى:

- "الجريدة المسائية الحمراء"، اكتشاف اشعة اكس!!

---

(٢٩) المعذرة على الازعاج، يا بروفيسور. انا محرر في الصحيفة اليومية البرلينية.
(٣٠) انا الآن مشغول جداً، ولا استطيع اجراء مقابلة معك. (بالالمانية). المترجم.

فتح بيرسيكوف المبهوت الجريدة واتكأ على عامود الكهرباء. ورأى على الصفحة الثانية وفي الركن الايسر، وسط أطر غير واضحة، وجه رجل اصلع ذا عينين زائغتين مجنونتين، وقد تدلى فكه الاسفل. انه ثمرة الخيال الابداعي لالفريد برونسكي، وتحت الصورة كتب "ف. أي. بيرسيكوف الذي اكتشف الشعاع الاحمر الغامض".

وفي الاسفل، وتحت عنوان "لغز كوني" بدأت المقالة بالكلمات التالية:

"قال لنا العالم الموقر بيرسيكوف مرحبا - اجلسوا".

وبدا تحت المقالة التوقيع: "الفريد برونسكي (الونزو)".

غمر سطح الجامعة نور ضارب إلى الخضرة، وبرزت في السماء الكلمات النارية: "الجريدة الناطقة"، وعلى الفور تجمهر حشد من الناس عند شارع موخوفايا. وعلى حين غرة جأر في الميكروفون على السطح صوت عال منفر جداً، يشبه تماما صوت الفريد برونسكي، مضاعفا بألف مرة.

"- اجلسوا!! - قال لنا العالم الموقر بيرسيكوف مرحبا!

- انني كنت منذ وقت بعيد اريد اطلاع بروليتاريا موسكو على نتائج اكتشافي..."

وتردد صرير ميكانيكي وراء ظهر بيرسيكوف، ومسه احدهم من كمه. وحين التفت رأى الوجه المدور الشاحب لصاحب الساق الميكانيكية. وكانت عيناه مخضلتين بالدموع وشفتاه ترتجفان.

وقال حزينا:

- انك، ايها السيد البروفيسور، لم ترغب في اطلاعي على نتائج اكتشافك الباهر.

ثم اطلق تنهيدة عميقة وتابع قوله: لقد ضاعت.

ورنا بكآبة إلى سطح الجامعة، حيث كان الفريد الخفي يزعق في كوة سوداء. ولامر ما شعر بيرسيكوف بالاشفاق على الرجل البدين.

فتمتم بحقد، ملتقطا الكلمات الهادرة في السماء:

- انا لم اقل له أي "اجلسوا"! هذا مجرد سفيه في غاية السفاهة! المعذرة، رجاء، - فالحق، ان المرء حين يعمل، واذا باحد ما يقتحم غرفته... انا طبعاً لا اقصدك...

وقال الرجل الميكانيكي بتأتأة وبحزن:

- لربما، ايها السيد البروفيسور، ستعطيني ولو وصف صومعتك؟ فالامر سواء لديك الآن...

وعوى الرجل الخفي في الميكروفون:

- تتفقس عن نصف باوند من البيوض في غضون ٣ ايام كمية من الدعاميص يستحيل حصرها.

وعاطت السيرات في شارع موخوفايا بصوت مكتوم:

- تو - تو.

فيما اطلقت الجمهرة خشخشة، واشرأبت الاعناق:

- هو - هو - هو... عجيب، هو - هو - هو.

- يا له من نذل؟ ها؟ - نبر بيرسيكوف غاضبا بصوت كالفحيح مرتجفا من الغضب ومخاطبا الرجل الميكانيكي، - ما رأيك بهذا؟ انني سأشكوه إلى السلطات!

ووافقه الرجل البدين بقوله:

- أمر شائن!

سقطت حزمة ضوء بنفسجية ساطعة فاصابت الغشاوة عيني

البروفيسور وتوهج كل شيء حواليه - عامود الكهرباء، وقسم من ارضية الشارع المرصوفة بالحجارة، والجدار الاصفر، والوجوه الفضولية.

فهمس الرجل البدين باعجاب:

- هذا من اجلك ايها السيد البروفيسور.

وتعلق بيد البروفيسور كأنه ثقل مما يستخدمه الرياضيون في العابهم. وطقطق شيء ما في الهواء.

وصاح بيرسيكوف بقنوط:

- ليذهبوا جميعا إلى الشيطان!

وراح يشق طريقه مع الثقل وسط جمهرة الناس وهتف:

- هيا، يا تاكسي! إلى شارع بريتشيستينكا!

وطفقت السيارة العتيقة المحدودبة، من طراز عام ٤٢٩١، تقرقر عند الرصيف، واندس البروفيسور في المقعد المكشوف، ساعيا إلى التخلص من الرجل البدين.

وهمس قائلا: - انت تضايقني، - وغطى عينيه بقبضتيه لاتقاء النور البنفسجي.

وكانت اصوات تردد في جمهرة الناس حواليهما:

- هل طالعت؟! ما لهم يصرخون؟.. لقد ذبحوا البروفيسور بيرسيكوف مع اولاده في شارع مالايا برونّايا!..

وهتف بيرسيكوف:

- ليس لدي أي اولاد، يا ابناء الكلاب.

وعلى حين بغتة اضحى في بؤرة عدسة آلة سوداء التقطت له صورة جانبية بفم مفتوح وعينين غاضبتين.

وهدرت سيارة الاجرة: - كرخ.. تو - كرخ.. تو، - واندفعت وسط الحشد.

وكان الرجل البدين يجلس في المقعد المكشوف ويدفئ جنب البروفيسور.

الفصل الخامس
قصة الدجاج

في المدينة النائية ترويتسك سابقا، وستيكلوفسك حاليا، بمحافظة كوستروما، في قضاء ستيكلوفسك، خرجت امرأة تلف رأسها بمنديل وترتدي فستانا رماديا من الشيت مزخرفا بباقات زهور، إلى مدخل شرفة بيت صغير يقع في شارع سوبورنايا سابقا، وبيرسونالنايا حاليا، واستغرقت في البكاء. وكانت هذه المرأة ارملة - القمص دروزدوف اول الكهنة في الكاتدرائية سابقا تبكي بصوت بلغ من علوه ان انبجس سريعا من نافذة البيت الكائن في الطرف المقابل من الشارع رأس امرأة ملفع بمنديل من الوبر وهتف قائلا:

- ما بالك، يا ستيبانوفنا، هل هناك اخريات؟

فردت دروزدوفا سابقا وقد اجهشت بالعويل:

- السابعة عشرة!

وناحت المرأة ذات المنديل الموبّر وهزّت رأسها - فما معنى ذلك؟ يا للـ.. ـعـ.. جـ.. ب. هذا غضب الرب، كلمة حق! هل يعقل انها نفقت؟

وهمهمت زوجة القس وهي تنشج بصوت عال وبألم:

- انتِ انظري، انظري يا ماتريونا، انظري ماذا يجري لها! - اصطفق باب الحديقة المتداعي الرمادي، وطبطبت اقدام المرأة فوق النتوءات المتربة للشارع، واقتادت ارملة القس المخضلة بالدموع ماتريونا إلى فناء الدواجن.

ولا بد من القول ان ارملة الاب القمص سافاتي دروزدوف، المتوفي في عام ٦٢٩١ مغموما بسبب العداء للدين، لم تستسلم للقدر. بل أسست مزرعة ممتازة لتربية الدجاج. وحالما تحسنت امور الارملة، فرضت عليها ضريبة كادت ان تؤدي إلى اغلاق المزرعة، لو لا الناس الاخيار. فقد اوعزوا إلى الارملة بان تقدم عريضة إلى السلطات المحلية تذكر فيها انها، أي الارملة، تؤسس جمعية تعاونية لتربية الدجاج. وقد ضمت الجمعية دروزدوفا نفسها وخادمتها الامينة ماتريوشكا وفتاة صماء هي ابنة اخ الارملة. فاعفيت الارملة من الضريبة، وازدهرت مزرعتها لحد انه لدى حلول عام ١٩٢٨ أصبح لدى الارملة، في الفناء المترب، المحاط باقفاص الدجاج حتى ٠٥٢ دجاجة، بينها حتى دجاجات من صنف كوخينخين. وصارت بيوض الارملة تباع في كل يوم أحد في سوق ستيكلوفسك، كما وتباع بيوض الارملة في تامبوف، واحيانا كانت تعرض أيضاً في الواجهات الزجاجية لمتجر "جبن وزبدة تشيتشكين" في موسكو.

وها هي تلك الدجاجة القنبرانية، البرامبوترا السابعة عشرة والاثيرة لدى صاحبتها، راحت تجوب ارجاء الفناء منذ الصباح، وتتقيأ. وكانت الدجاجة القنبرانية تردد "ار.. ار.. اورل.. اورل.. غو – غو – غو" وترفع عينيها الحزينتين نحو الشمس كما لو انها تراها لآخر مرة. فيما كانت ماتريوشكا عضو الجماعة التعاونية تتقافز جالسة القرفصاء امام منقار الدجاجة، وبيدها قدح ماء.

وراحت ماتريوشكا تتوسل إليها:

– عزيزتي القنبرانية، يا حلوتي... تسيب، تسيب، تسيب... اشربي الماء.

بيد ان الدجاجة القنبرانية لم ترغب في الشرب.. وفتحت منقارها واسعا، ورفعت رأسها عاليا. ثم تقيأت دما.

وصاحت الضيفة، وضربت فخذيها:

- يا يسوع الرب! ما هذا الذي يحدث؟ هذا دم مذبوح. انا لم ار ابدا، ولتصعقني السماء، دجاجة مصابة باوجاع البطن، كالانسان.

وكانت هذه الاقوال، وكأنها نصائح تقدم إلى مسافر، آخر ما سمعته الدجاجة القنبرانية المسكينة. فقد هوت جانبا على حين غرة، ودست منقارها في التراب بعجز وادارت عينيها. ثم انقلبت على ظهرها، ورفعت رجليها إلى الاعلى وتوقفت عن الحركة. فاجهشت ماتريوشكا باكية بصوت اجش وهي تسكب الماء من القدح، وكذلك زوجة القس - رئيسة الجمعية التعاونية، فيما انحنت الضيفة إلى اذنها وهمست:

- ستيبانوفنا، اقسم باغلظ الايمان، ان هناك من افسد دجاجك. فمن سمع بشيء كهذا! ولا توجد امراض دجاج مثل هذه! لا بد وان احدهم قد سحر دجاجك.

ورفعت زوجة القس رأسها إلى السماء وهتفت:

- يا اعداء حياتي هل تريدون هلاكي؟

فردّ على قولها صراخ ديك عال، ثم خرج من القفص ديك هزيل منتوف الريش ماشيا بحركة جانبية، بالضبط مثلما يخرج سكران مترنحا من حانة. فبحلق فيهما بعينيه، وراح في مكانه، ناشرا جناحيه كالنسر، لكنه لم يحلق إلى أي مكان، بل طفق يدور في الفناء كالحصان في ساحة التدريب. وفي الدورة الثالثة توقف، وتجشأ، ثم صار يتنخع ويشخر، وبصق بقع الدم حواليه، وانقلب على ظهره، وانتصبت رجلاه باتجاه الشمس مثل الصارية. وغمر عويل المرأتين الفناء. وردت عليه الوقوقة والصخب والقرقعة في اقفاص الدجاج.

وسألت الضيفة بلهجة ظافرة:

- أترين، أليس هذا من أعمال السحر؟ استدعي الاب سيرغي، وليتلو الصلوات.

في الساعة السادسة مساء، حين مالت الشمس إلى المغيب وبدا قرصها احمر ناريا بين اقراص زهور عباد الشمس، كان في فناء حديقة الدواجن، الاب سيرغي رئيس الكاتدرائية، قد انهى تلاوة الصلوات وصار ينزع البطرشيل. وانبجست رؤوس الفضوليين فوق السياج الخشبي وفي شقوقه. اما ارملة القس الحزينة، فقد لثمت الصليب، وبللت الروبل الممزق الاصفر بلون الكناري بدموعها الغزيرة واعطته إلى الاب سيرغي، فقال هذا عبارة ما، متنهدا، مفادها ان الرب، كما يبدو، غاضب علينا. وبدت هيئة الاب سيرغي كما لو انه يعرف حق المعرفة سبب غضب الرب بالذات، لكنه لن يقول ذلك فحسب.

ثم تفرقت جمهرة الناس في الشارع، وبما ان الدجاج يهجع مبكرا، فلم يعرف أحد ان ثلاثة دجاج وديك قد اسلمت الروح دفعة واحدة في القفص لدى جيران زوجة القس دروزدوفا. وقد تقيأت بالصورة ذاتها كدجاجات دروزدوفا، لكن فقط حدثت الوفاة في القفص المغلق وبهدوء. وقد هوى الديك من العارضة إلى الاسفل على رأسه ومات بهذه الوضعية. اما بصدد دجاجات الارملة فانها نفقت فور انتهاء الصلوات، وعند حلول المساء ران السكون والصمت في الاقفاص، وتكومت الطيور النافقة في اكوام.

وفي الصباح استيقظت المدينة، وكأن صاعقة ضربتها، لان القصة اتخذت نطاقات غريبة ورهيبة. ففي شارع بيرسونالنايا لم يتبق على قيد الحياة بحلول الظهر سوى ثلاث دجاجات، وفي البيت الواقف في اقصى الشارع، والذي استأجر مفتش المالية للقضاء شقة فيه، نفقت الدجاجات في نحو الواحدة بعد الظهر. وبحلول المساء كانت مدينة ستيكلوفسك تهدر وتفور وتغلي، مثل خلايا النحل، واجتاحتها

الكلمة الرهيبة "الطاعون". ونشر اسم دروزدوفا في الصحيفة المحلية "المقاتل الاحمر" في مقالة بعنون: "هل انه طاعون الدجاج حقا؟"، وانتقل من هناك إلى موسكو.

* * *

اصطبغت حياة البروفيسور بيرسيكوف صبغة غريبة ومقلقة ومؤرقة. وصفوة القول كان من المستحيل العمل في ذلك الوضع. ففي اليوم التالي بعد لقائه مع الفريد برونسكي، اضطر إلى قطع خط الهاتف في غرفة مكتبه بالمعهد، بان رفع السماعة، وفي المساء حين كان البروفيسور يستقل الترام المنطلق في شارع اوخوتني رياد، رأى نفسه - أي صورته - فوق سطح مبنى كبير كتب عليه بحروف سوداء "الجريدة العمالية". وبدا فيها هو، البروفيسور، مسحوقا ومخضوضرا، وغامزا بعينيه، يهمّ بالجلوس في المقعد المكشوف لسيارة الاجرة. وفي أثره، كان يبدو متشبثا باكمامه، ويهمّ بالركوب "الكرة الميكانيكية" الملفعة بدثار. كان البروفيسور على السطح، فوق الشاشة البيضاء، يحاول ابعاد الشعاع البنفسجي عنه بقبضتيه. ثم ظهرت كتابة ساطعة نارية: "البروفيسور بيرسيكوف، يستقل سيارة، ويعطي شرحا إلى مراسلنا الشهير القبطان ستيبانوف". وحدث بالضبط ان مرقت بمحاذاة كاتدرائية المسيح، في شارع فولخونكا، سيارة مقلقلة يهتز فيها البروفيسور، ومحياه يشبه بوز ذئب جريح.

وهمهم عالم الحيوان:

- انهم أبالسة، وليسوا بشرا.

ثم واصل طريقه.

وفي مساء ذلك اليوم والتاريخ نفسه تلقى العالم من مدبرة البيت ماريا ستيبانوفنا لدى عودته إلى البيت في بريتشيستينكا، ٧١ قصاصة

ورق وارقام تلفونات، اذ ما انفكت المكالمات تنهال عليه في فترة غيابه، كما اعلنت له ماريا ستيبانوفنا شفهيا بانها انهكت. واراد البروفيسور ان يمزق القصاصات، لكنه توقف، اذ رأى إلى جانب أحد الارقام عبارة: "مفوضية الشعب للرعاية الصحية".

فارتبك العالم الغريب الاطوار حقا:

- ما معنى ذلك؟ ماذا حدث لهم؟

وفي الساعة العاشرة والربع من المساء ذاته دق جرس الباب واضطر البروفيسور إلى محادثة مواطن ما ذي هيئة انيقة مفرطة في الاناقة. وقد استقبله البروفيسور بفضل بطاقة الزيارة التي كتب عليها (بدون اسم ولقب): "الرئيس المطلق الصلاحيات للاقسام التجارية لدى البعثات الاجنبية في جمهورية السوفيتات".

وجأر بيرسيكوف:

- ليأخذه الشيطان!

ورمى على الجوخ الاخضر العدسة ورسوما بيانية ما وقال مخاطبا ماريا ستيبانوفنا:

- ادعي هذا المطلق الصلاحيات إلى غرفة المكتب. وسأل بيرسيكوف:

- اية خدمة؟

وقد قال ذلك بلهجة جعلت "الرئيس" ينتفض. واعاد بيرسيكوف وضع العوينات من قصبة أنفه إلى جبهته، ثم اعادها إلى مكانها مرة أخرى ورنا إلى الزائر. وكان هذا يتألق باجمعه بالمساحيق والطلاء والاحجار الكريمة، بينما كان على عينه اليمنى مونوكل. ولسبب ما دار في خلد بيرسيكوف: "يا له من بوز دميم حقير".

بدأ الضيف من بعيد، فطلب السماح له بتدخين سيجارة، وبعد ذلك دعاه بيرسيكوف على مضض شديد إلى الجلوس. ومن ثم قدم الضيف اعتذارات مطولة بصدد مجيئه في وقت متأخر: "لكن... كان من المستحيل ايجاد السيد البروفيسور في النهار...هيه، هيه... باردون..." (كان الضيف ينشج كالضبع، ابان ضحكه).

– نعم، انا مشغول.

اجاب البروفيسور باقتضاب، مما جعل الضيف ينتفض راجفا مرة أخرى.

ومع ذلك فقد سمح لنفسه باقلاق العالم الشهير:

– فالوقت من ذهب كما يقال... ألا تزعج السيجارة البروفيسور؟

فرد البروفيسور:

– مور – مور – مور.

وسمح له بالتدخين...

– ان البروفيسور، كما يبدو، قد اكتشف شعاع الحياة؟

وانتعش بيرسيكوف:

– رحماك، أي حياة تلك؟! انها تلفيقات محرري الجرائد!

– آه، لا، هيه، هيه، هيه... انه يعرف جيدا التواضع الذي يتحلى به عن حق جميع العلماء الاقحاح... عم نتحدث اذن... ثمة برقيات وردت اليوم... يعرف كل شيء عن موضوع الشعاع في المدن العالمية، مثل: وارشو وريغا. ويردد العالم بأسره اسم البروفيسور بيرسيكوف.. ويتابع العالم باسره محتبس الانفاس عمل البروفيسور بيرسيكوف. لكن يعرف الجميع بالوضع الصعب للعلماء في روسيا السوفيتية... انتر نو سوا دي... لا يوجد هنا أحد من الاغراب؟.. ووأسفاه، لا يعرفون

هنا قيمة الأعمال العلمية، ولهذا اراد التحدث مع البروفيسور... ان دولة اجنبية تعرض على البروفيسور بيرسيكوف مساعدة نزيهة تماما في أعماله المختبرية. وما الحاجة "الى القاء الدرّ امام الخنازير" كما يرد في الكتاب المقدس. والدولة تعرف ان احوال البروفيسور كانت صعبة في عامي ١٩ و٢٠ في اثناء تلك هيه، هيه... الثورة. لكن سيحفظ الامر في سرية مطلقة، طبعاً... فيما يطلع البروفيسور الدولة على نتائج عمله، ومقابل ذلك ستتولى هي تمويل البروفيسور. فقد صنع صومعة، وسيكون امرا شيقا الاطلاع على الرسوم الهندسية لهذه الصومعة...

لحظتئذ استخرج الضيف من الجيب الداخلي للجاكتة حزمة ناصعة البياض من الاوراق.

شيء لا قيمة له، ... ٥ روبل، مثلا، وبوسع البروفيسور استلامها في هذه اللحظة... ولا حاجة إلى الوصل... ان البروفيسور حتى سيسيء إلى الرئيس التجاري المطلق الصلاحيات، إذا أورد ذكر وصل الاستلام.

فجأر بيرسيكوف على حين فجأة بصورة رهيبة:

- اخرج!!!

مما جعل آلة البيانو في غرفة الاستقبال ترن بصوت قرقعة المفاتيح الرفيعة.

واختفى الضيف، إلى درجة ان بيرسيكوف المرتجف غيظا صار بعد دقيقة يتشكك نفسه، فيما إذا كان الرجل موجودا ام ان هذا وهم.

وبعد لحظة طفق بيرسيكوف ينوح في غرفة المدخل:

- هل هذان الكالوشان له؟

فردت ماريا ستيبانوفنا المرتجفة رعبا:

لقد نساهما.

- ارميهما بعيدا!

- إلى اين ارميهما؟ سيأتي في طلبهما.

- سلميهما إلى لجنة البيت. مقابل وصل بالاستلام. لا اريد ان يكون لهذين الكالوشين وجود هنا! إلى اللجنة! وليتسلموا كالوشى الجاسوس!..

رسمت ماريا ستيبانوفنا علامة الصليب، وتناولت الكالوشين الجلديين الممتازين وحملتهما إلى المدخل الخلفي للشقة. ولبثت هناك وراء الباب، ثم اخفتهما في المخزن.

وقال بيرسيكوف مهتاجا:

- هل سلمتيهما؟

- نعم، سلمتهما.

- هات الوصل بالاستلام.

- لكن فلاديمير ايباتيتش. ان الرئيس لا يعرف القراءة والكتابة.

- هذه اللحظة يجب أن أحصل على وصل بالاستلام. وليوقّع بدلاً منه أحد ابناء الكلاب الذين يحسنون القراءة والكتابة.

هزّت ماريا ستيبانوفنا رأسها فحسب، وخرجت وعادت بعد مضي ربع ساعة حاملة قصاصة ورق كتب فيها:

"استلم من البروفيسور بيرسيكوف للايداع (زوج واحد من الكواليش). كوليسوف".

- وما هذا؟

- فيشة.

داس بيرسيكوف الفيشة بقدميه، واخفى الوصل تحت الكابسة. ثم عكرت صفو جبهته المدورة فكرة ما. فهب إلى التلفون والحّ في الاتصال تلفونيا مع بانكرات في المعهد وسأله: هل كل شيء على ما يرام؟! وزمجر بانكرات بكلام ما في السماعة، كان بالمستطاع ان يفهم منه بان كل شيء على ما يرام، برأيه. لكن بيرسيكوف اطمأن لحظة واحدة فقط.

فقد تشبث بالتلفون عابسا وقال ما يلي في السماعة:

- اعطني، هذه، كيف اسمها، لوبيانكا[٣١]. ميرسي... لمن يمكن ان يبلغ عندكم... بان اشخاصا مشبوهين يرتدون كالوشات يحومون هنا، نعم... بيرسيكوف الاستاذ في الجامعة الرابعة...

وفجأة قطع الحوار في السماع، وابتعد بيرسيكوف، متمتما بشتائم ما عبر اسنانه.

استفسرت ماريا ستيبانوفنا وجلة، بعد ان القت نظرة إلى داخل الغرفة:

- هل ستشرب الشاي يا فلاديمير ايباتيتش؟

- لن اشرب أي شاي... مور - مور - مور، وليأخذهم الشيطان جميعا... كأنّ بهم مس من الجنون، الامر سواء.

بعد مضي عشر دقائق استقبل البروفيسور في مكتبه ضيوفا جددا. وكان احدهم، وهو ظريف، وسمين مدور ولطيف غاية اللطافة، يرتدي جاكتة عسكرية وسراويل ركوب. وثبت على قصبة انفه نظارة بنسنيه، وكأنها فراشة بلورية. وعموما كان يشبه ملاكا بجزمتين

(٣١) ساحة لوبيانكا بموسكو حيث تقوم دائرة الامن. المترجم.

لامعتين. اما الثاني القصير القامة، والعبوس للغاية، فكان بملابس مدنية، لكن بدت هذه الملابس المدنية عليه وكأنها تضايقه. بينما سلك الضيف الثالث مسلكا خاصا، فلم يلج مكتب البروفيسور، بل بقي في المدخل المعتم. لكنه كان يرى جميع ارجاء غرفة المكتب المضاءة والمترعة بخيوط من دخان التبغ. وبدت على وجه هذا الثالث، ذي الملابس المدنية أيضاً، نظارة بنسنيه معتمة.

واذاق الاثنان في الغرفة بيرسيكوف اشد العذاب، بتفحصهما لبطاقة الزيارة، وتساؤلاتهما عن الخمسة آلاف روبل وارغامه على وصف المظهر الخارجي للضيف.

وتمتم بيرسيكوف:

– الشيطان وحده يعلم، ان سحنة وجهه منفرة. منحط.

وسأل الصغير القامة بحشرجة:

– هل ان عينه زجاجية؟

– الشيطان يعلم. لكن، لا، انها ليست زجاجية، بل كانت عيناه تتحركان.

واستفسر الملاك ذو الملابس المدنية من الصغير القامة بصوت خافت:

– هل هو روبنشتين؟

لكن ذاك هز رأسه متجهما بالنفي. وهمهم قائلا:

– ان روبنتشين لا يعطي بدون وصل، ابدا، هذا ليس من افعال روبنتشين. هنا واحد أكبر وزنا.

وقد اثارت قمة الكالوشين غاية الاهتمام من جانب الضيوف. فما ان ردد الملاك في تلفون مكتب لجنة البيت بضع كلمات فقط

"الدائرة السياسية للدولة تدعو في هذه اللحظة كوليسوف سكرتير اللجنة السكنية إلى شقة البروفيسور بيرسيكوف مع الكالوشين"، حتى ظهر كوليسوف في المكتب على الفور، شاحب الوجه، ممسكا بالكالوشين.

- فاسينكا!

هتف الملاك بصوت غير عال مخاطبا ذاك الجالس عند المدخل. فنهض هذا بتثاقل ومشى مجرجرا قدميه. وكأنه غائب عن الوعي. وغطى الزجاج المعتم عينيه كليا.

فسأل باقتضاب، ناعسا:

- ما الامر؟

- الكالوشان.

واجالت العينان القاتمتان النظر في الكالوشين، وتـراءى إلى بيرسيكوف للحظة من الزمن، ان عينين لمعتا من تحت الزجاج جانبا، علما انها غير غافيتين، بل بالعكس ثاقبتان بصورة مذهلة. لكن بريقهما خمد في لحظة خاطفة.

- ما رأيك يا فاسينكا؟

فاجاب المدعو فاسينكا بصوت فاتر:

- ما رأيي، أي رأي هنا. انهما كالوشا بولينجكوفسكي.

وحرم مكتب رصيد الايداع فورا من هدية البروفيسور بيرسيكوف اذ اختفى الكالوشان في ورق صحيفة. ونهض الملاك ذو الجاكتة العسكرية المبتهج كل الابتهاج وراح يضغط على يد البروفيسور مصافحا، وحتى القى خطابا قصيرا يتلخص محتواه بما يلي: ان هذا شرف للبروفيسور... وبميسوره ان يكون مطمئنا... فلن يقلقه بعد

هذا احد، لا في المعهد، ولا في البيت... وستتخذ التدابير، وستكون صوامعه في امان كامل...

وسأل بيرسيكوف، متطلعا فوق نظارتيه:

- الا يمكن اعدام مندوبي الصحافة رميا بالرصاص؟

واشاع هذا السؤال غاية المرح لدى الضيوف. فابتسم ليس الصغير القامة العابس فقط، بل وحتى ذو النظارة المعتمة في غرفة المدخل. واوضح الملاك بتألق وبجذل بان هذا غير ممكن.

- ومن هذا المحتال اللئيم الذي كان عندي؟

لحظتئذ كف الجميع عن الابتسام، تملص الملاك من الجواب، بقوله انه قد يكون أحد المحتالين الصغار، ولا يستحق الامر ان يلقى إليه بالا... كما انه يرجو المواطن البروفيسور كل الرجاء ان يبقى حادث امسية اليوم في طي الكتمان التام، ثم انصرف الضيوف.

عاد بيرسيكوف إلى غرفة المكتب، إلى الرسوم البيانية، لكنه لم يستطع العمل. فقد ومض في التلفون الضوء الاحمر، وعرض صوت نسائي على البروفيسور فيما إذا يرغب في الزواج من ارملة مليحة ذات عواطف مشبوبة، لديها شقة من سبع غرف. وناح بيرسيكوف في السماعة:

- انا انصحك بمراجعة البروفيسور روسوليمو... - وأعقبت ذلك مكالمة أخرى.

وعندئذ هدأ بيرسيكوف قليلا. لان شخصية معروفة جداً تلفنت من الكرملين، واستفسرت من بيرسيكوف طويلا وبتعاطف عن عمله واعلنت عن رغبتها في زيارة مختبره. وابتعد بيرسيكوف عن التلفون ومسح جبينه ورفع السماعة. انذاك صدحت في الشقة العليا الابواق

الرهيبة وترددت اصوات البطلات الاسطوريات - فالكيريا - فقد التقط المذياع في بيت مدير مؤسسة صناعة الجوخ حفلة الموسيقار فاغنر في مسرح البولشوي. واعلن بيرسيكوف وسط العويل والهدير القادم من السقف، إلى ماريا ستيبانوفنا قائلا انه سيقاضي المدير في المحكمة، وسيحطم مذياعه، وانه سيغادر موسكو إلى الابد، لانه، كما يبدو، يراد ارغامه على تركها. وحطم العدسة ورقد للنوم في غرفة المكتب فوق الديوان واستسلم للكرى بمصاحبة الانغام العذبة لعازف البيانو الشهير، الطائرة من مسرح البولشوي.

تواصلت المفاجآت في اليوم التالي أيضاً. فحين جاء بيرسيكوف إلى المعهد في الترام شاهد في السقيفة مواطنا لا يعرفه يضع على رأسه قبعة خضراء على آخر موضة. وقد تفحص هذا المواطن بيرسيكوف بامعان، لكنه لم يطرح عليه اية اسئلة، ولهذا فان بيرسيكوف تحمله. غير ان "قبعة" ثانية استقبلت بيرسيكوف في غرفة مدخل المعهد، إلى جانب بانكرات المرتبك، ورحبت فيه بأدب:

- مرحبا، ايها المواطن البروفيسور.

فسأل بيرسيكوف بفزع: ماذا تريد؟ - نازعا معطفه بمعونة بانكرات. لكن "القبعة" بعث الطمأنينة في قلب بيرسيكوف بسرعة، بان همس بصوت حنون للغاية بما معناه: عبثا ان يقلق البروفيسور. فهو، "القبعة" موجود هنا من أجل تخليص البروفيسور من شتى اصناف الزائرين الثقلاء... ويمكن للبروفيسور ان يكون مطمئنا، ليس فقط بشأن باب غرفة مكتبه، بل وبشأن النوافذ أيضاً. ثم ادار المجهول للحظة طرف جاكتته وارى البروفيسور شارة ما.

وجأر بيرسيكوف:

- هِمْ.. ان اموركم مدبرة بصورة ممتازة.

ثم اردف بسذاجة:

– وماذا ستأكل؟

ابتسم "القبعة" ردا على هذا القول واوضح ان آخرين سيحلون محله.

وانصرمت الايام الثلاثة التالية على احسن ما يرام. وزار المسؤلون من الكرملين بيرسيكوف مرتين، كما زاره مرة واحدة الطلاب الذين كان يمتحنهم. ورسب الطلاب جميعا، وكان يرى من ملامح وجوههم، ان بيرسيكوف يثير لديهم رعبا خرافيا.

وسمع من غرفة المكتب قوله:

– اذهبوا واعملوا كمساريين! انتم لا تستطيعون ممارسة علم الحيوان.

وسأل "القبعة" بانكرات:

– هل هو صارم؟

فرد بانكرات:

– لا سامح الله، ان تقع بين يديه، واذا ما صمد احدهم، فان صاحبنا هذا يغادر غرفة المكتب مترنحا. والعرق يتصبب منه، فيتوجه على الفور إلى حانة البيرة.

لم يلاحظ البروفيسور المنشغل بهذه الامور جميعا كيف انصرمت الايام الثلاثة، لكن في اليوم الرابع اعيد مجددا إلى الحياة الواقعية، وكان السبب هو صوت رفيع وزاعق من الشارع.

وصاح الصوت في النافذة المفتوحة المطلة على شارع هيرتسن:

– فلاديمير ايباتيتش!

وقد حالف الحظ الصوت: فقد انهك بيرسيكوف غاية الانهاك في الايام الاخيرة. وفي تلك اللحظة، بالذات كان يستجم وتتطلع عيناه المتعبتان والحمراوان حواليه بفتور وتراخ ويدخن في المقعد. و لم يستطع ان يعمل أكثر. لهذا نظر حتى بشيء من الفضول في النافذة فرأى ألفريد برونسكي واقفا على الرصيف. وعرف البروفيسور فيه على الفور صاحب بطاقة الزيارة الكثير الالقاب من قبعته المدببة ومن مفكرته. وانحنى برونسكي للنافذة بدماثة وباحترام.

فسأل البروفيسور:

- آه، هذا انت؟

و لم يجد القوة لابداء الغضب وحتى تراءى له بفضول، ما سيحدث لاحقا؟ واحس بنفسه في مأمن من ألفريد وراء النافذة الموصدة. وادار "القبعة" الواقف دوما في الشارع اذنه نحو برونسكي فورا.

واشرقت على محيا الاخير ابتسامة ودودة للغاية.

ونبر برونسكي مشددا صوته من الرصيف:

- زوج من اللحظات، ايها البروفيسور العزيز. لدي سؤال صغير ويخص علم الحيوان حصرا. هل تسمح لي بالكلام؟

فاجاب بيرسيكوف باقتضاب وبسخرية:

- تكلم.

وفكر في قرارة نفسه: "بالرغم من كل شيء، ثمة طبائع امريكية ما لدى هذا الوغد".

وصرخ برونسكي، واضعا ذراعيه كالبوق:

- ما قولك نحو الدجاج، ايها البروفيسور العزيز؟

ارتبك بيرسيكوف. وجلس على رف النافذة، ثم ترجل، وضغط على الزر وصاح مشيرا باصبعه إلى النافذة.

- بانكرات، ادخل هذا الواقف على الرصيف.

حين ظهر برونسكي في غرفة المكتب بالغ بيرسيكوف في لطفه حتى انه نهت إليه:

- اجلس!

فجلس برونسكي على الطابورية الدوارة، مبتسما، باعجاب.

قال بيرسيكوف:

- اوضح لي من فضلك، هل انت تكتب هناك في صحفكم؟

وأجاب الفريد بتبجيل:

- بالضبط.

- لكنني لا افهم كيف تستطيع الكتابة إذا ما كنتَ لا تجيد حتى الكلام بالروسية. فما اقوالك "زوج من اللحظات" و"نحو الدجاج"؟

فضحك برونسكي ضحكة خفيفة وباجلال:

- فالنتين بتروفيتش يتولى تصحيح الكلام.

- ومن هو فالنتين بتروفيتش؟

- رئيس القسم الأدبي.

- حسنا. بالمناسبة، لست من اللغويين. لنضع صاحبكم بتروفيتش جانبا. ماذا ترغب في معرفته بالذات عن الدجاج؟

- عموما كل ما تستطيع التحدث به يا بروفيسور.

ولحظتئذ تسلح برونسكي بالقلم. وتألقت شرارات الظفر في عيني بيرسيكوف.

– عبثا انْ جئت اليّ، انا لست اختصاصيا في الطيور. خير لك ان تطلب ذلك من يميليان ايفانوفيتش بورتغالوف، في الجامعة الاولى. انا شخصيا لا اعرف الا النزر القليل.

فابتسم برونسكي باعجاب منوها بانه فهم مزحة البروفيسور العزيز. ودوّن في مفكرته "مزحة – النزر القليل!".

– لكن إذا كان يهمك الامر، فتفضل. ان الدجاج أو ذوات الاعراف... صنف من الطيور ينتمي إلى فصيلة الدجاجيات. من عائلة الدراج... – وكان بيرسيكوف يتحدث بصوت عال ويتطلع ليس إلى برونسكي بل إلى مكان ناء في الافق، حيث يتصور الف انسان... من عائلة الدراج.. فازيانيدا. – وهي طيور ذات عرف جلدي ثخين وعنفتان تحت الفك الاسفل... هِمْ... ولو قد يحدث ان توجد عنفة واحدة في وسط الذقن.. وماذا هناك أيضاً. الاجنحة قصيرة، دائرية الاطراف... الذنب متوسط الطول، ومتدرج قليلا وحتى لقلت شبيه بالسقف، والريش الاوسط بهيئة منجل ملتو... بانكرات.. اجلب من غرفة النماذج النموذج رقم ٧٠٥، المقطع الطولي للديك.. لكن، ما حاجتك إلى هذا؟.. بانكرات، لا تجلب النموذج... اكرر لك، انا لست اختصاصيا، اذهب إلى بورتغالوف. لكنني اعرف شخصيا ستة اصناف من الدجاج البري... هِمْ.. وبورتغالوف يعرف أكثر... في الهند وفي ارخبيل الملايو. فمثلا، ديك بانكي أو كازينتو، يقطن عند سفوح الهملايا، وفي الهند باسرها، وفي آسام وبورما.. اما الديك ذو الذنب الشبيه بالمذراة، أو هاللوس فاريوس فيقطن في لومبوك وسومباوا وفلوريس. وفي جزيرة جاوا يوجد الديك الممتاز هالليوس اينيوس، وفي جنوب شرقي الهند بوسعي ذكر ديك زونيرات الرائع الجمال... سأريك صورته فيما بعد. اما فيما يتعلق الامر بسيلان، فاننا نجد فيها ديك ستانلي، وهو لا يعيش في غير هذا المكان.

كان برونسكي يجلس مبحلقا بعينيه ويسطر الحديث.

- هل تريد ان اخبرك بشيء آخر؟

فهمس الفريد بصوت خافت:

- بودي ان اعرف شيئاً بصدد امراض الدجاج.

- احم، انا لست اختصاصيا. فاسأل.. بورتغالوف لكن سأذكر لك.. الديدان الشريطية، والماصة، وقراد الحك والقراد الحويصلي، وقراد الطيور، وقمل الدجاج أو أكّالة الزغب، والقمل، وكوليرا الدجاج، والالتهاب الخناقي - الدفتيري للاغشية المخاملية... الالتهاب الرئوي الفطري والسل وقرع الدجاج... وما أكثر الاصابات المحتملة... (وتألقت عينا بيرسيكوف وتطاير الشرر منهما)... التسمم، مثلا، والرهاب والاورام والمرض الانكليزي واليرقان والروماتيزم وفطر اخوريون شينلايني.. مرض طريف جداً. ولدى الاصابة به تتولد على العرف بقع صغيرة تشبه العفن...

مسح برونسكي عرق جبينه بمنديل ملون.

- ما هو برأيك، يا بروفيسور، سبب الكارثة الراهنة؟

- اية كارثة؟

فدهش برونسكي وقال:

- كيف، ألم تقرأ يا بروفيسور؟

واستخرج من حقيبة الاوراق صفحة مكرمشة من جريدة "ازفستيا". واجاب بيرسيكوف:

- انا لا اطالع الصحف، - ثم عبس.

فسأل الفريد بلطف:

- ولماذا، يا بروفيسور؟

ورد بيرسيكوف، دون تفكير:

- لانهم يكتبون سخافات.

وهمس برونسكي بصوت خافت:

- كيف ذلك، يا بروفيسور؟ - وفتح ورقة الجريدة.

وسأل بيرسيكوف وحتى قام من مقعده:

- ما هذا؟

وعندئذ تألقت عينا برونسكي. فاشار باصبع مدبب ولامع إلى العنوان الكبير الحجم للغاية الذي يملأ صفحة الجريدة كلها: "طاعون الدجاج في الجمهورية".

فسأل بيرسيكوف رافعا نظارتيه إلى جبهته:

- كيف؟

الفصل السادس
موسكو في يونيو عام ١٩٢٨

كانت هي تضيء، والانوار تتراقص، فتخبو وتتألق. وفي ميدان المسارح كانت تدور المصابيح البيضاء للحافلات، والمصابيح الخضراء للترام. وفوق مبنى (ميور وميريليز) سابقا، وفوق الطابق العاشر من المبني في أعلاه، كانت تتقافز صورة امرأة كهربائية زاهية الالوان، مولدة أحرفا متعددة الالوان: "القرض العمالي". وتزاحم وتصاخب حشد من الناس في الساحة المقابلة لمسرح البلشوي، حيث كانت تتدفق ليلا مياه نافورة زاهية الالوان. بينما وضع فوق مسرح البلشوي ميكروفون ضخم يدعو بالحاح مرددا:

- لقد اعطت اللقاحات المضادة لوباء الدجاج في المعهد البيطري في ليفورتوفو نتائج باهرة. وتقلص عدد... وفيات الدجاج حتى اليوم بمقدار الضعفين...

ثم غيّر الميكروفون لهجته، وزمجر بشيء ما، وتألق فوق المسرح دفق من نور اخضر وانطفأ وناح الميكروفون بصوت اجش:

- تشكلت لجنة طوارئ لمكافحة طاعون الدجاج تتألف من مفوض الشعب لرعاية الصحة ومفوض الشعب للاراضي ومدير دائرة تربية الحيوان الرفيق بتاخا-بوروسيوك والبروفيسورين بيرسيكوف وبرتغالوف... والرفيق رابينوفيتش!.. محاولات غزو جديدة!.. - قهقه الميكروفون وعوى مثل الضبع -.بمناسبة انتشار طاعون الدجاج!

كانت شوارع تياترالني برويزد ونيغليني ولوبيانكا تتألق بشرائط

بيضاء وبنفسجية، وتنثر فيها الاشعاعات، وتعوي المنبهات، ويتصاعد فيها التراب. وازدحمت حشود الناس عند الجدران امام الالواح الكبيرة للاعلانات، المنارة بعاكسات حمراء قوية:

"يمنع الاهالي من تناول لحم الدجاج والبيض والمخالف يتعرض لاشد العقاب. ولدى محاولة الباعة الافراد بيعها في الاسواق يقدمون إلى المحاكمة مع مصادرة جميع ممتلكاتهم. ويجب على جميع المواطنين الذين لديهم بيض تسليمه بصورة عاجلة إلى مراكز الميليشيا في المناطق".

وبدت على الشاشة فوق سطح مبنى "الجريدة العمالية" كومة دجاج تصل إلى عنان السماء، فيما انهمك رجال المطافئ في هيئة ضاربة إلى الخضرة، برشها بالكيروسين بواسطة الخراطيم في خضم ومضات وشـرارات. ثم انتشرت الموجات الحمراء في الشاشة باجمعها، وتصاعد الدخان غير الحيّ وتلبد في سحب، وزحف بدفقات، وظهرت كتابة نارية: "احراق جثث الدجاج في خودينكا".

في وسط واجهات المحلات المتوهجة الانوار، والتي تبقى مفتوحة امام الزبائن حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، مع فترتي غداء وعشاء، بدت كالثقوب السوداء النوافذ المغطاة بالالواح الخشبية والمكتوب عليها: "تجارة البيض. الجودة مضمونة". وكانت تنطلق أكثر فاكثر بمحاذاة رجال الميليشيا سيارات ينبعث منها الازيز وكتب عليها: "الدائرة الصحية لموسكو، الاسعاف"، وهي تعول منذرة، فتسبق الحافلات الثقيلة.

فيما كانت تتردد همهمة في اوساط جمهرة الناس:

– لا بد وان شخصا آخر التهم البيض الفاسد.

وفي شارع بتروفسكيه لينيي كان مطعم "امبير" الشهير في العالم

اجمع يتألق بمصابيح خضراء وبرتقالية، ووضعت على الموائد فيه عند اجهزة التلفون النقالة يافطات كارتونية ملطخة ببقع النبيذ كتب عليها: "تنفيذا للاوامر - لا يقدم طبق الاومليت. تلقينا محارا طازجا".

اما في حديقة الارميتاج حيث كانت الفوانيس الصينية تضيء شاكية ومتناثرة كالخرز وسط نور اخضر غير حيّ ومختنق، وقف على خشبة المسرح بنورها الساطع الذي يعشي الابصار المونولوجستان شرامس وكارمانتشيكوف ينشدان المقاطع الغنائية التي كتب كلماتها الشاعران اردو وارغويف.

آه، ماما، ماذا سافعل

بلا بيض؟

ثم يرقصان رقصة التشيتشوتكا فتقرقع كعوب احذيتهما.

كما ان مسرح المرحوم فسيفولود ميرهولد[٣٢]، الذي لقى حتفه كما هو معروف في عام ١٩٢٧، لدى اخراج مسرحية بوشكين "بوريس غودونوف"، حين انهارت العُقل مع النبلاء العراة، علق لوحة كهربائية ذات الوان مختلفة متحركة تعلن عن تقديم مسرحية الكاتب اريندورغ "هلاك الدجاج" اخرجها أحد مريدي ميرهولد، المخرج الحائز على لقب الجدارة للجمهورية كوخترمان. وفي مسرح

---

(٣٢) فسيفولود ميرهولد (١٨٧٤-١٩٤٠) مخرج سوفيتي. وقد تولى في فترة ١٩٢٠-١٩٣٨ ادارة أحد مسارح موسكو (مسرح ميرهولد). وكان بحثه عن اشكال جديدة للمسرح الدعائي الاعلامي الحاد التأثير لا يخلو من بعض المبالغات الشكلية. ولهذا يرد ذكره في رواية بولغاكوف بشيء من الغمز واللمز الساخر. وهو يشير هنا إلى اخراج ميرهولد لمسرحية بوشكين "بوريس غودونوف" حيث اظهر النبلاء (البايار) شبه عراة ويتدلون من العقلات. ويرى في هذا العرض نهاية ميرهولد كمخرج.

المتنوعات "اكفاريوم" المجاور الذي تغمره انوار الاعلانات ويتألق بصورة امرأة نصف عارية كان يقدم استعراض الكاتب لينيفتسيف "اطفال الدجاجة"، بمصاحبة التصفيق الحاد للجمهور وفي خضرة خشبة المسرح. فيما سارت في شارع تفيرسكايا حمير السيرك في طابور، وعلى جانبي رؤوسها فوانيس، وثبتت فوق ظهورها لافتات اعلانية تتألق فيها الانـوار. وفي مسرح كورش تجري اعادة تقديم مسرحية روستان "شانتيكلير".

وراح الصبيان باعة الصحف يزعقون ويصرخون بين عجلات السيارات:

- لقية رهيبة تكتشف في سرداب. بولونيا تستعد لشن حرب رهيبة!! التجارب الرهيبة للبروفيسور بيرسيكوف!!

وفي سيرك نيكيتين سابقا، كان المهرج بوم الشاحب الوجه كالاموات يقول إلى بيم المتورم البدين ذي الملابس المصنوعة من قماش مربع وهما في ميدان السيرك المكتنز الذي تفوح منه رائحة الروث اللذيذة:

- انا اعرف لماذا انت كئيب هكذا!

فسأل بيم بصأصأة:

- لماذا؟

- انت دفنت البيوض في الارض، فوجدها رجال الميليشيا من القاطع الخامس عشر.

- ها - ها - ها - ها - ها...

كان السيرك يضحك ببهجة وبكآبة كما لو ان الدماء قد جمدت في العروق بينما ترفرف تحت قبته العتيقة العقلات وخيوط العنكبوت.

وكان المهرجون يصرخون باصوات حادة: - آه - آب! - وينطلق جواد ابيض حاملا امرأة ساحرة الجمال، ممشوقة الساقين، ترتدي بدلة تريكو قرمزية.

شق بيرسيكوف طريقه في شارع موخوفايا، ملهما ووحيدا، ومكللا بالمجد الذي هبط عليه دون انتظار، باتجاه الساعة المضيئة عند ميدان مانيج: دون ان يلتفت إلى احد، ودون ان يلاحظ احدا، ودون ان يرد على الدفعات والدعوات الهامسة والرقيقة للمومسات. وهناك اصطدم دون النظر حواليه، وحين كان غارقا في تأملاته، برجل غريب عتيق الهيئة، وخبط بشكل مؤلم باصابعه القراب الخشبي للمسدس المتدلي من حزام الرجل. وصأصأ بيرسيكوف:

- آه، يا للشيطان، ارجو المعذرة.

فرد الرجل: - العفو، - بصوت لا يبعث على الارتياح، ثم ذاب الاثنان في زحمة الناس. اما البروفيسور الذي توجه نحو شارع بريتشيستينكا فقد نسي فورا حادث الاصطدام.

الفصل السابع
روكّ

لا يعرف فيما إذا كانت اللقاحات البيطرية في ليفورتوفو جيدة حقا، وفيما إذا كانت فصائل سامارا الواقية مقتدرة فعلا، وفيما إذا كانت موفقة التدابير الشديدة التي اتخذت حيال تجار البيض في كالوغا وفورونيج، وفيما إذا نجحت في عملها لجنة الطوارئ بموسكو، لكن يعرف جيدا انه بعد مضي اسبوعين على آخر لقاء بين بيرسيكوف وألفريد غدا الوضع نظيفا تماما في اتحاد الجمهوريات فيما يتعلق بالدجاج. وقد تكومت في بعض بيوت مدن الاقضية اكوام ريش الدجاج اليتيم، الامر الذي يستثير الدموع، فيما كان آخر النهمين يبرأون من المرض في المستشفيات، منهين الاسهال الدموي مع القيء. ولحسن الحظ لم يتجاوز عدد الوفيات بين البشر في الجمهورية كلها الالف شخص. كما لم تعقب ذلك اضطرابات كبيرة. حقا، ظهر في فولوكولامسك نبي ما، اعلن ان سبب نفق الدجاج متأت عن المفوضين، لكنه لم يحقق نجاحا يذكر. واعتدى الناس في سوق فولوكولامسك على عدة رجال ميليشيا بالضرب، حين كان هؤلاء ينتزعون الدجاج من النساء، كما حطموا الزجاج في مبنى البريد والبرق المحلي. ولحسن الحظ اتخذت السلطات الحثيثة في فولوكولامسك التدابير اللازمة، وبنتيجة ذلك اوقف النبي نشاطه أولا، وثانيا، اعيد وضع الزجاج في نوافذ مبنى البرق.

بعد ان وصل الطاعون في زحفه شمالا إلى ارخانغلسك وسيومكين

فيسيلكي توقف بحد ذاته، لسبب واحد هو ان مواصلة الزحف غير ممكنة - فالدجاج لا يعيش، كما هو معروف، في البحر الابيض. وقد توقف عند فلاديفستوك، اذ يأتي بعدها المحيط. وفي اقصى الجنوب - تلاشى الوباء وخمد في الصحارى المحرقة في اردوبات وجلفا وقره بولاك، اما في الغرب فقد توقف بشكل عجيب عند حدود بولونيا ورومانيا. ولا يعرف السبب فلربما كان المناخ مغايرا أو مارست دورها تدابير اقامة حواجز واقية، والتي اتخذتها الحكومات المجاورة، لكن الواقع ان الطاعون لم يواصل زحفه. وكانت الصحف الاجنبية تناقش بصخب وبنهم نفق الدواجن بشكل لم يعرف مثيل في التاريخ، بينما انهمكت حكومة الجمهوريات السوفيتية، بالعمل الدائب دون ان تثير أية ضجة. وتم تغيير اسم لجنة الطوارئ لمكافحة طاعون الدجاج إلى لجنة الطوارئ لانهاض وانبعاث تربية الدجاج في الجمهورية، ورفدت بمجموعة طوارئ جديدة تضم ستة عشر رفيقا. كما تم تأسيس هيئة "دوبروكور" انضم إليها بيرسيكوف وبرتغالوف بصفة رفيقين فخريين للرئيس. ونشرت الصحف صورتيهما وكتب تحتهما: "شراء البيض بالجملة في الخارج" و"السيد يوز يريد احباط حملة البيض". وذاع في موسكو باسرها صيت المقالة الساخرة التي كتبها الصحفي كوليتشكين، واختتمها بالعبارات التالية: "أبعد ناظريك، ايها السيد يوز، عن بيضنا، فلديك بيضك!"

لقد عانى البروفيسور بيرسيكوف ما عانى من العذاب والاجهاد في غضون الاسابيع الثلاثة الاخيرة. اذ عكرت الأحداث الدجاجية مسار حياته الرتيبة وألقت على كاهله عبئا مزدوجا. ووجب عليه العمل امسيات بأكملها في اجتماعات لجان الدجاج واجراء محادثات طويلة بين حين وآخر مع الفريد برونسكي تارة، ومع البدين الميكانيكي تارة أخرى. ووجب عليه القيام سوية مع البروفيسور برتغالوف ومساعد الاستاذ - الخاص ايفانوف وبورنغارد بتشريح الدجاجات ووضعها

تحت المجهربحثا عن عصيات الطاعون وحتى بكتابة كراس في غضون ثلاث امسيات وعلى عجل بعنوان: "التغيرات في كبد الدجاج المصاب بالطاعون".

و لم يكن بيرسيكوف يعمل بحماس شديد في مجال الدجاج، وهذا مفهوم - اذ كان رأسه باجمعه مشغولا بشيء آخر - اساسي وهام - وبما ابعدته كارثة الدجاج عنه، أي بالشعاع الاحمر. وكان بيرسيكوف ينهمك بالعمل بصورة خاطفة ليلا عند الصومعة والميكروسكوب، مهدما صحته العليلة اصلا، سالبا ساعات النوم والطعام، واحيانا كان لا يعود إلى بريتشيستينكا، ويرقد على الديوان المكسو بالمشمع في غرفة مكتبه بالمعهد.

وفي نهاية يوليو هدأت شدة السباق نوعا ما. ومضت أعمال اللجنة التي تغير اسمها في مجراها الطبيعي، وعاد بيرسيكوف إلى عمله المتوقف. فتم تجهيز الميكروسكوبات بمستحضرات جديدة، ووضعت في الصومعة تحت الشعاع بيوض السمك والضفادع التي راحت تنضج بسرعة خيالية. وجلب بالطائرة من كينيغسبرغ زجاج صنع خصيصا، وفي أواخر يوليو شرع الفنيون باشراف ايفانوف بتركيب صومعتين كبيرتين جديدتين، بلغ عرض الشعاع في اساسه ابعاد علبة السجاير، وفي طرفه الواسع - حوالي المتر. وفرك بيرسيكوف يديه بابتهاج وبدأ بالاستعداد لاجراء تجارب غامضة ومعقدة. وبادئ ذي بدء تحدّث بالتلفون مع مفوّض الشعب للمعارف وأعرب له هذا في السماعة عن أطيب الدعم وأكمله، ثم طلب بيرسيكوف بالتلفون الرفيق بتاخا-بوروسيوك، رئيس قسم تربية الحيوانات لدى اللجنة العليا. ووجد بيرسيكوف لدى بتاخا غاية الاهتمام والرعاية، ودار الحديث عن طلبية كبيرة من الخارج من أجل البروفيسور بيرسيكوف. وقال بتاخا في التلفون، بأنّه سيبرق إلى برلين ونيويورك فورا. وبعد

ذلك جرى الاستفسار من الكرملين عن كيف تسير الامور لدى بيرسيكوف، وسأل صوت وقور ورقيق فيما إذا كان بيرسيكوف بحاجة إلى سيارة!

فاجاب بيرسيكوف:

– لا، شكرا، انني افضل ركوب الترام.

وسأل الصوت الغامض: – لكن لماذا؟ – ثم ضحك برفق.

كان الحديث مع بيرسيكوف يجري عموما اما مشوبا بالاحترام والفزع، واما مشوبا بالعطف مع الضحك، مخاطبين اياه كطفل صغير ولو انه طفل ضخم الجثة.

فرد بيرسيكوف:

– ان سرعته اكبر.

وبعد ذلك اجاب صوت جهوري رنان في التلفون:

– حسنا، كما تريد.

انصرم اسبوع آخر، علما ان بيرسيكوف انغمر كليا في دراسة الشعاع. مبتعدا أكثر فاكثر عن قضايا الدجاج التي صارت تنطفئ. وصار رأسه شفافا وخفيفا، بسبب الليالي المسهدة وفرط التعب. و لم تعد الحلقات الحمراء تغيب عن بصره الآن، وكان بيرسيكوف يمضي الليل كله تقريبا في المعهد. وغادر ملجأه الحيواني مرة من أجل ان يلقي في القاعة الفسيحة للجنة المركزية لتحسين معيشة العلماء الواقعة في بريتشيستينكا تقريرا عن شعاعه وتأثيره على خلية البيوض، وكان ذلك نصرا باهرا لعالم الحيوان الغريب الاطوار. وفي قاعة الاعمدة كان شيء ما يتناثر ويتساقط من السقوف لدى التصفيق الحاد، والمصابيح القوسية الفوارة تغمر بنورها بزات السموكينغ السوداء لافراد اللجنة

والفساتين البيضاء للنساء. وعلى خشبة المسرح، وإلى جانب المنصة، كانت ترقد في طبق على منضدة زجاجية ضفدعة رمادية مبللة بحجم قطة، وهي تتنفس باجهاد. ورمى بعضهم بقصاصات ورق إلى خشبة المسرح. وكان من بينها سبع رسائل غرامية، فمزقها بيرسيكوف. وجرّه رئيس اللجنة المركزية قسرا إلى خشبة المسرح، لكي ينحني امام الجمهور. فانحنى بيرسيكوف وعلى محياه علائم الانزعاج، وكانت يداه معروقتين ومبللتين، وتدلت ربطة عنقه السوداء ليس تحت ذقنه، بل وراء اذنه اليسرى. وبدت أمامه وسط الانفاس والضباب مئات الوجوه الشاحبة والصدور الرجالية البيض، وعلى حين فجأة مرق امامه قراب مسدس اصفر، ثم اختفى وراء أحد الاعمدة البيض. وقد لاحظه بيرسيكوف بصورة مبهمة ثم نسي أمره. لكنه لدى مغادرته المكان بعد القاء التقرير، ونزوله السلالم فوق السجاد القرمزي، أحس بوعكة مفاجئة. وسادت العتمة للحظة، واضاءت الثريا الساطعة في البهو واصابت بيرسيكوف الغشاوة، والرغبة في التقيؤ... وتراءى له ان شيئاً ما يحترق، وان الدماء تسيل على رقبته لزقة وساخنة... فتشبث الاستاذ بالدرابزون بيد مرتعشة.

وتناهت إليه من جميع الانحاء اصوات قلقة:

– هل انت متوعك، يا فلاديمير ايباتيتش؟

فاجاب بيرسيكوف، متمالكا نفسه:

– لا، لا... هذا من فرط التعب فحسب. آه، نعم... ارجو اعطائي قدح ماء.

* * *

حدث ذاك في أحد ايام اغسطس المشمسة. وكان النور يضايق الاستاذ، ولهذا اسدلت الستائر. وكانت ثمة عاكسة واحدة مرنة

ذات مسند تلقي حزمة من الضوء الشديد على المنضدة الزجاجية، التي تراكمت فوقها الادوات والقطع الزجاجية. واستلقى بيرسيكوف على ظهر المقعد الدوار واخذ يدخن ويتطلع عبر سحب الدخان بعينين كليلتين، لكنها راضيتان، إلى باب الصومعة المفتوحة قليلا حيث ترقد حزمة الشعاع الحمراء بهدوء، مسخنة قليلا قليلا الهواء الوخم وغير النقي اصلا في الغرفة.

وطرق الباب.

فسأل بيرسيكوف:

- من هناك؟

وصرّ الباب بنعومة، ودخل بانكرات. ووقف باستعداد مسبل اليدين، وقال شاحب الوجه "خوفا من إلهه" ما يلي:

- جاء اليكم روكّ[٣٣]، ايها السيد البروفيسور.

وارتسمت على وجنتي العالم شبه ابتسامة. فضيق عينيه ونبر:

- هذا ظريف. لكنني مشغول.

- يقول ان لديه ورقة رسمية من الكرملين.

فقال بيرسيكوف:

- القدر، مع ورقة؟ اقتران نادر الحدوث.

واضاف:

---

(٣٣) كلمة "روك" تعني أيضاً بالروسية - القدر. القدر المشؤوم. لكن في هذه الحالة تنسب الى مختصر تسمية لجنة الصليب الاحمر الروسية التي ينتمي اليها الزائر. المترجم.

- دعه يدخل.

اجاب بانكرات:

- سمعا وطاعة.

وانسل من الباب كالافعى.

بعد لحظة صرّ الباب مرة أخرى، وظهر رجل عند العتبة. وادار بيرسيكوف مقعده بصرير صادر من لولبه، وحدق في القادم من فوق نظاراته عبر كتفه. كان بيرسيكوف بعيدا للغاية عن الحياة العادية - فلم يكن يبدي اهتماما بها، لكن لحظتئذ جذبت انتباه حتى بيرسيكوف الصفة الاساسية والرئيسية للرجل القادم. فقد كان بهيئة عتيقة الطراز للغاية. لربما كان مثل هذا الرجل مألوف المظهر تماما في شوارع العاصمة عام ١٩١٩. وقد يطاق في عام ١٩٢٤، وفي بدايته، لكن في عام ١٩٢٨ بدا غريبا. ففي ذلك الوقت حين كان حتى الخبازون، الفئة الاكثر تخلفا من البروليتاريا يرتدون الجاكتات، وحين كانت الجاكتة العسكرية شيئاً نادرا بموسكو - البدلة العتيقة الطراز تُركت تماما في نهاية ١٩٢٤، كان القادم يرتدي معطفا قصيرا من الجلد بصفين من الازرار وسراويل خضراء، وفي قدميه لفائف وجزمتان عسكريتان، وتدلى على جانبه مسدس ماوزر ضخم قديم الطراز، في قراب اصفر مهترئ. وترك وجه القادم أيضاً لدى بيرسيكوف الانطباع ذاته لدى الجميع - النفور الشديد. فقد كانت عيناه الصغيرتان تنظران إلى العالم باسره في اندهاش. وفي الوقت نفسه بثقة: ثمة شيء من الوقاحة في هيئة ساقيه القصيرتين ذواتي الباطنين المسطحين. ووجهه حليق لحد الازرقاق. فتجهم وجه بيرسيكوف على الفور. وازّ بلولب مقعده بقساوة، وراح يرنو إلى القادم ليس من فوق نظاراته بل عبرها، ونبس:

- هل جلبت ورقة؟ اين هي؟

يبدو ان القادم قد صعق بما رأه. وعموما لم تكن له المقدرة على الارتباك كثيرا، لكنه ارتبك دقيقتئذ. واعتمادا على نظرات عينيه فقد اذهلته باكبر قدر الخزانة ذات الاثني عشر رفا المنتصبة حتى السقف والمملوءة بالكتب. ثم الصوامع طبعاً، التي كانت تومض فيها كما في الجحيم حزمة ضوء قرمزية تضخمت عبر العدسة المكبرة. كما ان بيرسيكوف نفسه كان غريباً جداً ومهيبا في شبه العتمة وعند ابرة الشعاع المدببة المنبعث من العاكسة، وفي مقعده ذي اللولب. ركز القادم بصره فيه، وتجلت فيه شرارات التبجيل المشوب بالثقة بالنفس، و لم يقدم اية ورقة، بل قال:

– انا الكسندر سيميونوفيتش روكّ!

– حسنا، ماذا تريد؟

واوضح القادم:

– لقد عينت رئيسا للسوفخوز النموذجي "الشعاع الاحمر".

– حسنا.

– وقد جئت اليك، يا رفيق، بتبليغ سري.

– بودي ان اعرف ما هو. باقتضاب ان امكن.

فتح القادم ازرار معطفه واستخرج الأمر المطبوع على ورق سميك فاخر. ومده إلى بيرسيكوف. ومن ثم جلس بدون دعوة فوق الطابورية الدوارة.

وقال بيرسيكوف بحقد: لا تدفع المنضدة.

ونظر القادم بفزع إلى المنضدة، التي كانت تومض في طرفها البعيد، وفي فتحة قائمة رطبة، عينان ما زمرديتان جامدتان. وكانت تنبعث منهما البرودة.

وبعد ان طالع بيرسيكوف الورقة فقط، نهض من المقعد الدوار واندفع نحو التلفون. ومضت عدة ثوان وصار يتكلم بعجلة وبانزعاج بالغ:

- المعذرة.. انا لا أستطيع ان أفهم، كيف هذا؟ انا... وبدون موافقتي ومشورتي... فسيفعل الشيطان وحده يعلم ماذا!

وحينئذ التفت الرجل المجهول مستاءا اشد الاستياء فوق الطابورية.

- العفو... انا رئيـ...

لكن بيرسيكوف لوح بيد معقوفة نحوه، وتابع الكلام:

المعذرة، ليس بمقدوري ان افهم... وفي نهاية المطاف انا احتج بشدة. انا لا أعطي الموافقة على اجراء التجارب باستخدام البيوض، قبل ان اجربها بنفسي...

ونقنق شيء ما وطقطق في السماعة، وحتى كان مفهوما من بعيد ان الصوت في السماعة متسامح، ويتحدث كأنما مع طفل صغير. وانتهى الامر بان وضع بيرسيكوف السماعة وقد غدا وجهه أرجوانيا، وقال مخاطبا الحائط وبمحاذاة السماعة:

- انني أغسل يدي.

وعاد إلى المكتب وتناول الورقة منه وقرأها مرة واحدة من الاعلى إلى الاسفل، من فوق نظاراته، ثم من الاسفل إلى الاعلى عبر نظاراته، وفجأة صرخ بعويل:

- بانكرات!

لاح بانكرات عند الباب كما لو كان يمشي على المنصة في الاوبرا. ورمقه بيرسيكوف بنظرة وصاح:

- إنصرف يا بانكرات!

و لم تبد على وجه بانكرات اية دهشة، واختفى عن الانظار.

ثم التفت بيرسيكوف إلى القادم وقال:

- حسنا.. سأطيع. هذا لا يعنيني. كما لا يهمني الامر.

ما كان البروفيسور قد اساء إلى القادم قدر ما اثار عجبه.

وقال:

- العفو. انت الرفيق...

وتمتم بيرسيكوف عابسا:

- ما لك تردد رفيق... رفيق..

ثم صمت.

ولاح على وجه روكّ تعبير: "يا له من رجل غريب الاطوار!".

- عفـ...

وقاطعه بيرسيكوف:

- حسنا، تفضل، تأخذ هذه الكرة القوسية وتحصل منها بتدوير العدسة على حزمة نور، - وطقطق بيرسيكوف بغطاء الصومعة الشبيهة بآلة التصوير، - يمكن تجميعها عن طريق تحريك العدسات. اليك رقم ١ والمرآة رقم ٢، - واطفأ بيرسيكوف الشعاع، ثم اشعله مرة أخرى على ارضية الصومعة الاسبستية، - ويمكنك ان تضع على الارضية تحت الشعاع كل ما يروق لك، وتجري التجارب. هذا بسيط للغاية اليس كذلك؟

واراد بيرسيكوف التعبير عن السخرية والاحتقار، لكن القادم لم يلاحظهما، وانهمك في تفحص الصومعة بعينين صغيرتين متألقتين.

واردف بيرسيكوف يقول:

لكنني احذرك فقط، لا يجوز وضع اليدين تحت الشعاع، لانه حسب ما لاحظت يؤدي إلى فرط نمو الظهارة... لكنني لم استطع للأسف ان اعرف فيما إذا كانت هذه الاصابة خبيثة ام لا.

لحظتئذ اخفى القادم يديه وراء ظهره بسرعة، فاسقط القبعة الجلدية وتطلع إلى يدي البروفيسور وكانتا ملطختين بكثير من بقع اليود، اما الرسخ في اليمنى فملفوف بضمادة.

– وكيف انت تجازف، يا بروفيسور؟

فرد البروفيسور بانزعاج:

– بوسعك شراء قفافيز مطاطية من شفابه في شارع كوزنيتسكي. انا لست ملتزما بالاهتمام بذلك.

وعندئذ رنا بيرسيكوف إلى القادم كما لو كان ينظر عبر العدسة:

– من اين انت؟ وعموما، لماذا انت؟..

واخيرا استاء روكّ بشدة.

– المعذ...

– لكن يجب ان اعرف ما القبضة!.. ولِمَ التشبث بهذا الشعاع؟..

– لان هذا أمر عظيم الاهمية...

– اها. عظيم. اذن... بانكرات!

وعندما جاء بانكرات:

– انتظر. سأفكر.

فاختفى بانكرات طائعا.

وقال بيرسيكوف:

انا لا استطيع ان افهم ما يلي: لماذا هذه العجلة والسرية!

فرد روكّ:

– انك، يا بروفيسور، شوشت الامور عليّ، فانت تعرف ان جميع الدجاجات قد نفقت عن بكرة ابيها.

وصرخ بيرسيكوف:

– وماذا يعني هذا؟ هل انت تريد بعثها إلى الوجود في لحظة خاطفة؟ ولماذا بواسطة شعاع لم يدرس بعد!

فاجاب روكّ:

– ايها الرفيق البروفيسور، انك لا تجعلني اعرض فكرتي. انا اقول ان الواجب علينا اعادة مزارع تربية الدجاج. لانهم في الخارج يكتبون عنا شتى التلفيقات. نعم.

– دعهم يكتبون...

ورد روكّ بغموض:

– ما هذا القول!

وهزّ رأسه.

– بودي ان اعرف من خطرت على باله فكرة تكثير الدجاج من البيوض...

فاجاب روكّ:

– انا.

– آها... حسنا... ولماذا، اسمح لي بان اعرف! من اين علمت بشأن خواص الشعاع؟

- لقد استمعت، يا بروفيسور، إلى تقريرك.

- انني لم افعل شيئاً بعد بالبيوض، انني اعتزم ذلك فقط.

فقال روكّ على حين فجأة مؤكدا:

- والله ستنجح! ان شعاعك شهير جداً، حتى يمكن تكثير الافيال بواسطته وليس الدجاج فقط.

وقال بيرسيكوف:

- اتعرف، هل انت اختصاصي في علم الحيوان، لا؟ هذا مؤسف... كان يمكن ان تغدو اختصاصيا تجريبيا جريئا... نعم... لكنك تجازف... بان يصيبك الاخفاق... وانت تضيع وقتي فحسب...

- اننا سنعيد الصوامع اليك. اتفقنا؟

- متى؟

- حالما احصل على الوجبة الاولى.

- ما أكثر ثقتك في الكلام! حسنا! بانكرات!

وقال روكّ:

- لدي رجالي معي، والحرس أيضاً...

في المساء أصبحت غرفة مكتبة بيرسيكوف خالية... وخوت المناضد. اذ نقل رجال روكّ ثلاث صوامع كبيرة تاركين للبروفيسور الصغيرة الاولى فقط التي بدأ بها تجاربه.

ادلهم الظلام في المساء في شهر يوليو. وغمرت المعهد العتمة، وتسللت إلى الردهات. وسمعت في غرفة المكتب اصوات خطوات رتيبة - انه بيرسيكوف يذرع الغرفة جيئة وذهابا من النافذة إلى الباب

بدون اشعال الضوء... مسألة غريبة، اذ عمت الناس الموجودين في المعهد والحيوانات في ذلك المساء امزجة عكرة، عسيرة على الايضاح. فلأمر ما صارت الضفادع تنقنق بكآبة بالغة، نقيقا شديدا ومنذرا. واصطاد بانكرات افعى في الممر كانت قد غادرت صومعتها، وحين أمسك بها كان مظهرها بشكل يدل على رغبتها في التوجه إلى حيث تحملها الاقدار شرط ان تنصرف فقط.

وفي الحلكة الشديدة تـردد رنـين الجرس من غرفة مكتب بيرسيكوف. فظهر بانكرات عند العتبة ورأى صورة غريبة امامه. اذ كان العالم يقف وحيدا في وسط الغرفة ويتطلع إلى المناضد. فسعل بانكرات وجمد في مكانه.

وقال بيرسيكوف مشيرا إلى منضدة خالية:

- هكذا، يا بانكرات.

فارتعب بانكرات. اذ تراءى له ان عيني البروفيسور في الظلام مخضلتان بالدموع. وكان هذا غير اعتيادي ورهيبا للغاية.

ورد بانكرات في نشيج:

- نعم، بالضبط.

وفكر في قرارة نفسه "خير لو صرخت بي وعنفتني".

وكرر بيرسيكوف:

- هكذا.

وارتجفت شفتاه كما يفعل الطفل الذي انتزعت منه لعبته المحبوبة بلا أي سبب.

واصل بيرسيكوف اشاحة وجهه باتجه النافذة:

- اوتعرف يا عزيزي بانكرات. ان زوجتي التي هجرتني قبل خمسة عشر عاما خلت قد التحقت بمسرح الاوبريت، وتوفيت الآن كما تبين... هذه القصة، يا بانكرات، يا حبيبي، لقد استلمت رسالة بهذا الشأن.

كانت الضفادع تنقنق شاكية، ولفّت العتمة البروفيسور، ويا لها من ليلة. موسكو... في مكان ما انيرت كرات بيضاء ما وراء النوافذ. وارتبك بانكرات واحس بالوحشة، وابقى يديه على جانبيه رعبا.

ونبر البروفيسور بتثاقل ولوح بيده:

- اذهب، يا بانكرات، نم، يا صديقي العزيز بانكرات.

واحلولك الليل. وخرج بانكرات من غرفة المكتب ماشيا لسبب ما على اطراف اصابع قدميه، وولج غرفته الصغيرة، وبحث في الخرق في ركن منها، واستخرج قنينة فودكا روسية غير ممتلئة وعب منها دفعة واحدة حوالي قدح شاي. وتناول مازة من الخبز والملح، واشرقت عيناه بشيء من الابتهاج.

في وقت متأخر من المساء، وحين دنا منتصف الليل، كان بانكرات يجلس حافي القدمين فوق المصطبة في الردهة الضعيفة النور ويروي إلى "القبعة" المناوب غير النائم، ويحك صدره تحت القميص القطني.

- كان الافضل لو قتلني، وربي.

وسأل "القبعة" بفضول:

- هل بكي حقا؟

فاكد بانكرات:

- وحق... ربي...

ووافقه "القبعة" بقوله:

– عالم عظيم... طبعاً، ان الضفدعة لا يمكن ان تحل محل الزوجة.

ثم وافقه بانكرات:

– ابدا.

وبعد ان فكر هنيهة اضاف بقوله:

– انني افكر باستدعاء امرأتي إلى هنا... فماذا تفعل في القرية حقا. لكنها لا تطيق هذه الهوام ابدا...

ووافقه "القبعة":

– طبعاً، انها حقارة فظيعة.

لم يكن يبدر أي صوت من غرفة مكتب العالم. كما لم ينبعث منه ضوء. فلم تر خطوط الضوء تحت الباب.

الفصل الثامن
حادث في السوفخوز

لا يوجد من وقت أفضل فعلا من النصف الثاني من اغسطس ولو في محافظة سمولينسك، مثلا. وكان صيف عام ١٩٢٨، كما هو معروف، رائعا. اذ تساقطت الامطار كما يجب في الربيع، وكانت الشمس ساطعة وحارة، والمحصول ممتازا... ونضج التفاح في ضيعة شيريميتيفو السابقة، وبدت الغابات شديدة الخضرة، وانداحت الحقول في مربعات ضاربة إلى الصفرة... ان الانسان يغدو افضل في احضان الطبيعة. ويبدو الكسندر سيميونوفيتش غير قبيح الهيئة كحاله في المدينة. كما نزع معطفه الكريه. وتلوح وجهه بالشمس وغدا نحاسيا. وبدا صدره من فتحة قميصه القطني المفتوحة مغطي بشعر اسود كثيف، وساقاه في سراويل من قماش الاشرعة. كما لاحت في عينيه الطمأنينة والطيبة.

اندفع الكسندر سيميونوفيتش بحيوية من الشرفة ذات الاعمدة التي علقت عليها لوحة فوقها نجمة، وكتب عليها:"سوفخوز الشعاع الاحمر"

وتوجه إلى السيارة، نصف الشاحنة، التي نقلت فيها الصوامع السوداء الثلاثة مع الحرس.

امضى الكسندر سيميونوفيتش اليوم كله مشغولا مع مساعديه في نصب الصوامع في الحديقة الشتوية السابقة لعائلة الامير شيريميتيف...

وعند حلول المساء كان كل شيء جاهزا. وأنيرت تحت السقف

الزجاجي كرة بيضاء مغبشة، وثبتت الصوامع فوق قطع من الاجر، واخذ الميكانيكي الذي رافق الصوامع يطقطق بـالادوات ويدير اللوالب اللماعة واشعل الشعاع الاحمر الغامض فوق الارضيات الاسبستية في الصناديق السوداء.

وانشغل الكسندر سيميونوفيتش في العمل وتسلق السلم بنفسه وفحص الاسلاك.

في اليوم التالي عادت من المحطة السيارة نصف الشاحنة ذاتها و"بصقت" ثلاثة صناديق من الخشب المعاكس الاملس، لصقت عليها بطاقات من كافة الجوانب وكتب بالابيض على الخلفية السوداء: !Vorsicht :Eiez

حذار: بيوض!

وأبدى الكسندر سيميونوفيتش دهشته:

– ما لهم بعثوا هذه الكمية القليلة؟

لكنه سرعان ما ابدى همّة في العمل واخذ يفتح صناديق البيوض. وجرى فتحها في البيت الزجاجي ذاته وشارك في العمل كل من: الكسندر سيميونوفيتش نفسه وزوجته مانيا السمينة بشكل غير عادي، والاعور البستاني السابق لدى اسرة شيريميتيف السابقة، والذي يعمل حاليا بوظيفة عامة هي الحارس، والخفير العسكري المحكوم عليه بالعيش في السوفخوز، وعاملة التنظيف دونيا. فهذه ليست موسكو، وكان كل شيء هناك يتسم بطابع أكثر بساطة وعائلي وودي. وراح الكسندر سيميونوفيتش يصدر الاوامر، متفحصا بفضول الصناديق، التي بدت كهدية صغيرة الحجم وفخمة، تحت ضوء الغروب الساقط من الزجاج العلوي للبيت. وانهمك الخفير، الذي كانت بندقيته غافية بطمأنينة عند الباب، بتحطيم القامطات والشدادات المعدنية. وترددت

الطقطقة.. وتصاعد الغبار. فيما انشغل الكسندر سيميونوفيتش، بالعمل قريبا من الصناديق، وهو يخفق بنعليه.

وصار يخاطب الخفير:

- مهلا، ارجوك. بحذار. الا ترى، هذه بيوض؟

ورد الخفير الريفي بحشرجة مواصلا فتح الصناديق:

- لا بأس، الآن...

تر - ر - ر... وتصاعد الغبار.

وقد تبين ان البيوض مغلفة على احسن ما يرام: اذ كانت توجد تحت غطاء الصندوق الخشبي طبقة من الورق البارافيني، ثم ورق نشاف، واعقبته طبقة سميكة من نشارة خشنة ثم نشارة ناعمة، ولاحت فيها رؤوس البيوض الناصعة.

وقال الكسندر سيميونوفيتش بلطف، ويداه تقلبان النشارة:

- تغليف اجنبي، لا كما يفعلون عندنا. مانيا، الحذار، انك ستكسريها.

فردت زوجته:

- انت، الكسندر سيميونوفيتش، فقدت عقلك، كأنها من ذهب، أي هراء. وهل انني لم أر بيوضا في حياتي؟ اوي!.. ما لها كبيرة الحجم هكذا!

وقال الكسندر سيميونوفيتش: - انها اجنبية، - وصار يرتب البيوض على الطاولة الخشبية، - وليست بيوض فلاحينا... اغلب الظن انها كلها بيوض دجاج برامابوترا، ليأخذها الشيطان! انها المانية.

فأكد الحارس، متطلعا إلى البيوض:

– طبعاً.

وقال الكسندر سيميونوفيتش متأملا:

لكنني لا افهم، لماذا هي وسخة... مانيا، راقبي العمل ليواصلوا افراغ الصناديق، وانا ذاهب إلى التلفون.

وتوجه الكسندر سيميونوفيتش إلى التلفون في مكتب السوفخوز عبر الفناء.

وفي المساء رنّ جرس التلفون في غرفة المكتب بمعهد الحيوان. وعدل البروفيسور بيرسيكوف شعره ودنا من الجهاز. واستفسر:

– نعم؟

ورد في السماعة صوت نسائي بهدوء، وهمس:

– سيتحدثون معكم من الاقليم.

– حسنا، انا سامع، – سأل بيرسيكوف باشمئزاز في الفوهة السوداء لسماعة التلفون... وسمعت فيه خرخشة ما، ثم قال في اذنه صوت رجالي بعيد بقلق:

– هل يجب غسل البيوض، يا بروفيسور؟

– ما معنى هذا؟ ماذا، ماذا تسأل؟ – قال بيرسيكوف بانزعاج، – من اين تتحدث؟

فاجابت السماعة:

– من نيكولسكويه في محافظة سمولينسك.

– لا افهم شيئا. انا لا اعرف اية نيكولسكويه. من المتكلم؟ – وقالت السماعة بحزم:

– روكّ.

- أي روكّ؟ آه، نعم.. هذا انت... عم تستفسر؟

- هل يجب غسلها؟.. لقد بعثوا لي من الخارج بارسالية من بيوض الدجاج..

- وماذا؟

- ... لكنها وسخة نوعا...

- لقد اختلطت لديك الامور.. كيف يمكن ان تكون "وسخة"، ما هذا الكلام؟ طبعاً، قد تكون.. ملوثة، ويبس الذرق... أو شيء آخر...

- اذن لا حاجة لغسلها؟

- طبعاً، لا يجب ذلك.. وهل تريد وضع البيوض في الصوامع؟

فاجاب السماعة:

- سأضعها. نعم.

وهمهم بيرسيكوف:

- هِمْ...

- إلى اللقاء، - وطقطقت السماعة وخمدت.

- "الى اللقاء"، - كرر بيرسيكوف بحقد وقال مخاطبا مساعد الاستاذ - الخاص ايفانوف، - ما رأيك بهذه الشخصية، يا بيوتر ستيبانوفيتش؟

فضحك ايفانوف.

- اهو ذاك الرجل؟ اتصور ماذا سينتج من هذه البيوض.

ونبر بيرسيكوف بغيظ:

- ذ.. ذ.. ذ...، فتصور يا بيوتر ستيبانوفيتش... حسنا، رائع.. من المحتمل جداً ان يؤثر الشعاع على ديتيروبلازما بيضة الدجاجة التأثير ذاته على بلازما الزواحف. محتمل تماما ان تفقص البيوض لديه عن فراخ.. لكن ليس بميسورنا، لا انت ولا انا، القول اية دجاجات ستكون.. فلربما ستكون دجاجات لا تنفع شيئا. ولربما ستنفق بعد مرور يومين. ولربما ستكون غير صالحة للاكل! وهل بمقدوري الجزم بانها ستقف على ارجلها. وقد تكون عظامها هشة. - وغمر بيرسيكوف الحماس وصار يلوح بيده ويلوي اصابعه.

ووافقه ايفانوف بقوله:

- بالضبط تماما.

- هل بمقدورك، يا بيوتر ستيبانوفيتش، الجزم بانها ستنجب جيلا آخر؟ ولربما سينتج هذه الشخصية دجاجات عقيمة. وسيربيها حتى تغدو بحجم الكلاب، بينما عليه انتظار الحصول على ذرية حتى يوم القيامة.

ووافق ايفانوف:

- لا يمكن الجزم بذلك.

واخذ بيرسيكوف يحدث نفسه:

- اية وقاحة، واية جرأةٌ وكان يجب عليّ ان اتولى توجيه هذا الوغد. - واشار بيرسيكوف إلى الورقة التي جاء بها روكّ (كانت ملقاة على منضدة التجارب)... وكيف سأتولى توجيه هذا الأمي، حين لا استطيع نفسي قول شيء بصدد هذه القضية.

فسأل ايفانوف:

- ألم يكن بمقدورك ان ترفض؟

اصطبغ وجه بيرسيكوف بالحمرة، وتناول الورقة واراهـا إلى ايفانوف. فقرأها ذاك وابتسم بسخرية. وقال بلهجة ذات دلالة:

- أحم...

- لكنني، ولاحظ هذا... انني انتظر طلبيتي على مدى شهرين، دون ان اسمع أو ارى شيئاً بخصوصها. بينما ارسلوا إلى هذا الشخص البيوض وابدوا له كل معونة...

- لن يحصل على أي شيء، يا فلاديمير ايباتيتش. وستنتهي الحكاية فحسب بان يعيدوا اليك الصوامع.

- خيرا لو يتم هذا باقرب وقت، فانهم يؤخرون تجاربي.

- وهذا اسوأ ما في الامر. ان كل شيء جاهز لدي.

- هل استلمت البزات؟

- نعم، اليوم.

فاثار ذلك شعور الاطمئنان نوعا ما لدى بيرسيكوف وغمرته الحيوية.

- اها... اظن، اننا سنفعل ما يلي: سنغلق باب صالة العمليات بصورة محكمة، اما النافذة فلنتركها مفتوحة...

ووافقه ايفانوف:

- طبعاً.

- وثلاث خوذات؟

- نعم، ثلاث.

- حسنا... اذن انت وانا وندعو أحد الطلاب أيضاً. ونعطيه الخوذة الثالثة.

– هل يمكن استدعاء غرينموت؟

– أهو ذاك الذي يعمل لديك مع السمادر؟.. احم.. لا بأس.. – ثم اضاف بيرسيكوف بضغينة – لكن، مهلا، فهو لم يستطع في الربيع القول ما هو تركيب نفاخة الغوص لدى ذوات الاسنان العارية.

فصار ايفانوف يدافع عنه بقوله:

– لا، لا بأس به... هو طالب جيد.

واردف بيرسيكوف:

– يتعين السهر ليلة أخرى، لكن عليك، يا بيوتر ستيبانوفيتش، ان تفحص الغاز، والا فالشيطان وحده يعلم ما هي كيمياوياتهم تلك. اذ انهم قد يبعثون بقاذورات ما.

– فلوح ايفانوف بذراعين:

– لا، لا، لقد جربته يوم أمس. يجب ان نقول الحق، يا فلاديمير ايباتيتش، فان الغاز ممتاز.

– وهل جربته؟

– جربته على الضفادع العادية. فحالما توجه إليها دفقة غاز حتى تلقى حتفها. كما اننا، يا فلاديمير ايباتيتش، سنعمل ما يلي: اكتب طلبا إلى دائرة الامن لكي يزودوك بمسدس كهربائي.

– انا لا احسن استخدامه.

فاجاب ايفانوف:

– سآخذ ذلك على عاتقي، اننا كنا نطلق منه النار في ضاحية كليازما، من أجل المزاح... اذ كان يعيش معي أحد رجال الامن... شيء ممتاز. وبسيط في الاستعمال... ويطلق النار بلا صوت لمسافة

نحو مائة خطوة ويقتل على الفور. كنا نطلق النار على الغربان... باعتقادي حتى لا حاجة إلى استخدام الغاز.

- أحم... انها فكرة ذكية... جداً. - ومضى بيرسيكوف إلى ركن الغرفة وتناول السماعة وجمجم: - صلني بهذه، ما اسمها، دائرة الامن "لوبيانكا".

* * *

كان الطقس حارا للغاية في تلك الايام. ولاح فوق الحقول بجلاء كيف ساد القيظ الثقيل الشفاف. اما الليالي فكانت ساحرة وخادعة وخضراء. وكان القمر ينير، واشاع جمالا اخاذا في الضيعة السابقة لعائلة الامير شيريميتيف، حتى ان القلم يعجز عن وصفه. وبدا وكأن القصر - السوفخوز يتألق شفافا كالملبّس، واهتزت الظلال في المنتزه، وأصبحت البرك بلونين مناصفة - انعكاس نور القمر المائل والنصف الحالك الظلمة. وكان بالامكان مطالعة "ازفستيا" في بقع ضوء القمر، باستثناء ركن الشطرنج المطبوع بحروف ناعمة. لكن في مثل هذه الليالي لم يكن أحد طبعاً يطالع جريدة "الازفستيا"... فان دونيا عاملة التنظيف كانت في الدغل الكائن وراء السوفخوز، وهناك، بمحض الصدفة، كان أيضاً السائق ذو الشاربين الاشقرين لنصف الشاحنة العتيقة الكولخوزية. ولا يعلم أحد ماذا كان يفعلان هناك. وقد لاذا في الظل الخفيف لشجرة دردار، جالسين فوق معطف السائق الجلدي المفروش على الارض. وفي المطبخ كان المصباح ينير، وجلس فيه فلاحان يتناولان طعام العشاء، اما مدام روكّ فقد جلست في رداء منزلي ابيض على الشرفة واستغرقت في الاحلام، متطلعة إلى البدر الوسيم.

في الساعة العاشرة مساء حين هدأت الاصوات في قرية كونتسوفكا، الكائنة وراء السوفخوز، صدح في احضان الطبيعة

الخلابة عزف مزمار عذب ورائع. ومن غير المعقول وصف مدى ملاءمته للجو فوق الادغال والاعمدة السابقة لقصر شيريميتيف. طار صوت ليزا الرقيق في لحن من اوبرا "سيدة البستوني" متعاليا إلى ذرى القمر ممتزجا في ثنائي مع صوت بولينا العاشقة، مثل رؤيا تجسد العالم القديم مع هذا الاثير لدى القلوب والساحر ابدا. وصدح المزمار:"تخمد، تخمد.."بترجيعة وبتنهيدة.

وساد السكون في الادغال، واصغت دونيا المغرية مثل حورية الغابة،واضعة خدها إلى خد السائق الخشن والفحولي.

فقال السائق:

- هو يعزف جيدا، ابن الكلبة.

واحتضن خصر دونيا بيده القوية.

كان يعزف على المزمار مدير السوفخوز نفسه، الكسندر سيميونوفيتش روكّ. ولا بد من الاعتراف - والحق يقال - ان عزفه كان رائعا. ذلك ان آلة المزمار كانت في وقت ما من اختصاص الكسندر سيميونوفيتش، ولحد عام ١٩١٧ كان يعمل في فرقة المايسترو بيتوخوف الشهيرة، التي كانت تصدح بالحانها في كل ليلة في بهو قاعة سينما "الاحلام السحرية" بمدينة يكاترينوسلافل. لكن عام ١٩١٧ العظيم الذي دمر الأعمال الناجحة لكثير من الناس قاد الكسندر سيميونوفيتش أيضاً إلى دروب جديدة. فترك "الاحلام السحرية" والستائر القطنية المتربة المزينة بنجوم في البهو، وانغمر في لجة بحر الحرب والثورة المترامي الاطراف، مستبدلا المزمار بمسدس "الماوزر" الفتاك. وتناقلته الامواج طويلا، فحملته تارة إلى القرم وتارة إلى موسكو، وتارة إلى تركستان.. وحتى إلى فلاديفستوك. وكانت هناك حاجة إلى الثورة بالذات من أجل كشف مواهب الكسندر

سيميونوفيتش. وتبين ان هذا الرجل عظيم حقا، وطبعاً ما كان بهو "الاحلام" المكان اللائق به. ونقول، دون الدخول في تفاصيل طويلة، ان عام ١٩٢٧ ومطلع عام ١٩٢٨ لقيا الكسندر سيميونوفيتش في تركستان، حيث تولى، اولا، رئاسة تحرير صحيفة كبرى، وكذلك، وبصفته عضوا محليا في اللجنة الاقتصادية العليا، ذاع صيته لأعماله المدهشة في مضمار إرواء بلاد تركستان. وفي عام ١٩٢٨ جاء روكّ إلى موسكو، وحصل على فرصة الاستجمام الذي استحقه تماما. وقد ثمنته اللجنة العليا للمؤسسة التي يحمل بطاقتها في جيبته، هذا الرجل الريفي العتيق الطراز، فعينته في منصب محترم وهادئ. ولكن، وآسفاه، وآسفاه... اذ لسوء حظ الجمهورية لم يهدأ مخ الكسندر سيميونوفيتش الفوّار، والتقى روكّ في موسكو باختراع بيرسيكوف، وولدت في رأس الكسندر سيميونوفيتش في غرفته بفندق "باريس الاحمر" الواقع في بولفار تفيرسكوي، الفكرة حول كيف يمكن باستخدام شعاع بيرسيكوف انبعاث الدجاج في الجمهورية في غضون شهر. واستمع المسئولون في لجنة تربية الحيوان إلى كلام روكّ، واتفقوا معه في الرأي، وجاء روكّ حاملا الورقة السميكة إلى عالم الحيوان الغريب الاطوار.

كانت الحفلة الموسيقية فوق المياه الزجاجية والادغال والمنتزه قد شارفت على نهايتها حين حدث امر ما، اوقفها قبل الاوان. بدأت الكلاب في القرية كونتسوفكا بالذات في الوقت الذي وجب عليها ان تخلد إلى النوم، باطلاق نباح شديد، تحول شيئاً فشيئاً إلى عواء مؤلم شامل. وحملت الرياح العواء فوق الحقول، وردت على العواء على حين غرة الضفادع في البرك "بحفلة موسيقية" متمثلة بنقنقة من مليون صوت. وكان هذا كله فظيعا للغاية، حتى تراءى للحظة من الزمن ان الليلة السحرية الغامضة قد فقدت تلاوينها.

ترك الكسندر سيميونوفيتش المزمار وخرج إلى الشرفة.

- مانيا، هل تسمعين؟ يا لها من كلاب ملعونة... ما هو برأيك سبب نباحهم المسعور؟

ردت مانيا متطلعة إلى البدر:

- من اين لي ان اعرف؟

واقترح الكسندر سيميونوفيتش:

- هيا بنا، يا مانيا، لمشاهدة البيوض.

- والله، يا الكسندر سيميونوفيتش، انت فقد عقلك تماما مع بيوضك ودجاجك. خذ قسطا من الراحة.

- لا يا مانيا، هيا بنا.

كان الضوء ساطعا في البيت الزجاجي. وجاءت دونيا أيضا بوجه أحمر وعينيه متألقتين. وفتح الكسندر سيميونوفيتش برفق زجاج المراقبة، وصار الجميع ينظرون إلى داخل الصوامع. كانت توجد على الارضية الاسبستية البيضاء في صفوف منتظمة بيوض حمراء ساطعة ومبقعة وساد الصمت في الصوامع... أما المصباح الكروي العلوي ذو الخمسة عشر الف شمعة فكان يئزّ بهدوء...

وقال الكسندر سيميونوفيتش بحماس:

- ايه، ساحصل على فراخ ممتازة! - متطلعا تارة من الجانب حيث شقوق المراقبة، وتارة من الاعلى عبر فتحات التهوية العريضة، - وسترون. ماذا؟ لن أحصل عليها؟ أولا تصدقون؟

وقال دونيا باسمة:

- اوتعرف، يا الكسندر سيميونوفيتش، ان الفلاحين في القرية قالوا انك كافر. ويقال ان بيوضك شيطانية. ومن الخطيئة تكثير الفراخ بالماكينات. انهم يريدون قتلك.

فجفل الكسندر سيميونوفيتش والتفت إلى زوجته. وشحب وجهه.

- ما هذا الكلام؟ يا لهم من ناس! ماذا بوسعي عمله مع مثل هؤلاء الناس؟ آه؟ مانيا، يجب عقد اجتماع لهم... سأدعو المسئولين من القضاء غدا. كما وساتحدث إليهم بنفسي. وعموما ينبغي القيام بعمل في هذا المجال... والا فان هذه المنطقة متوحشة نائية.

ونبر الحارس، الجالس فوق معطفه عند مدخل البيت الزجاجي:

- جهل تام.

شهد اليوم التالي أحداثا غريبة من العسير تفسيرها. ففي الصباح لدى انبلاج بشائر نور الشمس، استقبلته الادغال، التي عادة ترحب بالفجر بزقزقة وشقشقة العصافير، في صمت مطبق. ولاحظ هذا الجميع على الاطلاق. كما يحدث قبيل العاصفة الرعدية. لكن لم يكن هناك أي اثر للعاصفة الرعدية. واتخذت الاحاديث في السوفخوز نبرة غريبة ذات مغزى بالنسبة إلى الكسندر سيميونوفيتش بالاخص لانه عرف من اقوال شيخ اسمه كوزي زوب من قرية كونتسوفكا، وكان مشاغبا وحكيما، ان جميع الطيور قد تجمعت في اسراب وغادرت المنطقة عند الفجر إلى جهة ما بعيدا عن شيريميتيفو، باتجاه الشمال، الامر الذي يعتبر ضربا من الخطل. فاستاء الكسندر سيميونوفيتش كثيرا وضيع النهار كله في الاتصال تلفونيا مع مدينة غراتشيوفكا، اذ وعدوه بان يرسلوا من هناك بعد نحو يومين خطباء سيتحدثون إلى الفلاحين في موضوعين - الوضع الدولي وقضية "دوبراكور".

و لم يخلو المساء من المفاجآت أيضاً. ولئن ساد الصمت في الادغال صباحا، مظهرا بجلاء تام كيف يغدو السكون وسط الاشجار ثقيلا ومزعجا، ولئن اختفت في منتصف النهار العصافير من فناء السوفخوز

متجهة إلى مكان ما، فان السكون ساد بحلول المساء في البركة بشيرميتيفو. وكان ذلك عجيبا حقا، لان الجميع يعرفون جيدا على مدى اربعين فرسخا في الانحاء نقنقة ضفادع شيرميتيفو. اما الآن فبدا وكأنها انقرضت. ولم يبدر صوت واحد من البركة، وانتصبت بلا حراك نبتات السعد. ولا بد من الاعتراف بان الكسندر سيميونوفيتش اصابه الكدر تماما. وبدأت تنتشر الاقاويل والاشاعات بصدد هذه الأحـداث، وبشكل غير طيب للغاية أي من وراء ظهر الكسندر سيميونوفيتش.

وابان تناول الغداء قال الكسندر سيميونوفيتش لزوجته:

- فعلا، هذا غريب، انا لا استطيع ان افهم لماذا نزحت الطيور من المنطقة؟

فردت مانيا:

- من اين لي ان اعرف؟ ربما بسبب شعاعك؟

- انت، يا مانيا، غبية بكل معنى الكلمة، - ورمى الملعقة، - انتِ مثل الفلاحين الموجيك. ما علاقة الشعاع بالأمر؟

- انا لا اعلم. دعني وشأني.

في المساء وقعت المفاجأة الثالثة - اذ اخذت الكلاب في القرية تنبح مرة أخرى، اشد نباح. وساد الحقول التي يغمرها نور القمر أنين متواصل، وعويل حاقد وكئيب.

ووهب الكسندر سيميونوفيتش نفسه مفاجأة أخرى، لكنها مفاجأة طيبة، وبالذات في البيت الزجاجي. اذ بدأت في الصوامع تسمع الطقطقة المتواصلة للبيوض الحمر. توكي.. توكي... توكي... كانت هذه الاصوات تنبعث من هذه البيضة أو تلك.. أو الثالثة.

كانت الطقطقة في البيوض نشيدا ظافرا بالنسبة إلى الكسندر سيميونوفيتش. وعلى الفور نسي أمر الأحداث الغيبة في الادغال والبركة. وجاء الجميع إلى البيت الزجاجي: مانيا والحارس والخفير الذي ترك بندقيته عند الباب.

فسأل الكسندر سيميونوفيتش بلهجة انتصار:

- ماذا، ماذا تقولون؟

واصغى الجميع السمع بفضول بالقرب من باب الصومعة الاولى. وواصل الكسندر سيميونوفيتش الكلام بابتهاج:

- انها الفراخ تدق بمناقيرها. ستقولون انني لن انتج الفراخ؟ لا، يا اعزائي، - وضرب على كتف الخفير بيده من شدة الانفعال.

- وسنحصل على فراخ من نوع سيجعلكم تقفون مشدوهين. الآن انظروا بامعان - واضاف هذا بحزم - وحالما ستبدأ بالتفقيس قليلا ابلغوني فورا.

فاجاب الحارس ودونيا والخفير دفعة واحدة:

- حسنا!

- تاكي... تاكي... تاكي... وصارت تتململ البيضة تلو الأخرى في الصومعة الاولى. وفعلا كان مشهد الحياة الجديدة الوليدة في القشرة الرقيقة المنيرة ممتعا للغاية إلى حد ان الجماعة كلها بقيت جالسة فترة طويلة على الصناديق الفارغة المقلوبة متطلعة إلى كيف تنضج البيوض القرمزية في الضوء الغامض المترجرج. وانصرفوا للنوم في وقت متأخر جداً، حين خيم الليل الضارب للخضرة فوق السوفخوز واطرافه. وكان الليل غامضا وحتى يمكن القول بانه رهيب. لربما لانه كان يعكر هدوءه التام عويل الكلاب الذي يبدأ بين

حين وآخر بلا سبب وبكآبة وبأنين في كونتسوفكا. ولا يعرف ابدا ما سبب النباح المسعور للكلاب اللعينة.

عند الصباح كان ينتظر الكسندر سيميونوفيتش حدث مزعج. فقد كان الخفير مصعوقا إلى اقصى حد، ووضع يده على صدره واقسم وحلف بالخالق انه لم يغفو، لكنه لم يلاحظ شيئا.

واكد الخفير:

– شيء غير مفهوم. انا غير مذنب، يا رفيق روكّ.

وعنفه الكسندر سيميونوفيتش قائلا:

– شكرا لك، مع الامتنان الخالص، ماذا تعتقد، يا رفيق؟ لماذا اقاموك هنا! لكي تراقب. فقل لي اذن، إلى اين ذهبت؟ فقد تفقست البيوض! اذن هربت الفراخ. اذن، انك تركت الباب مفتوحا وغادرت نفسك المكان. عليك ان تجد الفراخ!

في نهاية الامر استاء الخفير:

– لم اذهب إلى أي مكان. هل انني لا اعرف واجبي، ما لك تتهمني عبثا، يا رفيق روكّ.

– اين اختفت؟

وفي نهاية المطاف جن جنون الخفير:

– من اين لي ان اعرف. هل في وسعي ان أحرسها! انني اقف هنا لكي اراقب كيلا يسرق أحد الصوامع، وبهذا اديت واجبي. ها هي الصوامع. اما قنص الفراخ فهذا ليس من واجبي بحكم القانون. ومن يدري اية فراخ ستخرج من البيوض. لربما انها سريعة حتى لا يمكن اللحاق بها على ظهر دراجة هوائية.

صمت الكسندر سيوميونوفيتش هنيهة، وتمتم شيئاً ما واصابه

الذهول. فالمسألة غريبة فعلا. ففي الصومعة التي شحنت قبل الاخرين تبين ان البيضتين الموجودتين عند اساس الشعاع مكسورتان. واحداهما حتى تدحرجت جانبا. وكانت القشرة ملقاة على الارضية الاسبستية، تحت الشعاع.

وهمهم الكسندر سيمويونوفيتش:

- الشيطان وحده يعلم ماذا حدث. النوافذ موصدة، فلا يمكن ان تحلق عبر السقف!

ورفع رأسه ونظر إلى هناك حيث وجدت عدة فتحات واسعة في الشبكة الزجاجية للسقف.

ودهشت دونيا بالغ الدهشة وقالت:

- ماذا تظن، يا الكسندر سيميونوفيتش، فهل يمكن ان تطير الفرختان؟ انهما في مكان ما هنا... تسيب - تسيب - تسيب، واخذت تصيح وتتطلع في انحاء البيت الزجاجي، حيث كانت تنتصب الزهريات المعفرة بالتراب ولوحات ما وسقط المتاع، لكن لم يكن هنا أي أثر للفرختين.

وامضى جميع العاملين نحو ساعتين في البحث بفناء السوفخوز عن الفرختين الشاطرتين، لكن لم يقعوا لهما على اثر. وانصرم اليوم متوترا للغاية. وادعمت حراسة الصوامع بالحارس أيضاً، واعطي له امر صارم بالتطلع إلى نوافذ الصوامع بمرور كل ربع ساعة من الزمن، واستدعاء الكسندر سيميونوفيتش لدى ملاحظة أي شيء مريب. وجلس الخفير عابسا بالقرب من الباب ممسكا بالبندقية بين ركبتيه. وانغمر الكسندر سيميونوفيتش بالأعمال تماما. و لم يتناول طعام الغداء الا عند الساعة الثانية ظهرا. وبعد الغداء نام نحو ساعة، في الفيء البارد على الاريكة السابقة لعائلة الامير شيريميتيف، واحتسى شراب

الكفاس المصنوع من الخيز في السوفخوز، وولج البيت الزجاجي واقتنع بان كل شيء هناك على ما يرام. كان الحارس العجوز راقدا على بطنه فوق قطعة من الخيش، ويتطلع عبر زجاج الصومعة الاولى بعينين ترمشان. اما الخفير فكان يقظا دون ان يبتعد عن الباب.

لكن وقعت أحداث ما. فان بيوض الصومعة الثالثة التي شحنت آخر الصوامع بدأت تتمطق وتتكتك بشكل ما كما لو ان احدا ما في داخلها ينشج باكيا.

وقال الكسندر سيميونوفيتش مخاطبا الحارس:

- اوه، انها تنضج. انها تنضج وانا ارى ذلك الآن. هل رأيت؟

فرد هذا هازا رأسه، وبلهجة ذات مغزى:

- نعم، شيء ممتاز.

جلس الكسندر سيميونوفيتش فترة قليلة عند الصوامع لكن لم تفقس بيضة واحدة في حضوره، فنهض من جلسته القرفصاء. وتمطى وقال انه لن يغادر الضيعة إلى أي مكان وسيذهب إلى البركة فقط للاستحمام، وانه في حالة وقوع شيئاً ما يجب استدعاءه فورا. ومضى إلى القصر، إلى غرفة النوم حيث كان يوجد سريران ضيقان بلوالب والشراشف فيهما مبعثرة، وتكومت على الارضية كومة من التفاح الاخضر واكوام الدخن المعدة من أجل الفراخ القادمة. فتسلح بمنشفة موبرة وبعد تأمل هنيهة تناول المزمار من أجل العزف في اوقات الفراغ عند صفحة الماء. وهرول بنشاط من القصر، عبر فناء السوفخوز، ومشى في ممر اشجار الصفصاف باتجاه البركة. كان روك يمضي بحيوية ملوحا بالمنشفة وممسكا بالمزمار تحت ابطه. وكانت السماء ملتهبة بالقيظ عبر اشجار الصفصاف، وشكا جسده وتوق إلى الماء. ولاحت من جهة الذراع اليمنى لروك احراش نبات راعي الحمام

التي بصق عليها لدى مروره بها. وعلى التو تناهى إلى سمعه من وراء الاوراق العريضة المتماسكة صوت حفيف، كما لو ان احدا ما يجرّ جذع شجرة. وشعر الكسندر سيميونوفيتش بانقباض مزعج خاطف في قلبه فادار رأسه نحو الاحراش ونظر متعجبا. فان البركة خلت منذ يومين من اية اصوات. وخفت صوت الحفيف، وبدت فوق راعي الحمام الصفحة المسلساء لماء البركة والسقف الرمادي للمنزع. وانطلقت عدة يعاسب طائرة امام الكسندر سيميونوفيتش، واراد ان يستدير نحو الدكة الخشبية فاذا بالحفيف يتكرر وسط الخضرة، وانضم إليه صوت أبح، مثل تدفق الزيت والبخار من القاطرة. فلزم الكسندر سيميونوفيتش جانب الحذر، وصار يمعن النظر في الحاجز الاصم من النبات الطفيلي.

في تلك لحظة تردد صوت زوجة روكّ:

– الكسندر سيميونوفيتش! – ولاحت بلوزتها البيضاء ثم اختفت ثم لاحت مرة أخرى وسط شجيرات توت العليق.

– انتظر، سأستحم انا أيضا.

وهرعت الزوجة نحو البركة، لكن الكسندر سيميونوفيتش لم يرد بشيء وقد ركز انتباهه باجمعه على نبات راعي الحمام. فأخذ جذع اخضر ضارب إلى اللون الرمادي ينتصب من بين اوراقه وينمو امام سمعه وبصره. وبدا لالكسندر سيميونوفيتش ان بقعا مبللة ضاربة إلى الصفرة قد غطت الجذع. ويتعالى الجذع ملتويا ومتحركا بارتجاف إلى ارتفاع يعلو على شجيرة صفصاف واطئة ملتوية... ثم هبط اعلى الجذع ومال قليلا وبدا فوق الكسندر سيميونوفيتش شيئاً شبيها بعمود الكهرباء في موسكو. لكن هذا الشيء كان اثخن بنحو ثلاث مرات من العمود، وأجمل منه كثيرا، بفضل الحراشف المماثلة للوشم. ولم يفقه الكسندر سيميونوفيتش شيئاً بعد لكن بدنه صار يرتجف

بالقشعريرة رعبا واخذ يتطلع إلى العمود الرهيب، وتوقف قلبه عن الخفقان عدة لحظات. وتراءى له ان الزمهرير اجتاح الجو في ذلك اليوم من شهر اغسطس، وغامت الدنيا في عينيه كما لو انه كان يتطلع إلى الشمس عبر قماش سراويله الصيفية.

وتبين ان ثمة رأسا في الطرف العلوي للجذع. كان مفلطحا ومدببا ومزينا ببقع صفراء دائرية على الخلفية الزيتونية الخضراء. ورقدت في قمة الرأس عينان بلا اهداب ومفتوحتان وباردتان وضيقتان. وومضت في هاتين العينين شراسة لا مثيل لها البتة. وندت عن الرأس حركة كما لو زفرالهواء. ثم اختفى الجذع كله وسط نبات راعي الحمام، وبقيت العينان فقط، وتطلعت نحو الكسندر سيميونوفيتش دون ان يرمش لها جفن. وتلفظ هذا والعرق يتصبب منه باربع كلمات فقط عجيبة كل العجب وناجمة عن الفزع الذي يسلب المرء عقله. فما اجمل تلك العينان وسط الاوراق.

– ما معنى هذه المزحة...

ثم تذكر ان السحرة الهنود... نعم... نعم... الهند... والسلة والصورة... يروضون...

وارتفع الرأس مرة أخرى وصار الجذع ينبجس، فقرب الكسندر سيميونوفيتش المزمار من شفتيه، ووصوص بصوت مبحوح وعزف وانفاسه تنقطع في كل لحظة لحن الفالس من اوبرا "يفغيني اونيغين". فتألقت العينان وراء الخلفية الخضراء على التو تعبيرا عن الحقد الشديد على هذه الاوبرا.

– ماذا، هل جننت، بالعزف في هذا القيظ؟

تناهى إلى سمعه صوت مانيا المرح ولاحظ الكسندر سيميونوفيتش بطرف عينيه من اليمين بقعة بيضاء.

ثم تعالى في السوفخوز كله زعيق لا يطاق، واشتد وتردد في كل الانحاء، وصار لحن الفالس يتقافز كما لو كسرت ساقه. واندفع الرأس من الخضرة نحو الامام، وتخلت العينان عن الكسندر سيميونوفيتش، وتركته ليستغفر خطاياه. واندفعت الافعى البالغ طولها نحو خمسة عشر ذراعا وسمكها قرابة سمك جذع الانسان كلولب مشدود من بين نبات راعي الحمام. وتعالت سحابة غبار في الطريق وتوقف لحن الفالس. وانطلقت الافعى بمحاذاة مدير السوفخوز إلى المكان الذي كانت فيه البلوزة البيضاء على الطريق. ورأى روكّ بكل وضوح: لقد غدا محيا مانيا شاحبا ضاربا إلى البياض، وانتصب خصلات شعرها الطويل كالاسلاك فوق رأسها نحو نصف ذراع، وفتحت الافعى فكيها في لحظة خاطفة واخرجت من بينهما شيئاً يشبه الشوكة وامسكت بكتف مانيا المنهارة وسط التراب بقبضة شديدة جعلتها ترتفع نحو ذراع فوق الارض، وعندئذ رددت مانيا صرختها الاخيرة قبل ان تفارق روحها إلى بارئها. والتوت الافعى كلولب طوله خمسة عشر ذراعا، واثار ذنبها دوامة من غبار، وراحت تعصر مانيا. ولم تبدر عن هذه اية اصوات بعد ذلك. وسمع روكّ فقط تحطم عظامها. وارتفع رأس مانيا عاليا فوق الارض ملتصقا بلطف بخد الافعى، وتدفق من فم مانيا الدم، وسقطت ذراعها المقطوعة، ونزفت من تحت الاظافر نافورات الدم. ثم فتحت الافعى فكيها والبست رأسها دفعة واحدة في رأس مانيا، واخذت تكسو جسدها كما يكسو القفاز الاصبع. وتصاعدت من الافعى في كل الانحاء انفاس ساخنة للغاية، حتى انها بلغت وجه روكّ أما ذنبها فكاد يكتسحه من الطريق في التراب الجارف. وفي تلك اللحظة شاب شعر روكّ. فتغطى شعر رأسه الاسود كالجزمة، بلون كالفضة في النصف الايسر ثم الايمن منه وفي نهاية المطاف مضى مبتعدا عن الطريق وقد تملكه التقيؤ كحال المرء في

النزع الاخير. واطلق ساقيه للريح دون ان يرى شيئاً أو احدا وانبعث منه صراخ وحشي انداح في كل المنطقة.

الفصل التاسع
العصيدة الحية

كان شوكين عميل دائرة الامن في محطة دوغينو رجلا شجاعا جداً. وقال لرفيقه الاشقر الشعر بولايتيس متأملا:

- حسنا، لنذهب؟ ها؟ هات الدراجة النارية، - ثم صمت واضاف مخاطبا الرجل الجالس على المصطبة:

- اترك المزمار.

لكن الرجل الاشيب المرتجف رعبا الجالس على المصطبة في مبنى دائرة الامن في دوغينو لم يترك المزمار بل انخرط في البكاء والعويل. ولحظتئذ ادرك شوكين وبولايتيس ان من الواجب انتزاع المزمار. فقد جمدت الاصابع عليها. اخذ شوكين الذي يتمتع بقوة جبارة كالمصارعين في السيرك يفك الاسابع الواحد تلو الأخرى حتى فكت جميعا. وعندئذ وضع المزمار على المنضدة.

حدث هذا في وقت مبكر من الصباح وقد غمرت الشمس الكون في اليوم التالي لمصرع مانيا.

قال شوكين مخاطبا الكسندر سيميونوفيتش:

- ستذهب معنا. وسترينا اين وماذا حدث.

لكن روكّ اشاح بوجهه عنه لفزعه، وغطى عينيه بيده كما لو يريد تفادي كابوس رهيب.

واضاف بولايتيس بحزم:

- يجب ان ترينا المكان.

- لا، دعه وشاءنه. انت ترى ان الرجل في حالة انهيار.

ورجا الكسندر سيميونوفيتش باكيا:

- ارسلوني إلى موسكو.

- وهل انك لن تعود إلى السوفخوز ابدا؟

لكن روكّ غطى عينيه مرة أخرى بدلا من الاجابة، وساح الفزع من عينيه.

وقرر شوكين:

- حسنا، انك حقا غير قادر... انا ارى. الآن سيأتي القطار السريع، وستسافر فيه.

بعد ذلك عقد شوكين وبولايتيس اجتماعا، فيما كان حارس المحطة يسقي الكسندر سيومونوفيتش ماءا. وكان هذا يطقطق باسنانه على القدح الازرق المحطم الحواشي. وكان بولايتيس يعتقد ان أي شيء من هذا لم يحدث. ومجمل القضية ان روك مريض نفسيا، وتولدت لديه اوهام بشعة. اما شوكين فكان يميل إلى فكرة مؤداها انه في مدينة غراتشيوفكا، حيث يقوم في الوقت الحاضر السيرك بجولة فنية، هربت أفعى آصلة - عاصرة. ولدى سماع همسهما المشوب بارتياب نهض روكّ قليلا. وكان قد ثاب إلى رشده نوعا ما وقال، فاركا يديه، مثل نبي من انبياء الكتاب المقدس:

- لتصغيا اليّ. لتصغيا. ما لكما لا تصدقاني؟ لقد كانت موجودة، فاين زوجتي اذن؟

لزم شوكين الصمت وبدت على محياه امارات الجد. وبعث على

الفور ببرقية ما إلى غراتشيوفكا. اما العميل الثالث فوقف بأمر من شوكين إلى جانب الكسندر سيميونوفيتش دون ان يبعد ناظريه عنه لحظة. وكان يجب ان يرافقه إلى موسكو. واخذ شوكين وبولايتيس يستعدان للسفر. وكان لديهما مسدس كهربائي واحد فقط. بيد ان هذا بحد ذاته يشكل حماية جيدة. وهو من الموديل ذي الخمسين طلقة وصنع في عام ١٩٢٧، ويعد مفخرة التقنية الفرنسية لاغراض القتال عن قرب، ويمكن قتل الخصم به من مسافة مائة خطوة فحسب، لكن بميسوره زيادة مجال قطره مترين، ويقتل كل ما هو حيّ في هذا المجال فورا. وكان من العسير ألا يصيب مرماه. ولبس شوكين في حزامه هذه اللعبة الكهربائية اللامعة، اما بولايتيس فقد وضع في حزامه مسدسا رشاشا صغيرا ذا خمس وعشرين طلقة، واخذ معه خزانات ذخيرة. ثم انطلقا في دراجة نارية واحدة في الطريق العام باتجاه السوفخوز، في الجو الذي تغمره قطرات الطل والانسام الباردة. وقطعت الدراجة النارية مسافة العشرين فرسخا من المحطة إلى السوفخوز في غضون ربع ساعة. (قطع روكّ المسافة ماشيا طوال الليل، وكان بين الفينة والفينة يختبىء بين الاعشاب على جانبي الطريق في نوبات من الفزع القاتل)، وحين صارت الشمس تلقي باشعتها المحرقة بقدر أشد، تراءى على ربوة يجري تحتها جدول "توب" قصر ابيض متألق في اشعة الشمس وسط الخضرة. وساد الصمت المطبق في المكان عند مشارف السوفخوز. واستبق العميلان فلاحا في عربة يجرها حصان. وكان هذا يمضي الهوينا بلا عجلة، محملا عربته باكياس ما، وسرعان ما خلفاه وراءهما. واندفعت الدراجة فوق جسر، وداس بولايتيس على منفاخ المنبه لاستدعاء أحد ما. لكن لم يرد أحد في أي مكان، باستثناء الكلاب البعيدة والمسعورة في قرية كونتسوفكا. وتباطأت الدراجة النارية في سيرها واقتربت من البوابة حيث ينتصب تمثالا أسدين ضاربين إلى الخضرة. وترجل العميلان ذوا لفافتي الساقين

الصفراوتين، وقيدا الدراجة النارية إلى السياج المشبك بسلسلة، وولجا الفناء. فذهلا لما فيه من سكون.

صرخ شوكين بصوت عال:

– ايه، من هناك؟

لكن لم يرد أحد على صوته الجهوري. وسار العميلان في ارجاء الفناء من جميع الانحاء، والدهشة تعتملهما أكثر فاكثر. فعبس بولايتيس. واخذ شوكين يتفحص المكان بجد، وهو لا ينيء يعبس بحاجبين مقطبين. وتطلعا إلى المطبخ عبر النافذة المغلقة فلم يشاهدا أحدا هناك. لكن كانت شظايا الاطباق المحطمة البيضاء تغطي الارضية كلها.

فقال بولايتيس:

– اتعرف، لقد حدث لديهم شيء ما حقا. انا ارى هذا الآن. كارثة.

وصاح شوكين:

– ايه، من هناك! ايه!

لكن لم يرد عليه سوى الصدى تحت عقود المطبخ. وتمتم شوكين:

الشيطان وحده يعلم ما هذا. اذ ليس بمقدورها ابتلاعهم جميعا دفعة واحدة. ام انهم اطلقوا سيقانهم للريح. لنذهب إلى داخل البيت.

كان الباب في شرفة القصر ذات الاعمدة مفتوحا على مصراعيه. وخلا من الناس تماما. وصعد العميلان حتى إلى العلية. وطرقا وفتحا جميع الابواب. لكنهما لم يتوصلا إلى نتيجة البتة، وعادا إلى الفناء عبر السقيفة الخاوية.

واصدر شوكين امره قائلا:

- لنقم بجولة حول المكان. لنذهب إلى البيوت الزجاجية، ولنفتش المكان باجمعه، وبعد ذلك يمكن ان نتلفن.

سار العميلان في الممر المرصوف بالطوب، بمحاذاة اصص الازهار، إلى الفناء الخلفي، وعبراه فرأيا الزجاج اللامع للبيت الزجاجي.

ولاحظ شوكين بهمس، وقد نزع المسدس من حزامه.

- مهلا.

وانتاب بولايتيس الحذر فسحب مسدسه الرشاش أيضاً. كان ينبعث صوت غريب وواضح للغاية من البيت الزجاجي، وفي مكان ما خلفه. وبدا كما لو ان قاطرة تزمزم. وهسهس البيت الزجاجي - زاو - زاو - زاو -... زاو - زاو - زاو... س - س - س - س - س - س.

همس شوكين:

- آه، مهلا خذ الحذر.

وتقدم العميلان ساعيين إلى عدم الدق بكعوب أحذيتهما إلى الجدار الزجاجي وتطلعا إلى داخل البيت الزجاجي. فجعل بولايتيس متراجعا إلى الوراء فورا وشحب وجهه. وفغر شوكين فاه، وجمد وبيده المسدس. كان البيت الزجاجي بأسره يفور وكأنه عصيدة من الديدان... وتزحف على الارضية ثعابين ضخمة فتلتوي وتلتف على نفسها بشكل كرات ملفوفة وتطلق الحفيف وتمتد باجسادها وتدير رؤوسها وتؤرجحها. وكانت قشور البيض المحطمة متناثرة على الارضية، وتخشخش تحت اجسادها. فيما كان يضيء مصباح كروي شديد الضوء بنور ابيض، ولهذا غمر البيت الزجاجي من الداخل ضوء غريب كما في السينما. وانتصبت على الارض ثلاثة صناديق ضخمة قائمة مثل علب التصوير الفوتوغرافي. وخمد النور في اثنين منهما وقد

انقلبا مائلين وازيحا من مكانيهما، اما في الثالث فكانت تضيء بقعة صفيرة قرمزية كثيفة. وكانت تتسلق على الاسلاك ثعابين من مختلف الاحجام، وتصعد فوق اطر الشبابيك، وتبرز خارجه عبر فتحات السقف. وتعلق بالمصباح الكروي نفسه ثعبان اسود تماما ومبقع يبلغ طوله عدة أذرع. ورأسه يتأرجح بالقرب من المصباح مثل البندول. ورنت اجراس ما مقترنة بالحفيف. وانبعثت من البيت الزجاجي رائحة غريبة عفنة كما لو انها صادرة عن بركة آسنة.. وشاهد العميلان أيضا بغير وضوح كومة من البيوض ذوات اللون الابيض ملقاة في الزوايا المعفرة بالتراب، وطائرا غريبا ضخم الجثة طويل الساقين الخاليتين من الريش، يرقد بلا حراك عند الصوامع، وجثة رجل يرتدي بزة رمادية ممددة عند الباب إلى جانب بندقية.

صرخ شوكين واخذ يتقهقر متراجعا:

- إلى الخلف!

وصار يدفع بولايتيس بيده اليسرى ويرفع المسدس باليمنى. وافلح في اطلاق مسدسه تسع مرات، واز واسقط بالقرب من البيت الزجاجي بريقا مائلا للخضرة. فاشتد اللغط بشكل رهيب، وجوابا على طلقات شوكين ماد البيت الزجاجي باجمعه في حركة جامحة، وبرزت من جميع الثقوب رؤوس مفلطحة. واخذ الصدى يتردد فورا في كافة انحاء السوفخوز، ويتلاعب وميضة على الجدران. جاخ - جاخ - جاخ - جاخ - كان هذا بولايتيس يطلق النار ناكصا على عقبيه. وتناهى إلى سمعه شخير غريب من كائن ذي اربع وراء ظهره. فصرخ بولايتيس فجأة صراخا رهيبا، متهاويا على ظهره. وبرز من وراء ركن العنبر كائن ذو ارجل ملتوية مفلطحة بلون بني ضارب الى الخضرة، وذو بوز ضخم ومدبب، وذنب مسنن، يشبه عضاءة هائلة الحجم، فقضم ساق بولايتيس بشراسة واسقطه أرضا.

صرخ بولايتيس: النجدة!

وعلى الفور وقعت يده اليسرى بين الفكين وطقطقت عظامها، وحاول عبثا ان يرفع يده اليمنى ويجرها مع المسدس على الارض. فالتفت شوكين وصار يندفع ذهابا وايابا، وافلح في اطلاق مسدسه مرة واحدة، لكنه اطلق باتجاه منحرف جانبا بشدة خشية ان يصيب رفيقه. وفي المرة الثانية اطلق باتجاه البيت الزجاجي اذ ظهر من هناك وسط رؤوس الافاعي غير الكبيرة ثعبان ضخم، بلون زيتوني، واندفع بجسده نحوه مباشرة. فقتل الثعبان المارد بهذه الاطلاقة، ومرة أخرى صار يتقافز ويدور قريبا من بولايتيس الذي غدا شبه ميت بين فكي التمساح، واختار الموضع الممكن الاطلاق نحوه، بغية قتل الوحش الرهيب دون ايذاء العميل. وفي نهاية المطاف افلح في ذلك. وصدرت عن المسدس الكهربائي اطلاقتان، واضيىء المكان كله حواليه بلون ضارب إلى الخضرة، وقفز التمساح وتمدد وتسمّر في مكانه وانطلق بولايتيس من بين فكيه. وكانت الدماء تسيل من الكم، ومن فمه، واخذ يستند على اليد اليمنى السليمة ويجر الساق اليسرى المحطمة. لكن صار بريق عينيه يخمد.

وقال بجهد: شوكين... اهرب.

اطلق شوكين النارعدة مرات باتجاه البيت الزجاجي فتحطمت بضعة الواح زجاجية فيه، لكن ظهر خلفه من نافذة القبو لولب هائل زيتوني اللون ومرن، وعبر الفناء زاحفا، وغطاه بجسده كله البالغ طوله نحو ستة امتار، وفي لحظة خاطفة التفّ حول ساقي شوكين. والقاه ارضا فتطاير المسدس اللامع جانبا. وصرخ شوكين بعنف ثم اختنق، وبعد ذلك غطت الاطواق جسده كله باستثناء رأسه. ومر طوق على الرأس مرة واحدة فانتزع منه جلدة الرأس، فانفلق هذا الرأس. وبعد هذا لم يسمع في السوفخوز صوت اطلاقة أخرى. وغمر المكان

حفيف غطى على كل الاصوات الأخرى. وجوابا على ذلك تردد مع الريح من بعيد عويل من قرية كونتسوفكا، لكن لم يعد ممكنا عندئذ ادراك أي عويل ذلك، هل هو عويل كلاب ام بشر.

الفصل العاشر
الكارثة

كانت المصابيح تضيء بنور ساطع في مقر هيئة تحرير جريدة "ازفستيا" ليلا، وانهمك المحرر المسئول البدين فوق المنضدة الرصاصية في ترتيب الصفحة الثانية حيث تنشر البرقيات "من اتحاد الجمهوريات". وجذبت انتباهه سلخة منها، فامعن النظر فيها عبر نظارات البينسنيه واطق قهقهة. واستدعى المصححين من غرفتهم ومرتب الصفحات وارى الجميع السلخة المذكورة. وكان مكتوبا على الورقة الضيقة السمراء: "غراتشيوفكا. محافظة سمولينسك. ظهرت في القضاء دجاجة بحجم الحصان، وترفس برجلها كالحصان، ولديها بدلا من الذنب ريش مثل ريش قبعات السيدات البرجوازيات".

وراح المرتبون يقهقهون بشدة، وقال المحرر المسئول ضاحكا بكل ارتياح ولذة:

– في زماني حين كنت اعمل لدى فانيا سيتين في صحيفة "روسكويه سلوفو"، كنا نشرب حتى تتجلى لنا الاوهام عن الافيال. هذا صحيح. اما الآن فيبدو انها تتجلى عن طيور النعام.

فاستغرق مرتبو الحروف في القهقهة.

وقال مرتب الصفحات:

– هذا حق، انها نعامة. ما رأيك هل نبقيها يا ايفان فونيفاتيفيتش؟

ورد المحرر المسئول:

- هل جننت، انني أعجب كيف فاتت على السكرتير، انها مجرد برقية بعث بها سكران.

ووافق عمال تنضيد الحروف قائلين:

- لقد اولموا وقصفوا، هذا صحيح.

فانتزع مرتب الصفحات البرقية عن النعامة من على الطاولة.

ولهذا صدرت "ازفستيا" في اليوم التالي، متضمنة كالعادة الكثير من المواد الشيقة، لكن بدون اية اشارة إلى النعامة من غراتشيوفكا.

وطوى مساعد الاستاذ - الخاص، الذي يطالع "ازفستيا" بامعان، الصحيفة في غرفة مكتبه، وتثاءب ونبر:

- لا يوجد ما يستحق الاهتمام.

وصار يرتدي الصديرية البيضاء. وبعد مضي فترة من الوقت اشعلت المصابيح الغازية وبدأت الضفادع بالنقنقة. اما غرفة مكتب بيرسيكوف فقد غدت في حيص بيص. وكان بانكرات المرتعب يقف بهيئة استعداد.

واخذ يردد:

- فاهم.. سمعا وطاعة..

وسلمه بيرسيكوف مظروفا مختوما بالشمع قائلا:

- ستذهب إلى قسم تربية الحيوان مباشرة، إلى رئيس القسم ذاك.. بتاخا، وتقول له في وجهه - انه خنزير. وابلغه انني البروفيسور بيرسيكوف، قلت ذلك. وسلّمه المظروف.

وفكر بانكرات الشاحب المحيا في قرارة نفسه: "يا للعجب"، وانصرف حاملا المظروف.

واشتد هياج بيرسيكوف. وقال شاكيا:

- الشيطان وحده يعلم ما هذا، - وصار يذرع الغرفة جيئة وذهابا، مرتديا القفافيز، - هذا استهزاء ليس له نظير بي وبعلم الحيوان. انهم يجلبون بيض الدجاج الملعون ذاك في اكوام، بينما لا استطيع على مدى شهرين الحصول على ما احتاجه. كما لو ان امريكا بعيدة! هرج ومرج دائم، وشناعة مستمرة، - واخذ يعدّ على اصابعه - القنص يحتاج نحو عشرة... حسنا لنقل خمسة عشرة... بل حسنا لنقل عشرين يوما. والطيران يتطلب يومين، ومن لندن إلى برلين يتطلب يوما واحد.. ومن برلين الينا يتطلب ست ساعات... انها فضيحة لا يمكن وصفها بالكلمات.

واندفع بغيظ نحو جهاز التلفون واخذ يطلب رقما ما.

كان كل شيء جاهزا في غرفة مكتبه لاجراء تجارب ما غامضة وخطرة، وثمة ورق مقصوص بشكل شرائط من أجل لصق الابواب، وخوذات مما يستعمله الغواصون تتدلى منها الخراطيم، وعدة انابيب لامعة كالزئبق لصقت فوقها بطاقات كتب عليها: "دوبروخيم"، "ممنوع اللمس" مع صورة جمجمة وعظمتين.

وتطلب الامر ما لا يقل عن ثلاث ساعات لكي يهدأ البروفيسور ويشرع بممارسة الأعمال الصغيرة. وهذا ما فعله. واستمر في العمل بالمعهد حتى الساعة الحادية عشرة مساء، ولهذا لم يعلم شيئاً عما يدور وراء الجدران العاجية اللون. فلم يعرف بأمر الاشاعات السخيفة المنتشرة في موسكو عن ثعابين ما، والبرقية الغريبة المنشورة في الجريدة المسائية. لان مساعد الاستاذ ايفانوف كان في مسرح الفن يشاهد عرض مسرحية "فيودور ايفانوفيتش"، اذن لم يوجد أحد يبلغ البروفيسور بالانباء.

وصل بيرسيكوف في نحو منتصف الليل إلى بريتشيستينكا ورقد للنوم بعد ان طالع في الفراش مقالة انكليزية ما في مجلة "اخبار علم الحيوان" التي تلقاها من لندن، ثم استسلم للكرى ومعه جميع موسكو الكثيرة الحركة والمشاغل، و لم ينم فقط المبنى الرمادي الضخم في شارع تفيرسكايا في الفناء حيث تدور ماكينات الطباعة لجريدة "ازفستيا". وكان يسود غرفة مكتب المحرر المسئول الهرج والمرج والبلبلة. وانشغل هو في الحركة ذهابا وايابا كالمجنون، بعينيه محمرتين، دون ان يعلم ما يجب القيام به، واخذ يصبّ اللعنات والشتائم على الجميع. بينما كان مرتب الصفحات يتبعه، ورائحة النبيذ تفوح من فمه، ويقول:

- انها ليست مصيبة، يا ايفان فونيفاتيفيتش، دعهم يصدرون غدا صباحا ملحقا عاجلا. اذ ليس بمقدورنا سحب العدد من ماكينة الطباعة.

و لم ينصرف عمال التنضيد إلى بيوتهم، بل كانوا يمضون في اسراب، ويتجمهرون في حشود، ويطالعون البرقيات التي صارت تترى طوال الليل بلا توقف بعد مضي كل ربع ساعة، وتغدو أكثر فظاعة وغرابة وتومض قبعة الفريد برونسكي المدببة في الضوء الوردي الساطع الذي يغمر المطبعة، وينبجس البدين الميكانيكي، الذي ينبعث منه الصرير، تارة هنا وتارة هناك. وكان باب المدخل يصطفق، ويتردد المخبرون الصحفيون على المكان طوال الليل. و لم يتوقف رنين اجهزة التلفون البالغ عددها اثني عشر جهازا في المطبعة، وترد محطة التلفون بصورة آلية تقريبا على المكالمات الغامضة: "مشغول"، "مشغول"، وفي المحطة ترن وترن اجهزة الاشارة امام الفتيات المسهدات. واحاط عمال التوضيب بالبدين الميكانيكي، فصار قبطان الملاحة البعيدة المدى يقول لهم:

– يجب ارسال طائرات تحمل الغاز.

وكان عمال التنضيد يردون عليه:

– طبعاً، فأية امور يمكن ان تحدث هناك.

واعقبت ذلك شتائم مقذعة، وصوت ما صداح تردد بالزعيق:

– يجب اعدام بيرسيكوف هذا رميا بالرصاص.

واجابوه من الجمهرة:

– ما علاقة بيرسيكوف بالامر، يجب اعدام ابن الكلبة ذاك في السوفخوز.

وصرخ احدهم بقوله:

– كان يجب وضع الحرس.

– لربما ان هذا لا علاقة له بالبيوض.

كان المبنى باسره يرتجّ ويلغط بسبب ضجيج ماكينات الطباعة، وتولد انطباع، كما لو ان الحريق يلتهم المبنى الرمادي القبيح.

و لم يوقفه انبلاج نور النهار. بل بالعكس بل جعله يشتد فحسب، بالرغم من اطفاء المصابيح الكهربائية. وكانت الدراجات النارية تتدفق الواحدة تلو الأخرى في الفناء المعبّدة بالاسفلت، بالتناوب مع السيارات. واستيقظت موسكو بأسرها، ولبست حلة بيضاء من ورق الجرائد الشبيهة بالطيور. وكانت الصحف تتساقط وتخشخش في ايدي الجميع، وبحلول الساعة الحادية عشرة نفدت الصحف لدى الباعة، بالرغم من ان "ازفستيا" كانت تطبع في ذلك الشهر بمليون ونصف المليون نسخة. غادر البروفيسور بيرسيكوف من بريتشيستينكا ووصل راكبا إلى المعهد. وانتظرته هناك مفاجأة، اذ كانت في البهو صناديق خشبية مطوقة بعناية بواسطة شرائط معدنية، وعددها ثلاثة

صناديق، ولصقت عليها بطاقات اجنبية باللغة الالمانية وبدت فوقها عبارة واحدة باللغة الروسية "حذار. بيوض". فاعتملت البروفيسور بهجة غامرة.

وصاح:

– واخيرا! بانكرات، افتح الصناديق فورا وبحذر، كيلا تنكسر. واحملها إلى غرفتي.

ونفذ بانكرات الاوامر فورا، وبعد ربع ساعة كان صوت البروفيسور يسمع في غرفة المكتب الممتلىء بنشارة الخشب وقطع الورق. واخذ يولول بقوله:

– ماذا يفعلون، هل انهم يسخرون بي؟ – وصار يقلب البيوض بيديه، – انه حيوان ما وليس بتاخا[٣٤]، وانا لن اسمح له بالاستهزاء بي. ما هذه، يا بانكرات؟

فاجاب بانكرات بكدر:

– بيض.

– بيض دجاج. وليأخذه الشيطان. وما حاجتي إليه؟ ليرسلوه إلى ذلك الوغد في السوفخوز!

واندفع بيرسيكوف نحو ركن الغرفة حيث كان التلفون، لكنه لم يلحق في طلب الرقم، اذ هدر المعهد كله صوت ايفانوف:

– فلاديمير ايباتيتش! فلاديمير ايباتيش!

ابتعد بيرسيكوف عن التلفون، وتنحى بانكرات جانبا مفسحا

---

(٣٤) لقب بتاخا كلمة اوكرانية تعني – الطير. المترجم.

الطريق لمساعد الاستاذ - الخاص. واندفع هذا إلى داخل الغرفة، وخلافا لعادته المهذبة لم يرفع قبعته الرمادية، المنتصبة على قذاله، وكان يحمل بيده صفحة من جريدة.

وصرخ: - أتعرف، يا فلاديمير ايباتيتش، ماذا حدث؟ - ولوح امام وجه بيرسيكوف بالصفحة المكتوب عليها: "ملحق عاجل"، وفي سطها بدت صورة زاهية الالوان.

فاجاب بيرسيكوف دون ان يصغي إليه:

- لا، بل اسمع بماذا فعلوه معي. إنهم قرروا اثارة عجبي ببيض الدجاج. ان بتاخا هذا أحمق تماما، انظر!

فبهت ايفانوف مصعوقا. وصار يحلق فزعا في الصناديق المفتوحة، ثم في الجريدة، بعد ذلك جحظت عيناه وكادتا تفارقان وجهه. وجمجم محتبس الانفاس قائلا:

- اذن، تلكم هي المسألة. الآن انا افهم. لا، يا فلاديمير ايباتيتش، انظر فقط.

وفتح الجريدة في لحظة خاطفة واشار لبيرسيكوف باصابع مرتجفة نحو الصورة الملونة. كانت تبدو فيها صورة ثعبان بلون زيتوني وبقع صفراء شبيهة بخراطيم مياه رجال الاطفاء، امام خلفية خضراء غير واضحة. وقدالتقطت الصورة من اعلى، من جهاز طائر خفيف مضى محلقا بحذر فوق الثعبان.

- ما هذا برأيك، يا فلاديمير ايباتيتش؟

أزاح بيرسيكوف نظارتيه فوق جبينه، ثم قربّها من عينيه، وتفرس في الصورة وقال بدهشة بالغة:

- أي شيطان هذا. هذه... هذه أفعى أناكندا... الآصلة المائية.

ألقى ايفانوف قبعته، وجلس على الكرسي وقال وهو يدق بيده مع كل كلمة على المنضدة:

– فلاديمير ايباتيتش، ان افعى أناكندا هذه من محافظة سمولينسك. شيء فظيع. أتفهم، ان ذاك الوغد انتج الثعابين بدلا من الدجاج، وافهم انها اعطت كمية هائلة من البيوض مثل الضفادع!

فاجاب بيرسيكوف وقد احتقن الوجه:

– ماذا تقول؟ انك تمزح، يا بيوتر ستيبانوفيتش... من اين له ذلك؟

وبهت ايفانوف هنيهة، ثم استعاد القدرة على الكلام واشار باصبعه إلى الصندوق المفتوح حيث كانت تتألق الرؤوس البيض وسط نشارة الخشب الصفراء، وقال:

– من هنا.

وزعق بيرسيكوف وقد بدأ يدرك جلية الامر:

– ماذا.. ذا...؟

ولوح ايفانوف بقبضتيه المضمومتين وصرخ:

– كن مطمئنا، انهم ارسلوا إلى السوفخوز طلبيتك من بيوض الثعابين والنعام، بينما جاءوا ببيض الدجاج اليك عن طريق الخطأ.

– إلهي... إلهي...

كرر بيرسيكوف ذلك وقد شابت محياه الخضرة واخذ يجلس في المقعد الدوار.

وقف بانكرات متبلدا تماما عند الباب، وشحب وجهه واصابه الخدر. ونهض ايفانوف وتناول الجريدة واشار إلى سطر ما بظفره

الحاد وصاح في اذن البروفيسور:

- الآن، ستحدث لهم الآن واقعة طريفة! انني لا اتصور البتة ما يحدث. فلاديمير ايباتيتش، انظر، - وراح يصرخ بصوت عال قارئا عبارة وقع عليها بصره في صفحة الجريدة المكرمشة: تتجه الثعابين في اسراب باتجاه موجايسك... واضعة كميات لا حصر لها من البيوض. وقد لوحظت البيوض في قضاء دوخوفسكويْ... وظهرت أيضاً تماسيح ونعام. ووضعت الوحدات الخاصة وفصائل دائرة الامن حدا للرعب في فيازما، بعد ان أحرقت الغابات خارج المدينة واوقفت هجوم الزواحف...

نهض بيرسيكوف من المقعد الدوار بوجه مبقع وشاحب مائل للزرقة وبعينين شاردتين واخذ يصرخ بانفاس متقطعة:

- افعى الأناكندا... الأناكندا... الأناكندا - الآصلة المائية، يا الهي، - لم يره أحد بهذه الحال من قبل لا ايفانوف ولا بانكرات ابدا.

ونزع البروفيسور ربطة عنقه بحركة واحدة، وقطع ازرار قميصه، واصطبغ وجهه بحمرة غريبة وكأنه أصيب بنزيف مخي، ومضى متأرجحا وبعينين زجاجيتين زائغتين تماما مندفعا إلى الخارج.

وتعالى الصراخ تحت العقود الحجرية في المعهد. وردد الصدى هادرا:

- الأناكندا.. الأناكندا...

وصرخ ايفانوف في بانكرات الذي تراقص رعبا في مكانه:

اوقف البروفيسور! قدم له الماء، فقد أصيب بالنزيف المخي.

الفصل الحادي عشر
المعركة والموت

توهج الليل في موسكو بنور كهربائي جنوني. واشتعلت جميع المصابيح، و لم يكن في الشقق مكان لم تتألق فيه المصابيح بعد نزع أغطيتها. و لم ينم شخص واحد في اية شقة بموسكو البالغ تعدادها اربعة ملايين نسمة، باستثناء الاطفال القليلي الفطنة. وكان الناس في الشقق يأكلون ويشربون كيفما اتفق، ويصرخون قائلين عبارات ما، وبين الفينة والفينة تتطلع وجوههم الملتوية السحنة من النوافذ في جميع الطوابق، متطلعين بابصارهم نحو السماء التي تتقاطع فيها اضواء البروجكتورات في كافة الاتجاهات. بين حين وآخر تندلع انوار بيضاء في السماء فترسم فيها المخاريط الذائبة والخابية، ثم تختفي وتخمد. كما كان يتردد في السماء باستمرار هدير الطائرات المحلقة على ارتفاع واطىء جداً. وكان الفزع على اشده في شارع تفيرسكايا–يامسكايا. وكانت تصل القطارات إلى محطة الكسندروفسكي في فترات فاصلة قدرها عشر دقائق، وقد ربطت فيها كيفما كان عربات نقل البضائع وشتى اصناف العربات وحتى الصهاريج، وقد إلتصق بها الناس المذعورون، وهم يهرولون في شارع تفيرسكايا–يامسكايا في حشد كالعصيدة الثخينة القوام، ويركبون الحافلات وفوق سطوح عربات الترام، ويتدافعون ويقعون تحت العجلات. وبين الفينة والفينة يندلع في محطة القطار اطلاق النار الشديد فوق رؤوس حشد الناس – انها الوحدات العسكرية توقف رعب المخبولين الذين يهرولون فوق خط السكك الحديدية من محافظة سمولينسك باتجاه موسكو. وبين

حين وآخر يتحطم زجاج النوافذ بنشيج خفيف في المحطة، وتعوي جميع القاطرات. وتناثرت في جميع الشوارع اللافتات المرمية التي داستها الاقدام، كما تتطلع اللافتات ذاتها من الجدران تحت ضوء البروجكتورات الساطع. وكانت قد غدت معروفة للجميع، و لم يعد أحد يقرأها. واعلنت فيها حالة الطوارئ بموسكو. وتتضمن التهديد بالعقاب لاستثارة الفزع. ويعلن فيها ان فصائل الجيش الاحمر المسلحة بالغاز تزحف وحدة اثر وحدة إلى محافظة سمولينسك. لكن ما كان بمقدور اللافتات ان توقف الحشود الهادرة في الليل. وكان يجري اسقاط وتحطيم الاواني واصص الازهار في الشقق والناس يهرولون مصطدمين بالزوايا، ويشدون ويفكون الصرر والحقائب، يساورهم عبثا الأمل في الوصول إلى ميدان كولنتشوفسكايا وإلى محطة ياروسلافسكي أو محطة نيكولايفسكي. لكن وآسفاه فان جميع محطات القطار المتجهة نحو الشمال والشرق قد احيطت بصفوف متراصة من المشاة وشاحنات ضخمة تتأرجح منها السلاسل وتقرقع، محملة إلى اعلاها بصناديق يجلس فوقها افراد الجيش بخوذات مدببة الاطراف والحرب مشرعة، ووضعت فيها احتياطيات النقود الذهبية من اقبية مفوضية الشعب المالية، وكذلك بصناديق ضخمة كتب عليها: "حذار! متحف تريتياكوف للصور". كانت السيارات تزأر في جميع انحاء موسكو.

وفي مكان بعيد جداً يتراءى في السماء وهج حريق ما، ويسمع هزيم المدافع المتواصل الذي يعكر حلكة سواد الليل في شهر أغسطس.

وقبيل الفجر، مضى جيش الفرسان المؤلف من عدة آلاف رجل، وسنابك الخيل تقرع حجارة الشارع، في شريط ملتو كالثعبان في شوارع موسكو المسهدة تماما، دون ان يتم اطفاء مصباح واحد، صاعدا في شارع تفيرسكايا، مزيحا كل ما يلقيه في طريقه، وكل

الذين لاذوا بالمداخل والتصقوا بواجهات المحلات. وتدلت اطراف القلنسوات القرمزية فوق ظهور الرجال الرمادية، وكانت اطراف الحراب تطعن السماء. وبدا كما لو ان الحياة دبت فورا في الحشد المتململ والهادر، لدى رؤية الصفوف التي تندفع إلى الامام وتشق طريقها وسط طبيخ الجنون الفائر. وبدأ البعض على الارصفة وسط الحشد بالعويل في أمل.

وهتفت النساء بحماس:

– عاش جيش الفرسان!

ورد الرجال: عاش!

وولول احدهم في مكان ما:

– سيدهسوني!!.. انهم يدهسوني!

وصرخ البعض من الرصيف:

– اغيثوني!

وتطايرت من الارصفة علب السجاير وقطع النقود الفضية والساعات، واندفع بعض النساء إلى وسط الشارع، واخذن، وهن يخاطرن بحياتهن، بالسير إلى جانب طابور الخيل، متشبثات بالسيور وممطرات اياها بالقبلات. وكان احيانا يسمع وسط قعقعة سنابك الخيل صوت الآمرين قائلين:

– شدوا العنان!

وفي مكان ما كان يتردد الغناء بطرب وبخلاعة، وتتطلع من الخيول وجوه ينيرها ضوء الاعلانات المترجرج وعليها قبعات قرمزية مائلة. وبين الفينة والفينة كان يتناوب مع صفوف الخيالة ذوو الوجوه المكشوفة، رجال راكبون على الجياد أيضاً بهيئات غريبة، وبعباءات

غريبة، وبخراطيم متدلية على ظهورهم ويحملون اسطوانات معلقة بسيور على ظهورهم. وزحفت خلفهم شاحنات - صهاريج ضخمة، ذوات خراطيم طويلة جداً، كالمستعملة في عربات الاطفاء ودبابات ثقيلة تحطم الارصفة وكانت مجنزرة ومسدودة باحكام ينبعث نور من كوى ضيقة فيها. كما تناوبت، مع صفوف الخيالة، سيارات ذوات دروع رمادية مصمتة وانتصبت منها إلى الخارج الخراطيم ذاتها، ونقشت على جوانبها الجماجم وكلمتي "غاز" و"دوبروخيم".

وصاح الناس من الارصفة:

- انقذونا، ايها الاخوة، اسحقوا الثعابين... انقذوا موسكو!

وتعالت من الصفوف صرخات.

وتردد بين صفوف الخيالة:

- اللعنة... اللعنة...

وتطايرت علب السجاير في الهواء بذلك الليل المترع بالانوار، وبانت النواجذ البيضاء للجياد مكشرة إلى الناس المصعوقين. وصدحت في الصفوف انشودة صماء تهز نياط القلوب:

... لا الجوكر، ولا البنت، ولا الولد،

وسنسحق الزواحف بلا ريب.

ونقضي عليها قضاء مبرما...

وتعالت صيحات "هورا" هادرة فوق تلك العصيدة كلها، لانه انتشرت اشاعة تفيد بانه كان يتقدم الصفوف، ممتطيا صهوة جواده، ومعتمرا قبعة قرمزية مثل جميع الفرسان، آمر جيش الفرسان الذي أصبح اسطورة منذ ١٠ اعوام خلت، وقد شاخ وخالط الشيب سواد شعره. ثم ولولت جمهرة الناس، وتعالى إلى السماء هدير "هورا... هورا"، باعثا شيئاً من الطمأنينة في القلوب المتكدرة...

كانت الاضواء في المعهد خابية. وما كانت الانباء عن الأحداث تصل إليه سوى بشكل اصداء بعيدة وغامضة وصماء. وجرى مرة انطلاق صلية رصاص متناثر تحت الساعة المنارة في ساحة مانيج، فقد تم هناك فورا اعدام لصوص حاولوا السطو على شقة في فولخونكا. وكانت حركة السيارات في الشارع بهذا المكان قليلا، لانها توجهت جميعا نحو محطات القطار. وفي غرفة مكتب البروفيسور، حيث اشعل مصباح واحد فقط القى بحزمة نور على المكتب، جلس بيرسيكوف واضعا رأسه على يديه، ولزم الصمت. وتصاعدت سحب الدخان حواليه. وانطفأ الشعاع في الصندوق. كما صمتت الضفادع في الاقفاص لانها استسلمت للكرى. و لم يعمل البروفيسور و لم يطالع. ورقدت جانبا، تحت مرفقه الايسر، الطبعة المسائية من البرقيات، وفي شريط ضيق يعلن فيها ان سمولينسك بأسرها تحترق وان المدفعية تقصف غابات موجاييسك، مربعا بعد آخر، فتدمر مكامن بيوض التماسيح التي وضعت في جميع الوهاد الرطبة. وجاء في الانباء ان سربا من الطائرات عملت في ضواحي فيازما بصورة موفقة جداً، بان رشت القضاء اجمع بالغاز، لكن الضحايا البشرية لا تعد ولا تحصى في تلك المناطق الرحبة لان الناس، بدلا من مغادرة الاقضية باسلوب الجلاء المنتظم، وبسبب الفزع، كانوا يندفعون في مجموعات متفرقة مغامرين على حسابهم، منطلقين إلى حيث تحملهم اقدامهم. وجاء في الانباء ان فرقة الخيالة القفقاسية المستقلة قد حققت نصرا باهرا في المعركة مع اسراب النعام بالقضاء عليها جميعا وبتدمير اوكار ضخمة فيه بيض النعام. بينما كانت خسائر الفرقة عندئذ طفيفة. وجاء في نبأ من الحكومة انه في حالة الاخفاق في ايقاف الزواحف في منطقة تبعد ٢٠٠ فرسخ عن العاصمة، فسيتم اجلاء اهاليها بصورة منتظمة. ويجب على الموظفين والعمال التزام السكينة التامة. وستتخذ الحكومة اشد التدابير من أجل الحؤول دون تكرار قصة سمولينسك

التي اسفرت بفضل الارتباك والبلبلة بسبب هجوم الثعابين ذوات الاجراس، التي ظهرت باعداد تبلغ بضعة آلاف، عن احتراق المدينة في جميع الانحاء التي تركت فيها المواقد المشتعلة وهجرها السكان عن بكرة ابيهم يائسين. وجاء في الانباء ان المواد الغذائية في موسكو تكفي لفترة لا تقل عن نصف عام وان المجلس التابع للقائد العام يتخذ التدابير العاجلة لتحصين الشقق من أجل خوض المعارك مع الثعابين في شوارع العاصمة نفسها، في حالة اخفاق الجيوش الحمراء والطائرات والاسراب في ايقاف هجوم الزواحف.

لكن البروفيسور لم يقرأ هذا كله، وكان يتطلع امامه بعينين شاردتين ويدخن. ولم يكن هناك غيره في المعهد سوى اثنين – هما بانكرات ومدبرة البيت ماريا ستيبانوفنا التي تذرف الدموع بين الفينة والفينة، ولم تعرف طعم النوم لليلة الثالثة من وجودها في غرفة مكتب البروفيسور غير الراغب البتة في التخلي عن صندوقه الخامد المتبقي الوحيد. وانزوت ماريا ستيبانوفنا فوق الديوان المنجّد بالقماش المشمع، في العتمة بركن الغرفة، ولزمت الصمت غارقة في تأملات حزينة، وهي تحدق في غلاية الشاي الحاوية على الشاي المخصص للبروفيسور، والتي تفور فوق المصباح الغازي ذي المساند الثلاثة. كان السكون يخيم على المعهد، ثم وقعت الواقعة على حين غرة.

فقد سمع فجأة من الرصيف صراخ عنيف حاقد، جعل ماريا ستيبانوفنا تنهض من مكانها وتزعق. اما في الشارع فكان نور المصابيح يتلألأ، ثم سمع صوت بانكرات في البهو. ولم يفقه البروفيسور جيدا معنى ذلك الضجيج. ورفع رأسه هنيهة وجمجم: "انظروا كيف يفقدون صوابهم... فماذا سأفعل الآن". ومرة أخرى غلبته حالة اللامبالاة. لكنها تعكرت. فقد هدر بعنف باب المعهد الحديدي، المطل على شارع هيرتسن، واهتزت جميع الجدران. ثم تحطمت

الطبقة المرآوية المتراصة في الغرفة المجاورة. وصلصل الزجاج وتناثر في غرفة مكتب البروفيسور، وقفزت حجارة رمادية عبر النافذة، واسقطت المنضدة الزجاجية. فجفلت الضفادع فزعة في اقفاصها وصارت تعول. وتململت ماريا ستيبانوفنا وزعقت، واندفعت نحو البروفيسور، متشبثة بذراعيه وصارخا:

– اهرب، فلاديمير ايباتيتش، اهرب.

ونهض هذا من مقعده الدوار، واعتدل في قامته، ولوى اصبعه كالخطاف، واجاب، علما ان عينيه قد استعادتا للحظة بريقهما الحاد السابق، الذي اعاد إلى الاذهان بيرسيكوف السابق المتحمس، ونبر:

– لن اذهب إلى أي مكان. هذا مجرد سخف، انهم يندفعون كالمجانين... واذا ما فقدت موسكو باسرها عقلها، فلا مفر لي. ارجوك كفى عن الصراخ. وما علاقتني انا بالامر. بانكرات! – صاح البروفيسور وضغط على الزر.

اغلب الظن انه كان يود ان يوقف بانكرات كل ذلك الضجيج والهرج والمرج الذي لم يحبه عموما ابدا. لكن بانكرات كان عاجزا عن القيام باي شيء. وانتهى الهدير بافتتاح باب المعهد. وتردد من بعيد صوت اطلاق عيارات نارية. ثم اهتز مبنى المعهد الحجري بأسره وصار يعجّ بوقع اقدام مسرعة وبالصراخ وبتحطيم الزجاج. وتشبثت ماريا ستيبانوفنا بيدي بيرسيكوف، وصارت تجره إلى مكان ما. فانتزع نفسه من قبضتها، واعتدل بكامل قامته، وخرج إلى الممر كما كان في صديريته البيضاء.

وسأل:

– ماذا؟

ثم فتح الباب، وكان اول ما بدا فيه هو ظهر رجل عسكري، توجد

على كمّه الايسر اشرطة ونجمة قرمزية. وصار الرجل يتراجع عن الباب الذي تجمهر عنده الحاشد الغاضب ويطلق النار من مسدسه، ثم اخذ يهرول بمحاذاة بيرسيكوف، صارخا فيه:

- يا بروفيسور، اهرب بجلدك، ولا استطيع عمل شيء أكثر.

ورد على كلامه زعيق ماريا ستيبانوفنا. انطلق الرجل العسكري بمحاذاة بيرسيكوف الواقف كالتمثال الابيض، واختفى في قتام الممرات الملتوية في الطرف المقابل.

واندفع حشد الناس عبر الباب صارخين:

- اضربوه!.. اقتلوه!..

- المجرم العالمي!..

- انت الذي اطلق الثعابين!

كانت الوجوه الملتوية السحنات والملابس الممزقة تتراقص في الممرات، واطلق احدهم النار... وومضت العصي. فتراجع بيرسيكوف إلى الخلف قليلا، وسد الباب المؤدي إلى غرفة المكتب، حيث كانت تجثو ماريا ستيبانوفنا على الارض برعب، ونشر ذراعيه كالمصلوب... اذ لم يكن يريد السماح بحشد الناس بالمرور، وصاح بانزعاج:

- هذا جنون حقيقي... انتم كالوحوش الكاسرة تماما. ماذا تريدون؟

ثم صاح:

- اخرجوا من هنا! - وانهى العبارة بالصراخ الشديد المألوف لدى الجميع: - بانكرات، اخرجهم من هنا.

لكن بانكرات لم يعد قادرا على طرد أي احد. فقد كان بانكرات

يرقد في الممر بلا حراك محطم الرأس وقد داسته الاقدام ومزق اربا اربا.
واندفعت الحشود الغوغائية تترى بمحاذاته دون ان تلقى بالا إلى اطلاق الميليشيا النار من جهة الشارع. ثم تقدم رجل قصير القامة اعوج الساقين كالقرد يرتدي جاكتة ممزقة وصدر قميصه ممزقا ومنحرفا جانبا واستبق الاخرين، فبلغ بيرسيكوف عاجله بضربة شديدة من عصاه على رأسه وحطم جمجمته. وتأرجح بيرسيكوف وصار يتهاوى على جنبه وكانت آخر عبارة له هي:

- بانكرات... بانكرات...

كما قتلوا ماريا ستيبانوفنا البريئة ومزقت اربا اربا في غرفة المكتب أيضاً، وحطموا الصومعة التي انطفأ نورها، وكذلك الاقفاص الزجاجية واجهزوا على الضفادع الفزعة وداسوها باقدامهم، وسحقوا المناضد الزجاجية، وسحقوا البروجكتورات، وبعد مضي ساعة التهمت المعهد النيران، وتناثرت الجثث بالقرب منه، وقد احاط بها طوق من الرجال المسلحين بمسدسات كهربائية، وانهمكت سيارات الاطفاء برش الماء من الحنفيات في جميع النوافذ، التي كان تتعالى منها السنة اللهيب بأزيز.

الفصل الثاني عشر
ربّ الزمهرير في سيارة

في ليلة ١٩-٢٠ أغسطس عام ١٩٢٨ تساقطت ثلوج وفيرة لم يشهدها أحد من المعمرين ابدا. وقد حل الزمهرير واستمر على مدى يومين، وبلغ نحو ١٨ درجة مئوية تحت الصفر. واغلق اهالي موسكو المحتدمون غضبا جميع النوافذ والأبـواب. وفي نهاية اليوم الثالث فقط ادرك الاهالي ان الزمهرير انقذ العاصمة وجميع المناطق المترامية الاطراف التابعة لها، والتي دهمتها محنة رهيبة في عام ١٩٢٨. وفقد جيش الفرسان في ضواحي موجاييسك ثلاثة ارباع افراده، واستنزفت قواه، و لم تفلح اسراب طائرات الغاز في ايقاف تقدم الزواحف اللئيمة التي كانت تتوجه في شبه حلقة من الغرب وجنوب الغرب والجنوب نحو موسكو.

لقد قضى الزمهرير عليها. و لم تصمد القطعان الشنيعة لفترة يومين من درجة حرارة ١٨ تحت الصفر. وفي العقد الاخير من اغسطس حين زال الزمهرير، مخلفا وراءه الرطوبة والبلل فقط، ومخلفا رطوبة الهوء، ومخلفا الخضرة على الاشجار التي اتلفها البرد المفاجئ، لم يكن هناك من تجب مكافحته. وانتهت المحنة.

وكانت الغابات والحقول والمستنقعات الواسعة ممتلئة بالبيوض المختلفة الالوان، وتغطيها احيانا رسوم غريبة غير مألوفة وغير معروفة هنا، وقد كان روكّ الذي فقد اثره، يظنها قذارة، بيد ان تلك البيوض لم تعد مؤذية البتة. اذ كانت ميتة، وماتت الاجنة في داخلها.

وبقيت مساحات واسعة من الارض تجتاحها العفونة لفترة طويلة

لكثرة ما فيها من جثث التماسيح والافاعي التي بعثها إلى الحياة الشعاع الغامض الذي ولد في شارع هيرتسن تحت سمع وبصر رجل عبقري. بيد انها لم تعد خطرة، فهذه الكائنات الهشة التي اعتادت المعيشة في المستنقعات الحارة العفنة، قد هلكت في غضون يومين، مخلفة في اراضي ثلاث محافظات رائحة عفونة وتحلل وقيح فظيعة.

ثم انتشرت الاوبئة لفترة طويلة، واستشرت الامراض الجماعية الناجمة عن جثث الافاعي والبشر، ولفترة طويلة أخرى انهمك افراد الجيش، غير المسلحين بالغاز بل بلوازم سلاح الهندسة وصهاريج الكيروسين والخراطيم، بالعمل في تطهير الارض. وانهى الجيش أعمال التطهير وكل شيء بحلول ربيع عام ١٩٢٩.

وفي ربيع عام ١٩٢٩ تراقصت واشتعلت ودارت الانـوار في موسكو. وبدأ مرة أخرى كالسابق صخب السيارات، ولاح فوق قبة كاتدرائية المسيح هلال وكأنه معلق بخيط. وبدلا من المعهد ذي الطابقين الذي احترق في اغسطس ١٩٢٨ بني قصر جديد لعلم الحيوان، وتولى ادارته مساعد الاستاذ - الخاص ايفانوف. لكن لم يكن بيرسيكوف هناك. و لم يعد ينبثق امام أعين الناس الاصبع المعقوف كالخطاف دليلا على التأكيد، و لم يعد يسمع أحد بعد الصوت الشبيه بالصرير والنقنق. واستمر العالم اجمع في الحديث والكتابة طويلا عن الشعاع وعن كارثة عام ١٩٢٨، لكن فيما بعد لف الضباب اسم البروفيسور فلاديمير ايباتيتش بيرسيكوف وخمد. كما خمد الشعاع الاحمر الذي اكتشفه في احدى ليالي ابريل. و لم يتسن الحصول على هذا الشعاع مجددا، بالرغم من ان الجنتلمان الانيق البروفيسور بيوتر ستيبانوفيتش ايفانوف، حاليا، قد حاول ذلك. كان الحشد الغوغائي قد حطم الصومعة الاولى في ليلة اغتيال بيرسيكوف. واحترقت ثلاث صوامع في سوفخوز "الشعاع الاحمر" بمنطقة نيكولسكويه،

ابان المعركة الاولى بين سرب الطائرات والافاعي، و لم يتسن اعادة صنعها. وبالرغم من ان الجمع بين الزجاجات والحزم المرآوية للضوء كان يسيرا، فانهم لم يستطيعوا جمعها مرة أخرى مع ان ايفانوف بذل جهده في القيام بذلك. يبدو ان هذا كان يتطلب شيئاً خاصا ما فيما عدا المعارف، و لم يتوفر هذا سوى لدى رجل واحد في العالم - هو المرحوم البروفيسور فلاديمير ايباتيتش بيرسيكوف.



مذكرات طبيب ريفي



المورفين

١

لاحظ عقلاء الناس منذ أمد بعيد ان السعادة شأنها شأن الصحة: حين تبدو جلية للعيان لا يلاحظها الانسان. لكن حين تمضي السنون، يأخذ المرء في استعادة الذكريات عن السعادة، أوه، ولكم يستعيد من الذكريات!

اما فيما يتعلق الامر بي فانني، كما اتضح ذلك الآن، كنت سعيدا في شتاء عام ١٩١٧. لقد كان عاما لا ينسى، كثير العواصف الثلجية، وانقضى سريعا.

ان العاصفة التي هبت اكتسحتني كأنني قصاصة من صحيفة ممزقة، وحملتني من قاطع ناء إلى المدينة - مركز القضاء. ورب قائل يقول انها ليست عظيمة الشأن تلك المدينة مركز القضاء. لكن ان كان واحد مثلي امضي عاما ونصف العام وسط الثلوج شتاءا، وفي الغابات المهملة والمدقعة صيفا، دون ان يغادر المكان يوما واحدا، واذا كان واحد ما يمزق غلاف رزمة الصحف الصادرة في الاسبوع الماضي بقلب واجف كما يمزق العاشق السعيد مظروف رسالة غرامية، واذا ما سافر أحد إلى مكان يبعد مسافة ثمانية عشر فرسخا من أجل توليد امرأة ماخض، راكبا زحافة قرن إليه الجوادان الواحد تلو الآخر، فان هذا الانسان سيفهمني كما اعتقد.

ان مصباح الكاز شيء جميل. لكنني افضّل الكهرباء!

وها أنذا رأيتها مجددا تلك المصابيح الكهربائية الفاتنة! والشارع

الرئيسي للمدينة الذي مهدته جيدا زحافات الفلاحين. وكانت تزين الشارع الذي يسحر الناظرين لافتة رسمت عليها جزمتان، وكعكة ذهبية، واعلام حمر، وصورة شاب ذي عينين خنزيريتين وقحتين وبتسريحة شعر غير طبيعية تماما. كانت تعني ان حلاق المدينة موجود وراء الباب الزجاجي، ويتقاضى ثلاثين كوبيكا لحلاقة الذقن في أي وقت من اوقات اليوم، باستثناء ايام الاعياد الكثيرة في وطني.

وانا اتذكر برعب حتى يومنا هذا مناديل الحلاق، المناديل التي كانت ترغمني على ان اتصور تلك الصفحة من كتاب الامراض الجلدية الالماني التي تبدو فيها بكل وضوح قرحة سفلس صلبة على ذقن مواطن ما.

بيد ان المناديل هذه لم تعكر عليّ صفو الذكريات!

كان يقف رجل ميليشيا حيّ عند مفترق الطرق، ولاحت في واجهات المحلات المغبّرة بصورة غير واضحة الصواني الحديدية وعليها صفوف متراصة من المعجنات ذوات القشدة الحلوة المذاق وبلون عاجي وتناثر التبن في الساحة، وكان الناس يمضون راجلين وراكبين ويتبادلون الاحاديث، وفي الاكشاك كانت تباع الجرائد الصادرة بموسكو يوم امس، الحاوية على انباء مذهلة، وفي مكان قريب كان يتردد صفير قطارات موسكو مناديا. صفوة القول، لقد كانت تلك بمثابة الحضارة وبابل وشارع نيفسكي(٣٥).

اما المستشفى فلا حاجة للكلام عنه. فقد كان فيه قسم للجراحة وآخر للباطنية وثالث للامراض المعدية ورابع للتوليد. كما كان فيه

---

(٣٥) الشارع الرئيسي في لينينغراد (سانكت - بطرسبورغ حاليا)، وعصب الحياة فيها. المترجم.

قسم للعمليات الجراحية، ويتألق فيه جهاز التعقيم، وتلمع الصنابير، وتكشف الطاولات عن اذرعها واسنانها وصواميلها المبتكرة. وكان في المستشفى كبير الاطباء، وثلاثة اطباء معالجين (فيما عداي)، ومساعدو اطباء وقابلات وممرضات وصيدلية ومختبر. اما المختبر فحدّث عنه ولا حرج! ففيه ميكروسكوب "زايس" ومجموعة ممتازة من الحفازات.

انني جفلت وسرت القشعريرة في بدني. لقد سحقتني مشاهداتي المؤثرة. ومضت ايام كثيرة قبل ان اعتاد على انارة الابنية الوحيدة الطابق للمستشفى في وقت واحد في امسيات ديسمبر القائمة، كما لو كان ذلك بإيعاز من احد.

وكان النور يغشي عيني. وفي الاحواض كان الماء يفور ويهدر، وتقفز فيها وتعوم المحارير الخشبية المهترئة. وفي قسم الامراض المعدية للاطفال تنبعث اصوات الانين طوال اليوم، ويسمع صوت بكاء ناعم يثير الشفقة، وحشرجة مع بقبقة...

كانت الممرضات ينطلقن مسرعات...

وزال عني عبء همّ ثقيل. فلم اعد أتحمل المسؤولية التي حكمت عليّ بها الاقدار، عن كل ما يحدث في الدنيا. و لم اغدو مسؤولا عن الفتق المنحصر ولا اجفل حين تأتي الزحافات، وتحمل النساء ذوات التموضع الجنيني المستعرض، و لم يعد يشغل بالي إلتهاب البلورا القيحي الذي يتطلب اجراء عملية جراحية. واحسست بنفسي لاول مرة كأنسان يتحدد مقدار مسئوليته ضمن أطر ما. التوليد؟ تفضلوا، اذهبوا إلى تلك البناية الواطئة، هناك النافذة القصية التي علق عليها الشاش الابيض. ويعمل هناك طبيب الـولادة. وهو رجل لطيف وبدين ذو شوارب شقراء ورأسه اصلع نوعا ما، انها مسألة تخصه. ايتها الزحافات، توجهي إلى النافذة المغطاة بالشاش الابيض! كسر

مضاعف؟ تفضلوا إلى الطبيب الجراح. إلتهاب الرئتين؟ - تفضلوا إلى قسم الامراض الباطنية لعيادة بافل فلاديميروفيتش.

اوه، ان الحياة في المستشفى الكبير مرتبة ومنضبطة كآلية ماكينة ضخمة! وقد التحقت بالجهاز مثل مسمار ملولب جديد صنع مسبقا وفقا للطلب بمقاييس معينة. واخذت اعمل في قسم الاطفال. فشغلت بالي الدفتريا والحمى القرمزية وسلبتني نهاراتي. لكن النهار فقط. واخذت انام في الليالي، لانني لم اعد اسمع أكثر الطرق المشؤوم تحت نوافذي ليلا، والذي كان بوسعه ايقاظي، وادخالي في العتمة لملاقاة الخطر والقدر المشؤوم. وفي الامسيات اخذت اطالع (طبعاً عن الدفتريا والحمى القرمزية بالدرجة الاولى، ومن ثم اخذت اطالع باهتمام بالغ غريب روايات المغامرات لفينيمور كوبر)، وثمنت كل التثمين المصباح على الطاولة والجمرات الرمادية على صينية السماور، والشاي البارد. والنوم بعد فترة عام ونصف العام من السهاد...

كنت سعيدا للغاية في شتاء عام ١٩١٧ حين جرى نقلي إلى المدينة مركز القضاء في تلك المنطقة الثلجية النائية.

مضى شهر واعقبه آخر وثالث. وانقضى عام ١٩١٧، وجاء فبراير من عام ١٩١٨. وقد اعتدت على وضعي الجديد، وشيئاً فشيئاً اخذت انسى قاطعي النائي. ومحيت من الذاكرة صورة المصباح الاخضر ذي الكيروسين الموشوش، والوحدة، وكثبان الثلج... يا لي من ناكر للجميل. لقد نسيت موقعي القتالي، حيث كافحت الامراض وحيدا بدون أي اسناد، وبقواي الذاتية، وان كنت مثل بطل فينيمور كوبر اجد مخرجا من اصعب الأوضاع.

حقا، كان يحدث بصورة نادرة حين ارقد في الفراش وتراودني الفكرة الطيبة عن كيف سأستسلم للنوم الآن، ان تنبجس مقتطفات ما في رأسي. نور شاحب اخضر ومصباح يومض وصريف الزحافات... أنّات قصيرة.. ثم قتام. الدوي المكتوم للعاصفة الثلجية في العراء. وبعد ذلك تنقلب جميع هذه الذكريات على الجنب وتختفي...

"من عساه يجلس هناك في مكاني... لا بد وان احدهم يجلس فيه... طبيب شاب مثلي... لا بأس، انني امضيت الفترة اللازمة لي. فبراير ومارس وابريل... ولنقل مايو أيضاً. وتنتهي الفترة المقررة لي. معنى ذلك انني في نهاية مايو سأترك مدينتي الرائعة واعود إلى موسكو. واذا ما حملتني الثورة على جناحها، فيتعين علي السفر إلى اماكن أخرى... لكنني على اية حال لن أرى قاطعي ابدا في حياتي... ابدا... العاصمة... المستوصف... الاسفلت... الانوار..."

هذا ما كنت افكر فيه.

"حسنا ان اختبرت قواي في القاطع. فقد أصبحت شجاعا مقداما.. انا لا اخاف... وما أكثر ما عالجت من مرضى... فعلا؟

ها... لم اعالج الامراض النفسية... اذ... لكن، لا، اسمحوا لي... ان المهندس الزراعي افرط في الشرب حتى صارت تراوده الاوهام. وقد عالجته... بصورة غير موفقة. الهذيان الرعاشي... أليس هو من الامراض النفسية؟ يجب ان اطالع كتب الطب النفسي... لكن لا حاجة لي إليها... سأطالعها فيما بعد، بموسكو... اما الآن فيجب ان اتمرس بالدرجة الاولى في امراض الاطفال... وامراض الاطفال مرة أخرى، وبالاخص وصفات الاطفال الصعبة... تفو، يا للشيطان. إذا كان الطفل في العاشرة من العمر فما هي جرعة البيراميدون الواجب اعطاؤها له في كل مرة؟ ١٠,٠ ام ١٥,٠؟.. لقد نسيت. اما إذا كان في الثالثة من العمر؟ امراض الاطفال فقط... وليس أكثر... انها مصادفات تحير العقل حقا! وداعا يا قاطعي!.. ولامر ما ان هذا القاطع يعاودني اليوم بهذا الالحاح؟.. نور اخضر. انني سويت حسابي معه على مدى حياتي كلها... كفى... يجب النوم...".

- هذه رسالة. لقد جاء بها مسافر عابر.

- هاتيها.

كانت الممرضة تقف في غرفة المدخل. وقد القت المعطف ذا الياقة البالية على الصديرية التي نقشت عليها علامة ما. وذاب الثلج فوق المظروف الازرق الرخيص.

وسألت وانا أتثاءب:

- هل انت في المناوبة اليوم بقسم استقبال المرضى؟

- بلى.

- لا يوجد أحد هناك؟

- لا. الغرفة خاوية.

– اذا... (انفرج فمي بالتثاءب، ولهذا تلفظت بالكلمات بصورة غير واضحة) – جاءوا بأحد المرضى.. فبلغيني هنا.. انني سأذهب للنوم.

– حسنا. هل بوسعي الذهاب؟

– نعم، نعم. اذهبي.

انصرفتْ. وصر الباب، بينما مضيت اقرع الارض بحذاءيي إلى غرفة النوم، وكنت في طريقي امزق المظروف باصابعي كيفما اتفق وبصورة عوجاء. ووجدت فيه قسيمة طويلة مكرمشة وعليها الختم الازرق لمكان عملي في المستشفى... انها قسيمة لا تنسى... فاطلقت ضحكة خفيفة.

"طريف. انني كنت طوال المساء افكر في القاطع، وها هو قد جاء بشخصه للتذكير بنفسه. انه الحدث المسبق..." وكتبت تحت الختم وصفة بالقلم البصمة. كلمات لاتينية غير واضحة ومشطوبة...

لا افهم شيئا... وصفة ملخبطة... – تمتمت بهذا وانا ابحلق في كلمة "morphini". "ما هو غير العادي في هذه الوصفة؟.. آه، نعم، محلول بنسبة اربعة بالمائة! ومن يصف محلول مورفين بنسبة اربعة بالمائة؟ ولماذا؟".

وقلّبت الورقة، فزالت رغبتي في التثاؤب. لقد كتب على الجانب الآخر للورقة بالحبر وبخط عريض وغير دقيق:

"١١ فبراير ١٩١٨.

زميلي collega!

ارجو المعذرة لانني اكتب على قصاصة ورق. اذ لا يوجد في متناول يدي ورق. لقد مرضت مرضا شديدا مستعصيا جداً. وليس هناك من يساعدني، كما انني لا اريد طلب المساعدة من أحد عداك.

انني اعمل للشهر الثاني في قاطعك السابق. واعلم انك في المستشفى ولست بعيدا عني نسبيا.

باسم صداقتنا وزمالتنا الجامعية ارجو القدوم اليّ باسرع وقت. ولو لمدة يوم واحد. ولو لمدة ساعة. واذا قلت بان حالتي لا أمل فيها، فانني اصدقك... أو لربما ثمة فرصة للنجاة؟.. نعم، ربما ثمة فرصة متوفرة للنجاة؟ وستظهر بارقة امل لدي؟ ارجو عدم ابلاغ أحد بمحتوى هذه الرسالة".

– ماريا، اذهبي فورا إلى غرفة استقبال المرضى. واستدعي اليّ الممرضة المناوبة... كيف اسمها؟.. آه، نسيت... باختصار المناوبة التي جلبت لي الرسالة الآن. بسرعة!

– الآن فورا.

بعد بضع دقائق كانت الممرضة تقف امامي والثلج يذوب على فرو القط الذي استخدم كياقة.

– من جلب الرسالة؟

– لا اعلم. رجل ملتح. هو من رجال التعاونيات. وقال انه كان في طريقه إلى المدينة.

– هِمْ... اذهبي. لا، قفي. سأكتب الآن رسالة إلى كبير الاطباء، فاحمليها إليه رجاء، ثم اعيدي الجواب.

– حسنا.

رسالتي إلى كبير الاطباء:

"١٣ فبراير ١٩١٨.

بافل ايلاريونوفيتش المحترم،

لقد تلقيت الآن رسالة من رفيق الدراسة في الجامعة الدكتور بولياكوف. انه يعمل في غوريلوفو حيث قاطعي السابق وحيد تماما، ويبدو انه اصيب بمرض شديد. وارى من واجبي الذهاب إليه. فاذا سمحت فسأسلم القسم غدا لمدة يوم واحد إلى الدكتور رودوفيتش، وسأسافر إلى بولياكوف. انه انسان بحاجة إلى المساعدة.

مع الاحترام

الدكتور بومغارد".

الرسالة الجوابية لكبير الاطباء:

"فلاديمير ميخايلوفيتش المحترم،

بوسعك السفر.

بتروف".

امضيت المساء في مطالعة دليل السكك الحديدية. وكان يمكن الوصول إلى غوريلوفو كالآتي: يجب غدا السفر عند الساعة الثانية بعد الظهر في قطار البريد المتوجه إلى موسكو، وبعد قطع ٣٠ فرسخا في طريق السكك الحديدية ينبغي النزول في محطة "ن"، ومنها ينبغي قطع ٢٢ فرسخا في الزحافة إلى مستشفى غوريلوفو.

وجال في خاطري وانا راقد في الفراش:

"اذا حالفني الحظ فسأصل إلى غوريلوفو غدا ليلا". "ما هو مرضه؟ التيفوس، التهاب الرئتين؟ لا هذا ولا ذاك. اذن، كان سيكتب هذا بصراحة: "لقد اصبت بالالتهاب الرئوي". اما هنا فالرسالة غامضة وفيها شيء من الزيف... "لقد مرضت مرضا شديدا وخبيثا..." ما هو؟ السفلس؟ نعم، انه السفلس بلا ريب. وهو في فزع... ويخفي الامر... ويخاف... لكن، هل لي ان اعرف، اين اجد الخيول للوصول

إلى غوريلوفو؟ سأقع في ورطة ان وصلت عند حلول العتمة بينما لن اجد وسيلة للوصول إلى هناك... كلا... سأجد وسيلة. سأجد جيادا لدى أحد ما في المحطة. سأبعث برقية من أجل ان يرسل الجياد! لا حاجة لهذا! ستصل البرقية بعد يوم من وصولي... انها لن تطير في الجو إلى غوريلوفو. وستبقى في المحطة في انتظار مسافر عابر إلى هناك. انا اعرف غوريلوفو هذه. انها صقع مهجور".

كانت الرسالة المكتوبة على القسيمة ملقاة على الطاولة المجاورة للفراش تحت دائرة نور المصباح، وإلى جانبها منفضة فيها قبضة سوداء من اعقاب السجاير، رفيقة الارق المزعج. كنت اتقلب فوق الشرشف المكرمش، وقد غلبتني الكآبة والكدر في الاعماق. وصارت الرسالة تضايقني.

وفعلا: إذا لم تكن الاصابة حادة، بل السفلس مثلا، فلماذا لا يأتي إلى هنا بنفسه؟ ولماذا يتعين عليّ الانطلاق إليه في العاصفة الثلجية؟ وهل انني سأشفيه في امسية واحدة من Lues؟ ام من سرطان المريء؟ واي سرطان؟ فهو اصغر مني بعامين. اذ يبلغ الخامسة والعشرين من العمر... "مرض شديد" سركومة؟ انها رسالة سخيفة، مشوبة بالهستيريا. انها رسالة قد تولد لدي المرسل إليه وجع الرأس - الشقيقة... وها هي اعراضها قد بدأت لدي. انها تشد الاوعية الدموية في الصدغ... وحين سأستيقظ صباحا ستنتشر من الصدغ إلى الدماغ في اعلى القحف. وستضغط على نصف الرأس، وفي المساء سأجد نفسي اتناول اقراص البيراميدون مع الكافيين. وكيف ساركب الزحافة بعد تناول البيراميدون؟ يجب ان آخذ من المساعد معطف الفراء للسفر، اذ سأبرد في معطفي... ماذا حدث له!.." ستبدو بارقة امل". هذا ما يكتب في الروايات، وليس البتة في رسائل الاطباء الجادة!.. يجب النوم، النوم. ينبغي الا افكر أكثر في ذلك. غدا سيتضح كل شيء... غدا".

ادرت الزر، وخيمت العتمة في غرفتي على الفور. يجب النوم. ان صدغي يؤلمني. لكن ليس من حقي ان اغضب من انسان بسبب رسالة سخيفة، قبل ان اعرف ما هي القضية. ان الانسان يعاني ما يعاني على طريقته، فيكتب إلى انسان آخر. انه يكتب قدر ما يستطيع ويفهم... وليس من اللائق التشنيع به ولو في الخيال بسبب وجع الرأس والقلق. لربما انها ليست رسالة زائفة وورومانتيكية. فانا لم اره، سيريوجا بولياكوف، على مدى عامين. لكنني اذكره جيدا. لقد كان دائما رجلا حصيفا متبصرا جداً... نعم، لا بد وان بليّة ما قد وقعت... فشعرت بالالم في الصدغ أخف.

يبدو ان النوم يسري اليّ. بم تكمن آلية النوم؟.. لقد طالعت كتب الفسيولوجيا... لكن هذا الموضوع مبهم، انا لا أفهم ما معنى النوم... وكيف تغفو خلايا الدماغ؟!.. لا افهم، واقول هذا الكلام بيننا. بيد انني على ثقة من ان مؤلف كتاب الفسيولوجيا غير واثق تماما أيضاً... ان النظريات حول هذه المسألة كثيرة لكنها لا تفي بالمرام. ها هو ذا سيرجي بولياكوف، بجاكتة خضراء ذات ازرار مذهبة، واقفا عند الطاولة المعدنية، فيما ترقد جثة على الطاولة...

خم، نعم... لكن هذا حلم.

٣

تك.. تك.. بوخ.. بوخ.. بوخ.. أها... من؟ من؟ ماذا؟.. آخ.. هناك من يطرق الباب، يا للشيطان، هناك من يطرق الباب.. اين انا؟ ماذا بي؟ ما القضية؟ نعم، انا في فراشي... لماذا يوقظوني؟ لديهم حق لانني الطبيب المناوب.

... استيقظ يا دكتور بومغارد. ها هي ماريا تذهب لفتح الباب. كم الوقت الآن؟ الثانية عشرة ونصف. ليلا. اذن، انني نمت ساعة واحدة فقط. كيف حال وجع الرأس النصفي؟ انه مستمر. ها هو.

قرع الباب قرعا خفيفا.

- ما القضية؟

فتحت باب غرفة الطعام قليلا. كان وجه الممرضة يرنو الي من العتمة، ولاحظت على الفور شحوبه، وقد اتسعت حدقتا عينيها، وغشاهما القلق والانفعال.

- من المريض؟

- انه الدكتور من قاطع غوريلوفو، - اجابت الممرضة بصوت متحشرج وعال، - لقد اطلق النار على نفسه يا دكتور.

- بو.. ليـ.. ـا.. كو.. ف؟ هذا مستحيل! بولياكوف؟

- انا لا اعرف اسمه.

- هذه القضية اذن. الآن، سآتي الآن. وانت اذهبي إلى كبير الاطباء، ايقظيه فورا. بلغيه انني ادعوه بسرعة إلى غرفة استقبال المرضى.

انصرفت الممرضة فاختفت البقعة البيضاء من امام بصري. وبعد دقيقتين كانت العاصفة الثلجية الهوجاء والجافة واللاذعة تلطم خدودي على الشرفة، وترفع اطراف المعطف، وبعثت القرّ في الجسد المرتعب.

كان النور الابيض والمترجرج يتوهج في نوافذ غرفة استقبال المرضى. والتقيت على الشرفة في وسط السحابة الثلجية كبير الاطباء الذي كان يمضي بعجلة إلى حيث امضي انا أيضاً.

سأل الجراح وهو يسعل:

– هل هو صاحبك بولياكوف؟

فأجبت:

– لا افهم شيئا، يبدو انه هو.

وولجنا غرفة استقبال المرضى.

نهضت للقائنا من المصطبة امرأة ملفعة بمنديل كبير. وتطلعت اليّ العينان المألوفتان لديّ والدموع تترقرق منهما، من تحت طرف المنديل الاسمر. وعرفت فيها ماريا فلاسيفنا، القابلة من غوريلوفو، مساعدتي الامينة في اثناء التوليد بمستشفى غوريلوفو.

فسألت:

– هل هو بولياكوف؟

وردت ماريا فلاسيفنا:

– نعم، يا له من حادث فظيع يا دكتور، كنت اسافر وارتجف رعبا الطريق كله، وانا اتمنى ايصاله اليكم فحسب...

– متى؟

همهمت ماريا فلاسيفنا:

– في فجر اليوم. جاء الحارس وقال انه سمع اطلاق النار من شقة الدكتور.

كان الدكتور بولياكوف راقدا تحت المصباح الذي يبعث نورا فظيعا مزعجا، ومن النظرة الاولى إلى كعبي جزمتي اللباد الجامدتين وكأنهما قدا من الحجر، اعتصر الالم قلبي كالعادة.

ونزعت القبعة من رأسه، وبدت خصلات شعره المخضلة المتلاصقة. ومرقت يداي ويدا الممرضة ويدا ماريا فلاسيفنا فوق بولياكوف، واستخرجت من تحت المعطف قطعة عليها بقع حمراء ضاربة إلى الصفرة. وكان صدره يصعد ويهبط بجهد. وتحسست النبض فجفلت. كان النبض ينسل مختفيا تحت اصابعي، كان يمتد في سريانه ثم ينقطع في خيط ذي عقد كثيرة وغير متينة. فامتدت يد الجراح إلى كتفه، وقبضت على الجلد عند الكتف من أجل غرز حقنة الكافور. وعندئذ انفجرت شفتا الجريح، علما انه ظهر عليها خيط دموي، وحرك قليلا شفتيه الزرقاوين ونبر بصوت ضعيف أجش:

– اترك الكافور. إلى الشيطان.

فاجابه الجراح:

– اصمت!

وحقن الزيت الاصفر تحت الجلد.

همست ماريا فلاسيفنا:

– اغلب الظن ان شغاف القلب مصاب...

وتشبثتْ بقوة بطرف الطاولة، واخذتْ تحدق في مقلتي الجريح اللتين لا قرار لهما. (كانت عيناه مغمضتين). اخذت الظلال الرمادية الضاربة إلى اللون البنفسجي مثل ظلال الغسق تبيض ابيضاضا في

الاخاديد عند المنخرين، وتصبب العرق الدقيق وكأنه حبات الزئبق فوق تلك الظلال.

سأل الجرّاح وخده يرتجف متشنجا:

- بالمسدس؟

وتمتمت ماريا فلاسيفنا:

- براوننغ.

- ايه.

قال الجراح ذلك على حين غرة وبحنق وبكآبة وفجأة ابتعد جانبا.

التفتُ إليه فزعا دون ان افقه شيئا. وومضت عينان ما وراء كتفي، فقد دنا طبيب آخر منا.

وعلى حين فجأة حرك بولياكوف شفتين، حركة ملتوية، كالنائم الذي يريد طرد ذبابة حطت ملتصقة به، ثم اخذ فكه الاسفل يتحرك كما لو انه اختنق بلقمة ويود ابتلاعها. آه، ان من رأى الجراح الناجمة عن العيارات النارية من المسدس أو من البندقية يعرف هذه الحركة جيدا! وتغضن محيا ماريا فلاسيفنا بألم واطقت تنهدة.

قال بولياكوف بصوت لا يكاد يسمع:

- ادعو الدكتور بومغارد.

فهمست برقة عند شفتيه مباشرة:

- انا هنا.

وقال بولياكوف بحشرجة وبصوت اضعف:

- خذ الدفتر.

اذاك فتح عينيه، وتطلع إلى سقف الغرفة الكئيب والذي يلفه الظلام، كما لو ان مقلتيه القاتمتين قد انيرتا بضوء نابع من اعماقه، وبدا بياض العينين وكأنه غدا شفافا ضاربا إلى الزرقة. وتوقفت نظرات عينيه عند اعلى نقطة فيه، ثم تعكرت وفقدت تلك الفتنة العابرة في لحظة خاطفة.

" توفي الدكتور بولياكوف".

الليل. الفجر يقترب. وكان المصباح يضيء بنور ساطع جداً، لان المدينة هاجعة والتيار الكهربائي وفير. وران الصمت على المكان، فيما وضع جثمان بولياكوف في الكنيسة الصغيرة. الوقت ليلا.

كان يرقد على المنضدة امام العينين المتورمتين بسبب كثرة القراءة في مظروف مفتوح وورقة، وكتب عليها:

"رفيقي العزيز!

لن انتظر مجيئك. فقد غيرت رأيي بشأن العلاج. هذا شيء لا أمل فيه. كما انني لا اريد معاناة العذاب أكثر. وانا حاولت ذلك بقدر كاف. انني احذر الآخرين، كونوا على حذر من البلورات البيضاء الذائبة في ٥٢ جزءا من الماء. فلقد وثقت بها أكثر مما ينبغي، وهي التي كانت سبب هلاكي. انني اهديك دفتر يومياتي. اذ بدا لي دوما انك رجل محب للاستطلاع وتهوي مراجعة وثائق البشر. واذا ما كان هذا يهمك فطالع قصة مرضي.

وداعا

المخلص لكس. بولياكوف

وكتبت تحتها باحرف كبيرة:

"ارجو عدم القاء الذنب على أي أحد في موتي.

سيرغي بولياكوف.

١٣ فبراير ١٩١٨".

وكان يوجد إلى جانب رسالة المنتحر دفتر من الدفاتر العادية ذوات الغلاف المشمع الاسود. وقد انتزع منه النصف الاول من الاوراق. اما النصف الباقي فكان يحتوي على تسجيلات مقتضبة. في البداية بالقلم الرصاص أو الحبر، وبخط دقيق وواضح. وفي نهاية الدفتر كانت مكتوبة بالقلم الكوبية وبالقلم الاحمر السميك. وكان الخط مضطربا، ومهتزا مع الكثير من الكلمات المختصرة.

٤

"عام ٧...[٣٦]، في ٢٠ يناير.

...وانا مسرور جداً. الحمد لله. فكلما نقلت ابعد كان ذلك افضل. انا لا استطيع رؤية الناس، وهنا لن ارى احدا من البشر باستثناء المرضى والفلاحين. لكنهم لا ينكأون جراحي باي شيء! اما الزملاء الاخرون فقد ارسلوا إلى المناطق الريفية والتي ليست اسوأ من منطقتي. وان جميع خريجي دفعتنا المعفاة من التجنيد للذهاب إلى الحرب (رجال الجيش الشعبي من المرتبة الثانية لعام ١٩١٦)، قد ارسلوا إلى المناطق الريفية البعيدة. بالمناسبة ان هذا لا يهم أي احد. وعرفت من معارفي بشأن ايفانوف وبومغارد فقط. وقد اختار ايفانوف محافظة ارخانجلسك (المسألة مسألة ذوق). اما بومغارد فهو كما قالت مساعدة الطبيب يعمل في قاطع بعيد مثل قاطعي، يبعد ثلاثة اقضية عني. واردت الكتابة إليه لكنني عدلت عن ذلك. انا لا اريد رؤية البشر وسماعهم.

١٢ يناير. عاصفة ثلجية. لا شيء.

٢٥ يناير. يا له من مغيب ساطع. الميجرينين – مركب من ac citric و coffeina antipyrina.

يعطي في جرعات بشكل مسحوق بمعدل... ١،٠ وهل يمكن اعطاؤه، بمعدل ١،٠؟... نعم، ممكن.

(٣٦) لا ريب في انه عام ١٩١٧. د. بومغارد.

٣ فبراير. تلقيت اليوم صحف الاسبوع الماضي. لم اطالعها، ومع ذلك رغبت في القاء نظرة على ركن المسرح. قدمت اوبرا "عايدة" في الاسبوع الماضي. معنى ذلك انها اعتلت خشبة المسرح وغنّت: "تعال اليّ يا حبيبي...".

إن صوتها ساحر، ويا للغرابة ان يعطى صوت قوي وصاف إلى صاحب روح سوداء...

(هنا وقفة. وانتزعت من الدفتر صفحتان أو ثلاثة).

...هذا غير لائق طبعاً يا دكتور بولياكوف. كما انه سخيف بصورة صبيانية ان تنهال بالشتائم القذرة على امرأة لكونها هجرتك! انها لا تريد البقاء معك فهجرتك. النهاية. لكم هذا بسيط في الواقع. مغنية اوبرا ربطتها علاقة بطبيب شاب، وعاشت معه سنة ثم هجرته.

فهل يجب قتلها؟ قتلها؟ آه، يا للغباء والخواء. وشيء لا أمل فيه!

١١ فبراير. العاصفة الثلجية لا تتوقف... وستغمرني الثلوج. انا وحيد... وحيد في امسيات باكملها. اشعلت المصباح وجلست. في النهار استقبل الناس. لكنني اعمل بصورة ميكانيكية. لقد اعتدت على العمل. وهو ليس فظيعا كما كنت اتصور سابقا. بالمناسبة، لقد ساعدني المستشفى العسكري في الجبهة كثيرا. على أي حال، انني جئت إلى هنا ليس جاهلا تماما بامور المهنة.

اجريت اليوم لاول مرة عملية تحويل الجنين.

هكذا يدفن ثلاثة اشخاص هنا تحت الثلج. انا وآنا كيريلوفنا المساعدة - القابلة والمساعد. والمساعد متزوج. وهما (المساعدة والمساعد) يعيشان في جناح المبنى. اما انا فأعيش لوحدي.

١٥ فبراير. حدث شيء عجيب ليلة امس. فقد كنت انوي الرقاد.

حين شعرت فجأة بألم في منطقة المعدة. لكن أي ألم! وتصبب العرق البارد فوق جبيني. على أي حال، ان الطب هو علم مشبوه، ولا بد من الاعتراف بذلك. لماذا يحدث لرجل غير مصاب باي مرض في المعدة أو الامعاء (مثلا، الزائدة الدودية)، ولديه الكبد وكليتان بافضل وضع، وتعمل امعاءه بصورة طبيعية تماما، ان يشعر بمثل هذه الآلام الشديدة إلى حد انه يأخذ يتلوى في فراشه؟

وبلغت، وانا اطلق الانين، المطبخ، حيث تبيت الطباخة وزوجها فلاس. وارسلت فلاس لاستدعاء آنا كيريلوفنا، فجاءت اليّ ليلا، واضطرت إلى حقني بابرة مورفين. وقالت انني كنت شاحب الوجه تماما. فما السبب؟

ان مساعد الطبيب عندنا لا يعجبني. فهو ينفر من الناس، اما آنا كيريلوفنا فهي امرأة لطيفة ومتعلمة جيدا. انا اعجب كيف تستطيع امرأة غير عجوز وحيدة تماما العيش في هذا القبر الثلجي. لقد وقع زوجها أسيرا لدى الالمان.

ولا بد لي من الثناء على الذي كان اول من استخرج المورفين من جوزات الخشخاش. فهو فاعل خير حقيقي للبشرية. وتوقفت الآلام بعد مرور سبع دقائق على اجراء الحقنة. عجيب، ان الآلام كانت تسري في موجة متواصلة وبلا توقف، حتى انني كنت اختنق تماما. كما لو ان احدهم ادخل سيخا متوهجا حاميا في بطني وصار يديره. وبعد مضي اربع دقائق على اجراء الحقنة اخذت أميّز تموجات الا لم.

وسيكون حسنا جداً لو اتيحت للطبيب الامكانية لاختبار كثير من الادوية بتناولها نفسه. عندئذ لكان ادراكه لمفعولها مغايرا تماما. وبعد الحقنة نمتُ نوما عميقا وجيدا لاول مرة في الاشهر الاخيرة – بدون التفكير في حبيبتي التي خدعتني.

١٦ فبراير. استفسرت آنا كيريلوفنا اليوم في اثناء استقبال المرضى

عن حالتي الصحية. وقالت انها تراني منشرح الصدر غير عبوس لاول مرة في فترة وجودي هنا كلها.

- وهل انا عبوس؟

فاجابت بقناعة:

- جداً.

واضافت، انها تعجب لكوني التزم الصمت دائما.

- هذا طبعي.

لكن هذا كذب. فقد كنت رجلا مرحا جداً قبل وقوع مأساتي العائلية.

تخيم العتمة في وقت مبكر. انا وحيد في الشقة. وفي المساء بدأت اشعر بالألم، ولكن ليس شديدا، وكأنه ظل الم الامس في موضع وراء عظم القص. وخشية تكرار نوبة الامس حقنت نفسي في الفخذ بمقدار سنتيغرام واحد.

توقف الالم على التو تقريبا. شيء جميل ان تركت آنا كيريلوفنا زجاجة الدواء.

١٨ فبراير. لا خوف من اربع حقن.

٢٥ فبراير. انها غريبة الاطوار آنا كيريلوفنا هذه! كما لو انني لست بطبيب. ٢/١١ حقنة تعادل ٠،٥١٠ مورفين؟ نعم.

١ مارس. ايها الدكتور بولياكوف، حذار!

هراء.

الغسق.

لكن ها قد مضت فترة نصف شهر، دون اعود مرة واحدة إلى

التفكير في المرأة التي خدعتني. وفارقني المقطع الذي تغنيه امنيريس. وانا فخور جداً بهذا. انا – رجل.

أصبحت آنا كيريلوفنا زوجتي في الخفاء. وكان لا محيص..

من حديث هذا. نحن حبيسان في جزيرة غير مأهولة.

لقد تغير الثلج، وغدا وكأنه صار رماديا أكثر. وولى الزمهرير الشديد، لكن العواصف الثلجية تهب بين حين وآخر...

في اللحظة الاولى: شعور بملامسة الرقبة. وتغدو هذه الملامسة دافئة وتتسع. وفي اللحظة الثانية تمر بغتة موجة باردة في المنطقة الشرسوفية، وفي اعقاب ذلك يبدأ استجلاء غير اعتيادي للافكار وتضاعف القدرة على العمل. وتتوقف جميع الاحاسيس المزعجة على الاطلاق. ان هذا يشكل الذروة في اظهار القوة الروحية للانسان. ولو لم يفسدني التعليم الطبي لقلت ان الانسان يستطيع العمل فقط بعد حقنة المورفين. وفعلا: فما نفع الانسان إذا ما كان اقل ألم عصبي يفقده القدرة على العمل كليا!

آنا كيريلوفنا خائفة. وقد طمأنتها بالقول انني كنت منذ طفولتي اتمتع بقوة ارادة هائلة.

٢ مارس. ثمة اشاعات عن حدث عظيم ما. ويقال انه تم اسقاط نيقولاي الثاني.

انا ذاهب للنوم مبكرا جداً. في نحو التاسعة. وانام نوما هنيئا.

١٠ مارس. هناك تجري الثورة. أصبح اليوم اطول، اما الغسق فيبدو ضاربا إلى الزرقة.

انني لم ار من قبل ابدا مثل هذه الاحلام عند الفجر. انها احلام مزدوجة.

علما ان اهمها يمكن وصفها بالاحلام الزجاجية. فهي شفافة.

فمثلا، ارى مصباحا ساطعا النور، وينطلق منه شريط زاهي الالوان من الاضواء. بينما تغني امنيريس وتمايل بريشة خضراء فوق رأسها. وفرقة الاوركسترا غير ارضية تماما، وجهورية الاصوات بشكل غير اعتيادي. على أي حال انني لا استطيع التعبير عن هذا بالكلمات. وصفوة القول، ان الموسيقى في الحلم الاعتيادي... (الاعتيادي؟ ويطرح السؤال هو أي حلم طبيعي أكثر! لكنني، امزح...) بلا صوت، اما في حلمي فانها ذات اصوات سماوية تماما. والشيء الاساسي انني استطيع وفق ارادتي تقوية الموسيقى أو تخفيفها. واذكر انه في رواية "الحرب والسلام" يرد وصف كيف مر بيتيا روستوف بحالة مماثلة حين كان في شبه غفوة. ان ليف تولستوي كاتب رائع!

ولأتحدث عن الشفافية. اذ ينبجس عبر الالوان المتشابكة لعايدة الطرف الواقعي تماما لطاولة مكتبي، التي ترى من باب المكتب، والمصباح، والارضية اللماعة وتسمع، في الوقفات عبر موجة اوركسترا مسرح البولشوي، خطوات واضحة، تتردد برنين عذب، مثل صنوج صمّاء.

اذن – انها الساعة الثامنة – وها هي ذا آنا كيريلوفنا قادمة اليّ لتوقظني وتبلغني بما يدور في غرفة استقبال المرضى.

انها لا تحدس بعدم وجود حاجة إلى ايقاظي، وبانني اسمع كل شيء وبوسعي الحديث معها.

وقد اجريت يوم امس التجربة التالية:

آنا – سيرغي فاسيليفتش...

أنا – انني اسمع... (الى الموسيقى بصوت خافت – "اشد").

الموسيقى - لحن كبير.

مقام (رى - دييز).

آنا - سجل اثنان وعشرون شخصا.

امنيريس (تغني).

لكن، لا يجوز نقل هذا إلى الورق.

هل هذه الاحلام ضارة؟ لا ابدا. انني انهض بعدها قويا ومنتعشا. واعمل جيدا. وحتى ظهر لدي الاهتمام الذي كان مفقودا سابقا. فقد كان من العسير له ان يظهر لان جميع افكاري كانت تتركز على زوجتي السابقة. اما الآن فانا هادئ البال. انا هادئ البال.

١٩ مارس. تشاجرت مع آنا كيريلوفنا ليلا.

- لن اعد المحلول بعد الآن.

واخذت اقنعها:

- هراء يا آنوسا. هل انا صغير؟

- لن افعل هذا. ستلقى حتفك.

- كما تريدين. افهمي انني اشعر بألم في صدري.

- عالج نفسك.

-اين؟

- سافر في اجازة. ان المورفين ليس بعلاج.

ثم فكرت هنيهة واضافت:

- انا لا استطيع ان اغفر لنفسي لكوني اعددت لك يومذاك الزجاجة الثانية.

– ماذا تعتقدين، هل انا مدمن على المورفين؟

– نعم، انت تغدو مدمنا عليه.

– اذن لن تذهبي لاعداده؟

– كلا.

لحظتئذ اكتشفت في نفسي لاول مرة القدرة الكريهة على الغضب. والشيء الاساسي – الصراخ في الناس حين لا اكون على حق.

لكن هـذا لا يحدث دفعة واحـدة. فذهبت إلى غرفة النوم، وتطلعت. كانت توجد في قاع القارورة كمية قليلة من المحلول، فسحبتها بالحقنة – فتبين انها ربع الحقنة. فالقيت بها جانبا، وكدت احطمها. وصرت ارتجف بكل كياني. ثم رفعتها بعناية وتفحصتها، لم يكن فيها أي كسر. وجلست في غرفة النوم نحو عشرين دقيقة. وخرجت فلم اجدها هناك.

لقد انصرفت.

تصوروا انني لم اطق صبرا فذهبت إليها. وطرقت النافذة المضيئة في جناحها. فخرجتْ متلفعة بالمنديل إلى الشرفة. كان الليل هادئا، هادئا، وتكومت هناك نتف الثلج الرخو، ولاحت في مكان ما من السماء بوادر الربيع.

– آنا كيريلوفنا، ارجوك اعطيني مفاتيح الصيدلية.

فهمست: لن اعطيك اياها.

– رفيقتي، اتوسل اليك، اعطيني مفاتيح الصيدلية. انا اقول لك كطبيب.

ورأيت في العتمة ملامح وجهها قد تغيرت وعلاها شحوب شديد،

وتوسعت حدقتا عينيها وغارت في مآقيهما واصابهما الاسوداد. فردت بصوت اثار فيّ الشفقة عليها.

لكن تملكني الحنق مرة أخرى.

هي: لماذا، لماذا تقول هذا؟ آه، يا سيرغي فاسيليفيتش، انا اشفق عليك.

وعندئذ بسطت يديها من تحت المنديل ورأيت المفاتيح فيهما.

اذن، انها خرجت للقائي وأخذتها معها.

أنا (بخشونة): هاتِ المفاتيح!

وانتزعتها من يديها.

وذهبت إلى مبنى المستشفى الابيض ماشيا فوق الالواح المهترئة المتقافزة.

كان الغضب يفور في اعماقي، وقبل كل شيء لانني لا افقه البتة كيف يتم اعداد محلول المورفين من أجل حقنة تحت الجلد. انا طبيب ولست مساعد طبيب.

كنت امشي مرتجفا بكل كياني.

ثم سمعت كيف سارت في اعقابي كالكلب الامين. واحسست بالعطف تجاهها، بيد انني اخمدت هذا الشعور. والتفتُ إلى الوراء وقلت شزرا: هل ستعدينه ام لا؟

فلوحت بيدها كالمحكوم بالاعدام (بما معناه ان الامر سواء لديها) وردت بصوت خافت: دعني اعده بنفسي...

... بعد مضي ساعة كنت في حالتي الطبيعية. طبعاً، انني طلبت عفوها بسبب خشونتي التي لا معنى لها. وانا نفسي لا ادري كيف حدث ذلك لي. وسابقا كنت رجلا لطيفا مجاملا. كان موقفها من

اعتذاري غريبا. فجثت امامي وتشبثت بيديّ وقالت:

- انا لست غاضبة منك. لا. انا اعلم الآن بانك هلكت. انا اعلم ذلك. واصب اللعنة على نفسي لانني حقنتك يومذاك.

فطمأنتها قدر ما استطيع، مؤكدا انها ليست مذنبة في الامر، وانني مسئول عن افعالي. ووعدتها بأنني منذ الغدّ سأبدأ بالتخلص من الادمان بان اقلل الجرعة.

- كم حقنت الآن؟

- النزر اليسير. ثلاث حقن من محلول واحد بالمائة.

فامسكت رأسها براحتي يديها والتزمت الصمت.

- لا تقلقي.

... في الواقع انا افهم دوافع قلقها. فعلا، ان Morphium hidrochloricum شيء رهيب، وتتولّد العادة بسرعة جداً. لكن العادة الصغيرة لا تشكل ادمانا على تعاطي المورفين. أليس كذلك؟

...والحق يقال ان هذه المرأة هي رفيقتي المخلصة الحقيقية الوحيدة. وفي الواقع كان لا بد وان تكون زوجتي. فقد نسيت تلك المرأة الأخرى. نسيتها. ومع ذلك شكرا إلى المورفين على ذلك...

٨ ابريل ١٩١٧. هذا عذاب.

٩ ابريل. ربيع رهيب.

الشيطان في قنينة. الكوكايين هو شيطان في قنينة.

ان مفعوله يسري كالتالي:

حين يحقن المرء حقنة واحدة من محلول بنسبة اثنين بالمائة تحل على الفور تقريبا حالة الهدوء. وتتحول في اللحظة ذاتها إلى نشوة

وابتهاج. ويستمر ذلك نحو دقيقة أو دقيقتين. ثم يزول كل شيء بلا اثر كما لو لم يكن له وجود. ويبدأ بعده الالم والهلع والظلام. الربيع شديد اللغط، والطيور السوداء تحلق من غصن عار إلى آخر. وفي الافق البعيد تبدو الغابة، وتنتصب كفرشة مكسورة وسوداء، وخلفها يتوهج اول غسق ربيعي يجتاح ربع السماء.

كنت اذرع بخطواتي الغرفة الكبيرة الخاوية في شقتي عرضا وطولا من الابواب إلى النافذة، ومن النافذة إلى الابواب. كم عدد مثل هذه الخطوات التي بميسوري القيام بها؟ خمس عشرة أو ست عشرة – لا أكثر. وبعد ذلك يجب عليّ الاستدارة والذهاب إلى غرفة النوم. كانت الحقنة ملقاة على الشاش إلى جانب القنينة. فاتناولها، وبعد ان أطلي الفخذ الكثير الوخزات باليود، اغرز الابرة في الجلد. ولا اشعر باي ألم. بل بالعكس، فانني أتمتع بالنشوة التي ستتولد الآن. وها هي تتولد. وانا اعرف بهذا لان اصوات الارمونيكا، التي يعزف عليها الحارس فلاس المبتهج بقدوم الربيع على الشرفة الآن، اصوات الارمونيكا الممزقة والمبحوحة الواردة مكتومة عبر الزجاج اليّ، تغدو كأصوات الملائكة، اما الاصوات الجهيرة الخشنة، فانها تصدح مثل جوقة سماوية. ثم تمضي لحظة، فيتحول الكوكايين في الدم، وفق قانون غامض غير مدوّن في أي كتاب من كتب الصيدلة، إلى شيء ما آخر. انا اعلم: انه خليط الشيطان مع دمي. لم يعد فلاس يثير اهتمامي بعزفه فتعتمل نفسي بالكراهية له. فيما يحرق احشائي نور الغسق الذي يتأجج. وهكذا يتكرر ذلك عدة مرات في اثناء المساء، حتى ادرك بانني قد تسممت. ويبدأ قلبي بالخفقان بشكل حتى انني اشعر به في ذراعي وفي صدغي، ثم يغوص في هوة لا قرار لها، ويحدث في بعض اللحظات انني اخذ في التفكير بان الدكتور بولياكوف لن يعود إلى الحياة أكثر...

١٣ ابريل. انا الدكتور بولياكوف الشقي، الذي اصيب في فبراير

الماضي بالادمان على المورفين، احذر الجميع الذين يداهمهم المصير الذي حاق بي الا يحاولوا استبدال المورفين بالكوكايين. فالكوكايين سم لئيم وغادر جداً. في الامس عالجتني آنا بعد لأي بواسطة الكافور، اما اليوم فانا شبه جثة...

٦ مايو ١٩١٧. لم امسك بدفتر يومياتي منذ وقت طويل. ويا للأسف. في واقع الامر انها ليست بيوميات بل تاريخ المرض، ويبدو ان لدي التوق المهني إلى صديقي الوحيد في هذه الدنيا (باستثناء صديقتي آنا الحزينة الكثيرة البكاء). وهكذا لو سجلت تاريخ المرض فيجب كتابة ما يلي: انني احقن نفسي بالمورفين مرتين في اليوم.. في الساعة الخامسة مساء بعد وجبة الغداء، وفي الساعة الثانية عشرة قبيل النوم.

المحلول بنسبة ٣ بالمائة: حقنتان. وبالتالي فانني اتلقى في كل مرة ٠،٦٠٠. وهذا كثير!

كانت تسجيلاتي السابقة ذات طابع هستيري نوعا ما. فلم يحدث أي شيء فظيع. ولا يؤثر هذا البتة في قدرتي على العمل. بل بالعكس فانني احيا اليوم كله بتأثير حقنة الليل في الغداة. واؤدي العمليات على احسن ما يرام، وابدي اهتماما بالغا بالوصفات، وأقسم كطبيب بان ادماني على المورفين لم يجلب الاذى إلى مرضاي. وآمل بالا يجلبه لهم. لكن ثمة شيئاً آخر يعذبني. اذ غالباً ما يبدو لي ان احدا ما سيعرف بأمر علّتي، وأشعر بنظرات مساعدي الثقيلة بوطاة بالغة في اثناء عيادة المرضى، ووراء ظهري.

هراء! انه لا يخمن اصابتي. ولن يكشف أي شيء امرى. ومقلتاي لا تخوناني الا في المساء. ولكني لا ألتقيه مساء ابدا.

لقد عوضت عن النقص الشديد في المورفين لدينا في الصيدلية حين سافرت إلى مركز القضاء. لكن هناك أيضاً وجب علي معاناة لحظات

مزعجة. فان رئيس المستودع اخذ طلبي الذي كتبت فيه بين امور أخرى، من باب الحذر، شتى انواع الترهات مثل الكافيين الذي يوجد لدينا الكثير منه، وقال:

- ٤٠ غراما من المورفين؟

وشعرت بانني اخفي عيني كتلميذ مدرسة، وان وجهي قد اصطبغ بالحمرة خجلا.

وقال:

- لا، لا توجد لدينا مثل هذه الكمية. بوسعي اعطاء ١٠ غرامات.

وفعلا لم يكن لديه هذا القدر، لكن تراءى لي انه كشف سري، وانه يسبرني ويخرزني بعينيه، فانتابني القلق والعذاب.

لا، ان حدقتي العينين فقط تشكلان خطرا، ولهذا فانني اتمسك بقاعدة: في المساء اتجنب الناس. وبالمناسبة لا يوجد من مكان مريح لهذا الغرض أكثر من قاطعي، فعلى مدى أكثر من نصف عام لا ارى احدا، باستثناء مرضاي.

١٨ مايو. ليل وخيم. ستهب عاصفة رعدية. ان الكرش الاسود البعيد يكبر في الحجم وينتفخ. ثم ومضت السماء وميضا خابيا مترعا بالقلق. لقد بدأت العاصفة الرعدية.

يوجد امام ناظري كتاب، وكتب فيه عن كيفية التخلص من عادة الادمان على المورفين:

"...قلق شديد، وحالة كآبة مشوبة بالقلق، سرعة التهيّج، ضعف الذاكرة، والاوهام احيانا، وشيء من الغشاوة في الوعي..."

لم اكن اعاني من الاوهام. لكن بصدد الاشياء الأخرى بوسعي تأكيدها: اوه، اية الفاظ خابية دواوينية لا تدل على شيء!

"حالة الكآبة!.."

لا، انا المصاب بهذا المرض الفظيع، احذر الاطباء لكي يكونوا أكثر رحمة وشفقة بمرضاهم. فالمدمنون على المورفين يهيمن عليهم لا "وضع الكآبة" بل الموت البطيء، إذا ما حرمتموه لفترة ساعة أو ساعتين من المورفين. فالمرء لا يشبع من الهواء، اذ لا يمكن ابتلاعه... ولا توجد في الجسم من خلية لا تتعطش... إلى ماذا؟ هذا ما لا يمكن تحديده أو تفسيره. صفوة القول، لا وجود لهذا الانسان. انه متوقف عن الوجود بل ان جثته تتحرك وتحزن وتتعذب فهو لا يريد شيئا، ولا يفكر في شيء باستثناء المورفين. المورفين!

ان الموت عطشا – موت في هناء ونعيم قياسا إلى التعطش للمورفين. وهكذا يبتلع، في اغلب الظن، بعد ان يدفن حيا، آخر فقاعات الهواء في القبر ويخدش بشدة صدره باظافره. هكذا يئن الهرطوقي في المحرقة ويتململ، حين تلسع قدميه اولى ألسن اللهب...

موت – موت جاف وبطيء...

هذا ما يكمن وراء عبارة البروفيسور تلك – "حالة الكآبة".

لم اعد اطيق أكثر، وقد عمدت الآن إلى حقن نفسي أيضاً. شهيق. شهيق آخر.

لقد تحسنت حالي.

والآن... الآن... اشعر ببرودة كالنعناع تسري في صدري... ثلاث حقن من محلول بنسبة ٣ بالمائة. هذا يكفيني حتى منتصف الليل...

هراء. ان هذه اليوميات هراء. ليس الامر فظيعا بذلك القدر.

وسأترك الحقن ان عاجلا أو آجلا!..

اما الآن فيجب النوم، النوم.

انني اعذب نفسي واضعفها بهذا الكفاح ضد المورفين.

(اقتطعت بعد هذا نحو عشرين ورقة من الدفتر).

... بر

...ضا تقيؤ عند الساعة ٤ والدقيقة ٣٠.

حين سيتحسن وضعي سأدوّن انطباعاتي الرهيبة.

١٤ نوفمبر ١٩١٧. هكذا بعد ان هربت من موسكو من مستشفى الدكتور... (الاسم مشطوب بهمة)، عدت إلى البيت مرة أخرى. المطر ينهمر مدرارا ويستر بغشاوته العالم عني. دعه يخفيه عني. انا لست بحاجة إليه، كما ان ما من أحد في العالم يحتاجني. لقد شهدت اطلاق النار والانقلاب حين كنت في العيادة. لكن نضجت فكرة ترك هذا العلاج والتي تسللت شيئاً فشيئاً إلى رأسي قبل نشوب المعارك في شوارع موسكو. شكرا إلى المورفين الذي جعلني شجاعا. انا لا اخشى أي اطلاق نار. وعموما، ما الذي بوسعه ان يخيف انسانا لا يفكر سوى بشيء واحد - في البلورات العجيبة الربانية. حين تقوم مساعدة الطبيب المرتعبة لهزيم المدافع...

(هنا الورقة منزوعة).

...ت هذه الورقة بغية الا يطالع أحد الوصف المخزي عن كيف هرب رجل صاحب شهادة متسللاً كاللص وبجبن، وسرق بدلته نفسه.

لكن ما قيمة البدلة!

لقد اخذت قميص المستشفى أيضاً. فلم يسعفني الوقت انذاك للتفكير بهذا. في اليوم التالي حقنت نفسي، وبعثتْ فيّ الحيوية وعدت

إلى الدكتور (س). وقد استقبلني مشفقا، لكن تراءى مع هذا في سلوكه الاحتقار لي عبر تلك الشفقة. وعبثا ذلك. فهو طبيب نفساني، ويجب عليه ادراك انني لا استطيع دائما السيطرة على نفسي. انا مريض. فلماذا يحتقرني؟ واعدت قميص المستشفى.

فقال: شكرا، - واضاف: - ماذا تنوي ان تعمل الآن؟

وقلت بحيوية (كنت في تلك اللحظة في حالة جذل): قررت العودة إلى مكان عملي في الصقع النائي، لا سيما وان فترة اجازتي قد انتهت. انا في غاية الامتنان اليك على مساعدتك، واشعر بانني في وضع احسن. وسأواصل العلاج في بيتي.

واجابني كالآتي:

- انت لا تشعر بان وضعك احسن ابدا. انه شيء مضحك حقا ان تقول هذا لي. وتكفي نظرة واحدة إلى حدقتي عينيك لمعرفة حالتك. ولمن تقول هذا؟..

- انا يا بروفيسور لا استطيع الاقلاع عن الادمان دفعة واحدة... بالاخص الآن حين تدور جميع هذه الأحداث. لقد اجهد اطلاق النار اعصابي تماما..

- انه انتهى. وجاءت سلطة جديدة. ارقد للعلاج مرة أخرى.

لحظتئذ تذكرت كل شيء... الاروقة الباردة، الجدران الخاوية المطلية بطلاء زيتي... وانا ازحف مثل كلب مصاب برجله. وانتظر شيئاً ما.. وماذا؟ الحمامات الساخنة؟.. الحقن بمقدار ٠،٥٠٠ من المورفين. الجرعة التي لا تؤدي في الحقيقة إلى الوفاة... لكن فقط... فيما تبقى الكآبة باجمعها. انها تثقل عليّ كحالها سابقا. الليالي الخاوية، القميص الذي مزقته على جسدي متوسلا لكي يطلق سراحي؟..

لا. لا. لقد اخترعتم المورفين، واستخلصتموه من الجوزات اليابسة الخشخاشة للنبات السماوي. فدعكم تجدون وسيلة للعلاج بدون عذاب وألم! وهززت رأسي باصرار. وعندئذ نهض البروفيسور قليلا في مكانه، وفجأة اندفعت مرتعبا نحو الباب. اذ تراءى لي انه يريد اغلاق الباب عليّ، وابقائي في المستشفى قسرا...

اصطبغ وجه البروفيسور بالحمرة. وقال بلهجة لا تخلو من انزعاج:

انا لست سجانا. وهنا ليس سجن بوتيركا[٣٧]. اجلس بهدوء. لقد تبجحت قبل اسبوعين بان حالتك طبيعية تماما. فيما انت... (وكرر بصورة معبرة محاكيا حركتي ابان فزعي). انا لا ابقيك عنوة.

- يا بروفيسور، أعد لي ورقة التعهد. ارجوك. - وحتى تهدج صوتي متوسلا.

- تفضل.

وادار المفتاح في درج مكتبه وسلمني ورقة التعهد (بانني اتعهد بان اتلقى دورة العلاج البالغة شهرين كلها، وان بامكانهم ابقائي في المستشفى، والخ. باختصار انها ورقة تعهد عادية).

وتسلمت الورقة بيد مرتجفة، واخفيتها وانا اتمتم: شكرا لك.

ثم نهضت لكي انصرف. ومشيت فخاطبني قائلا في اثري:

- دكتور بولياكوف!

فالتفت إلى الوراء ممسكا بمقبض الباب. وقال:

---

(٣٧) احد سجون موسكو القديمة. المترجم.

– فكر في الامر مليا. افهم بانك ستدخل بالرغم من كل شيء في مستشفى الامراض العقلية، ليس الآن بل في وقت لاحق. علما بانك ستدخلها وانت في حال أسوأ بكثير من هذه. انني عاملتك بصورة خاصة على أي حال بصفتك طبيبا. وعندئذ ستأتي في حالة انهيار عصبي كامل. في الواقع، يا صاحبي، لا يجوز لك ممارسة المهنة. ومن الاجرام عدم ابلاغ المسؤولين في مكان عملك.

فجفلت، وتحسست بجلاء ان وجهي اصابه الشحوب (علما بان تورده كان قليلا اصلا). وقلت بصوت مكتوم:

– انا ارجوك يا بروفيسور عدم ابلاغ أحد باي شيء... فسأطرد عندئذ من العمل... وسيبلغون المرضى بذلك. ولاي غرض تريد القيام بهذا؟

وقال البروفيسور بكدر: اذهب. لن اقول شيئا. الامر سواء سيعيدونك إلى العلاج.

انصرفت، واقسم بانني كنت طوال الطريق ارتجف ألما وخزيا... فلماذا؟..

الامر بمنتهى البساطة. آه، يا صديقي، يا دفتر يومياتي الامين. انك لن تكشف امري! المسألة ليست في البدلة، بل في انني سرقت المورفين من المستشفى. ثلاثة مكعبات من البلورات وعشرة غرامات من محلول ١،٠ بالمائة.

ان ما يهمني هو ليس هذا فقط بل شيء آخر. كان المفتاح بارزا في الخزانة. لكن ماذا لو لم يكن موجودا؟ فهل كنت سأكسر الخزانة ام لا؟ ها؟ بضميرك؟

انني كنت سأكسره.

وهكذا – ان الدكتور بولياكوف لص. سأجد الفرصة لنزع الورقة

من الدفتر.

لكن في ما يتعلق بممارسة المهنة اعتقد انه مع هذا بالغ في الامر نوعا ما. نعم. انني منحط. هذا صحيح تماما. لقد بدأ لدي التحلل المعنوي للشخصية. لكنني استطيع العمل. ولا استطيع ان اجلب الشر أو الاذى إلى أي أحد من مرضاي.

نعم، لماذا سرقت؟

بكل بساطة. لقد قررت بانني لن استطيع الحصول على المورفين في أي مكان ابان المعارك والهرج والمرج. لكن حين هدأ الوضع حصلت في صيدلية أخرى في الاطراف على خمسة عشر غراما من محلول واحد بالمائة. وكان هذا بالنسبة لي شيئاً لا نفع فيه وباعثا على الضجر (يتعين عندئذ عمل تسع حقن!). كما وجب علي معاناة المذلة. فقد طلب الصيدلي ان يكون على الوصفة الختم، ونظر اليّ عابسا وبريبة. لكن في اليوم التالي عندما عدت إلى وضعي الطبيعي حصلت في صيدلية أخرى على عشرين غراما بشكل بلورات، وكتبت وصفة من أجل المستشفى (في الوقت نفسه كتبت طبعاً، وصفات للكافيين والاسبيرين). في نهاية المطاف لَم يتعين التخفي والخوف؟ حقا، وهل كتب على جبيني انني مدمن علىَ المورفين؟ وما علاقة الاخرين بالامر، في نهاية المطاف؟

وهل ان الانحطاط كبير؟ سأورد هذه اليوميات كشاهد على ذلك. انها غير محبوكة، لكنني لست كاتبا. فهل توجد فيها افكار مجنونة ما؟ باعتقادي انني أفكّر تفكيراً سليماً جداً.

ثمة سعادة واحدة لدى المدمن على المورفين، ليس بوسع أحد سلبها اياه – انها المقدرة على تزجية حياته كلها في وحدة كاملة. والوحدة

هي افكار هامة وقيّمة، انها التأمل والهدوء والحكمة... وينقضي الليل في وسط الظلام والسكون. وفي مكان ما توجد غابة عارية الاشجار. ووراءها جدول وبرد والخريف. وفي مكان قصي جداً تربض موسكو الشديدة الضجيج والازدحام. انني لا اهتم باي شيء، ولست بحاجة إلى أي شيء، ولا اشعر برغبة في الذهاب إلى أي مكان.

فاشتعل، ايها النور، في مصباحي، اشتعل بهدوء. انني اريد الراحة بعد مغامرات موسكو، اريد ان انساها. وقد نسيتها.

لقد نسيتها.

١٨ نوفمبر. بدأ الصقيع. وجفّت الارض. فخرجت للنزهة عند النهر في الدرب المطروق، لانني لا استنشق الهوء ابدا تقريبا. ان انحطاط الشخصية هو انحطاط، لكنني مع هذا اقوم بمحاولات لمقاومته والبقاء كانسان. مثلا، انني في هذا الصباح لم احقن نفسي بالمورفين (الآن بدأت بعمل الحقن ثلاث مرات في اليوم، بمعدل ثلاث حقن من محلول ٣ بالمائة). وهذا غير مريح. انا اشفق على آنا. فان زيادة كل نسبة جديدة تقتلها. أنا اشفق عليها، أي انسان طيب هي!

نعم... هكذا... اذن... حين ساءت حالي قررت مع ذلك معاناة العذاب (دع البروفيسور (س) يمتع النظر بي عندئذ)، وتأخير الحقنة، فذهبت إلى النهر.

يا لها من خلاء مقفرة. لا صوت ولا هسهسة. و لم تحل العتمة بعد، لكنها كانت تكمن مستترة في مكان ما، وتزحف فوق المستنقعات وفوق النتوءات وبين الجذامير... انها تزحف وتزحف ماضية نحو مستشفى ليفكوفو... وانا ازحف متكئا على العصا. (اقول الحقيقة فانني في الآونة الاخيرة أصبحت واهن القوى نوعا ما).

وها انـذا أرى عجوزا ذات شعر ضارب إلى الصفرة تندفع

نحوي بسرعة، ودون ان تمس قدماها الارض تحت تنورتها المنفرجة كالجرس... في الوهلة الاولى لم افهم مرادها وحتى لم افزع منها. انها عجوز كبقية العجائز. غريب، لماذا هذه العجوز حاسرة الرأس وترتدي البلوزة فقط في هذا البرد؟ كما أي عجوز هي ومن اين جاءت؟ حين ينتهي عندنا استقبال المرضى في ليفكوفو، وتنصرف آخر زحافات الفلاحين، لا يوجد أحد عندنا على مسافة عشرة فراسخ. ضباب ومستنقعات وغابات! ثم سرت بغتة القشعريرة في ظهري - فقد فهمت! ان العجوز لا تمشي بل تطير بالضبط دون ان تمس الارض. حسنا؟ لكن ليس هذا ما جعلني اصرخ، بل لكون العجوز تحمل مذراة. فلماذا ارتعبت لهذا الحد؟ لماذا؟ وهويت على ركبة واحدة مادا يدي مغطيا وجهي لكي لا اراها، ثم استدرت وجريت وانا اتعثر نحو البيت، باعتباره الملاذ لي، ومكان الخلاص. ودون ان تراودني اية رغبة سوى الا يتمزق قلبي، سوى ان ألج بسرعة الغرف الدافئة، وان ارى آنا حية ترزق... والمورفين...

وقد بلغت البيت.

هراء. اوهام فارغة. اوهام عابرة.

١٩ نوفمبر. تقيؤ. هذا شيء سيىء. حديثي مع آنا ليلة ٢١:

آنا - مساعد الطبيب يعلم بالامر.

أنا - هل هذا صحيح؟ الامر سواء، سخافات.

آنا - إذا لم تغادر إلى المدينة فسأشنق نفسي. أتسمع؟ انظر إلى يديك. انظر.

أنا - انهما ترتجفان قليلا. وهذا لا يعيقني البتة عن العمل.

آنا - انظر، انهما شفافتان. جلد وعظم فقط. انظر إلى وجهك... اسمع يا سريوجا، سافر، اتوسل اليك ان تسافر.

أنا – وانتِ؟

آنا – سافر، سافر. انت تهلك.

أنا – هذه مبالغة. لكنني انا فعلا لا افهم السبب في انني غدوت واهن القوة بهذه السرعة. فانني مريض فترة تقل عن العام. يبدو ان هذه حدود قدرتي الجسدية.

آنا – (بحزن) – ما الذي يمكن ان يعيدك إلى الحياة؟ ربما امنيريس – زوجتك!

أنا – لا، ابدا. اهدأي. شكرا إلى المورفين الذي خلصني منها. وبدلا منها لديّ المورفين.

آنا – يا الهي، ما العمل...

كنت اظن ان امثال آنا موجودون في الروايات فقط. واذا ما شفيت في وقت ما سأربط مصيري بها إلى الابد. دع زوجها ذاك لا يعود من المانيا.

٢٧ ديسمبر. مضت فترة طويلة دون ان امسك بدفتر اليوميات في يدي. انا ملفع بملابس دافئة والجياد في انتظاري. لقد ترك بومغارد قاطع غوريلوفو، وارسلتُ لاحلّ محله. وجاءت إلى قاطعي طبيبة بدلا عني.

آنا هنا... وستزورني...

ولو ان المسافة تبلغ ثلاثين فرسخا.

لقد قررنا بشكل حازم ان اخذ اجازة مرضية في اول يناير لمدة شهر واحد، واسافر إلى البروفيسور بموسكو. ومرة أخرى سأكتب ورقة تعهد، وسأتعذب شهرا واحدا في المستشفى لديه عذابا لا يطيقه البشر.

وداعا يا ليفكوفو. إلى اللقاء، يا آنا.

عام ١٩١٨.

يناير. لم أسافر. لا استطيع فراق "ربي" الذي يتخذ هيئة البلورات والمحلول. وفي اثناء العلاج سألقى حتفي.

وصارت تراودني أكثر فاكثر فكرة مؤداها ان لا حاجة لي للعلاج.

١٥ يناير. تقيؤ في الصباح.

ثلاث حقن من محلول ٤ بالمائة عند الغسق.

ثلاث حقن من محلول ٤ بالمائة ليلا.

١٦ يناير. يوم اجراء العمليات الجراحية. ولهذا لم اجر الحقن فترة طويلة. من الليل حتى الساعة السادسة مساءا.

عند الغسق – افظع الاوقات – كنت اسمع بجلاء في شقتي صوتا رتيبا ومتوعدا، كان يكرر:

– سيرغي فاسيليفيتش، سيرغي فاسيليفيتش.

وزال كل شيء بعد الحقن.

١٧ يناير. عاصفة ثلجية. لا يوجد مرضى. وطالعت في فترة عدم الحقن كتابا دراسيا في الامراض النفسية، وترك فيّ انطباعا رهيبا. انني هلكت، ولا أمل لي.

انني افزع من صوت الحفيف. وامقت الناس في فترة عدم الحقن. انا اخافهم. وفي فترة النشوة احبهم جميعا، لكنني افضل الوحدة.

لا بد من التزام الحذر هنا. اذ يوجد هنا مساعد طبيب وقابلتان. يجب ابداء غاية الانتباه، لكي لا اكشف امري. لقد أصبحت محنكا ولن اكشف امري. ولن يعرف أي أحد ما دام يوجد لدي احتياطي

من المورفين. وكنت اعد المحلول بنفسي، أو ارسل إلى آنا الوصفة مسبقا. وحاولتُ مرة (محاولة خرقاء) لاستبدال المحلول ذي ٥ بالمائة بآخر ذي نسبة ٢ بالمائة. وجلبته بنفسها من ليفكوفو وسط الزمهرير والعاصفة الثلجية.

ولهذا السبب وقع شجار عنيف بيننا ليلا. وقد اقنعتها بعدم القيام بهذا. وابلغتُ العاملين هنا بأنني مريض. واجهدتُ نفسي في التفكير بصدد أي مرض سأختلق. وقلت انني مصاب بروماتيزم في الساقين وبوهن عصبي شديد. وقد أُنذروا بانني سأسافر في فبراير إلى موسكو باجازة لغرض العلاج. ان الامور تمضي على ما يرام. ولا توجد اية مشاكل في العمل. وانا اتجنب اجراء العمليات في الايام التي يبدأ فيها التقيؤ والفواق بصورة جامحة. ولهذا وجب ان اضيف إلى امراضي قرحة المعدة. آخ، امراض كثيرة جداً لدى شخص واحد!

ان العاملين هنا اهل شفقة ورحمة، لذا فانهم انفسهم يحظونني على الذهاب في اجازة.

المظهر الخارجي.

هزيل وشاحب بلون الشمع.

استحممت، وعندئذ وزنت نفسي في الميزان الطبي. وكان وزني في العام الماضي نحو ٥٦ كيلوغراما، اما الآن فهو نحو ٤٥ كيلوغراما. وفزعت لدى التطلع إلى ابرة الميزان، ثم زال عني فزعي.

وتبدو في اعلى الذراع دمامل متواصلة، وكذلك على الفخذين، وانا لا اجيد اعداد المحاليل بصورة مطهرة، وعلاوة على ذلك اجريت الحقن بواسطة حقنة غير معقمة بالغليان. كنت في عجلة من امري كثيرا قبيل السفر.

وهذا شيء لا يمكن السماح به.

١٨ يناير. حضرني الوهم التالي: انتظر في النوافذ السود ظهور اناس ما شاحبي الوجوه. هذا لا يطاق. ثمة ستار واحد فقط على النافذة. اخذت الشاش من المستشفى وعلقته. و لم استطع ابتداع ذريعة.

آخ، يا للشيطان. ولماذا في نهاية المطاف يتعين علي ابتداع ذريعة لكل فعلة اقوم بها؟ فهذا عذاب حقا وليس حياة!

هل انني اعبر عن افكاري بسلاسة؟ اظن نعم.

الحياة؟ شيء مضحك!

١٩ يناير. روى اليوم مساعد الطبيب ضاحكا لسبب ما في اثناء الفترة لدى استقبال المرضى حين كنا نستجم وندخن في الصيدلية، فقال وهو يرتب الادوية ان احدى المساعدات المدمنة على المورفين، والتي لم تكن لديها امكانية الحصول عليه، كانت تتناول نصف قدح من نقيع الافيون. و لم اكن ادري إلى اين اولّي بصري في اثناء ذلك الحديث المؤلم. وما المضحك في الامر؟ انا اكرهه. ما المضحك في الامر؟ ماذا؟

غادرت الصيدلية متسللا بخطوات خفيفة. "ما الذي تراه مضحكا في هذا المرض..؟". لكنني لجمت نفسي، لجـ...

من الافضل في وضعي الا اكون مماحكا في التعامل مع الناس.

آه، مساعد الطبيب. انه قاس مثل الاطباء النفسانيين اولئك، الذين لا يجيدون مساعدة المريض باي شيء... باي شيء.. باي شيء...

بأي شيء...

الليلة مقمرة الآن. انا ارقد بعد نوبة من التقيؤ. واهن القوى. ولا استطيع رفع يدي عاليا. واسجل افكاري بالقلم الرصاص. انها افكار نقية وفخورة. انا سعيد لمدة بضع ساعات. وينتظرني النوم. وامامي القمر المتوّج بهالة ولا اخاف شيئاً بعد الحقنة.

١ فبراير. جاءت آنا لزيارتي. انها شاحبة المحيا ومريضة.

انني اوصلتها إلى هذه الحال. انا فعلت ذلك. نعم، انها خطيئة كبيرة ينوء بها ضميري.

واقسمت لها بانني سأسافر في اواسط فبراير.

فهل سأفي بالقسم؟

نعم. سأفي به.

ان بقيت على قيد الحياة فقط.

٣ فبراير. اذن: منحدر. يغطيه الجليد ولا نهاية له شبيه بذاك الذي تنطلق منه الزحافة التي تقل "كاي"(٣٨) الاسطوري لايام الطفولة. انها آخر مرة انطلق فيها فوق هذا المنحدر، وانا اعرف ماذا ينتظرني في الاسفل. آخ، آنا. ستقع مصيبة كبيرة قريبا، ان كنت تحبينني.

١١ فبراير. قررت ما يلي: سأكتب إلى بومغارد. ولماذا إليه بالذات؟ لانه ليس طبيبا نفسانيا. ولانه شاب ورفيقي في الدراسة بالجامعة. انه معافى وقوي البنية لكنه رقيق المشاعر، ان كنت على حق. انا اذكره. ولربما هو... - ... وسأجد فيه شخصا يتعاطف معي. وستتفتح قريحته عن فكرة ما.. وليأخذني إلى موسكو. انا لا استطيع الذهاب إليه. لقد حصلت على الاجازة... انا راقد. ولا اذهب إلى المستشفى.

انني افتريت على مساعد الطبيب. لنفرض انه ضحك. فهذا غير مهم. لقد جاء لزيارتي. وعرض ان يسمع نبضات قلبي لكنني لم اسمح له بهذا. مرة أخرى وجب عليّ اختلاق الذرائع للرفض؟ انا لا اريد اختلاق الذرائع.

---

(٣٨) اسطورة كاي وردت في حكاية "ملكة الثلوج" للكاتب الدانماركي هانز كرستيان اندرسون (١٨٠٥ - ١٨٧٥). المترجم.

ارسلت الرسالة إلى بومغارد.

ايها الناس! هل من يساعدني؟

اخذت اهتف بحماس. ولئن وجد من يقرأ هذا فسيفكر بانها عبارات زائفة. لكن لن يقـ... احد.

لقد تذكرت كل شيء قبل ان اكتب إلى بومغارد. بالاخص استعدت في ذاكرتي محطة القطار بموسكو في نوفمبر، حين هربت من موسكو. اية امسية رهيبة. لقد حقنت المورفين المسروق في المراحيض... هذا عذاب. وكان البعض يدق الباب، وهدرت الاصوات بقرقعة كالحديد، وصارت تنطلق الشتائم لكوني شغلت المكان فترة طويلة، بينما يداي ترتجفان، وترتجف السقاطة أيضاً، وقد يفتح الباب...

منذ ذلك الحين بدأت الدمامل تظهر لدي.

وفي الليل بكيت لدى استعادة هذه الذكريات.

١٢ منه، ليلا.

بكيت مرة أخرى. لِمَ هذا الضعف والحقارة ليلا؟

عام ١٩١٨ – ١٣ فبراير في غوريلوفكا عند الفجر.

بمقدوري ان اقدم التهنئة لنفسي. انني لم احقن نفسي على مدى ١٤ ساعة. ١٤! هذا رقم غير معقول. الفجر ينبلج فيغدو الجو معتما ضاربا إلى البياض. الآن، هل سأسترد عافيتي تماما؟

لو فكرت تفكيرا سليما: فإنني لا أحتاج إلى بومغارد كما لا احتاج

إلى أي احد. سيكون من العار لو اطلت حياتي دقيقة واحدة. مثل هذه الحياة – لا، ابدا. ان "العقار" في متناول يدي، فكيف لم أحدس ذلك من قبل؟

أذن، لنبدأ.انا لست مدينا لأحد. لقد أهلكت نفسي فقط. وآنا أيضا. وماذا بوسعي عمله ؟

الزمن كفيل بعلاج الجراح، كما كانت تردد امنيريس في غنائها. ان الوجود معها كان، طبعاً، يتسم بالبساطة واليسر.

يسلم الدفتر إلى بومغارد. انتهى...

طالعت يوميات سيرغي بولياكوف هذه عند فجر يوم ١٤ فبراير عام ١٩١٨ في مدينة صغيرة نائية. وانا اوردتها كاملة من دون اية تعديلات أو تغييرات. انا لست طبيباً نفسانياً. وليس بوسعي القول عن ثقة في ما إذا كانت ذات عبرة، أو ذات فائدة؟

بإعتقادي انها ذات فائدة.

الآن حين انصرمت عشرة أعوام – زالت الشفقة والرعب الناجمان عن هذه اليوميات. وهذا أمر طبيعي. لكن لدى مطالعة هذه اليوميات الآن، حين تعفن جثمان بولياكوف منذ أمد بعيد، وطويت ذكراه مع الماضي تماما، أجد الاهتمام بها باقيا. فلربما يحتاجها أحد ما؟ وأنا أتجرأ على الاجابة عن هذا السؤال بالايجاب. لقد توفيت آنا كيريلوفنا في عام ١٩٢٢ لدى اصابتها بالتيفوئيد الطفحي، في القاطع نفسه الذي كانت تعمل فيه. أما امنيريس – زوجة بولياكوف الاول– فتعيش في خارج البلاد، ولن تعود.

هل بميسوري نشر اليوميات المهداة الي ؟

طبعاً، وانا انشرها. الدكتور بومغارد.

خريف عام ١٩٢٧

المنشفة المطرّزة

إذا كان المرء لم يقطع الدروب الريفية ممتطياً حصاناً فلا نفع من رواية هذه القصة له:

اذ لن يفهم شيئاً على أي حال. اما بالنسبة لمن مضى فيها راكبا، فلا اريد تذكيره بها.

واقـول بايجاز اننا قطعنا الأربعين فرسخا الفاصلة بين مدينة غراتشيوفكا مركز القضاء ومستشفى موريفو سوية مع حوذى عربتي في غضون يوم كامل بالضبط... وحتى بدقة عجيبة: ففي الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٦ سبتمبر عام ١٩١٧ وصلنا إلى آخر الاهراء القائمة عند طرف مدينة غراتشيوفكا الرائعة هذه، وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة من يوم ١٧ سبتمبر من عام ١٩١٧ ذاته، الذي لا يمحى من الذاكرة، كنت اقف على العشب المدعوس، والمحتضر والمبلل بامطار سبتمبر، في فناء المستشفى. وقد وقفت بالهيئة التالية: قدماي متصلبتان بقدر جعلني أقلب في فكرى هناك، وفي داخل الفناء، صفحات الكتب الدراسية، سعيا إلى ان استعيد في ذاكرتي ببلادة فيما إذا يوجد فعلا، أم ان هذا تراءى في الحلم يوم امس بقرية غرابيلوفكا، ذلك المرض الذي يجعل عضلات الانسان تتصلب؟ وما هو اسم ذاك المرض اللعين، باللاتينية؟ وكانت كل عضلة منها تؤلمني ألما لا يطاق، يذكرني بالالم في الاسنان. ولا حاجة للكلام عن أصابع القدمين – فلم تعد تتحرك في الجزمتين، ورقدت وادعة، وبدت شبيهة ببقايا اذرع أو سيقان خشبية مقطوعة. واعترف بانني في غمرة خور عزيمتي لعنت بهمس الطب والعريضة التي قدمتها إلى مدير الجامعة

قبل خمسة أعوام مضت. في ذلك الوقت كان المطر ينهمر، كما لو يتساقط عبر غربال. وانتفخ معطفي كالاسفنجة. وحاولت عبثا ان امسك باصابع يدي اليمنى مقبض الحقيبة، واخيرا بصقت على العشب المبلل. و لم يعد بوسع أصابعي الامساك باي شيء، ومرة أخرى استعدت في رأسي المحشو بأنواع المعارف من الكتب الطبية الشيقة اسم المرض - انه الشلل. وقلت في قرارة نفسي بانفعال والشيطان وحده يعلم السبب - "باراليزيس".

- فـ... في طرقكم - قلت ذلك بشفتين متخشبتين ومزرقتين - يتعين على المرء... اعتياد السفر.

ولأمر ما حدقت في الحوذي مغتاظا، ولو انه في الواقع لا يتحمل أي ذنب في كون الطريق بهذه الحال.

فرد الحوذي، وشفتاه لا تكادان تتحركان تحت شاربيه الاشقرين:

- ايبه... ايها الرفيق الطبيب. انني اركب العربة على مدى خمسة عشر عاما، لكنني لا استطيع مع هذا الاعتياد.

وجفلت، والتفت إلى المبنى الأبيض المتقشّر ذي الطابقين، وإلى جدران بيت مساعد الطبيب المبني من جذوع الشجر وغير المطلي بالبياض، وإلى محل اقامتي المقبل، وهو بيت ذو طابقين، نظيف جداً، نوافذه صامتة ويشوبها الغموض، فاطلقت تنهدة طويلة. وعلى الفور ومضتْ في رأسي عبارة حلوة بدلا من الكلمات اللاتينية، كان قد أنشدها مغني تينور جهوري الصوت بدين وبسراويل زرقاء، دون ان افقه شيئاً بسبب اهتزاز العربة والبرد:

"أحييك... ايها الملجأ المبارك...".

وداعا، وداعا لأمد طويل، يا مسرح البولشوي الذهبي - الاحمر، ويا موسكو، ويا واجهات المحلات... آه، وداعا.

فكرت في دخيلة نفسي بقنوط مشوب بالحنق وانا احاول فك

احزمة الحقيبة بلا جدوى: "في المرة القادمة سأرتدي معطف الفراء... انني... ولو ان المرة القادمة ستكون في اكتوبر.. سأرتدي عند ذاك معطفي فراء. ولن اذهب إلى غراتشيوفكا، لن اذهب، قبل مضى شهر... واحكموا بانفسكم... اذ لوجب علي عندئذ المبيت! لقد قطعنا مسافة عشرين فرسخا وغدونا وسط الظلام الحالك... الليل... ووجب علينا المبيت في غرابيلوفكا... وسمح لنا المعلم بالمبيت عنده.. وفي صباح هذا اليوم غادرنا عند الساعة السابعة... ومضينا.. يا الهي.. ابطأ من السائر مشيا على الاقدام. وكانت احدى العجلات تغوص في حفرة، بينما ترتفع الأخرى في الهواء، واذا بالحقيبة تهوي على ساقي... بوخ... ثم أنقلب جانبا، وثم إلى الجانب الآخر، ثم إلى الأمام مرتطما بانفي، ثم إلى الوراء بقفاي. فيما ينهمر المطر وينهمر من الأعلى، ويتسلل البرد إلى العظام. وهل كان بميسوري ان اصدّق، بان الانسان قد يبرد في العراء بأواسط سبتمبر العابس والغائم، كما يبرد في عزّ الشتاء القارس؟! آي، لقد تبين ان هذا ممكن. وفيما تعاني انت من الموت البطيء، عليك ان ترى المشهد ذاته. فمن اليمين ارض عراء محدودبة، ومن اليسار احراج سقيمة ذابلة، وإلى جانبها نحو خمسة أو ستة اكواخ رمادية متداعية. ويبدو كما لو انها خالية من أي كائن حي، اذ يسود الصمت والصمت في كل مكان...".

في نهاية المطاف استلمتْ الحقيبة. اذ استلقى الحوذي فوقها ببطنه ودفعها اليّ مباشرة. واردت الامساك باحزمتها، لكن يدي عجزت عن ذلك، فهوى على العشب رفيق سفري المنتفخ، الذي ضقت ذرعا بصحبته، بما فيه من كتب وشتى سقط المتاع، وانهال على قدمي.

وصاح الحوذي خائفا: ويحك، يا ربي... لكنني لم ابد اية اعتراضات – فقد كانت قدماي في حالة يرثى لها حتى وكأنهما في العدم.

وصاح الحوذي وصفق بيديه كما يصفق الديك بجناحيه:

- هيه، من هناك؟ هيه! هيه، لقد اتيت بالدكتور!

لحظتئذ ظهرت في الزجاج المعتم في بيت مساعد الطبيب وجوه، والتصقت به، واصطفق الباب، فرأيت رجلا يمشي متثاقلا نحوي فوق العشب في معطف رثّ وجزمتين عاليتين. ونزع قبعته باحترام وبعجلة، واقترب مني لمسافة خطوتين، ولامر ما ابتسم بخجل وحيّاني بصوت متحشرج:

- مرحبا، ايها الرفيق الدكتور.

وسألته:

- من انت؟

فقدم الرجل نفسه:

- انا يغوريتش، حارس المكان. نحن بانتظارك على أحرّ من الجمر...

ثم اختطف الحقيبة فورا، ورماها على كتفه وحملها. واقتفيت اثره في مشية عرجاء، محاولا بلا فائدة دس يدي في جيب السروال، لكي استخرج حافظة النقود.

الحق ان الانسان لا يحتاج إلى أشياء كثيرة جداً. وقبل كل شيء هو بحاجة إلى النار. وحين شددت الرحال إلى اصقاع موربيفو النائية قطعت على نفسي عهدا، كما اذكر، ومنذ ان كنت في موسكو، بان التزم الوقار. فان مظهري الفتي كان يسمم حياتي في أولى خطواتي. ووجب عليّ تقديم نفسي لكل شخص:

- الدكتور كذا وكذا.

وكان كل شخص يرفع حاجبيه حتما ويسأل:

- حقا؟ انا كنت اتصورك ما زلت طالبا.

فيما اجيب انا عابسا:

- لا، انني تخرجت، - ويدور في خلدي: "يجب عليّ اقتناء نظارات، هذا ضروري". لكن لم تكن ثمة ضرورة لاقتناء نظارات، فعيناي سليمتان، ولم تعكر خبرة الحياة اليومية وضوح البصيرة بعد. ونظرا لعدم توفر الامكانية لصيانة نفسي بمعونة النظارات من الابتسامات المتسامحة والرقيقة دائما، كنت أسعى دوما إلى ابتداع اسلوب خاص يوحي باحترام. فكنت احاول الكلام باتزان وبلهجة قاطعة، ولجم الحركات المتهورة قدر الامكان، وعدم الجري كما يفعل هذا ابناء الثالثة والعشرين، المتخرجين من الجامعة، بل المشي. لكنني، كما افهم الآن بعد انصرام أعوام كثيرة، لم اوفق في ذلك ابدا.

في تلك اللحظة خرقت قواعد السلوك التي وضعتها لنفسي. فقد جلست، مجعدا جسمي، وبالاجربة وحدها، ليس في غرفة مكتب ما، بل في المطبخ. وكياني باجمعه يصبو بالهام وبلهفة، مثل عبدة النار، إلى قطع خشب البتولا التي يتصاعد منها اللهب في الموقد. وإلى يساري وضع برميل صغير مقلوب رأسا على عقب، وانتصبت فوقه جزمتاي، وإلى جانبهما استلقى ديك منتوف وعار بلا ريش، ذو رقبة مخضبة بالدم، وإلى جانبه تكوم ريشه الزاهي الالوان. ومجمل القضية انني اقدمت وانا ما زلت في حالة الاستبراد على عدد من الافعال التي تطلبتها الحياة نفسها. فقد وافقت على تعيين اكسينيا المدببة الأنف، زوجة يغوريتش، في منصب طباختي. وبنتيجة ذلك لقى الديك حتفه على يديها. وكان يجب علي ان آكله. وتعرفت على الجميع هناك. فاسم مساعد الطبيب دميان لوكيتش والقابلتان - بيلاغيا ايفانوفنا وآنا نيكولايفنا. ووجدت الفرصة للقيام بجولة في المستشفى واقتنعت بكل جلاء بانه غنّي بما فيه من ادوات. وفي الوقت نفسه اضطررت

للاعتراف (مع نفسي، طبعاً) بانني لم اكن أعرف البتة اغراض الكثير جداً من الادوات اللامعة النظيفة. فانا لم امسك بها، بل وحتى، وهذا ما اعترف به صراحة، انني لم ارها من قبل.

وتمتمت بلهجة ذات دلالة بالغة جداً:

- إهم... ان الادوات لديكم ممتازة حقا.. هم...

فلاحظ ديميان لوكيتش بتلذذ:

- لا ريب، لقد تمّ هذا كله بفضل جهود الطبيب سلفك ليوبولد ليوبولدوفيتش. فقد كان منذ الصباح وحتى المساء يجري عمليات..

وعندئذ سرت القشعريرة في جسدي وتطلعت بكآبة إلى الدواليب اللامعة كالمرايا.

ومن ثم مررنا على الردهات الخاوية، وكنت على يقين من ان بالمستطاع ان يرقد فيها اربعون شخصا بكل بساطة.

قال ديميان لوكيتش مطمئنا:

- كان يتعالج لدى ليوبولد ليوبولدوفيتش أحيانا حتى خمسون شخصا،

فيما قالت آنا نيكولايفنا، وهي امرأة جمعت شعرها الاشيب فوق رأسها كالتاج:

- انت يا دكتور يافع المظهر، يافع المظهر جداً... لحد العجب حقا. انت تشبه طالبا.

وفكرت في نفسي: "تفو، يا للشيطان، يبدو وكأنهم تآمروا، كلمة حق!"

فهمهمت عبر اسناني، بلهجة جافة:

- هم.. لا، أنا.. اعني انا.. نعم يافع المظهر..

ثم نزلنا إلى الصيدلية، وعلى الفور رأيت انها كانت تخلو فقط من بيضة الديك! وكانت تنبعث من الغرفتين المعتمتين رائحة اعشاب نفاذة، اما الرفوف فكانت تضم كل شيء. وكانت هناك حتى ادوية اجنبية معروفة، ولا حاجة لان اضيف بانني لم اسمع بها ابدا.

وابلغت بيلاغيا ايفانوفنا بافتخار:

- لقد طلبها ليوبولد ليوبولدوفيتش من الخارج.

وجال في خاطري: "ان ليوبولد هذا كان رجلا عبقريا حقا"، وغمرني شعور الاحترام إلى ليوبولد الغامض الذي رحل عن موريبفو الهادئة.

ان الانسان بحاجة، علاوة على النار، إلى الاستقرار والتكيف للوضع. وكنت قد التهمت الديك منذ وقت طويل، واعد لي يغوريتش حشية التبن، وغطاها بالشرشف، وصار المصباح يضيء في غرفة المكتب بمقري. كنت اجلس، كالمسحور، واتطلع إلى الانجاز الثالث لليوبولد الاسطوري، اذ كان الدولاب مملوءا بالكتب. واحصيت بسرعة نحو ثلاثين مجلدا من كتب المراجع في الجراحة باللغتين الروسية والالمانية. وفي الطب الباطني! والاطالس المدهشة للامراض الجلدية!

أقبل المساء، فيما انهمكت أنا في التكيّف للوضع.

وفكرت في قرارة نفسي باصرار وبعذاب: "لست انا المذنب، فلدي شهادة دبلوم، وحصلت على خمس عشرة درجة امتياز. وانا حذرتهم في تلك المدينة الكبيرة، بانني اريد ان اعمل طبيبا ثانيا. لا. انهم ابتسموا وقالوا: "ستتكيف للوضع". فهيّا تكيف! وماذا لو اتوك بمريض مصاب بالفتق! فاشرحوا لي، كيف سأتكيف معه؟ وعلى الاخص كيف سيكون شعور المريض بالفتق بين يدي؟ انه سيتكيف في الدنيا الآخرة (وهنا سرت القشعريرة في ظهري)...

وماذا عن الزائدة الدودية المتقيحة؟ ها! والذبحة لدى اطفال الأرياف المصابين بالدفتيريا؟ وحين يغدو شق القصبة الهوائية ضروريا؟ كما ان احوالي لن تكون على خير ما يرام حتى بدون شق القصبة الهوائية... أ... أ... والولادة! لقد نسيت الولادة! الأوضاع الشاذة للطفل في الرحم. فماذا سأفعل؟ ها؟ يالي من انسان طائش! كان الواجب ان ارفض هذا القطاع. كان الواجب ان ارفضه ولوجدوا عندئذ ليوبولدا ما".

اخذت أذرع الغرفة بكآبة وفي العتمة. وحين كنت امضي بمحاذاة المصباح، أرى وجهي في زجاج النافذة يومض في الظلمة الكالحة للحقول إلى جانب لهيب المصباح.

"انا مثل دميتري الكذّاب"(٣٩) - فكرت بهذا على حين غرة بسخف وجلست ثانية إلى الطاولة.

وواصلت تعذيب نفسي في وحدتي على مدى ساعتين واوغلت في تعذيبها بشكل لم تعد فيه اعصابي تحتمل المخاوف التي خلقتها. ولحظتئذ بدأت الطمأنينة تزحف إلى نفسي وصرت حتى اضع بعض الخطط.

اذن... انهم يقولون ان عيادة المرضى قليلة الآن. ففي القرى ينهمك الاهالي في تليين الكتان، والطرق رديئة... وطقطق صوت حازم في دماغي "سيأتونك بمريض لديه فتق، لان المصاب بالبرد (مرض بسيط) لن يخرج ليجوب الطرق الرديئة، اما المصاب بالفتق

---

(٣٩) المقصود به دميتري الكذاب الذي أدعى بأنه ابن القيصر ايفان الرابع والذي اغتيل في ظروف غامضة. ودرى اتهام بوريس غودونوف باغتباله. تولى دميتري السلطة بموسكو بمعونة القوات البولندية وتزوج ابنه ملك بولندا. ولكن سرعان ما قامت ثورة النبلاء ضده وقتل. (المترجم)

فسيأتون به، وكن مطمئنا من هذه الناحية، يا زميلي الدكتور العزيز".

وما هو بالصوت الاحمق، أليس كذلك؟ فجفلت.

قلت للصوت: "اسكت، لا يشترط ان يكون المريض مصابا بالفتق. يا لها من اعصاب ضعيفة! ان بدأت فأتمم".

فردّ الصوت بخبث: "من اخذ الاجرة يطالب بالعمل".

اذن... لن اتخلى عن المرجع الدراسي. واذا ما كانت ثمة ضرورة لكتابة وصفة، فيمكن امعان الفكر فيها، ابان غسل يدي. وسيوضع المرجع مفتوحا فوق سجل المرضى. وسأعطي وصفات نافعة، لكن ليست صعبة. مثلا، نترات الساليسين٥، ٠ بمعدل جرعة واحدة ثلاث مرات في اليوم...

وعقّب محدثي الكامن في اعماقي ساخرا مني بجلاء بقوله "يمكن وصف الصودا!".

وما علاقة الصودا بالامر؟ سأصف أيضا اللبخة، - النقعيات... بمقدار ١٨٠ غراما. أو بمقدار مائتي غرام. تفضل.

وعلى الفور، وبالرغم من ان ما من أحد طلب مني في وحدتي عند المصباح وضع اللبخة هذه، فانني اخذت اقلب بعزيمة خائرة مرجع الوصفات الطبية، وتأكدت من لبخة الابيكاك، وقرأت بصورة عابرة أيضا عن وجود شيء في هذه الدنيا اسمه "انسيبين". وقد تبين انه ليس سوى "سلفات أثير ثنائي حامض كينين جليكوليك". كما تبين ان الكينين عديم الطعم! ولاي غرض؟ وكيف يتم وصفه؟ وباي شكل هو - هل بشكل مسحوق؟ ليأخذه الشيطان!

وعاكسني الفزع بعناد بهيئة الصوت الداخلي: "ان الانسيبين هو الانسيبين، لكن مع هذا كيف سأعالج الفتق؟"

فدافعت عن نفسي حانقا: "سأضع المريض في الحوض، نعم في الحوض. وسأجرب تعديل الفتق".

وردد الفزع بصوت شيطاني: "انه فتق احتباس يا ملاكي! واية احواض تنفع هنا، فليأخذه الشيطان! فتق احتباس. يجب اجراء عملية جراحية...".

لحظتئذ استسلمت للقدر وكدت انتحب. ووجهت الابتهالات إلى القتام وراء النافذة: انا مستعد لكل شيء، شرط ألا يكون هذا الفتق.

فيما كان التعب يهدهدني: "ارقد للنوم، ايها الطبيب التعيس. فنم جيدا، وستتضح الامور صباحا. اهدأ، ايها الفتى الخائر الاعصاب. فانظر - ان العتمة هادئة وراء النوافذ، والحقول الباردة نائمة، وليس هناك أي فتق. وستتضح الامور صباحا. وستستوعب الوضع... نم... وأرم الاطلس... فالامر سواء، ولن تفقه شيئاً الآن. حلقة الفتق...".

كيف اندفع "هو" إلى الغرفة، انا حتى لم ادرك ذلك. وكل ما اذكره انني سمعت القرقعة على مقبض الباب ووصوصة كسينيا. كما بلغني صرير عربة خارج النوافذ.

كان حاسر الرأس، ومعطفه القصير غير مزرر، ولحيته منسدلة، وعيناه زائغتين.

فرسم شارة الصليب، وركع ودقت جبهته على الارض. وكان هذا من أجلي.

وفكرت في دخيلة نفسي بكآبة "لقد ضعت".

وتمتمت وسحبت كمه الرمادي قائلا:

- ارجوك، ارجوك، ارجوك!

ألتوت سحنته، واجاب وهو يتمتم، لاهثا، بكلمات غير مترابطة:

- سيدي الدكتور... سيدي.. انها وحيدتي، وحيدتي... وحيدتي! - صرخ بهذا فجأة بصوت فتي رنان، بشكل جعل اباجور المصباح يهتز - آخ، يا آلهي!.. آخ! - ولوى ذراعين متألما وصار مرة أخرى يدق الارضية بجبهته، كما لو كان يريد تحطيمها. - لماذا؟ لماذا هذا العقاب؟.. بم اغضبتك؟

وصرخت به، وانا احس بالقشعريرة تسري في عضلات وجهي:

- ماذا؟ ماذا حدث؟!

فنهض على قدميه، وانطلق نحوي وهمس يقول:

- سيدي الدكتور... اطلب كل ما تريد... ساعطيك المال.. خذ المال، قدر ما تريد. قدر ما تريد. وسنقدم المواد الغذائية. شرط ألا تموت. شرط ألا تموت. ولتصبح مقعدة، ليكن. ليكن! - وصرخ باتجاه السقف - لدي ما يكفي لاطعامها، لدي ما يكفي.

كان وجه اكسينيا الشاحب يتطلع من المربع الاسود للباب. فغمرت قلبي الكآبة.

وصرخت بألم:

- ماذا؟.. ماذا؟ قل!

فهدأ وقال لي هامسا، كما لو كان يبوح لي بسرّ، وغدت عيناه بلا قرار:

- لقد وقعت في المدقة...

وأعدت أنا السؤال:

- في المدقة... في المدقة؟ وما هي؟

فأوضحت اكسينيا بهمس قائلة:

- الكتان، كانوا يدقون الكتان... يا سيدي الدكتور... وتسمى المدقة... ويدق بها الكتان..

وفكرت برعب شديد: "اذن هنا البداية. ها هي اذن. أوه، لماذا جئت إلى هنا!".

- من هي؟

واجاب هامسا:

- ابنتي - ثم صرخ - ساعدنا! وهوى إلى الارض مجددا، وتدلت على عينيه خصلات شعره المقصوص بتسريحة دائرية.

* * *

كان المصباح الوهاج ذو الغطاء الصفيحي الملتوي يشتعل ساخنا، بلسانين ساطعين. ورأيتها راقدة على طاولة العمليات، فوق المشمع الابيض الذي تفوح منه رائحة طرية، واختفى من ذاكرتي موضوع الفتق أيضا.

وتدلى شعرها الاشقر، المائل إلى الحمرة قليلا، من الطاولة بهيئة كتلة شعثاء يابسة. وكانت ضفيرتها ضخمة ومس طرفها الارض.

كانت تنورتها المصنوعة من الشيت ممزقة، وبدت الدماء عليها بالوان مختلفة - فثمة بقع بنية، وأخرى حمراء قانية، وغليظة القوام. وتراءى لي ان ضوء المصباح الوهاج أصفر تنبض فيه الحياة، اما محياها فورقيا، ابيض، وأنفها مدببا.

وزالت من وجهها الابيض ملامح جمال جبسي، جامد ونادر حقا.

ساد غرفة العمليات صمت مطبق على مدى عشر ثوان تقريبا، لكن كان يسمع وراء الابواب المغلقة صوت صراخ مكتوم ودق متواصل بالرأس على الارضية.

وجـال في خاطري: "لقد جـنّ، امـا الممرضات فكن يهدئن خاطره... ولماذا هي على هذا القدر من الجمال؟ لكن قسمات وجهه وسيمة.. يبدو أن الأم كانت حسناء... هو ارمل...".

وهمست انا تلقائيا:

- هل هو ارمل؟

فاجابت بيلاغيا ايفانوفنا بهدوء:

- أجل، ارمل.

في تلك اللحظة مزق ديميان لوكيتش التنورة من طرفها إلى اعلاها بحركة عنيفة وكأنها تنم عن حقد، فتعرت فورا. وتطلعت إليها، وكان ما رأيته يفوق توقعاتي. اذ لم يكن، في الواقع، وجود لساقها اليسرى.. وتدلت ابتداء من الركبة المهشمة مزق مدماة، وعضلات مهروسة حمراء وبرزت مدببة العظام المحطمة البيضاء في كافة الاتجاهات. اما الساق اليمنى فقد كسرت عند السمانة بشكل جعل كلا العظمين يبرزان إلى الخارج، بعد ان مزقا الجلد. ولهذا السبب بدت قدمها بلا حياة، وملقاة على جنبها، وكانها لوحدها.

همهم مساعد الطبيب بصوت خافت: حسنا.

ثم لم يضف إلى ذلك كلمة واحدة.

في تلك اللحظة زال عني هول الصدمة واخذت اتحسس نبضها. ولم يكن له وجود في الذراع الباردة. وبعد بضع ثوان فقط وجدت موجته المتقطعة التي لا تكاد تلاحظ. ثم اختفت... واعقبتها وقفة لحقت في اثنائها بالنظر إلى طرفي منخريها المزرقين وشفتيها الشاحبتين.. واردت ان اقول: ستقضي نحبها... ولكن لحسن الحظ تمالكتُ نفسي... ومرة أخرى مضت موجة نبض رفيعة.

وجال في خاطري: "هكذا تخمد انفاس الانسان الممزق الاوصال، ولا مجال عندئذ لعمل شيء...".

وعلى حين فجأة قلت بصرامة، دون ان اتعرف على صوتي:

- كافور.

لحظتئذ انحنت آنا نيكولايفنا نحو أذني وهمست قائلة:

- لماذا، يا دكتور؟ لا تعذّبها. ما الحاجة إلى الحقنة؟ انها ستفارق الحياة الآن... انك لن تنقذها..

فرمقتها بحنق وشزرا وقلت:

- ارجو تقديم الكافور...

وقلت ذلك بلهجة جعلت آنا نيكولايفنا تندفع على الفور إلى الطاولة وقد اصطبغ بالحمرة وجهها الذي لاحت عليه علامات الاستياء، وكسرت طرف الأنبولة.

وبدا ان مساعد الطبيب لم يكن أيضا يستحسن حقنة الكافور. ومع ذلك تناول الحقنة بسرعة وبمهارة، وتسلل الزيت الاصفر تحت جلد الكتف.

وفكرت في دخيلة نفسي: "موتي... موتي بسرعة.. موتي. والا فما الذي سأفعله لك غير هذا؟".

وهمس مساعد الطبيب كما لو كان قد حدس افكاري.

- ستموت حالا!

ونظر إلى الشرشف بطرف عينيه، لكنه قد عدل عن رأيه، كما يبدو. اذ اشفق على الشرشف من التلوث بالدماء. غير انه بعد عدة ثوان وجب مع هذا تغطيتها بالشرشف. كانت ملقاة كالجثة، بيد انها

لم تفارق الحياة. وفجأة وضحت الامور في رأسي، مثلما تحت زجاج سقف قاعة التشريح البعيدة في جامعتنا.

وقلت بصوت مبحوح:

- حقنة كافور أخرى.

ومرة أخرى غرز مساعد الطبيب الزيت طائعاً.

وجال في خاطري بيأس وقنوط: "هل من المعقول أنّها لن تموت؟.. وهل من المعقول ان الواجب...".

وأصاب مخّي الصفاء التام، وعلى حين غرة أدركت بدون أي كتب دراسية، وبدون نصائح وبدون مساعدة، وكانت ثقتي راسخة بأنّني أدركت الأمر بنفسي: يتعين عليّ الآن، ولأوّل مرة في حياتي، اجراء عملية بتر ساق لإنسان ينازع سكرات الموت. وسيموت هذا الإنسان تحت مبضع الجراحة. نعم، سيموت تحت المبضع. فهي بلا دم! لقد نزف من ساقيها الممزقتين كل شيء فيها على مدى عشرة فراسخ، ولا يعرف حتى فيما إذا كانت تتحسّس شيئاً ما الآن، وفيما إذا كانت تسمع. إنّها صامتة. آه، ما لها لا تموت! وماذا سيقول لي أبوها الذي يكاد يفقد عقله؟

قلت لمساعد الطبيب، بصوت غريب:

- جهزوها لبتر الساق.

فنظرت القابلة اليّ وقد تصوّرت بأنّ لدي لوثة في عقلي، لكن عيني مساعد الطبيب تألقتا بنظرات إشفاق، وانهمك في تهيئة الادوات. ووشوش البريموس بين يديه...

مضت فترة نحو ربع ساعة. وتطلعت بهلع تشوبه الوسوسة إلى العين المائلة للخمود حين رفعت الجفن البارد. فلم أفقه اي شيء.

فكيف يمكن أن تحيا جثة شبه هامدة؟ وانزلقت قطرات العرق فوق جبيني بصورة جامحة، من تحت الطاقية البيضاء، وصارت بيلاغيا ايفانوفنا تمسح العرق المالح بقطع الشاش. واخذ الكافيين يسري الآن أيضا في عروقها مع بقايا الدم، فهل كان يجب أن يحقن أم لا؟ واخذت آنا نيكولايفنا تمسد بحركة خفيفة النتوءات البارزة على الردفين بسبب المحلول. وبقيت الفتاة على قيد الحياة.

تناوت المبضع ساعيا إلى تقليد أحد ما (رأيت مرة واحدة في حياتي عملية بتر طرف في الجامعة)... وتوسلت لحظتئذ إلى القدر لكي لا تموت في نصف الساعة القادمة على أقل تقدير... "دعها تموت في الردهة، حين أنهي العملية...".

كان يعمل بدلا مني فقط عقلي السليم الذي ألهمته غرابة الوضع. فقطعت الفخذ بالمبضع الحاد في حركة دائرية وبمهارة وخفة مثل قصاب محنك، فانفصل الجلد دون أن تنزف قطرة دم واحدة. وفكرت، ورنوت كالذئب شزرا إلى كومة الملاقط: "ستبدأ الاوعية بالنزف، فماذا سأفعل؟" وقطعت قطعة كبيرة من اللحم الانثوى واحد الاوعية الدموية، وكان بشكل أنبوب يميل إلى البياض، لكن لم تنزف منه قطرة دم واحدة. فضغطته بواسطة الملقط الملتوي، ومضيت لاحقاً في اجراء العملية. وثبت هذه الملاقط الملتوية في كل مكان اعتقدت بوجود اوعية دموية فيه... arteria... arteria ... ما اسمها، بحق الشيطان؟..". وغدت صالة العمليات شبيهة بما في المستشفيات. وتدلت الملاقط الملتوية بهيئة عناقيد، ووُضعت بقطع شاش مرفوعة إلى الأعلى سوية مع اللحم وبدأتُ بنشر العظم المدور بواسطة منشار رفيع الاسنان ولامع. "ما لها لا تموت؟ هذا عجيب... آوه، ما اشد تعلق الانسان بالحياة!".

وسقط العظم، وبقي في يد ديميان لوكيتش ما كان يمثل ساق الفتاة.

قطع لحم ممزق وعظام!.. وأُلقيتْ جميعا جانبا، وبقيتْ على الطاولة الفتاة، وكأنها قصرت إلى ما يعادل الثلث، وانفرج جانبا الجزء المتبقي من الساق. وفكرت بالهام: "تمهلي قليلا، قليلا أكثر... لا تموتي. اصبري حتى يتم نقلك إلى الردهة، دعيني أخرج بسلام من هذا الحادث الفظيع في حياتي".

ثم جرى ربط الأوعية بالخيوط، وبعد ذلك اخذت اخيط الجلد بدرزات متباعدة.. لكنني... لكنني توقفت وقد مرقت في ذهني فكرة وادركت الامر: فتركت فتحات... ووضعت حشوات من الشاش الصغيرة، وغطى العرق عيني، وتراءى لي كما لو انني في حمام...

واسترجعت انفاسي. وتطلعت بتثاقل إلى جذمور الساق المقطوعة، وإلى الوجه الشاحب. وسألت:

- هل هي حيّة؟

- انها حيّة.

اجاب بهذا دفعة واحدة كل من مساعد الطبيب وآنا نيكولايفنا مثل الصدى الخامد.

وقال لي مساعد الطبيب هامسا في اذني بشفتيه بدون أن يدر عنه صوت:

- ستعيش لحظة أخرى.

ثم تلعثم، وقدم لي النصح بلبقة قائلا:

- لربما الافضل عدم مس الساق الأخرى، يا دكتور. دعنا نلفها بالشاش... والا فانها لن تصمد حتى نقلها إلى الردهة... ها؟ الافضل الا تموت في صالة العمليات.

فقلت بصوت متحشرج، مدفوعا بقوة خفية:

- هات الجبس.

كانت الارضية كلها ملطخة ببقع بيضاء، والعرق يتصبب منا جميعا. اما الجثة شبه الحية فكانت ترقد بلا حراك، وساقها اليمنى مكسوة بالجبس، وبدت فاغرة فاها الفتحة التي تركتها ملهما في الساق المقطوعة، بموضع القطع.

وهمس مساعد الطبيب بصوت مبحوح متعجبا:

- ستحيا..

ثم رفعوها، وبدا تحت الشرشف تقعّر كبير... فقد ابقينا ثلث جسدها في صالة العمليات.

وبعد ذلك لاحت ظلال في الممر، وهرولت الممرضات جيئة وذهابا، ورأيت كيف بدت عند الجدار هيئة رجل أشعث، وصدر عنه نحيب جاف. لكنه أُبعد عن المكان، فساد الصمت هناك.

كنت في صالة العمليات اغسل ذراعي الداميتين حتى المرفقين.

وفجأة سألت آنا نيكولايفنا:

- دكتور، يبدو أنك أجريت عمليات بتر كثيرة؟ لقد أحسنت جداً، جداً في اجرائها... ليس أسوأ من ليوبولد...

كانت لفظة ليوبولد على شفتيها تتردد دوما مثل "دواين"[(٤٠)].

وتطلعت من تحت الحاجبين إلى الوجوه. ولاحظت لدى الجميع - لدى ديميان لوكيتش وبيلاغيا ايفانوفنا - مسحة الاحترام والعجب.

---

(٤٠) عميد السلك الدبلوماسي المترجم.

- هِمْ... انا... انا اجريت عمليتين فقط، في الحقيقة.

لماذا كذبت؟ انا الآن لا افهم ذلك.

ساد الصمت في المستشفى، الصمت المطبق.

وامرت مساعد الطبيب هامسا:

- إذا ماتت فاستدعوني حتما.

ولامر ما اجابني بدلا من "نعم" بعبارة الاحترام:

- سمعاً وطاعةً.

بعد عدة لحظات كنت اجلس عند المصباح الاخضر في مكتب شقة اقامة الطبيب. كان البيت صامتا.

لاح وجهي الشاحب منعكسا في الزجاج المائل إلى السواد.

"لا، انني لست مثل دميتري الكذاب، وكما ترى أصبحت عجوزا نوعا ما... التجاعيد ظهرت بين الحاجبين... بعد قليل سيطرق الباب، وسيقال لي: لقد ماتت".

"نعم، سأذهب لالقي عليها النظرة الاخيرة... بعد قليل سيطرق الباب...".

* * *

طرق الباب، وحدث هذا بعد شهرين ونصف. كان يتألق عبر النافذة أحد أيام الشتاء الأولى.

فدخل "هو". وعندئذ فقط امعنت النظر فيه. نعم، إنّ قسمات وجهه وسيمة. وعمره في نحو الخامسة والاربعين وعيناه تشعان بالبريق.

ثم تناهي إلى سمعي صوت حفيف، وقفزت ماشية على عكازتين

فتاة ذات جمال اخاذ وبساق واحدة، وترتدي تنورة واسعة جداً، ذات طرف أحمر.

كانت تتطلع نحوي، وتورد خداها بصبغة قانية.

- يجب السفر إلى موسكو... إلى موسكو.

واخذت اكتب لهما العنوان.

- سيصنعون هناك طرفا اصطناعيا... ساقا اصطناعية.

وفجأة قال الأب:

- قبّلي يده.

وبلغ بي الارتباك أشده، حتى إنني قبلت أنفها بدلا من شفتيها.

عند ذاك فتحت بيديها الصرّة، بعد أن اعتمدت، واقفة على العكازتين، فسقطت منشفة ناصعة البياض طويلة وقد طرزت برسم ساذج لديك أحمر. هذا اذن ما كانت تخفيه تحت الوسادة حين كنت آتي لفحصها. وانا اذكر وجود الخيوط على الطاولة.

فقلت بحزم، وحتى هززت رأسي:

- لن آخذها.

لكن سحنة وجهها ونظرات عينيها قد تغيرت بشكل جعلني آخذ المنشفة منها...

وقد بقيت على مدى سنوات طويلة معلقة في غرفة نومي في موريفو، ثم جابت الآفاق سوية معي. وفي نهاية المطاف اصابها البلى وحكت وامتلأت بالثقوب، واختفت من الوجود، كما تحك وتمحى الذكريات.

العاصفة الثلجية

فتارة كالوحش تعوي،

وتارة كالطفل تبكي.

بدأت القصة كلها، حسب اقوال اكسينيا العارفة بكل شيء، حين وقع الوكيل بالتشيكوف، الساكن في شالوميتيفو، في حب ابنة المهندس الزراعي. وكان حبه ملتهبا، أمضّ قلب المسكين. فسافر إلى مدينة غراتشيوفكا مركز القضاء وطلب حياكة بدلة له. فجاءت هذه البدلة فاخرة تبهر الناظرين، ومن الممكن جداً أن الخطوط الرمادية في السراويل الرمادية للوكيل قررت مصير هذا الانسان التعيس. فوافقت ابنة المهندس الزراعي على الزواج منه.

اما انا – الطبيب في المستشفى (س)، في قطاع محافظة كذا، فقد ذاع صيتي بعد أن بترت ساق فتاة وقعت في مدقة الكتان، إلى حد انني كدت ألقي حتفي تحت وطأة شهرتي. وصار يأتي لعيادتي في الدرب الذي مهدته الزحافات مائة فلاح في اليوم. ولم أعد اتناول طعام الغداء. إنّ الرياضيات علم قاس. فلنفرض انني كنت اضيع مع كل مريض من مرضاي المائة بمعدل خمس دقائق فقط. خمس دقائق! خمسمائة دقيقة – أي ثماني ساعات وعشرون دقيقة. ولاحظوا، انني كنت استقبلهم على التوالي. زد على ذلك، كان لدي قسم المستشفى الذي يرقد فيه ثلاثون شخصا. وبالاضافة إلى ذلك كنت اجري بنفسي العمليات الجراحية.

صفوة القول، انني حين كنت اعود من المستشفى في التاسعة

مساء، لا اجد رغبة في الاكل أو الشرب أو النوم. و لم اكن ارغب في شيء، سوى ألا يأتي احدهم داعيا اياي إلى التوليد. وفي غضون اسبوعين اخذوني ليلا في الدرب الذي شقته الزحافات خمس مرات.

وبدت غشاوة رطبة قائمة في عيني، وامتدت بين الحاجبين طية رأسية، تشبه الدودة. وفي الليل كنت ارى في وسط الضباب المتموج الخفيف العمليات الفاشلة والضلوع العارية، وارى يدي مخضلتين بالدم البشري فاستيقظ، شاعرا باللزوجة والبرودة، بالرغم من وجود المدفأة الهولندية.

كنت امضي لمعاينة المرضى بخطوات سريعة، وفي اثري مساعد الطبيب ومساعدة الطبيب وممرضتان. وعندما اقف عند السرير الذي يرقد فيه الانسان المريض الغارق في السخونة وانفاسه تتردد بأنين، كنت اعتصر من دماغي كل ما فيه. فتتلمس اصابعي جلده الجاف والساخن، واتفحص حدقتي عينيه، وادق على ضلوعه، واصغي إلى دقات قلبه الغامضة في الاعماق، وتراودني فكرة واحدة هي - كيف يمكن انقاذه؟ وكذلك انقاذ - ذاك. وهذا أيضاً! الجميع!

المعركة تدور. فتبدأ في صباح كل يوم مع الضوء الباهب المنعكس على الثلج، وتنتهي مع الوميض الشاحب الاصفر لمصباح "البرق" المتقد.

وفي الليالي كنت احدث نفسي قائلا: "يا ترى، بم سينتهي هذا؟ فسيأتون الي بالزحافات في يناير، وفي فبراير، وفي مارس".

وكتبت إلى غراتشيوفكا مذكرا بأدب جم أن ثمة حاجة إلى طبيب ثان في القاطع (س).

وانطلقت الرسالة على عربة زحافة في المحيط الثلجي المنبسط إلى مسافة اربعين فرسخا. وبعد ثلاثة ايام جاء الجواب. انهم كتبوا:

"طبعاً، طبعاً، ثمة حاجة لذلك... حتما... لكن ليس الآن... فليس هناك من يقبل بالسفر...".

واختتمت الرسالة ببعض عبارات الاطراء على عملي والتمنيات بالنجاح لاحقا.

فأنعشتني الرسالة وأثارت حميتي، وصرت أضع الفتائل القطنية واحقن مصل الدفتريا، واشق المواضع المتقيحة الكبيرة الحجم، واضع جبيرات الجبس...

وفي يوم الثلاثاء جاء ليس مائة شخص، بل مائة واحد عشر شخصا. وانهيت المعاينة في الساعة التاسعة مساء. وغفوت محاولاً أن احدس كم سيكون عددهم غدا الاربعاء؟ وتراءى لي في الحلم، إنّ عدد القادمين تسعمائة شخص.

وتسرّب نور الصباح شديد البياض عبر نافذة غرفة النوم. ففتحت عيني دون أن أفقه ما الذي جعلني أستيقظ. وبعد ذلك أدركت الأمر - فهناك من يطرق الباب.

- دكتور - وعرفت فيه صوت القابلة بيلاغيا ايفانونا - هل استيقظت؟

فأجبتها بصوت مبحوح: آها.

لقد جئت لإبلاغك بأن لا تعجل في المجيء إلى المستشفى، إذ قدم اثنان فقط.

- حقا. هل تمزحين؟

- اقسم لك. انها العاصفة الثلجية، يا دكتور، - وكررت القابلة في فتحة القفل - العاصفة الثلجية. اما الاثنان فاسنانهما مسوسة. وسيقتلعها ديميان لوكيتش.

- يا للعجـ... - وحتى قفزت من فراشي لسبب لا اعلمه.

كان اليوم رائعا. وبعد ان انهيت معاينة المرضى الراقدين في المستشفى، قضيت اليوم كله في ارجاء الغرف (كانت الشقة الخاصة للطبيب مؤلفة من ست غرف، ولامر ما كانت ذات طابقين - ثلاث غرف في الاعلى، اما المطبخ والغرف الثلاث الأخرى ففي الاسفل)، واخذت اصفر مردداً المقاطع الغنائية من الاوبرات، وأدخّن وأنقر على زجاج النوافذ... فيما كان يجري وراء النوافذ ما لم يقع بصري عليه من قبل ابدا. و لم اكن ارى السماء، ولا الارض أيضاً. فالثلج الابيض يلف ويدور، ويتساقط بصورة مائلة ومعوجة، طولا وعرضا، كما لو ان الشيطان كان يعبث بمسحوق الاسنان الابيض.

وفي منتصف النهار اعطيت إلى كسينيا - التي تقوم بمهام الطباخة وعاملة التنظيف في شقة الطبيب - الامر التالي: يجب غلي الماء في ثلاثة دلاء وفي المرجل. فانا لم اغتسل على مدى شهر كامل.

واستخرجت سوية مع اكسينيا حوضا ضخما من المستودع. ووُضع على ارضية المطبخ (طبعاً، لا مجال للحديث عن وجود الحمامات في بلدة (س). وكان ثمة حمام في المستشفى نفسه، لكنه عاطل عن العمل).

في نحو الساعة الثانية بعد الظهر غدت خيوط الشبكة خارج النافذة أرفع كثيراً، وكنت أجلس في الحوض عارياً وغروة الصابون تلفع رأسي.

وصرت أتمتم وأنا اسكب الماء الساخن على ظهري:

- يا لها من متعة... يا لها من متعة! وبعد هذا سأتناول الغداء، ثم آخذ غفوة. وإذا ما شبعت نوماً، فدعهم يأتون، ولو مائة وخمسون شخصا، إليّ غداً. ما هي الأخبار، يا كسينيا؟

كانت كسينيا جالسة وراء الباب في انتظار انتهاء عملية الاستحمام. فأجابت كسينيا بقولها:

- الوكيل في شالوميتيفو سيتزوج.

- حقا! وهل وافقت؟

- بلى - وحق ربي! هو عاشق...

وجاء صوت اكسينيا متناغما، وهي تقرقع بالاواني.

- وهل العروس جميلة؟

- آية في الجمال! شقراء، هيفاء...

- أحقا ما تقولين!

وفي هذه اللحظة قرع الباب بشدة. فسكبت الماء على جسدي عابسا وصرت اصيخ السمع.

وقالت اكسينيا بصوتها العذب:

- الدكتور يستحم...

وهمهم صوت ما: برر... برر...

ثم وصوصت اكسينيا في فتحة القفل:

- هناك رسالة لك، يا دكتور.

- دسيها في الباب.

خرجت من الحوض، ملتوي الهيئة ولاعنا مصيري، وتناولت من يدي اكسينيا مظروفا رطبا.

كلا، ابدا. لن اذهب بعد الاستحمام. فانا انسان أيضاً، - قلت ذلك في قرارة نفسي غير واثق تماما وفتحت المظروف وانا في الحوض.

"ايها الزميل العزيز (علامة تعجب كبيرة). اتوسـ... (الكلمة محذوفة) ارجوك كل الرجاء المجيء اليّ بسرعة. الدم ينزف من باطن (الكلمة محذوفة) من فم امرأة تلقيتْ ضربة. انها فاقدة الوعي. وانا لا استطيع علاجها. ألح في الرجاء. الجياد ممتازة. النبض ضعيف. الكافور متوفر. الدكتور (التوقيع غير واضح)".

وفكرت في دخيلة نفسي بأسى، رانيا إلى الحطب الساخن في المدفأة: " لا حظ لي في هذه الدنيا".

– هل جاء رجل بهذه الرسالة؟

– نعم، رجل.

– ليدخل إلى هنا.

فدخل وبدا لي كروماني من الأزمنة الغابرة بسبب الخوذة اللامعة التي كان يرتديها فوق قبعة الفراء ذات الأذنين. وكان معطف فراء الذئب ملتفا على جسده بشدة، فهب تيار هواء بارد عليّ.

وسألته، وانا ألف الشرشف حول جسدي دون ان اتم الاغتسال.

– ما لك تضع الخوذة؟

فاجاب الروماني الهيئة:

– أنا من رجال المطافئ في شالوميتيفو. لدينا فرقة مطافئ هناك...

– من هو الطبيب الذي كتب الرسالة؟

– طبيب جاء لزيارة مهندسنا الزراعي. طبيب شاب. لقد وقعت مصيبة عندنا، ويا لها من مصيبة...

– ومن هي المرأة؟

– إنها عروس الوكيل.

فتأوّهت اكسينيا وراء الباب.

- وماذا حدث؟ (وتناهى إلى سمعي كيف التصق جسد كسينيا بالباب).

- تـمّت الخطوبة يوم أمس، وبعد الخطوبة أراد الوكيل الذهاب معها للنزهة في الزحافة. فقرن إليها جواداً خابّا، واجلس خطيبته فيها، وانطلق من البوابة. وقد اندفع الجواد بسرعة فمالت جانباً وارتطمت جبهتها بعضادة البوابة. وهوت منقذفة إلى الأرض. إنها مصيبة يعجز اللسان عن وصفها... إنّهم لا يبعدون أبصارهم عن الوكيل خشية أن يشنق نفسه. لقد أصابت عقله لوثة.

فقلت شاكياً:

- إنني أستحم، فلماذا لم تأتوا بها إلى هنا؟ - ثم سكبت الماء على رأسي وتساقط الماء في الحوض.

- هذا مستحيل، أيّها المواطن الدكتور المحترم - قال رجل الأطفاء هذه العبارة متعاطفا ومدّ يده كما لو كان يبتهل في الصلاة، - هذا غير ممكن. وستموت الفتاة.

- وكيف سنذهب نحن؟ فهناك عاصفة ثلجية!

- لقد هـدأت. ماذا تقول. لقد هدأت تماماً. والجياد سريعة، وتمضي سلفة سلفة. وسنصل في غضون ساعة...

أطلقت الأنين وخرجت من الحوض. وسكبت دلوين من الماء على جسدي بحنق. ثم جلست القرفصاء أمام فتحة المدفأة وأخذت أدسّ رأسي فيها من أجل أن أجفف شعر رأسي ولو قليلاً.

"لا محال من إصابتي بالتهاب الرئتين، طبعاً. سأصاب بالتهاب الرئتين الغشائي بعد مثل هذه الرحلة. والشيء الأساسي، ماذا بوسعي

أن أفعله؟ وهذا الطبيب كما يبدو من رسالته أقل خبرة مني. أنا لا أعرف شيئاً سوى ما اكتسبته عملياً في غضون أقل من نصف عام، فيما هو أقل مني خبرة. وأظنه، قد تخرّج لتوّه من الجامعة. بينما يعتبرني محنكاً..."

استسلمت لمثل هذه الأفكار فلم ألحظ كيف ارتديت ملابسي. و لم يكن ارتداؤها بالامر الهين. السراويل والكنزة وحذاء اللباد، وفوق الكنزة الجاكتة الجلدية، ثم المعطف وفوقه معطف الفراء، وقبعة الفراء والحقيبة، وفيها الكافيين والكافور والمورفين والادرينالين والملاقط الملتوية والقماش المعقم والحقنة والمسبر والبراوننغ والسجاير والكبريت والساعة والسماعة.

لم اشعر بالرهبة ابدا، بالرغم من حلول الظلام، وكان النهار قد أخذ بالتبدد، حين غادرنا البلدة. بدا وكأن حدة العاصفة قد خفت. اذ كانت الثلوج تتساقط مائلة، في اتجاه واحد، وتلطم الخدّ الايمن. وكان رجل المطافئ يحجب بجسده عني كفل الجواد الاول. وبدأ الجوادان بالحركة مندفعين فعلا، فاشرأبا باعناقهما، وانطلقت الزلاجة فوق الكثبان. اما انا فقد رقدت فيها، وغمرني الدفء فورا، واخذت افكر بالتهاب الرئة الغشائي، وبأن الفتاة ربما اصيبت بكسر داخلي في عظم القحف، ولربما انغرزت شظية منه في الدماغ...

وسألت عبر ياقة معطف فراء الضأن:

– هل انهما من جياد وحدة المطافئ؟

فهمهم السائق دون أن يلتفت قائلا:

– اوهو... اوهو...

– وماذا فعل لها الدكتور؟

- انه... هو، هو.. المسألة انه متخصص بالامراض الزهرية... اوهو، هو...

ورددت العاصفة الثلجية: هو... هو... - وسط الاحراج، ثم صفرت من الجانب، ونثرت نتف الثلج... وصرت اتمايل واتمايل واتمايل... حتى وجدت نفسي في حمامات ساندونوف بموسكو. وكنت في معطف الفراء، اقف في المنزع، والعرق ينضح مني قليلا. ثم اوقد مشعل ما، وهب تيار بارد، ففتحت عيني ورأيت خوذة تتألق بنور قان، وفكرت أن هناك حريقاً... ثم عدت إلى صوابي وادركت باننا وصلنا. كنت عند عتبة مبنى ابيض ذي اعمدة، يبدو أن عهده يرجع إلى ايام نيقولاي الاول. وساد المكان قتام شديد، واستقبلني رجال الاطفاء، والشعلة تتراقص فوق رؤوسهم. لحظتئذ استخرجت الساعة من فتحة معطف الفراء، ورأيت انها الخامسة. اذن امضينا في الطريق ليس ساعة واحدة، بل ساعتين ونصف الساعة.

وقلت:

- هيأوا الجوادين للعودة بي فورا.

فرد السائق:

- سمعا وطاعة.

ولجت مدخل المنزل والنعاس يراودني وقد ابتل جسدي تحت الجاكتة الجلدية، كما لو كنت تحت تأثير الكمادة. وواجهني نور مصباح من الجانب، وسقطت اشعته فوق الارضية المطلية. وعلى الفور هرع نحوي فتى اشقر الشعر ذو عينين يشع منهما الفزع ويرتدي سراويل كويتْ حديثا. وبدت رقبة عنقه البيضاء المنقطة بالسواد مائلة جانبا، وقميصه متهدلا منتفخا، لكن الجاكتة كانت جديدة خرجت لتوها من بين يدي الخياط، وكأنها ذات طيات معدنية.

ولوح الفتى بيديه، وتشبّث بمعطفي، وهزني، والتصق بي وأخذ يعول بصوت خافت:

- ايها الدكتور.. عزيزي بسرعة.. انها تنازع الموت. انا قاتل، - والتفت إلى مكان ما جانبا، وبحلق بعينيه بصرامة وشزرا، وقال مخاطبا احدهم: انا قاتل، لتعرفوا.

ثم استغرق في النحيب، وراح يمسك بشعره غير الكث ويجزه، ورأيت كيف كان يجز جدائله بصورة حقيقية، بعد أن يلفّها على أصابعه.

- كفى.

قلت ذلك وأنا أضغط على يده.

وجرّه أحدهم. وهرعت نساء ما.

ونزع احدهم معطف الفراء عني، واقتادوني فوق الابسطة التي فرشت بمناسبة الافراح وجيء بي إلى سرير ابيض. وهب للقائي من على الكرسي طبيب شاب. وبدا الاجهاد في عينيه والاضطراب في هيئته. وومضت للحظة الدهشة فيهما لكوني فتيا أيضاً، مثله. وعموما كنا اشبه بلوحتي بورتريه لوجه واحد، وكذلك في سن واحدة. لكنه ابتهج فيما بعد لقدومي، حتى اصابته الغصّة في بلعومه.

- لكم انا مسرور.. يا زميلي... ترى... إن النبض ينخفض. إنني، في الواقع، طبيب أمراض زهرية. أنا سعيد للغاية بقدومك...

كانت ثمة حقنة على قطعة شاش فوق المائدة وإلى جانبها عدة امبولات فيها زيت اصفر. وتناهي إلى سمعي صوت بكاء الوكيل، واغلق الباب، وظهر ورائي شبح امرأة برداء ابيض. كانت تخيم في غرفة النوم عتمة خفيفة، والقيت على المصباح في الجانب خرقة

خضراء. ورقد وسط الظل الاخضر وجه شاحب بلون الورق فوق الوسادة. وكانت خصلات الشعر الشقراء متدلية ومتناثرة. وبدا انفها مدببا، وحشيت في المنخرين حشوات من القطن الوردي بسبب الدم.

وهمس لي الطبيب:

- النبض...

تناولت اليد الخالية من الحياة، ووضعت اصابعي بحركة باتت مألوفة وجفلت. فكان النبض تحت الاصابع ضعيفا، ثم اشتدت وتيرته، وبعد ذلك صار متقطعا وامتد في خيط رفيع. واحسست كالعادة بقشعريرة في جوف البطن كحالي دوما حين ارى الموت عن كثب. انني اكرهه. ولحقت في كسر طرف الامبولة وسحبت في المحقنة الزيت الاصفر. ولكنني غرزت الابرة تلقائيا، وعبثا ادخلتها تحت جلد ذراع الفتاة.

ارتجف الفك الاسفل للفتاة، وبدا كما لو انها تختنق، ثم تدلى، وتوتر الجسد تحت اللحاف، كما لو تسمرت، ثم اصابها الوهن. وضاع الخيط الاخير تحت اصابعي.

وهمست في اذن الطبيب:

- لقد فارقت الحياة.

وانهال الشبح الابيض ذو الشعر الاشيب فوق اللحاف المستوي، وهوى وصار يرتجف.

وقلت في اذن المرأة ذات الرداء الابيض:

- مهلا، مهلا.

فيما نظر الطبيب إلى الباب شزرا وعليه مسحة من العذاب.

وقال بصوت خافت جدا:

- لقد عذّبني.

وتصرفنا، انا وهو، كالتالي: ابقينا الأم الباكية في غرفة النوم، دون قول شيء إلى أي احد، واقتدنا الوكيل إلى الغرفة البعيدة.

وهناك قلت له:

- إذا لم تسمح بحقنك الدواء فلن نستطيع عمل شيء. انت تعذبنا، وتعيقنا عن العمل.

عندئذ وافق، ونزع الجاكتة منتحبا بصوت خافت، ولففنا كم قميص الفرح للخطيب وحقناه بالمورفين. وذهب الطبيب إلى الفقيدة، بزعم تقديم المساعدة لها، بينما بقيت مع الوكيل. وكان تأثير المورفين اسرع ما توقعت. وبعد ربع ساعة اخذ الوكيل يغفو، مواصلا الشكوى والنحيب بصوت يزداد خفوتا وبكلام غير مترابط، ثم وضع وجهه المنتحب على ذراعه واستسلم للنوم. ولم يسمع الصراخ والبكاء والخشخشة والعويل المكبوت.

وهمس لي الطبيب في غرفة المدخل:

- اسمع، يا زميل، إن الرحيل خطر. فقد تضل الطريق. ابق، واقض ليلتك هنا...

- لا، لا استطيع. يجب عليّ الرحيل مهما كان الثمن. لقد وعدوني باعادتي على الفور.

- انهم سيعودون بك، لكن حذار...

- لدي ثلاثة مصابين بالتيفوس، لا يجوز تركهم. ويجب علي معاينتهم ليلا.

- حسنا، كما يحلو لك...

ومزج الكحول بالماء وناولني اياه لكي اشربه، وتناولت على الفور

في غرفة المدخل قطعة من لحم الخنزير المقدد. واحسست بالدفء في بطني، وزالت الكآبة عن قلبي قليلا. وجئت إلى غرفة النوم للمرة الاخيرة، والقيت نظرة على الفقيدة، وعرجت على الوكيل وتركت للطبيب امبولة مورفين، وتدثرت بملابسي وخرجت إلى الشرفة.

وهناك كانت الرياح تصفر، ونكست الجياد رؤوسها، وغطاها الثلج. وتأرجحت شعلة للانارة.

فسألت وانا ادثر فمي:

- أتعرف الطريق؟

- انا اعرف الطريق، - رد السائق بكآبة بالغة (وكان قد نزع خوذته)، - خير لك أن تبقى للمبيت...

وكان يرى حتى من اذني قبعته الفرو كم كانت رغبته شديدة في عدم السفر.

واضاف الرجل الثاني الذي كان يحمل الشعلة المترجرجة والمتقدة:

- يجب البقاء، الجو سئ في العراء.

بينما دمدمت انا عابسا:

- اثنا عشر فرسخا... سنصل. لدي مرضى بحالة خطيرة...

وجلست في الزحافة.

لكنني لم أضف إلى هذا أن فكرة البقاء في الجناح حيث وقعت المصيبة، وحيث كنت عاجزا وبلا نفع، بدت لي لا تطاق.

هوى السائق يائسا في مقعده، واعتدل في جلسته، وتأرجح، وانطقنا خارجين من البوابة. واختفت الشعلة، كما لو انها غاصت في مكان ما، أو انطفأت، لكن بعد لحظة اخذت تشغل بالي قضية

أخرى. فالتفتُ بجهد ورأيت ليس فقط أن الشعلة غير موجودة، بل وان شالوميتيفو قد اختفت مع مبانيها، كما في الحلم. ووخزني ذلك وخزا مؤلما.

وفكرت في قرارة نفسي، أو تمتمت:

- عجيب هذا الامر...

واخرجت انفي للحظة ثم اخفيته مرة أخرى، فقد كان الجو سيئا للغاية. وتجمع العالم كله في كرة صارت تتدحرج في جميع الاتجاهات.

ومضت في رأسي فكرة - ماذا لو نعود؟ بيد انني طردتها وغصت اعمق في التبن في قرار الزحافة، كما لو كنت في زورق، وجعدت جسمي ولويته، واغمضت عيني. وعلى الفور استرجعت في ذهني المصباح المغطى بخرقة خضراء والوجه الشاحب. وعلى حين غرة حضرني صفاء الذهن: "كان ذلك كسرا في قاعدة الجمجمة... نعم، نعم، نعم... اها - اها... بالضبط!". واشتدت ثقتي بان هذا يمثل التشخيص الصائب. حضرني صفاء الذهن. لكن، لاي غرض؟ ما الفائدة من ذلك الآن، وما كان له فائدة حتى من قبل. فما بوسعي العمل معه! أي مصير بشع! لكم هي سخيفة ومخيفة الحياة في هذه الدنيا! ماذا سيحدث الآن في بيت المهندس الزراعي؟ وحتى التفكير بهذا يبعث على القرف والكآبة! ثم اشفقت على نفسي: إن حياتي شاقة جدا. الناس نائمون الآن، والمدافئ موقدة، بينما لم استطع حتى الاستحمام إلى النهاية. والعاصفة الثلجية تحملني كالقشة. ماذا لو استدعيت مرة أخرى إلى مكان ما لدى عودتي إلى البيت. وماذا لو اصاب بالتهاب الرئتين واموت هنا... وهكذا صرت اشفق لحالي، وغلبني النعاس وغصت في لجة القتام، لكنني لا اعرف كم امضيت من الوقت فيه. و لم ادخل اية حمامات، لكنني شعرت بالقر. واشتدت البرودة أكثر فاكثر.

وحين فتحت عيني رأيت ظهرا اسود، ثم ادركت باننا لا نسير، بل نقف.

فسألت وأنا أتفرّس حوالي زائغ البصر:

- هل وصلنا؟

تململ السائق الاسود الهيئة باكتئاب، وفجأة نزل، وتراءى لي أن الرياح تديره في كافة الاتجاهات... وقال بلا أي احترام:

- وصلنا... كان الواجب الاصغاء إلى اقوال الآخرين.. فما معنى هذا! سنهلك نحن والجياد معنا...

وسرت القشعريرة في ظهري:

- أحقاً اننا ضللنا الطريق؟

فأجاب السائق بصوت ينم عن الكدر:

- أي طريق هنا، إن الدنيا كلها صارت بالنسبة لنا طريقا. ضعنا مقابل قرش... اننا نسير منذ أربع ساعات، فالى أين.. هذا ما يجري...

أربع ساعات. وأخذت ابحث، واتلمس الساعة، وأخرجت علبة الثقاب. لماذا؟ لم تكن ثمة أية حاجة لهذا، حيث لم يشتعل أي عود. فانت تشخطه، ويومض - ثم تخمد ناره في لحظة خاطفة.

وقال السائق بصوت جنائزي:

- قلت، أربع ساعات، فما العمل الآن؟

- اين نحن الآن؟

كان السؤال سخيفا إلى درجة أن السائق لم يجد حاجة للرد عليه. وصار يتلفت في مختلف الانحاء، لكن تراءى لي احيانا أنه يقف ساكنا في مكانه بينما تدور بي الزحافة. وزحفت خارجا منها وفجأة

أدركت بأن الثلج يصل حتى الركبتين عند العارضة. وغاص الجواد الخلفي في الثلج المتراكم حتى بطنه. وتدلى عرفه مثل شعر امرأة حاسرة الرأس ومحلولة الشعر.

- هل توقفت بنفسها؟

- نعم. لقد تعذّبت هذه الدواب...

وفجأة استعدت في ذاكرتي بعض القصص ولامر ما شعرت بالحنق على ليف تولستوي.

وجال في خاطري: "كان يحيا أطيب حياة في ياسنايا بوليانا، و لم يكن يؤخذ في أغلب الظن لعيادة الذين في النزع الاخير...".

وأحسست بالشفقة على رجل المطافئ وعلى نفسي. ثم عانيت مرة أخرى من اندلاع خوف فظيع... لكنني اخمدته في صدري.

وتمتمت من بين أسناني:

- هذا من جراء خور العزيمة...

وانبثقت فيّ طاقة جامحة، فقلت، متحسسا أن أسناني تصطك من البرد:

- اسمع، يا عم. لا يجوز لنا الاستسلام لليأس، والا فسنهلك فعلا. انها وقفت قليلا، وأخذت قسطا من الراحة، يجب مواصلة الحركة. فاذهب وامسك الجواد الأمامي من الاعنة، اما انا فسأتولى القيادة. يجب الخروج من هنا، والا فسندفن تحت الثلج.

وبدت اذنا قبعة الفراء بحالة ميئوس منها، لكن السائق زحف مع هذا نحو الامام. وبلغ الجواد الاول، متعثرا في مشيته ومتهاويا بين الفينة والفينة في الثلج وبدا لي خروجنا طويلا لا نهاية له.

واصابت الغشاوة عيني فلم اعد ارى شبح السائق، بينما كان الثلج العاصف الجاف يرتطع بعيني.

وصاح السائق: نو - و!

وصرخت انا ملوّحا بالسوط: نو! نو!

تململت الجياد قليلا، وصارت تكتسح الثلج المتراكم. وكانت الزحافة تتأرجح كما لو أنها فوق الامواج. اما السائق فكان يعلو تارة وينخفض تارة أخرى، ويتقدم نحو الامام.

وسرنا على هذا المنوال نحو ربع ساعة حتى احسست في نهاية المطاف بأن الزحافة صارت تطلق صريرا رتيبا. فغمرتني البهجة حين رأيت الحوافر الخلفية للحصان.

وصرخت:

- الثلج غير عميق، انها الطريق!

ورد السائق:

- نو... نو.

ثم مشى نحوي جاهدا وفجأة بدا بكامل هيئة. وردد رجل المطافئ بابتهاج، وحتى بصوت فيه ترنيمة:

- اظنها الطريق. واخشى ما اخشاه أن نضل الطريق مرة أخرى. عسى الا يحدث ذلك...

وتبادلنا مكانينا. ومضت الجياد مسرعة. وبدا وكأن العاصفة الثلجية قد اخذت تخمد، وصارت تضعف، كما تراءى لي. لكن لم يكن هناك فوقنا وفي الجانبين من شيء سوى العتمة. و لم تعد تراودني الآمال في العودة إلى المستشفى بالذات. واردت بلوغ أي مكان. فلا بد وان تقود الطريق إلى مكان مأهول.

وفجأة غيرت الجياد وتيرة السير وتحركت قوائمها بحيوية اكبر. وابتهجت دون أن أعرف بعد السبب في ذلك.

فسألت: لربما انها تحسست وجود مسكن.

لم يجب السائق. ونهضت في الزحافة وأخذت اتطلع حوالي. وانبثق صوت غريب وكئيب وحانق في وسط الظلام، لكنه سرعان ما زال. ولامر ما شعرت بالانزعاج وتذكرت الوكيل وكيف كان يعول منتحبا بصوت رفيع وقد وضع رأسه بين يديه. وعلى حين غرة لاحظت على جانب اليد اليمنى نقطة قاتمة سرعان ما تنامت إلى قطة سوداء، ثم تنامت أكثر وغدت قريبا. وفجأة التفت رجل المطافئ نحوي، ولاحظت أن فكه يتقافز، وسألني:

- هل رأيت، ايها المواطن الدكتور؟

وانحرف أحد الجوادين نحو اليمين والآخر نحو اليسار، واستلقى رجل المطافئ للحظة في احضاني، وتأوه، واستعدل في جلسته، وصار يتكئ، ويلوح بالسوط. فشخر الجوادان وانطقا. وكانا يجرفان الثلج بحوافرهما، ويقذفانه في اكـوام، ويسيران في مشية غير منتظمة، ويرتجفان.

وسرت القشعريرة في جسدي عدة مرات. وعدت إلى صوابي، ودسست يدي إلى عبي واستخرجت مسدسي البراوننغ ولعنت نفسي لانني نسيت في البيت المشط الثاني. لا، لئن لم ابق للمبيت فلِمَ تركت المشعل و لم آخذه معي؟! ورأيت في خيالي نبأ قصيرا منشورا في الصحيفة عن نفسي ورجل المطافئ التعيس.

وتنامت القطة إلى كلب وجرت بالقرب من الزحالة. والتفت فرأيت قريبا جدا وراء الزحافة وحشا ثانيا ذا أربع ارجل. وبوسعي أن اقسم بانه كان مدبب الاذنين ويجري وراء الزحافة بخفة، كما لو كان يمشي فوق الباركيه. وبدا في اندفاعه شيئاً رهيبا ووقحا. وجال في خاطري: "هل هو قطيع ام هما اثنان فقط؟"، ولدى ذكر لفظة "قطيع"

شعرت وكأن القطران قد سكب على جسدي تحت معطف الفراء و لم تعد اصابع رجلي تشعر بالبرد.

وقلت بصوت هو ليس صوتي، بل هو غريب عني:

– تمسك بقوة ولا تفلت قيادة الجوادين. فسأطلق النار الآن.

ورد السائق بآهة فحسب ودس رأسه بين كتفيه. فلمع شيء ما امام بصري وهدر بصوت يصم الآذان. وتكرر ذلك مرة ثانية وثالثة. ولا اذكر كم من اللحظات بقيت اهتزّ واتأرجح في قرار الزحافة. وكنت اسمع الشخير الوحشي والعالي النبرة للجوادين، واضغط على البراوننغ، وارتطم رأسي بشيء ما، وجاهدت في الخروج من وسط التبن وظننت في رعب قاتل بان جسما قويا ضخما جثم على صدري فجأة. ورأيت في خيالي احشائي الممزق..

وفي تلك اللحظة صاح السائق:

– أو غو... غو... ها هو.. ها.. هو.. يا إلهي، ساعدنا، ساعدنا، ساعدنا..

في نهاية المطاف تخلصت من معطف فراء الضأن الثقيل واخرجت يدي، ونهضت. لم تكن هناك وحوش سوداء لا من الخلف ولا من الجانبين. وتساقط الثلج قليلا جدا وبشكل محترم، وومض في العتمة الخفيفة بصيص نور ساحر للغاية، كنت سأعرفه من بين آلاف الانوار، وقدعرفته الآن أيضاً. لقد كان يومض مصباح مستشفاي. وكان ينداح ظل قاتم وراءه. "انه اجمل بكثير من القصر.." – جال ذلك في قرارة نفسي وعلى حين فجأة وفي غمرة الجذل اطلقت عيارين اثنين من البراوننغ نحو الخلف، حيث اختفت الذئاب.

* * *

كان رجل المطافئ يقف بوسط السلالم المؤدية إلى القسم الاسفل من شقة الطبيب الممتازة، بينما وقفت انا في اعلى السلالم، اما كسينيا الملتفعة بمعطف ضأن فكانت في الاسفل.

وقال السائق:

– امطروني بالذهب، لكن في مرة أخرى... – و لم يكمل عبارته، وتجرع الكحول الممزوج بالماء دفعة واحدة وتنحنح بشدة، والتفت إلى اكسينيا واضاف، ناشرا ذراعين بالقدر الذي تسمح به بنيته، قائلا:
– بهذا الحجم...

وسألتني كسينيا:

– هل توفيتْ؟ لم تستطع انقاذها؟

فأجبت بلا اكتراث:

– انها توفيت.

بعد ربع ساعة ران الصمت على المكان. وانطفأ النور في الاسفل. وبقيت لوحدي في الاعلى. ولامر ما غلبتني نوبة من الضحك وفككت ازرار البلوزة، ثم زررتها، ودنوت من رف الكتب واستخرجت مجلد الجراحة، واردت القاء نظرة على شيء ما حول كسور قاعدة الجمجمة، والقيت الكتاب جانبا.

وعندما خلعت ملابسي واستلقيت تحت اللحاف، تملكتني رجفة للحظة، ثم زالت، وسرى الدفء في جسدي كله.

وهمست وانا اغالب النعاس:

– امطروني بالذهب، لكنني لن اذهب أكثر...

– ستذهب... لكنك، ستذهب...

كانت العاصفة الثلجية تصفر بسخرية. ومضت هـادرة فوق السقف، ثم عوت في المدخنة، وانطلقت منها، وهسهست وراء النافذة، واختفت.

ودقت الساعة:

- ستذهب... ستذ.. هـ.. ب...

لكن بصوت مكبوت أكثر فاكثر.

ولا شيء. صمت. نوم.

ظلام دامس[41]

اين العالم بأسره في يوم ميلادي؟ اين الانوار الكهربائية بموسكو؟ والبشر؟ والسماء؟ ما من شيء وراء النوافذ! ظلام...

اننا منقطعون عن البشر. وتبعد اولى مصابيح الكاز عنا مسافة تسعة فراسخ، في محطة السكك الحديدية. واغلب الظن ثمة مصباح يومض هناك، ويحتضر بسبب العاصفة الثلجية. وسيمر القطار السريع في منتصف الليل إلى موسكو وحتى لن يتوقف - فما حاجته إلى هذه المحطة المنسية، المدفونة في الزوبعة الثلجية. الا إذا طمرت الثلوج الطريق.

اما اولى المصابيح الكهربائية فتبعد عنا مسافة اربعين فرسخا، في المدينة، مركز القضاء. والحياة لذيذة هناك. ففيها سينما ومتاجر. وبينما تعوي الرياح وتنهال الثلوج في العراء، ربما يبدو على الشاشة السينمائية القصب، وتتأرجح اشجار النخيل، وتلوح جزيرة استوائية.

ونحن لوحدنا.

---

(٤١) يلجأ الكاتب إلى التورية في تسمية هذه القصة. فهي مأخوذة من الكتاب المقدس ("فكان ظلام في كل أرض مصر"، العهد القديم، خروج، الاصحاح العاشر). والعبارة المذكورة ترد في الترجمة الروسية بما معناه حرفيا "ظلام مصري". ولكنها استخدمت في الأدب الروسي والحياة اليومية لتعطي معنى "الظلام الدامس" وكذلك "الجهل المطبق". ويورد الكاتب كلا المعنيين في هذه القصة. المترجم.

ولاحظ مساعد الطبيب ديميان لوكيتش مزيحا الستارة قليلا:

- ظلام دامس.

ان تعابيره فخمة، لكنها دقيقة جدا. انه - دامس بالذات فعلا.

ودعوته:

- تفضل، خذ قدحا آخر. (آه، لا تدينونا. فالطبيب ومساعده والقابلتان هم من البشر أيضا. ونحن لا نرى احدا طوال اشهر عديدة باستثناء مئات المرضى. ونحن نعمل مدفونين تحت الثلج، اذن ألا يجوز لنا احتساء قدحين من الكحول الممزوج بالماء، حسب وصفة طبية لهذا الغرض، وتناول سمك الاسبرط المعلب الذي يؤكل ايام الاعياد في الاقاليم، في يوم عيد ميلاد الطبيب؟).

وقال ديميان لوكيتش متعاطفا:

- نخب صحتك يا دكتور.

وقالت آنا نيكولايفنا، وقرعت الكأس وهي تعدل من وضع فستانها المشجر الخاص بالزيارات.

- نتمنى لك أن تعتاد على الحياة عندنا!

اما القابلة الثانية، بيلاغيا ايفانوفنا، فقرعت الكأس واحتست جرعة منه، وعلى الفور جلست القرفصاء وحركت الجمرات في المدفأة بالملقط. وانعكس الوميض الساطع على وجوهنا، واحسسنا بالدفء في الصدور بتأثير الفودكا.

وبدأتُ بالكلام بانفعال متطلعا إلى سحابة الشرارات المندلعة تحت الملقط:

- انني لا افقه مطلقا، ماذا فعلت تلك المرأة بالبيلادونا. فهذا فظيع.

اضاءت الابتسامات وجوه مساعد الطبيب والقابلتين.

واليكم القصة. شقت طريقها إلى غرفة العيادة صباح اليوم امرأة ذات وجه احمر في نحو الثلاثين من العمر. وانحنت على كرسي التوليد الكائن خلفي محيية، ثم استخرجت من عبّها قارورة واسعة العنق، وقالت بتملق في لهجة متناغمة:

– شكرا لك ايها المواطن الدكتور على القطرات. انها ساعدتني، ساعدتني جدا!.. ارجوك اعطني علبة أخرى.

فتناولت القارورة من يدها، ونظرت إلى ما كتب عليها، فجمد الدم في عروقي. اذ كان مكتوبا بخط ديميان لوكيتش العريض الحروف "Tinct. Belladonna" ... والخ. "١٦ ديسمبر عام ١٩١٧".

بتعبير آخر، انني وصفت إلى المرأة جرعة كبيرة من البيلادونا، واليوم في عيد ميلادي ٧١ ديسمبر، جاءت هذه المرأة حاملة القارورة فارغة ورجت أن اكرر الوصفة.

وسألتها بصوت ينم عن دهشة بالغة:

– انت.. انت.. انت تناولت الدواء كله يوم أمس؟

فردت المرأة بصوت عذب:

– كله، يا عزيزي السيد. اطال الله عمرك ثوابا على هذه القطرات... لقد تناولت نصف العلبة حالما وصلت إلى البيت، اما النصف الآخر فتناولته قبيل النوم. وتوقف الالم.

أتكأتُ على كرسي التوليد.

– كم عدد القطرات التي وصفتها لك؟ – قلت ذلك بصوت مخنوق. – انني اوصيتك خمس قطرات... ما الذي تفعلين يا امرأة. انت... انا...

فقالت المرأة، معتقدة انني لا اصدقها، وانها تعالجت بدوائي.

- والله تناولتُه!

قبضت بيدي على خديها المتوردين، واخذت ابحلق في مقلتيها، لكنهما كانتا في حالة طبيعية، فهما جميلتان جدا وطبيعيتان تماما. كما كان نبضها رائعا. وعموما لم تظهر عليها علائم التسمم بالبيلادونا.

وجأرت صارخا:

- هذا مستحيل!.. ديميان لوكيتش!!!

ظهر ديميان لوكيتش مرتديا صديرية الصيدلي من رواق الصيدلية.

- انظر ديميان لوكيتش، ماذا فعلت هذه الحلوة! انا لا افهم شيئا...

وادارت المرأة رأسها مرتعبة، مدركة بأنها اقترفت فعلة ما.

فتناول ديميان لوكيتش القارورة وتشممها، وهزّها بيده، وقال بحزم:

- انت يا حلوتي تكذبين. انت لم تشربي الدواء.

وصارت المرأة تردد:

- والله...

وقال ديميان لوكيتش بصرامة، وقد إلتوى فمه:

- يأ امرأة، لا تخدعينا. نحن نفهم المسألة كلها حق الفهم. اعترفي، لمن اعطيتِ هذه القطرات للعلاج؟

ورفعت المرأة مقلتيها العاديتين نحو السقف الناصع البياض ورسمت علامة الصليب.

- احلف...

ودمدم ديميان لوكيتش: كفى، كفى...

والتفت اليّ.

- انهم يا دكتور يفعلون كالآتي: تأتي شاطرة مثل هذه إلى المستشفى، وتأخذ وصفة دواء، ثم تذهب إلى القرية وتقري جميع نساء القرية.

- ماذا تقول ايها المواطن مساعد الطبيب؟

وقاطعها مساعد الطبيب:

- كفى. انا اعمل في هذه الانحاء منذ ثمانية اعوام. واعرف.
- وتابع يقول مخاطبا اياي: - طبعاً، انها وزعت القارورة كلها على جميع البيوت.

وتوسلت المرأة:

- اعطني المزيد من هذه القطرات.

- لا يا امرأة. - اجبتها وانا امسح العرق من جبهتي. - انك لن تعالجي بهذه القطرات أكثر. هل تحسّن وضع بطنك؟

- لقد زال الالم تماما!..

- هذا رائع. سأصف لك ادوية أخرى، جيدة جدا أيضاً.

وكتبت للمرأة وصفة نقيع حشيش الهرّ. فانصرفت بخيبة امل.

وقد تحدثنا عن هذا الحادث في شقتي، في يوم عيد ميلادي، حين اسدل الظلام الدامس حجبه وراء النوافذ ووسط العاصفة الثلجية.

وقال ديميان لوكيتش وهو يمضغ بعناية السمك بالزيت:

- هذا لا شيء... ونحن اعتدنا هنا. لكن عليك يا دكتوري العزيز بعد الجامعة، وبعد العاصمة، أن تعتاد جداً، جداً. إنّها منطقة نائية.

ورددت آنا نيكولايفنا كالصدى:

- آه، ويا لها من منطقة نائية!

عوت العاصفة الثلجية في مكان ما من المدخنة، وسمع حفيف وراء الجدران. وتساقط وهج احمر على اللوح الحديدي القاتم اللون بالقرب من المدفأة. لتبارك النار التي تدفئ ذوي المهن الطبية في الاقاليم النائية!

قال مساعد الطبيب:

- هل سمعت بسلفك ليوبولد ليوبولدوفيتش؟

وقدم بأدب سيجارة إلى آنا نيكولايفنا ودخن نفسه.

بينما قالت بيلاغيا ايفانوفنا بابتهاج متطلعة بعينين متألقتين في النار المباركة.

- كان طبيبا ممتازا!

كان يتألق في شعرها الاسود ويخبو المشط الانيق المرصع بالاحجار الثمينة المزيفة.

فأكد مساعد الطبيب قائلا:

- نعم، كان شخصية مرموقة. كان الفلاحون يعبدونه حقا، لمعرفته كيفية معاملتهم. فهم يقبلون على اجراء عمليات جراحية لهم مَن قبل "ليبونتي". كانوا يسمونه ليبونتي ليبونتوفيتش بدلا من ليوبولد ليوبولدوفيتش. وابدوا ثقتهم فيه. وكان يجيد التحدث معهم. مثلا، جاء مرة صديقه فيودور كوسوي، من دولتسيفو، لكي يعالجه. وقال كذا وكذا يا ليبونتي ليبونتيش، فصدري مسدود حتى انا عاجز عن التنفس، علاوة على ذلك يبدو كأن شيئاً ما يخدش بلعومي...

وقلت بلا ارادتي تلقائيا:

- التهاب الحنجرة.

فقد اعتدت في غضون شهر من العجلة المحمومة على اعطاء التشخيصات الخاطفة في الأرياف.

- صحيح تماما. كان ليبونتي يقول: "حسنا سأعطيك دواء. وستتعافى بعد يومين. هاك لبخات فرنسية. تضع واحدة على ظهرك بين لوحي الكتف، اما الأخرى فعلى الصدر. وتبقيهما لفترة عشر دقائق، ثم ترفعهما. اذهب. اذهب، وافعل هذا".

فأخذ ذاك اللبخات وانصرف.

وبعد يومين جاء إلى غرفة العيادة.

وسأل ليبونتي: "ما القضية؟"

بينما قال له كوسوي:

"المسألة ليبونتي ليبونتيتش أن لبخاتك لا تنفع في شيء".

فرد ليبونتي: "تكذب! لا يمكن الا تنفع اللبخات الفرنسية. لا بد وانك لم تضعها".

"كيف لم اضعها، انها حتى الآن موضوعة في مكانها".

واذاك اذار ظهره، وبدت اللبخة ملتصقة على معطف فراء الضأن!

فضحكتُ، اما بيلاغيا ايفانوفنا فقهقهت وصارت تدق الملقط على كتلة الحطب بعنف.

وقلت:

- لا بد وان هذه نكتة، فذاك مستحيل!

وهتفت القابلتان في آن واحد:

- أهي نكتة؟!

وصاح مساعد الطبيب مؤكدا بحزم:

- كلا! إنّ حياتنا هنا كلّها تتألّف من مثل هذه النكات... تحدث عندنا أمور غريبة.

وجأرت آنا نيكولايفنا:

- والسكّر. حدّثيه عن السكر يا بيلاغيا ايفانوفنا!

أغلقت بيلاغيا ايفانوفنا باب كوة المدفأة وشرعت في الكلام مسبلة العينين:

- ذهبت إلى دولتسيفو هذه لعيادة امرأة ماخض...

فلم يطق مساعد الطبيب صبرا وقال:

- إنّ دولتسيفو هذه مكان ذائع الصيت - ثم أضاف - العفو، واصلي الكلام يا زميلتي.

وقالت بيلاغيا ايفانوفنا:

- طبعاً، بدأت أفحصها. وتحسست تحت اصابعي في المهبل شيئاً غير مفهوم... فتارة هو رخو، وتارة بهيئة قطع... وتبين انه قطع سكر!

ولاحظ ديميان لوكيتش:

- يا لها من نكتة!

- ماذا تقولان، انا لا افهم شيئا...

وردت بيلاغيا:

- العجوز، الحكيمة، علمتها القيام بذلك. وقالت إن الولادة

صعبة لديها. والمولود لا يريد الخروج إلى هذه الدنيا. اذن يجب اغراؤه. وهكذا اخذوا يغرونه بالسكاكر!

وقلت:

– فظاعة!

وقالت آنا نيكولايفنا:

– انهم يعطون الماخضات شعر الخيل لمضغه.

– لماذا؟

– من يدري؟ جاءوا الينا بالماخضات ثلاثة مرات. فكانت المرأة المسكينة راقدة ولا تكف عن البصاق، وفمها مملوء بالشعر. لديهم فأل بان الولادة ستكون اسهل على حد زعمهم...

وتألقت عيون القابلتين لدى استعادة الذكريات. وجلسنا فترة طويلة عند المدفأة لاحتساء الشاي، وكنت اصغي كالمسحور. وقالتا انه في كل مرة يأتون فيها بالواضعة النفساء إلى المستشفى تستقل بيلاغيا ايفانوفنا دائما الزحافة الثانية في المؤخرة: لئلا يغيروا رأيهم في الطريق، ولئلا يعيدوا المرأة إلى يدي الحكيمة. وتحدثنا عن كيف حدث مرة أن علقت المرأة من ساقيها إلى السقف بسبب كون الطفل في وضعية غير صحيحة، من أجل أن يستدير المولود في وضعيته. وكيف أن الحكيمة في قرية كوروبوفو التي سمعت أن الاطباء يقومون بوخز حويصلة الجنين، قطعت رأس المولود بسكين الطعام بشكل حتى ان رجلا شهيراً حاذقاً مثل ليبونتي لم يستطع إنقاذه، ولحسن الحظ أنقذ حياة الأم... وكيف...

أغلقت كوة المدفأة منذ وقت بعيد. وانصرف ضيوفي إلى جناحهم. ورأيت كيف انيرت النافذة بضوء شاحب في غرفة آنا نيكولايقنا، ثم

انطفأت. واختفى كل شيء. وخيم المساء الديسمبري الشديد العتمة اضافة إلى العاصفة الثلجية، واخفى ستار اسود السماء والارض عن ناظري.

كنت اذرع غرفة مكتبتي جيئة وذهابا، والارضية تصر تحت قدمي، واشاعت المدفأة الهولندية الدفء في الغرفة، وسمعت كيف انهمكت فأرة بهمّة في قضم شيء ما.

وفكرت في قرارة نفسي:

"لا، سأكافح الجهل المطبق بالقدر الذي تبقيني فيه الاقدار هنا، في هذه الاصقاع النائية. قطع سكر... يا للعجب!"

وفي وسط الاحلام التي كانت تولد في ضوء المصباح ذي الغطاء الاخضر انبثقت مدينة جامعية ضخمة، وفيها مستشفى، وفي المستشفى قاعة كبيرة، ذات ارضية مزخرفة من الخزف وصنابير لامعة وشراشف ناصعة البياض. وثمة مساعد لي ذو لحية مدببة، وتنم عن حكمة بالغة جدا، وقد وخطها الشيب...

إن قرع الباب في مثل هذه اللحظات يثير دوما القلق والرعب. فجفلت...

وسألت: كسينيا، من هناك؟

كنت أقف على طارمة الطابق الثاني منحنياً فوق السلم الداخلي (كانت شقة الطبيب مؤلفة من طابقين: في الأعلى غرفة المكتب وغرف النوم، وفي الأسفل غرفة الطعام وغرفة أخرى لا يعرف الغرض منها، والمطبخ الذي كانت تعيش فيه الطباخة كسينيا وزوجها حارس المستشفى الدائم).

وهدرت السقاطة الثقيلة، وتسلّل ضوء المصباح وتأرجح في

الأسفل. وهبّ نسيم بارد. ثم أبلغتني كسينيا:

- لقد جاء مريض...

والحق أنني سررت بهذا. فلم تكن لدي رغبة في النوم وبدأت اشعر بشيء من الكآبة والوحدة بسبب قضم الفأرة والذكريات. كما انه مريض ومعنى ذلك ليست امرأة، وليس ما هو افظع الاشياء - أي الوضع.

- هل يمشي؟

فأجابت اكسينيا متثائبة:

- انه يمشي.

- اذن، دعيه يدخل إلى غرفة المكتب.

وانبعث صرير من السلم لفترة طويلة. وصعد رجل ضخم الجثة، كبير الوزن. وكنت عندئذ قد اتخذت مكاني وراء المكتب، ساعياً إلى أن لا تنفلت نضارتي في سن الرابع والعشرين قدر الإمكان من هيئة الطبيب التي تفرضها المهنة. وكانت يدي اليمنى موضوعة على السماعة وكأنها المسدس.

اندس في الباب شخص يرتدي معطفا من فراء الضأن وحذاءين من اللباد. وكان ذلك الشخص يمسك بقبعة الفراء في يديه.

فسألت بوقار على سبيل الكلام:

- ما لك يا عم جئت في مثل هذا الوقت المتأخر؟

ورد الشخص بصوت جهوري عذب ورقيق:

- المعذرة، ايها المواطن الدكتور، إن العاصفة الثلجية - بلية حقا. لذا فقد تأخرنا، فما العمل، اغفر لنا ذلك، أرجوك!

وجال في خاطري: "إنه رجل دمث الاخلاق". لقد أعجبني الشخص جدا، وحتى ان لحيته الكثة الحمراء تركت لدي انطباعاً طيّباً. اغلب الظن أن هذه اللحية كانت تحظى بشيء من العناية. فصاحبها لم يكن يقصها فحسب، بل وحتى يدهنها بمادة ما بوسع الطبيب، الذي امضى ولو فترة قصيرة في الريف، التخمين بيسر بأنها زيت نباتي.

- ما القضية؟ اخلع المعطف. من اين انت؟

تكوّم معطف الفراء فوق الكرسي.

فاجاب المريض:

- لقد عذّبتني الحمى - ثم تطلع اليّ حزينا.

- حمى؟ اها! انت من دولتسيفو؟

- بالضبط. انا طحّان.

- وكيف تعذبك؟ حدثني!

- في كل يوم حين تدق الساعة الثانية عشرة اشعر بوجع في الرأس، ثم تبدأ السخونة... وتمضّني نحو الساعتين ثم تزول.

ورن صوت ظافر في رأسي: "التشخيص جاهز!".

- اما في الساعات الباقية فهل الوضع طيب؟

- اشعر بضعف في الساقين

- اها... اخلع ملابسك! هم... هكذا.

في نهاية الفحص اثار المريض اعجابي. فبعد العجائز الجاهلات، واليافعين الفزعين، الذين يجفلون رعبا من البوق المعدني، وبعد المزحة الصباحية بالبيلادونا كانت عيني الجامعية تستجم مع هذا المريض.

كان كلام الطحّان يدل على المعرفة والفهم. علاوة على ذلك، فقد

تبين انه متعلم، وحتى ان كل حركة من حركاته مترعة باحترام العلم الذي اعتبره علمي المحبوب – أي الطب.

وقلت له، وانا ادق على صدره العريض الدافئ:

– المسألة يا صاحبي انك مصاب بالملاريا. الحمى المتقطعة ولدي الآن ردهة كاملة فارغة. وانصحك جدا بالرقاد فيها. وسنعتني بك كما ينبغي. وسأبدأ بعلاجك بالدواء، واذا لم ينفع فسنستخدم الحقن. وسنحقق النجاح. اها؟ هل سترقد؟..

فردّ الطحّان بكل أدب:

– شكرا جزيلا. لقد سمعنا عنك. والجميع راضون. ويقولون انك تساعدهم... وانا موافق على الحقن أيضاً، شرط أن أتعافى.

وفكرت في قرارة نفسي: "هو حقا بصيص نور في الظلام!" ثم جلست إلى الطاولة من أجل الكتابة. وغمرني دقيقتئذ شعور بالارتياح البالغ، كما لو جاء ليحل ضيفا علي في المستشفى ليس الطحّان بل شقيقي.

وكتبت في القسيمة:

Chinini mur. 0,5.
.D. T. dos. W 10
الى الطحان خودوف
بمعدل قرص واحد في منتصف الليل.

ومهرت الورقة بتوقيعي بحركة رشيقة.

كما كتبت على قسيمة أخرى:

"بيلاغيا ايفانوفنا! ادخلي الطحّان في الردهة الثانية. هو مصاب

بالملاريا. يعطى قرص من الكينين، كالواجب، أي قبل ٤ ساعات من بدء النوبة، أي عند منتصف الليل.

هاك الاستثناء! طحّان مثقف!".

كنت قد اويت إلى فراشي حين تلقيت من يدي كسينيا العابسة والمتشائبة الرسالة الجوابية: "الدكتور العزيز! نفذت جميع التعليمات. بيلا. لبوفا".

وغفوُت.

... ثم استيقظتُ؟

وتمتمت:

– ماذا تقولين؟ ماذا؟ ماذا، يا كسينيا؟

كانت كسينيا تقف متسترة بخجل بالتنورة ذات النقط البيض على الحاشية القاتمة اللون.

– لقد جاءت ماريا الآن، امرت بيلاغيا ايفانوفنا، باستدعائك الآن.

– ماذا حدث؟

– تقول إنّ الطحّان في الردهة الثانية ينازع سكرات الموت.

– ماذا – ذا! ينازع الموت؟ كيف ينازع الموت؟!

في لحظة خاطفة احسّت قدماي العاريتان بالارضية الباردة، دون أن تبلغا الخفّين. وكسرت عود ثقاب ودسسته لفترة طويلة في فتيلة المصباح قبل أن تشتعل بنور ازرق. كانت الساعة تشير إلى السادسة بالضبط.

"ما القضية ؟.. هل من المعقول انها ليست ملاريا؟ ! اذن ما هو مرضه؟ والنبض ممتاز..."

بعد حوالي خمس دقائق كنت ارتدي الجوارب بالمقلوب وامضي بالجاكتة مفتوحة الازرار وبشعر منفوش وبحذاءي اللباد، ومرقت عبر الفناء، الذي كان ما زال مظلما تماما، وهرعت إلى الردهة الثانية.

كان الطحّان يرتدي رداء المستشفى فقط ويجلس في الفراش المكشوف، وإلى جانبه شرشف مكرمش. واناره مصباح كاز صغير. وبدت لحيته الحمراء منفوشة، وتراءى لي أن عينيه سوداوان واسعتان. كان يتأرجح كالسكران. ويتطلع حواليه بفزع، ويتنفس بصعوبة...

فيما كانت الممرضة ماريا تتطلع، فاغرة الفم، إلى سحنته القاتمة - القانية. وهبّت للقائي بيلاغيا ايفانوفنا، بصديرية لبستها باعوجاج، وحاسرة الرأس محلولة الشعر.

فهتفت بصوت متحشرج:

- دكتور! اقسم لك انني لست مذنبة! من كان يتوقع؟ انت نفسك كتبت - انه مثقف.

- ما القضية؟

وبسطت بيلاغيا ايفانوفنا ذراعيها ونبرت:

- تصور يا دكتور! لقد ابتلع جميع اقراص الكينين العشرة دفعة واحدة! في منتصف الليل.

* * *

لاح فجر شتائي تشوبه العتمة. وكان دميان لوكيتش يلملم مسبر المعدة. وفاحت رائحة زيت الكافور. اما الوعاء على الارضية فكان مملوءا بسائل بني ادكن. ورقد الطحّان منهك القوى، شاحب الوجه، وقد غطاه الشرشف الابيض حتى الذقن. وانتصبت لحيته الحمراء. اما انا فكنت منحنيا فوقه وتلمست النبض واقتنعت بان الطحّان افلت من الموت بسلام.

وسألته: كيف الحال؟

فقال الطحّان بصوت جهوري ضعيف:

- الظلام الدامس يغشى عيني.. او.. اوه!

واجبته بانزعاج:

- ولدي أيضاً!

وقال الطحّان (كان ما برح ثقيل السمع):

- ماذا؟

فصرخت في اذنه بصوت اعلى:

- اوضح لي شيئاً واحدا فقط يا عم: لماذا فعلت هذا؟!

وقال الصوت الجهوري بكآبة ونفور:

- انني فكرت لِمَ المماطلة والجرجرة معكم بتناول قرص واحد؟ فتناولتها جميعا - وانهيت المسألة.

وهتفت انا قائلا:

- هذا فظيع!

وقال مساعد الطبيب كما لو كان يتحدث بلامبالاة تشوبها السخرية:

- نكتة!

* * *

"كلا، كلا... سأكافح. اناسـ... انا..." واجتاحني النوم اللذيذ بعد الليلة الشاقة. وانسدلت غشاوة من الظلام الدامس... وتراءى لي فيها كما لو انني... اشهر سيفا، أو سماعة الطبيب. وامضي ...

واكافح... في الاصقاع النائية. لكني لست وحدي. فمعي عسكري وهم: ديميان لوكيتش وآنا نيكولايفنا وبيلاغيا ايفانوفنا. وجميعهم بالصديريات البيض، وجميعهم يندفعون إلى الامام، إلى الامام...

ان النوم – شيء ظريف!..

الحلقوم الفولاذي

هكذا بقيت وحيدا. وخيمت على المكان حوالي عتمة نوفمبر مع دوامـات الثلج، الذي غمر البيت، وتردد العويل في المداخن، لقد عشت الاربع والعشرون سنة من حياتي كلها في مدينة ضخمة، وكنت اظن أن العواصف الثلجية تدوّي في الروايات فقط. لكن تبين انها تدوّي فعلا. والامسيات هنا طويلة بشكل غير اعتيادي، وكان المصباح ذو الاباجور الازرق ينعكس في النافذة السوداء، فيما صرت انا احلم متطلعا إلى البقعة المضيئة من جانب يدي اليسرى. صرت احلم بمركز القضاء - المدينة التي تبعد اربعين فرسخا عني. ووددت كثيرا الهرب من نقطتي إلى هناك. فهناك يوجد تيار كهرباء واربعة اطباء، وكان بمقدوري التشاور معهم، وعلى أي حال ليس الامر مفزعا بهذا القدر. لكن لم توجد اية امكانية للهرب، علاوة على انني كنت في بعض الاوقات ادرك بنفسي بان ذلك يجسد لدي ضعف العزيمة. فانني درست في كلية الطب من أجل هذا الغرض بالذات...

"... لكن ماذا لو جلبوا امرأة ولديها انحراف في الوضع؟ أو لنفرض جاءوا بمريض مصاب بالفتق المنحصر؟ فماذا سأفعل عندئذ؟ انصحوني، واعملوا معروفا. قبل ثمانية واربعين يوما خلت انهيت الكلية بدرجة امتياز، لكن الامتياز لشأنه، والفتق لشأنه. انا رأيت مرة واحدة كيف اجرى البروفيسور عملية للفتق المنحصر. كان يجريها، اما انا فكنت جالسا في المدرج. وفقط ".

سال العرق البارد على حبلي الظهري أكثر من مرة لدى التفكير بالفتق. وكنت اجلس في كل مساء بالوضعية ذاتها، محتسيا الشاي:

اذ كانت تحت يدي اليسرى جميع مراجع الارشادات حول التوليد الجراحي، وفوقها مجلد "دودرلاين" صغير الحجم. ومن الجهة اليمنى ثمة عشرة مجلدات مختلفة في الجراحة العملياتية، مع الرسوم. وكنت أتأوه وادخن واشرب الشاي الاسود البارد...

وها أنذا قد اخلدت إلى الكرى: وانا اذكر جيدا تلك الليلة - ٢٩ نوفمبر، اذ استيقظت على صوت قرقعة في الباب. وبعد خمس دقائق، وبينما كنت ارتدي السراويل، لم ابعد عينيّ المبتهلتين عن الكتب "الربانية" عن العمليات الجراحية. وسمعت صرير الزلاجات في الفناء: لقد أصبح سمعي مرهفا للغاية. اذن لقد حدث ما هو افظع من الفتق، وحتي الوضع المستعرض للجنين. فقد جاءوا اليّ بصبية في مستشفى نيكولسكي عند الساعة الحادية عشرة مساء. وقالت الممرضة بصوت خافت:

- الصبية خائرة القوى، انها تنازع الموت... ارجوك، يا دكتور، تعال إلى المستشفى...

واذكر انني عبرت الفناء، ومشيت نحو مصباح الكاز الكائن عند مدخل المستشفى، ونظرت كالمسحور إلى كيف يومض. كانت غرفة العيادة منارة، وجميع قوام مساعديّ في انتظاري وقد ارتدوا ملابسهم والصديريات. وهم: مساعد الطبيب ديميان لوكيتش، وكان ما زال في ريعان الشباب، ورجلا كفوءا جدا، وقابلتان المحنكتان - آنا نيكولايفنا وبيلاغيا ايفانوفنا. وكنت طبيبا في الرابعة والعشرين من العمر فقط، تخرجت قبل شهرين، وتم تعييني مديرا لمستشفى نيكولسكي.

فتح مساعد الطبيب الباب على مصراعيه في أبهة، وبدت الأم. ولاح لي كما لو انها انطلقت منزلقة في حذاءي اللباد، و لم يكن الثلج على منديل رأسها قد ذاب بعد. وكانت تحمل بيديها صرّة، يصدر

منها غطيط وصغير. وكانت سحنة الأم ملتوية، وتواصل النحيب بلا صوت. وحين ألقت عن كتفيها معطف فراء الضأن ونزعت المنديل وفتحت الصرّة رأيت صبية صغيرة في نحو الثالثة من العمر. وتطلعت إليها فنسيت لحين من الزمن الجراحة العملياتية، والوحدة، وحملي الجامعي العاطل، ونسيت كل شيء على الاطلاق بسبب جمال الصبية. وبم يمكنني تشبيهها؟ لربما فقط برسوم الاطفال على علب الحلوى - فشعرها مجعد بطبيعته بجدائل ملفوفة كبيرة كالشعير الناضج تقريبا.. والعينان زرقاوان، واسعتان، والخدان مثل خدود الدمى. الفنانون يرسمون الملائكة بهذه الصورة. لكن فقط عشعشت غشاوة غريبة في قرارة العينين، وادركت بانه الرعب - اذ ليس بمقدورها التنفس. وفكرت عن ثقة تامة في دخيلة نفسي: "ستموت بعد ساعة"، وانقبض فؤادي بألم...

كانت النتوءات في حنجرة الصبية تنبجس لدى كل نفس، والعروق تنتفخ، ويتحول وجهها من اللون الوردي إلى الليلكي الباهت. وقد ادركت هذه التلاوين فورا وقيّمتها. وفي اللحظة ذاتها فطنت إلى جوهر القضية، ووضعت التشخيص الاول بصورة صائبة تماما، والشيء الاساسي، انني فعلت ذلك في آن واحد مع القابلتين - فقد كانتا محنكتين: "ان الصبية مصابة بالخناق الدفتيري، وقد امتلأ حلقومها بالاغشية وسرعان ما سينغلق تماما..."

وسألت وسط الصمت المشوب بالحذر لدى العاملين معي:

- كم يوما يستمر مرض الصبية؟

فقالت الام:

- اليوم الخامس، الخامس.

ورنت نحوي بمقلتين جافتين طويلا.

فقلت لمساعدي عبر اسناني:

- انه الخناق الدفتيري.

ثم خاطبت الأم بقولي:

- وانتِ بم كنتِ تفكرين؟ بما كنتِ تفكرين؟

وفي هذه اللحظة انطلق من ورائي ناشج:

- الخامس، يا سيدي، الخامس!

فالتفتُ ورأيت خلفي عجوزا وادعة، مستديرة المحيا تضع منديلا على رأسها. وجال في خاطري وقد غمرني احساس كئيب بالخطر: "حبذا لو لم يكن وجود لهؤلاء العجائز في الدنيا عموما". وقلت:

- انت يا جدة اسكتي، فانك تعيقيننى عن العمل. - وكررت قولي إلى الام: - بم كنتِ تفكرين؟ خمسة ايام؟ ها؟

وفجأة سلمت الأم الصبية إلى الجدّة بحركة تلقائية وركعت امامي.

- اعطها دواء، - قالت ذلك ودقت الارض بجبهتها، - سأشنق نفسي إن ماتت.

وأجبت:

- انهضي في التو واللحظة، وإلّا فإنني لن أكلّمك.

- فنهضت الأم بسرعة، وقد انبعث حفيف من تنورتها العريضة، وتناولت الصبية من الجدّة وراحت تهزها. واخذت الجدّة تصلي امام عضادة الباب، بينما كانت الصبية تواصل التنفس بصفير اشبه بالفحيح. وقال المساعد:

- هذا ما يفعلونه دائما. يا لهم من بشر. - والتوى شارباه عندئذ جانبا.

وسألت الام، وهي ترمقني بحنق شديد، كما تراءى لي:

– اذن، معنى ذلك، انها ستموت؟

وقلت بصوت خفيض وبحزم:

– ستموت.

فأخذت الجدّة على الفور طرف ثوبها وأخذت تمسح به عينيها. بينما صرخت الأم بصوت متوحش:

– اعطها، ساعدنا! اعطها الدواء!

ورأيت بجلاء ماذا ينتظرني، وكنت جازما.

– أي دواء سأعطيها؟ انصحيني. إن الصبية تختنق، وقد انسد حلقها. إنك عذبت الصبية على مدى خمسة ايام في مكان يبعد خمسة فراسخ عني. والآن ماذا تأمرينني أن أفعله؟

وناحت الجدّة عند كتفي الأيسر بصوت مصطنع:

– أنت تعرف أحسن منّا، يا سيدي.

وعلى الفور كرهتها. فقلت لها: صه!

ثم التفت إلى المساعد وأمرته بأخذ الصبية. وسلّمتْ الأم الصبية إلى القابلة، فيما راحت الصغيرة تتململ ويبدو أنها أرادت الصراخ، لكن لم يبدر عنها صوت. وأرادت الأم حمايتها، بيد أننا أقصيناها، وتسنّى لي التطلّع إلى حنجرة الصبية على ضوء مصباح "البرق". ولم أكن قد رأيت الدفتيريا قبل هذا، باستثناء بعض الحالات الخفيفة والزائلة من الذاكرة بسرعة. كانت الحنجرة ممتلئة بشيء فاتر وأبيض وممزّق. وفجأة زفرت الصبية وبصقت في وجهي، لكنّني لأمر ما لم افزع من أجل عيني، لانشغالي بأفكاري.

وقلت، مندهشاً لهدوئي نفسي:

- المسألة هي كالآتي: لقد فات الأوان. إنّ الفتاة في الرمق الأخير. ولن يساعدها شيء باستثناء أمر واحد هو العملية.

أنا نفسي ارتعبت لهذا، فلماذا قلت ذلك - لكن لم يكن بميسوري عدم قوله. وومضت لدي فكرة: "لكن ماذا لو وافقتا؟".

فسألت الام: كيف؟

وشرحت لها قائلا:

- يجب قطع الحلقوم في الأسفل، ووضع أنبوبة فضية هناك، من أجل اعطاء الفرصة للصبية من أجل التنفس. إذّاك لربما سننقذها.

رنت الأم نحوي كما لو انني مصاب بمس من الجنون، وحجبت الصبية عني بذراعيها. بينما همهمت الجدّة مرة أخرى:

- ما لك؟ لا تسمحي بالعملية. ما لك ! الحنجرة؟!

وقلت بحقد:

- ابتعدي يا جدة - وامرت المساعد: - إعطها حقنة كافور.

وحين رأت الأم إبرة الحقن رفضت إعطاء الصبية، لكننا اوضحنا لها أن لا ضرر في ذلك.

وسألت الام: لربما سيساعدها هذا؟

- لن يساعد البتة.

عندئذ انخرطت الأم في البكاء.

وجأرتُ قائلاً: كفى!

ثم أضفت: سأعطيك خمس دقائق للتفكير. واذا لم توافقي بعد خمس دقائق، فانني نفسي سأرفض اجراءها.

فقالت الأم بحدة: غير موافقة!

وأردفت الجدة:

- نحن غير موافقين.

- كما تريدان - اضفت ذلك بصوت مخنوق، وفكرت في قرارة نفسي - "اذن، انتهى الامر! اشعر وكأن ثقلا ازيح عن صدري. لقد قلت واقترحت، وها هي عيون القابلتين تنم عن الدهشة. انهما رفضتا العملية. وقد جاءني الخلاص".

هذا ما جال في خاطري ثم حدث وكأن احدا ما قال بدلا مني متحدثا بصوت عال:

- هل جننتما؟ كيف لا توافقان! انتما تقضيان على الصبية. وافقا. كيف لا تشفقان عليها؟

وصرخت الأم مرة أخرى:

- كلا!

وفكرت في اعماقي كالآتي: "ما هذا الذي افعله؟ فانني سأذبح الصبية". بينما قلت شيئاً آخر:

- هيا، بسرعة، وافقا بسرعة. وافقا! فان اظافرها بدأت بالازرقاق.

- كلا! كلا!

- حسنا، خذوهما إلى الردهة، ولتجلسا هناك.

واقتيدا عبر الممر القاتم. وتناهى إلى سمعي صوت بكاء المرأتين وشخير الفتاة.

وعلى الفور عاد المساعد وقال:

- انهما توافقان!

وشعرت بان كل احشائي قد تجمدت، لكنني قلت بوضوح:

- عقّموا فورا المشرط والمقاصيص والخطاطيف والمسبر!

بعد لحظة كنت اعدو عبر الفناء، حيث كانت العاصفة الثلجية تموج وتخفق، وهرولت إلى شقتي، واخذت اعد الثواني وانا امسك بالكتاب. فقلبت صفحاته، ووجدت رسما يصور شق القصبة الهوائية. وكان كل شيء فيه واضحا وبسيطا: فالحلقوم مشقوق، والمشرط منغرز في قصبة التنفس. واخذت اطالع النص لكنني لم افقه شيئا. وبدا كما لو أن الكلمات تتراقص أمام عيني. و لم ار ابدا كيف تجري عملية شق القصبة الهوائية. وفكرت: "ايه، لقد فات الاوان الآن"، ثم نظرت بكآبة إلى الضوء الازرق والرسم الزاهي الالوان. واحسست بانه انهالت عليّ عملية صعبة ورهيبة، ورجعت إلى المستشفى دون أن القي بالا إلى العاصفة الثلجية.

وفي غرفة الاستقبال إلتصق بي شبح ذو عدة تنورات، وناح صوت قائلا:

- سيدي، كيف يمكن شق حلقوم الصبية؟ هل هذا معقول؟ انها امرأة حمقاء، فوافقت، لكنني لا اوافق. لا اوافق، انا موافقة على العلاج بالادوية، لكنني لن اسمح بشق الحلقوم.

وصرخت:

- ابعدوا هذه الجدة!

ثم اضفت في سورة انفعال:

- انت نفسك امرأة حمقاء! نفسك! اما تلك فهي عاقلة حقا. وعموما لا أحد يوجه السؤال اليك. ابعدوها!

احتضنت القابلة الجدّة بعنف ودفعتها إلى خارج الردهة.

وفجأة قال المساعد:

- كل شيء جاهز!

دخلنا غرفة العمليات الجراحية الصغيرة، ورأيت كما لو كان ذلك عبر غشاوة، الادوات الامعة، والمصباح الذي يبهر العيون، والغطاء المشمع...

وخرجتُ لآخر مرة إلى الام، وانتزعت الصبية من يديها بجهد جهيد. ولم اسمع سوى صوت مبحوح يقول: "زوجي غائب. انه في المدينة. وحين سيعود ويعرف فعلتي سيقتلني".

وكررت الجدّة متطلعة نحوي بفزع:

- سيقتلها.

وأمرت قائلا:

- لا يسمح بادخالهما إلى غرفة العمليات!

بقينا لوحدنا في غرفة العمليات. المساعد والقابلتان وانا والصبية - ليدكا. كانت تجلس على الطاولة عارية وتبكي دون أن يبدر عنها صوت. فارقدتُ على الطاولة، والصقت عليها بقوة وغسل حلقومها، وطلي باليود، وتناولت المشرط. وفكرت لحظتئذ: "ماذا انا فاعل؟". كان الصمت يرين في غرفة العمليات. تناولت المشرط وامررته افقيا على البلعوم الابيض المتورم. فلم تنزف قطرة دم واحدة. وامررت المشرط مرة أخرى على الخط الابيض الذي انبجس بين شقي الجلد النافر. ولم تنزف قطرة دم واحدة مرة أخرى. واخذت في حركة وئيدة، ساعياً إلى أن استعيد في ذاكرتي بعض رسوم الاطالس الطبية، بفصل الانسجة الرقيقة بواسطة المسبر غير الحاد. وحينئذ تدفق من مكان ما في اسفل الجرح دم قاتم اللون وغمر في لحظة خاطفة الجرح بأسره وسال على الرقبة. وراح المساعد يمسحه بلفائف الشاش، لكنه واصل تدفقه. واخذت اضغط، متذكرا كل ما رأيته في الجامعة، على طرف الجرح بواسطة الملاقط، لكن لم يجدِ ذلك نفعا.

فسرتْ القشعريرة في جسدي، وساح العرق على جبيني. واعتملني شعور حاد بالندم على التحاقي بكلية الطب، وعلى المجيء إلى هذه الاصقاع النائية. ومددت الملقط في يأسي بحنق كيفما اتفق، في موضع قريب من الجرح، وسددته فتوقف نزيف الدم فورا. ونشفنا الجرح بقطع الشاش، فبدا امامي نظيفا وغير مفهوم على الاطلاق. و لم ار اثرا للقصبة الهوائية. و لم يكن جرحي شبيها بأي جرح ورد في الرسوم. ومضت دقيقتان وثلاث دقائق كنت في خلالها انكش في الجرح بصورة آلية، وبارتباك تارة بالمشرط وتارة بالمسبر، بحثا عن القصبة الهوائية. وفي نهاية الدقيقة الثانية اصابني اليأس في العثور عليها. وفكرت في قرارة نفسي: "انها النهاية، لماذا فعلت ذلك؟ اذ كان بمقدوري عدم اقتراح اجراء العملية، وحينئذ لتوفيت ليدكا بهدوء عندي في الردهة، اما الآن فستموت بحلقوم ممزق، ولن اثبت ابدا وبأي شيء انها كانت ستموت في جميع الاحوال، وما كان بوسعي أيذاءها..." ومسحت القابلة جبيني صامتة. ودار في خلدي: "هل سأضع المشرط واقول: انني لا ادري ماذا يجب أن اقوم به لاحقا"، ولاحت امامي عينا امها. فتناولت المشرط مرة ثانية وطعنت ليدكا طعنة لا معنى لها وعميقة وحادة. فانفرجت الانسجة، وظهرت امامي القصبة الهوائية على حين غرة.

ونبرت بصوت مبحوح:

– الخطاطيف!

فناولني المساعد اياها. واغرزت احدها من جانب، والآخر – من الجانب الآخر، وسلمت احدها إلى المساعد. وعندئذ لم اعد ارى سوى حلقات القصبة المائلة إلى اللون الرمادي. وغرزت المشرط الحاد في القصبة – وتسمّرت في مكاني. فقد انبجست القصبة من الجرح، وومض في ذهني أن المساعد قد اصابه مس من الجنون: اذ صار يقتلعها

من مكانها إلى الخارج. وانبعثت الآهات من القابلتين ورائي. فرفعت رأسي وادركت المسألة: لقد تبين أن المساعد بدأ يسقط مغشياً عليه بسبب وخامة الجو، دون أن يترك الملقط، وهو يقتلع القصبة الهوائية. وجال في خاطري: "كل شيء ضدي، انها الاقدار، واننا، بلا ريب، قد ذبحنا ليدكا الآن، - ثم اضفت في قرارة نفسي: "سأطلق النار على رأسي حالما اصل إلى البيت...". لحظتئذ اندفعت كبيرة القابلات، ويبدو انها محنكة جدا، بحركة عنيفة نحو مساعد الطبيب وتلقفت الملقط من يده، علما انها قالت عبر اسنانها:

- واصل، يا دكتور...

سقط مساعد الطبيب مرتطما بالارض بصوت مسموع، لكننا لم ننظر إليه. واغرزت المشرط في القصبة، ثم وضعت الانبوب الفضي فيه. فانزلق في داخله بخفة، لكن ليدكا بقيت بلا حراك. اذ لم يدخل الهواء في داخل القصبة، كما هو المفروض. فاطلقتُ تنهدة عميقة ثم توقفتُ: لم يعد بوسعي عمل أي شيء آخر. وكان بودي أن اطلب المغفرة من أحد ما، واعلان ندمي على رعونتي، والتحاقي بكلية الطب. ران الصمت. ورأيت كيف صار جسد ليدكا يزداد زرقة. وأردت أن اترك كل شيء وانتحب، واذا بليدكا تتململ بعنف على حين فجأة، وتدفقت من الانبوب نافورة من المواد المتجلطة القذرة، ودخل الهواء إلى القصبة وهو يصفر. وبعد هذا بدأت الصبية تتنفس وصارت تعول. وكان مساعدي قد نهض في هذه اللحظة، وبدا شاحبا والعرق يتصبب منه، ونظر ببلادة وبفزع إلى البلعوم، واخذ يساعدني في خياطته.

ورأيت، وانا اغالب الكرى وغشاوة العرق غطت عيني، وجهي القابلتين المترعين بالسعادة، وقالت احداهما لي:

- انك يا دكتور اجريت العملية بشكل رائع.

وفكرت بانها تسخر مني، وتطلعت إليها عابسا، وبكآبة. ثم

فتحت الابواب، وهبّ نسيم بارد. وحُملتْ ليدكا في شرشف من هناك، وعلى الفور بدت الأم عند الباب. كانت عيناها شبيهتين بعيني وحش كاسر. فسألتني: ماذا؟

عندما سمعت نبرة صوتها، سرت القشعريرة في ظهري، ولحظتئذ فقط ادركت ما كان سيحدث لو ماتت ليدكا على طاولة العمليات. لكنني اجبتها بصوت هادئ جدا:

- اطمئني. انها حية. وآمل في أن تحيا. لكننا لن نستخرج الانبوب الآن، ولن تقول كلمة واحدة فلا تجزعي.

وفي تلك اللحظة ظهرت الجدّة وكأنها انبجست من تحت الارض فرسمت علامة الصليب على مقبض الباب وعليّ والسقف. لكنني لم اغضب منها. فالتفتُ وامرت بحقن ليدكا بالكافور وملازمتها في نوبات خفارة. ثم انصرفت إلى شقتي عبر الفناء. وأذكر أن النور الازرق كان يضيئ في غرفة مكتبي، ووضع مجلد "دودرلاين" وتبعثرت الكتب هناك. واقتربت من الديوان بملابسي واستلقيت عليه، وعلى الفور لم اعد ارى أي شيء. واستسلمت للكرى وحتى دون أن ارى الاحلام.

إنصرم شهر وآخر. وكنت قد رأيت امورا كثيرة، وامتحنت بما هو افطع من بلعوم ليدكا. وانا حتى نسيته. وكانت الثلوج تغمر المنطقة حوالينا، وازداد عدد المرضى القادمين يوما بعد يوم. وحدث مرة أن جاءت اليّ بعد عيد رأس السنة امرأة واقتادت صبية ملفّعة بالملابس مثل خزانة صغيرة. وكانت عينا المرأة تتألقان. وحدقتُ فيها فتعرفت عليها.

- آه، ليدكا. كيف الاحوال؟

- كل شيء على ما يرام.

وتم نزع اللفاف من رقبة ليدكا. لكنها جفلت وارتعبت، بيد انني

افلحت مع هذا في رفع ذقنها والقاء نظرة عليه. كان يبدو على الرقبة الوردية اثر ندبة بنية شاقولية وندبتين مستعرضتين رفيعتين سببتهما الخيوط.

قلت: كل شيء على ما يرام. بوسعكما عدم المجيء أكثر.

وقالت الام: نشكركم، يا دكتور. شكرا.

ثم امرت ليدكا بقول "شكرا" إلى العم أيضاً.

لكن ليدكا لم ترغب في قول شيء لي.

وبعد ذلك لم ارها في حياتي ابدا. واخذت انساها. بينما ازداد عدد مرضاي أكثر فاكثر. وحان اليوم الذي فحصت فيه مائة وعشرة مرضى. وبدأنا استقبالهم في التاسعة صباحا وانتهينا في الثامنة مساء. وبدأت انزع الصديرية متأرجحا في وقفتي. وقالت لي كبيرة المساعدات القابلات:

- اشكر شق القصبة الهوائية على مثل هذا الاقبال عليك. أتعرف ماذا يقولون في القرية؟ انهم يزعمون بأنك وضعت لليدكا حلقوما حديديا بدلا من المريض، ثم خيطته. ويأتي الناس خصيصا إلى هذه القرية لالقاء نظرة عليها. هذا هو المجد يا دكتور، تهانئي.

واستفسرت منها:

- وهي تعيش بالحلقوم الحديدي هذا؟

- تعيش. اما انت يا دكتور فمرحى لك. وباية برودة اعصاب تجري العمليات. شيء رائع!

وقلت لسبب لا ادريه:

- نعم... الحق انني لا اقلق ابدا.

لكنني شعرت بانني لتعبي حتى لا اقدر على ابداء الخجل، سوى انني اشحت ببصري عنها. وودعتها ثم انصرفتُ إلى شقتي. كان الثلج يتساقط بنتف كبيرة، وغطى كل شيء، والمصباح ينير، وبدا بيتي وحيدا وهادئا ووقورا. وانا حين مشيت لم تكن تراودني سوى رغبة واحدة هي - النوم.

اول تحويل

انصرمت الايام بسرعة في المستشفى (س) واخذت اعتاد على الحياة الجديدة شيئاً فشيئا.

وكان الناس في القرى يعملون كالسابق في دق الكتان، وبقيت الطرق غير سالكة، و لم يعد يأتي اليّ للعلاج أكثر من خمسة اشخاص. وكانت امسياتي شاغرة تماما، وكرستها إلى ترتيب الكتب في المكتبة، ومطالعة الكتب الدراسية في الجراحة، وتزجية الوقت الطويل بشرب الشاي وحيدا عند السماور الذي يبعث وشوشة خفيفة.

كان يتواصل هطول الامطار ليلا ونهارا، ويستمر تساقط قطراته على السقف، وينهمر الماء تحت النافذة جاريا في المرزاب إلى البرميل. وغمرت الاوحال والضباب والقتام الحالك الفناء الذي كانت تضئ فيه نوافذ بيت مساعد الطبيب بهيئة بقع خابية مغبشة، وكذلك مصباح الكاز عند البوابة.

وفي احدى هذه الامسيات كنت جالسا في غرفة مكتبي اطالع اطلس التشريح الطبوغرافي. وران الصمت المطبق في كل مكان، و لم يكن يعكره الا نادرا صوت قضم منبعث عن الفئران وراء خزانة البوفيه في غرفة الطعام.

وواصلت المطالعة حتى صارت جفوني ثقيلة. وفي نهاية المطاف تثاءبت، ووضعت الاطلس جانبا وقرّ عزمي على الايواء إلى فراشي. فصرت اتمطى واتلذذ في دخيلة نفسي بالافكار عن النوم الهانئ بمواكبة لغط المطر، ومضيت إلى غرفة النوم ونزعت ملابسي ورقدت.

وما كدت المس الوسادة حتى تراءى امامي في الغشاوة المعتمة وانا اقع في اسر الكرى وجه آنا بروخوروفا، انها في ربيعها السابع عشر من قرية توروبوفو. وكان ينبغي قلع ضرس آنا بروخوروفا. وتراءى لي بلا ضجيج مساعدي ديميان لوكيتش حاملا الكلابتين اللامعتين بيديه. فتذكرت كيف كان يقول: "كذا" بدلا من "هكذا" - بسبب عشقه للاساليب الأدبية الرفيعة. فابتسمت واستسلمت للنوم.

لكن بعد مضي نصف ساعة لا أكثر استيقظت فجأة، كما لو هزّني احدهم فأيقظني: فجلست وتطلعت فزعا في الظلام وبدأت انصت إلى ما حوالي.

كان احدهم يقرع الباب الخارجي باصرار وبعنف. وبدت لي تلك الضربات منذرة بالويلات.

وكان احدهم يقرع باب الشقة.

ثم توقف القرع وهدرت السقاطة، وسمعت صوت الطباخة، وصوت مبهم ما يجيبها. وبعد ذلك صعد احدهم على السلالم فانبعث منها الصرير، ومشى بهدوء في غرفة المكتب ثم دق غرفة النوم.

- من هناك؟

فرد عليّ همس مشوب بالاحترام:

- هذا انا، كسينيا، الممرضة.

- ما القضية؟

- بعثت آنا نيكولايفنا في طلبك، لقد أمرت بان تذهب بسرعة إلى المستشفى.

فسألت واحسست كيف وخزني قلبي بألم:

- ماذا حدث؟

- لقد جاءوا بامرأة من دولتسيفو. إنّ لديها عسراً في المخاض.

وومض في ذهني: "هذه اذن البداية"، و لم أعد استطيع البتة وضع قدمي في الخفين - آه، يا للشيطان، إنّ أعواد الثقاب لا تشتعل. حسناً، كان لا بد وأن يحدث هذا إن عاجلاً أو آجلاً. فلا يمكن أن تمضي حياتي كلّها في علاج التهاب اللوزتين وقرحة المعدة".

وصحت: حسناً، اذهبي وبلّغيها انني سآتي بعد قليل!

ثم نهضت من السرير.

وسمعت وراء الباب دبيب وقع خطوات كسينيا، ومرّة أخرى قرقعت السقاطة. وفي لحظة خاطفة طار النوم من عيني تماماً. فأشعلت المصباح بعجلة وبأصابع مرتجفة، وبدأت بارتداء ملابسي. الوقت هو الحادية عشرة ونصف ليلاً. ماذا جرى لهذه المرأة ذات المخاض العسير؟ هِمَ!.. وضع الجنين بشكل غير طبيعي، ضيق الحوض. أو لربما شيء أسوأ من هذا. لا سامح الله أن أضطر إلى استخدام الجفت. أم الأفضل أن أبعث بها إلى المدينة مباشرة؟ هذا غير ممكن! فسيقول الجميع: يا له من طبيب نطاسي حقاً! كما لا يحق لي القيام بذلك. لا. يجب القيام بذلك بنفسي. وماذا سأفعل؟ الشيطان وحده يعرف. وستقع مصيبة أن تملكني الارتباك. وهذا عار أمام القابلتين. لكن يجب أولاً فحصها. لا يستحق الأمر إبداء القلق قبيل الأوان...

ارتديت ملابسي ورميت المعطف على كتفي، ولسان حالي يقول بأمل: إنّ كل شيء سيتم على ما يرام، ومشيت تحت المطر مطبطباً فوق الألواح باتجاه المستشفى. وشاهدت في العتمة عربة عند المدخل، وكان الحصان يدق بحوافره الألواح المتعفّنة.

وسألت لأمر ما الشخص الذي كان يتحرك إلى جانب الحصان.

- هل انتم جئتم بالماخض؟

– نعم، نحن. طبعاً، نحن يا سيدي.

اجاب صوت نسائي شاكيا بنواح.

كانت الحركة والجلجلة تسود في المستشفى بالرغم من الوقت المتأخر. وفي غرفة الاستقبال كان مصباح "البرق" ينير بوميض. وفي الممر المؤدي إلى قسم التوليد مرقت كسينيا بمحاذاتي حاملة الطست. وتناهى إلى سمعي من وراء الابواب انين خافت ثم توقف. ففتحت الباب وولجت غرفة التوليد. كانت الغرفة الصغيرة ذات الجدران البيض مضاءة بمصباح من الاعلى. ورقدتْ على سرير إلى جانب طاولة العمليات امرأة شابة وقد غطاها اللحاف حتى الذقن. والتوت سحنتها بتكشيرة تنم عن الالم، والتصقت جدائل شعرها المخضبة على جبينها.

وانهمكت آنا نيكولايفنا وبيدها محرار في اعداد محلول في قدح ايسمارخ، اما القابلة الأخرى بيلاغيا ايفانوفنا فكانت تستخرج الشراشف النظيفة من الدولاب. ووقف مساعد الطبيب بوقفة نابليونية، متكأ على الجدران. وتململ الجميع في مكانهم لدى رؤيتي وفتحت الماخض عينيها وتشبثت بطرفي الفراش بيديها وأنّت مرة أخرى بألم وبعذاب.

فسألت:

– حسنا، ما المسألة؟

وعجبت نفسي للهجتي، بقدر ما كان ينم عن الثقة والهدوء.

ردت آنا نيكولايفنا بسرعة مواصلة صب الماء في المحلول.

– انه التموضع المستعرض للجنين.

وقلت ماطا الكلمة بعبوس:

– هكـ... ذا. اذن، سنرى ...

صاحت آنا نيكولايفنا على الفور:

- يجب غسل يدي الدكتور! كسينيا!

وكان وجهها يتسم بالوقار والجد.

وفيما كان الماء ينسكب مزيلا رغوة الصابون عن اليدين اللذين اصابهما الاحمرار بسبب الفرشاة، وجهتُ إلى آنا نيكولايفنا اسئلة غير كبيرة الاهمية مثل: متى جاءوا بالماخض، ومن اين... ورفعتْ يد بيلاغيا ايفانوفنا اللحاف فجلستُ على طرف السرير واخذت ألمس لمسا خفيفا البطن المنتفخة. وكانت المرأة تئن وتتمطى وتتشبث بالشرشف بيديها وتكرمشه.

وقلت:

- على مهلك، على مهلك... اصبري...

وانا اضع يدي بحذر على البشرة المشدودة الساخنة والجافة.

في الواقع، انني بعد ان ابلغتني آنا نيكولايفنا المحنكة بماهية القضية، فان فحوصاتي هذه لم يكن لها مبرر ولا حاجة لها. فمهما فحصت، ما كنت مع ذلك سأعرف أكثر مما تعرفه آنا نيكولايفنا. كان تشخصيها صحيحا طبعاً: انه التموضع المستعرض للجنين. التشخيص جليّ للعيان. وبعد؟..

واصلت عابسا تلمس البطن من جميع الانحاء. وانا انظر بطرف عيني إلى وجهي القابلتين. وبدت امارات الجد وتركيز الانتباه عليهما، وطالعت في عيونهما الدعم لافعالي. حقا، ان حركاتي كانت واثقة وصائبة، اما قلقي فقد حاولت اخفاءه باعمق شكل قدر الامكان دون ان اظهره بأي شيء.

- هكذا - قلت متنهدا وانا انهض من السرير قليلا، اذ لم يبق ما ينبغي فحصه من الخارج - لنفحص من الداخل.

وومضت علامات الاستحسان مرة أخرى في عيني آنا نيكولافنا.

- كسينيا!

وصبّ الماء مرة أخرى.

- "آه، لو أقرأ كتاب دودرلاين الآن!" - جال هذا في خاطري بكآبة وانا اغسل يدي. لكن وآسفاه، فقد كان من المستحيل القيام بهذا الآن. زد على ذلك باي شيء يستطيع دودرلاين مساعدتي في هذه اللحظة؟ وازلت الرغوة الكثيفة، وطليت اصابعي اليود. وسمع حفيف الشرشف النظيف تحت يدي بيلاغيا ايفانوفنا، فانحنيت على الماخض واخذت اتفحص بحذر واحتراس داخل الرحم. وانبثقت في ذاكرتي بلا ارادتي صورة صالة العمليات في مستشفى الولادة: المصابيح الكهرائية ذات النور الساطع في كرات مغبشة، والارضية اللامعة المكسية بالبلاط، وفي كل مكان تتألق الصنابير والاجهزة. ومساعد الطبيب ينهمك مشغولا في صديريته الناصعة البياض عند المرأة الماخض، وحوله ثلاثة من المساعدين المتدربين، والاطباء المطبقين، وجمهرة من الطلاب الذين يرتادون الدروس التطبيقية. فهناك الوضع جيد ووضاء وآمن.

اما هنا فانني وحيد تماما، وتتعذب امرأة بين يدي. وانا مسئول عنها. لكن كيف ينبغي مساعدتها، هذا ما لا ادريه، لانني لم ار عملية الولادة عن قرب الا مرتين في حياتي وفي المستشفى، وكانت الحالتان طبيعيتين تماما. والآن اقوم بالفحص، لكن لن يغدو وضعي ولا وضع الماخض اخف وطأة بهذا. انا لا افهم شيئاً البتة، وليس بمقدوري ان اتلمس ما يوجد هناك في باطن احشائها.

بينما آن الاوان لاتخاذ قرار ما.

- تموضع مستعرض... وما دام الامر هو تموضع مستعرض، اذن يجب... يجب اجراء...

فلاحظت آنا نيكولايفنا التي لم تعد تطيق صبرا كما لو كانت تخاطب نفسها:

- تحويل ساق...

ان الطبيب العجوز المحنك كان سيعنفها لانها تدس انفها قبل ان يقول هو كلمته...

لكنني انسان غير شديد الحساسية...

فاكدتُ بقناعة بالغة:

- نعم... تحويل ساق.

وومضت في مخيلتي صفحات من كتاب دودرلايـن. تحويل مستقيم. تحويل مركب... تحويل غير مستقيم...

صفحات وصفحات. وفيها رسوم. طست، ومواليد ملتوون ومنبعجون وذوو رؤوس كبيرة... ويد متدلية ويلتف عليها الحبل السرى كالنشوطة.

وانا قرأت ذلك منذ فترة وجيزة، كما انني وضعت تحت ذلك الخطوط. متأملا في كل كلمة بامعان، متصورا تناسب الاجزاء والاعضاء وجميع اساليب العلاج. وبدا لي لدى القراءة ان النص باجمعه قد انطبع في الدماغ إلى أبد الآبدين.

اما الآن فلا تبرز من جميع ما قرأته سوى عبارة واحدة: ...ان التموضع المستعرض هو أسوأ حالة لدى الماخضات.

وهذا صحيح طبعاً. انها اسوأ حالة سواء بالنسبة للمرأة نفسها ام بالنسبة للطبيب الذي تخرج من الجامعة قبل ستة اشهر خلت.

وقلت وانا انهض: حسنا. سنقوم بذلك.

فبدت على محيا آنا نيكولايفنا سمات الحيوية.

وخاطبت المساعد: ديميان لوكيتش، هيئ الكلوروفورم.

حسنا فعلتْ ان قالت ذلك، لانني لم اكن واثقا بعد فيما إذا تجري العملية تحت تأثير المخدر! نعم، بالتخدير، والا فكيف؟

لكن مع ذلك لا بد من مراجعة دودرلاين...

وبعد ان غسلت يدي قلت:

- حسنا. اعدوها للتخدير، وارقدوها. وسأتي بعد قليل. سآخذ السجاير من البيت فقط.

فردت آنا نيكولايفنا:

- حسنا، يا دكتور. ثمة متسع من الوقت.

ومسحت يدي، وألقت الممرضة المعطف على كتفي، ودون ان اضع ذراعي في الاكمام هرعت إلى البيت.

اشعلت في شقتي المصباح وتوجهت نحو الدولاب، ناسيا خلع القبعة.

ها هو دودرلاين: "علم التوليد التطبيقي". واخذت اقلب بعجلة الصفحات الصقيلة للكتاب.

... ان التحويل هو دائما عملية خطرة بالنسبة للام...

وسرت القشعريرة في ظهري على امتداد العمود الفقري.

... يكمن الخطر الاساسي في احتمال تمزق الرحم تلقائيا...

تـ.. لـ.. ـقـ.. ا.. ئـ.. ـيـ.. يا...

... إذا ما وجد طبيب التوليد لدى ادخال يده في الرحم وبنتيجة

ضيق المكان أو بتأثير تقلص جدران الرحم صعوبات في الوصول إلى ساقي الوليد فيجب عليه العدول عن المحاولات اللاحقة لتنفيذ عملية التحويل...

حسنا. إذا ما استطعت حتى بمعجزة ما من تحديد هذه "الصعوبات" وعدلت عن "المحاولات اللاحقة"، فماذا سأفعل اذن بالمرأة المخدرة بالكلوروفورم من قرية دولتسيفو؟

وبعد ذلك:

... تحظر تماما محاولة بلوغ الساقين بمحاذاة ظهر الجنين...

سنأخذ هذا للعلم.

... يجب اعتبار الامساك بالساق العلوية خطأ اذ قد يحدث عندئذ بيسر التفاف الجنين حول محوره، مما قد يؤدي إلى تثبيت الجنين في الرحم بصورة خطيرة، وقد يسفر عن ذلك اوخم العواقب...

"عواقب وخيمة"... انها كلمات مبهمة نوعا ما لكنها ذات مغزى كبير! وماذا إذا أصبح زوج المرأة القادمة من دولتسيفو ارمل! ومسحت العرق المتصبب من جبيني، واستجمعت قواي، وحاولت تذكر اهم الامور من جميع تلك المواضع الرهيبة: ما الذي يتعين عليّ القيام به بالضبط. وكيف وإلى اين امد يدي. لكنني حين كنت ألقي نظرة على السطور السوداء اجد المزيد من الاشياء الرهيبة. وكانت تعلق امام بصري.

... ونظرا للخطورة الشديدة في حدوث تمزق الرحم...

فان التحويلات الداخلية والمركبة تعتبر من العمليات الخطرة للغاية من بين عمليات التوليد...

وخاتمة القول: ... ان كل ساعة من التأخير تشكل خطرا...

كفى! لقد اعطت القراءة مردودها: اذ اختلطت الامور في رأسي نهائيا، واقتنعت في لحظة خاطفة بانني لا افقه شيئا، وقبل كل شيء أي عملية تحويل سأجري بالذات: المركب أو غير المركب، المستقيم ان غير المستقيم...

القيت دودرلايـن جانبا وجلست في المقعد ساعيا إلى ترتيب الافكار المتقافزة في رأسي...

ثم القيت نظرة على الساعة. اللعنة على الشيطان! لقد تبين انني امضيت في البيت اثنتي عشر دقيقة. بينما هم ينتظرونني هناك.

... ان كل ساعة من التأخير...

ان الساعات تتألف من دقائق، والدقائق في مثل هذه الاحوال تمضي بسرعة هائلة. فرميت دودرلاين وهرعت عائدا إلى المستشفى.

كان كل شيء جاهزا هناك. ووقف المساعد عند الطاولة مهيئا فيها كمامة ووعاءا يحتوي على الكلوروفورم. وكانت الماخض راقدة على الطاولة. ويتردد في انحاء المستشفى انينها المتواصل.

وتمتمت بيلاغيا ايفانوفنا وقد انحنت على المرأة:

- اصبري، اصبري. سيساعدك الطبيب الآن...

- اوي ! لم تبق لدي القوة على التحمل... لم تبق لدي قوة.. انني لن اتحمل!

وتمتمت القابلة:

- لا تخافي.. لا تخافي ... لا تخافي ... ستتحملين ! سنعطيك الآن دواء تستنشقيه، ولن تسمعي شيئا.

كان المـاء ينهمر من الصنبور بلغط، واخـذتُ انا وكذلك آنا نيكولايفنا نغسل ايدينا العارية حتى المرفق. وحدثتني آنا نيكولايفنا

بمصاحبة الانين والعويل كيف كان سلفي، الجراح المجرب، يجري عمليات التحويل. واصغيت إليها بنهم ساعيا إلى عدم تفويت اية كلمة. وقد اعطيت الدقائق العشر تلك أكثر مما كل ما طالعته عن علم التوليد لدى التحضير للامتحانات الوزارية، والتي حصلت فيها، وفي موضوع التوليد بالذات، على درجة امتياز. وعرفت من الكلمات المتفرقة والعبارات الناقصة والتلميحات العابرة ذلك الشيء الضروري الذي لا وجود له في اية كتب. وبحلول ذلك الوقت، عندما بدأت امسح بالشاش المطهر يدي النظيفتين كل النظافة، غلبني العزم، وولدت في رأسي خطة محددة وحازمة تماما. والآن لا حاجة لي للتفكير فيما كان مركبا أو غير مركب.

في تلك اللحظة لم يكن هناك معنى لجميع تلك الالفاظ العلمية. المهم هو شيء واحد: ينبغي علي ان ادخل يدا واحدة في الرحم وان اساعد باليد الأخرى على اجراء التحويل من الخارج. ويجب الاعتماد ليس على الكتب بل على الشعور بالاعتدال في الافعال، والذي بدونه لا نفع من الطبيب. ويجب ان تسحب ساقا واحدا إلى الخارج بحذر ولكن باصرار وثم بواسطتها يتم اخراج الوليد.

وينبغي ان اكون هادئا وحذرا، وفي الوقت نفسه ان اكون حازما للغاية وغير جبان.

امرت المساعد:

- هيا..

وبدأت أطلي اصابعي باليود.

وعلى الفور وضعت بيلاغيا ايفانوفنا ذراعي الماخض على صدرها. اما المساعد فقد وضع الكمامة فوق وجهها الذي بانت عليه سمات العذاب. وبدأت قطرات الكلوروفورم تتساقط ببطء

من الوعاء الزجاجي الاصفر القاتم. وامتلأت الغرفة برائحة حلوة ومقرفة. وغدت وجوه المساعد والقابلتين صارمة، كما لو انها مفعمة بالالهام...

وبغتة صرخت المرأة:

- ها!.. ها!..

ثم اخذت ابان عدة ثوان بالتخلص من قبضة القابلة وسعت إلى اسقاط الكمامة بحركات متشنجة.

- امسكوها!

قبضت بيلاغيا ايفانوفنا على ذراعيها وأرقدتها وألصقتهما بصدرها. وصرخت المرأة عدة مرات أخرى، مشيحة بوجهها عن الكمامة، لكن محاولاتها خفت شيئاً فشيئاً... وتمتمت بصوت خامد:

- ها.. اتركوني ... آه..

ثم ضعفت محاولاتها أكثر فاكثر.

وران الصمت على الغرفة البيضاء. وواصلت القطرات الشفافة التساقط باستمرار على الشاش الابيض.

- بيلاغيا ايفانوفنا، النبض؟

- جيد.

ورفعت بيلاغيا ايفانوفنا ذراع المرأة ثم القتها. فسقطت الذراع هامدة كالعصا فوق الشرشف. وأزاح المساعد الكمامة وتفحص مقلة العين.

- انها نائمة.

بركة من الدماء. وذراعاي مخضبتان بالدماء حتى المرفقين. وبقع

من الدم على الشراشف. وجلطات دموية وكتل شاش حمراء. اما بيلاغيا ايفانوفنا فكانت تخض الوليد وتلطمه. بينما تهدر اكسينيا بالدلاء وتصب الماء في الطسوت. وكان يجري وضع الوليد تارة في الماء البارد وتارة في الماء الساخن. بيد انه صامت. ورأسه يتأرجح من جانب إلى آخر بلا حياة كما لو كان معلقا بخيط. وفجأة صدر عنه ما يشبه الصريف أو الزفير واعقبه اول صراخ مبحوح ضعيف.

وتمتمت بيلاغيا ايفانوفنا:

- انه حي ... حي...

ووضعت الوليد على الوسادة.

كما ان الأم على قيد الحياة. ولحسن الحظ لم يحدث أي سوء. وها أنذا اتلمس النبض. نعم، انه منتظم ودقيق، وصار المساعد يهز المرأة من كتفها ويقول:

- هيا، يا عمة، يا عمة استيقظي.

وألقيت جانبا الشراشف المخضبة بالدماء، وغطيت المرأة بعجلة بأخرى نظيفة، وحملها مساعد الطبيب، واكسينيا إلى الردهة. ونقل الوليد المقمط فوق الوسادة. كان وجهه المكرمش البني يبدو من وراء القماش الابيض، وتنبعث منه باستمرار صأصأة باكية رفيعة.

ينهمر الماء من صنابير المغاسل. وتسحب آنا نيكولايفنا دخان سيجارتها بنهم، وتضيق عينيها اتقاء للدخان، وتسعل.

- لقد اجريت، يا دكتور، عملية التحويل جيدا، وبثقة.

وكنت امسح يدي بهمة بواسطة الفرشاة، وانا انظر إليها بطرف عيني: لربما انها تسخر مني. لكن بدت على وجهها معالم الارتياح الصادق والمشوب بالفخر. فامتلأ قلبي ببهجة. ورنوت إلى الاشياء

المبعثرة المدماة والبيضاء حولي، وإلى الماء الاحمر في الطست، واحسست بانني ظافر. لكن في مكان ما باعماقي كانت تتحرك دودة الشك.

فقلت:

- سنرى ما سيحدث لاحقا.

والقت آنا نيكولايفنا نظرة اليّ باندهاش.

- وماذا يمكن أن يحدث؟ إنّ كلّ شيء على ما يرام.

وتمتمت ردا على هذا بكلمات مبهمة. وفي الواقع انني اردت القول: هل أن كل شيء في محله لدى الام. وهل انني لم اوذيها في اثناء العملية... هذا الامر المبهم يعذب فؤادي. لكن معارفي في علم التوليد غير واضحة جدا، ومتناثرة، مأخوذة من الكتب! هل حدث تمزق؟ وكيف يجب أن يتجسد. ومتى ستظهر علاماته الآن، ام ربما في وقت لاحق!.. لا. الافضل عدم الحديث عن هذا الموضوع.

وقلت:

- قد يحدث أي شيء، ولا يستثني احتمال التلوث.

وكررت عبارة ما وردت في خاطري من أحد الكتب الدراسية.

وقالت آنا نيكولايفنا بهدوء مباعدة بين الحروف:

- آه، هذا ما تقصده، نتمنى الا يحدث شيء بعون الله. ولماذا يحدث؟ فكل شيء مطهر ونظيف.

* * *

كانت الساعة هي بداية الثانية بعد منتصف الليل حين عدت إلى بيتي. وكان يرقد على الطاولة في غرفة المكتب بأمان، في البقعة

الضوئية للمصباح، كتاب دودرلاين مفتوحا على الصفحة المتضمنة "اخطار التحويل". وامضيت ساعة أخرى اقلب صفحاته وانا اشرب الشاي. وعندئذ حدث امر طريف: فان جميع المواضع التي كانت غامضة منه سابقا أصبحت مفهومة تماما، كما لو القي عليها شعاع من الضوء، وهنا في ضوء المصباح ليلا، وفي المكان النائي، ادركت معنى المعرفة الحقيقية.

"يمكن الحصول على خبرة كبيرة في الريف - جال هذا في خاطري وانا اغالب الكرى - لكن يجب فقط المطالعة، المطالعة أكثر... المطالعة...".

الطفح النجمي

انه هو. لقد أنبأتني غريزتي بذلك. وما كان لي أن اعوّل على معرفتي. فلم تكن لدي، طبعاً، انا الطبيب الذي تخرج من الجامعة منذ ستة اشهر خلت، اية معارف.

وكنت اخشى أن أمسّ كتف الانسان العاري والدافئ (بالرغم من عدم وجود ما أخشاه) وآمره بقولي:

– يا عم، هيا إقترب من الضوء!

فاستدار الرجل كما اردت ذلك، – واضاء نور مصباح الكاز "البرق" بشرته المائلة للاصفرار. ولاح بجلاء طفح مرمري على الصدر الناتئ المحدب والجنبين. وجال في خاطري "انها مثل النجوم في كبد السماء". وانحنيت على الصدر وقد خامرني شيء من القشعريرة في فؤادي خوفا. ثم ابعدت ناظري عنه. ورفعت بصري إلى الوجه. كان امامي وجه رجل في الاربعين، ذي لحية شعثاء بلون رمادي وسخ. وعينين جسورتين، تغطيهما جفون منتفخة. وطالعت في هذين العينين – لعجبي الشديد – الوقار وشعور الاعتزاز بالنفس.

كان الرجل يغمز بعينيه ويتطلع حواليه بلامبالاة وبسأم، ويعدل حزام سرواله.

وكررت في قرارة نفسي بحزم مرة أخرى:

– "انه هو – السفلس".

انها اول مرة في حياتي ألتقي بها هذا الداء كطبيب، انا الطبيب

الذي ألقي به من مقعد الدراسة في الجامعة مباشرة إلى الريف البعيد في بداية الثورة.

لقد عثرت على السفلس هذا بالصدفة. اذ جاء هذا الرجل اليّ، واشتكى من ألم في البلعوم. فأمرته بدون حساب البتة أن يخلع ملابسه، واذّاك رأيت هذا الطفح النجمي.

وصرت اقارن الصوت المبحوح والاحمرار الفظيع في الحنجرة، والبقع البيضاء الغريبة فيها، والصدر المغطى بالطفح المرمري، وحدست. وبادئ ذي بدء مسحت يدي مرتعبا بكرة السليماني، علماً أن فكرة كانت تقلقني: "اظنه سعل فوق يدي" - وسممت هذه الفكرة عليّ اللحظة التالية من حياتي. ثم ادرت بيدي عاجزا ومتنجسا الملوّق الزجاجي، الذي كنت افحص بواسطته حنجرة مريضي. فاين سأضعه؟

وقررت أن اضعه على النافذة فوق كومة من القطن.

وقلت:

- المسألة هي.. أن ... هم ... يبدو لي ... بالمناسبة اظنه بالتأكيد. المسألة انك مصاب بمرض خبيث - هو السفلس.

قلت هذا وغمرني الارتباك. وتراءى لي أن هذا الرجل سيعتمله بالغ الخوف، والقلق. لكنه لم يقلق و لم يخف مطلقا. بل نظر اليّ شزرا من طرف عينيه. كما تفعل الدجاجة حين تبحلق بعين مستديرة لدى سماع صوت يناديها. ولاحظت في هذه العين المستديرة عدم الثقة.

وكررت بصوت خافت؟

- انت مصاب بالسفلس.

وسأل الرجل ذو الطفح المرمري:

- وما هو؟

لحظتئذ ومضت امام بصري أطراف ردهة ناصعة البياض، ردهة في الجامعة، والمدرج المزدحم برؤوس الطلاب، واللحية الشيباء للبروفيسور المختص بالامراض الزهرية...

لكنني عدت إلى صوابي بسرعة وتذكرت بأنني في مكان يبعد الف وخمسمائة فرسخا عن المدرج، واربعين فرسخا عن طريق السكك الحديدية، وفي ضوء مصباح "البرق"... وكان يلغط وراء الباب المرضى الكثيرون بصوت مكتوم، في انتظار دورهم. وصارت العتمة تزحف وراء النافذة، ويتساقط اول ثلج شتائي.

وارغمت المريض على نزع بقية ملابسه ووجدت قرحة أولية بدأت بالاندمال. وتبددت لديّ آخر الشكوك. وغمرني شعور الفخر الذي يراودني دوما في كل مرة اضع فيها تشخيصا صائبا.

- زرر السروال، انت مصاب بالسفلس! وهو مرض خطير جدا، يجتاح الجسم كله. ويتعيّن عليك العلاج فترة طويلة...

وعندئذ تلعثمت، لانني، واقسم، طالعت في هذه النظرات الشبيهة بنظرات الدجاجة علامات التعجب المشوبة بسخرية ظاهرة.

ونبر المريض:

- إنّ بلعومي يؤلمني.

- نعم، هو يؤلمك لهذا السبب. ولهذا السبب يوجد طفح على صدرك. انظر إلى صدرك...

ونظر الرجل بطرفي عينيه. و لم يخمد تألق السخرية في عينيه.

انا بحاجة إلى علاج لبلعومي.

واخذت افكر بشيء من نفاد الصبر:

- "ما له يردد الكلام نفسه! انا اتحدث عن السفلس بينما هو يتحدث عن البلعوم!".

وواصلت بصوت عال:

- اسمع، يا عم. إنّ البلعوم قضية ثانوية. وسنعالج البلعوم أيضا، لكن الشيء الاساسي يجب علاج مرضك العام. ويجب عليك العلاج فترة طويلة - نحو عامين.

لحظتئذ صار المريض يحلق فيّ بعينيه. وطالعت فيها حكمه عليّ: "انت يا دكتور قد اصابك مس من الجنون!".

وسأل المريض:

- ولماذا فترة طويلة هكذا ؟ كيف لفترة عامين ؟! انا بحاجة إلى غرغرة ما من أجل البلعوم...

شعرت بأنّ احشائي تلتهب. وأخذت أقول. و لم أعد أخشى ارعابه. كلا! بل بالعكس المحت له إلى أن أنفه ربما سيغوص في مكانه. وحدثته عما ينتظره لاحقاً في حالة عدم موافقته على العلاج كما ينبغي، وتطرقت إلى مسألة عدوى مرض السفلس، وتحدثت كثيرا عن الاطباق والملاعق والاقداح والمنشفة المنفردة.

وسألته: هل انت متزوج؟

فرد المريض مندهشا: نعم، متزوج.

وقلت بانفعال وقلق:

ابعث بزوجتك اليّ فورا! فهي في اغلب الظن مريضة أيضا؟

فسأل المريض: زوجتي؟!

ورنا اليّ بتعجب بالغ. وهكذا واصلنا الحديث. وكان ينظر في

مقلتيّ غامزا بعينيه، وانا انظر في عينيه. بالاحرى لم يكن ذلك حديثا، بل كان مونولوجي انا. مونولوج رائع، كان أي بروفيسور سيعطى طالب السنة الخامسة لقاءه درجة "ممتاز". واكتشفت في نفسي معرفة واسعة في علم داء السفلس، وفطنة كبيرة. وكانت هذه المعرفة تسد "الثقوب السوداء" في تلك المواضع التي تفتقدها الكتب الدراسية الروسية والالمانية. وقد تحدثت عما يجري للعظام المصاب بالسفلس الذي لا يتلقى العلاج اللازم، ووصفت الشلل المستفحل، والذرية! وكيف سننقذ الزوجة؟! او، إذا كانت مصابة، واغلب الظن انها مصابة، فكيف يتم علاجها؟

في نهاية المطاف نضب دفق كلامي، وبحركة خجولة اخرجت من جيبي المرجع الدراسي، ذي الغلاف الاحمر والحروف الذهبية. صديقي الوفي الذي كان لا يفارقني في خطواتي الاولى في دروبي الشاقة. وكم من مرة انجدني، حين كانت القضايا الوصفاتية اللعينة تكشف امامي هوة قاتمة سوداء! وفيما كان مريضي يرتدي ملابسه اخذت اقلب صفحاته، متلصصا، ووجدت ما كنت في حاجة إليه.

ان مرهم الزئبق دواء عظيم.

- ستدهن جسمك بالمرهم. وستعطى اليك ستة علب من المرهم. وستدهن بمعدل علبة في اليوم... هكذا...

واريته بحماس وبجلاء كيف يجب عليه أن يدهن، وصرت ادهن الصديرية براحة يدي الفارغة...

- ...اليوم تدهن الذراع وغدا الساق، ثم الذراع مرة أخرى والأخرى أيضا. وحين ستقوم بهذا ست مرات، اغتسل ثم تعال اليّ. حتما. هل انت سامع؟ حتما! نعم. علاوة على ذلك يجب العناية باسنانك باهتمام... وعموما بفمك فيما انت تتلقى العلاج.

وسأعطيك مادة للغرغرة. ويجب اجراء الغرغرة حتما بعد تناول الطعام...

فسأل المريض بصوت مبحوح:

- والبلعوم أيضاً؟

وعندئذ لاحظت أن الحيوية قد طرأت عليه لدى سماع لفظة "الغرغرة".

- بلى، بلى، البلعوم أيضا.

بعد مرور عدة دقائق غادر الظهر الاصفر لمعطف فراء الضأن باب غرفتي، وبرز للقائه عند الباب رأس امرأة ملفوف بمنديل.

وبعد مرور عدة دقائق أخرى، حين كنت امضي في الممر شبه المعتم من غرفة العيادة إلى الصيدلية لجلب السجاير سمعت في طريقي همسا بصوت مبحوح:

- انه لا يعالج جيدا. شاب حديث العهد. المسألة أن بلعومي يؤلمني، بينما هو يفحص ويفحص، تارة الصدر وتارة البطن، ولدي أعمال كثيرة بينما امضيت نصف نهار في المستشفى. وعندما تذهب إلى هناك وتعود يخيم الظلام. اوه، يا رب! بلعومي يؤلمني، لكنه يعطيني مرهما من أجل الساقين.

واكد صوت المرأة المشوب ببعض التهدج:

- بلا أي عناية، بلا اية عناية.

وفجاة ران الصمت. ذلك لانني مرقت كالشبح بصديريتي البيضاء. و لم اطق صبرا فالتفتُ وعرفت في شبه العتمة اللحية القصيرة الشبيهة بلحية مستعارة، والجفون المتورمة، والعين الدجاجية. كما عرفت الصوت ذا البحة المتوعدة. فدسست رأسي بين كتفيّ، وطويت

جسدي متلصصا، كما لو انني اقترفت ذنبا، وتواريت وقد شعرت وكأنني اصبت بجرح في روحي. وغمرني الرعب.

هل من المعقول أن كل ما فعلته انما هو بلا فائدة؟..

...هذا غير ممكن! كنت ألقى نظرة في كل صباح في سجل المرضى المراجعين، متوقعا رؤية إسم زوجة الرجل الذي اصغى باهتمام إلى مونولوجي حول السفلس. وانتظرته نفسه على مدى شهر كامل. لكن لم يأت أحد منهما. وبعد مضي شهر غاب الرجل عن ذاكرتي؟ و لم يعد يؤرقني وطواه النسيان...

اذ كان يأتي المرضى الجدد والجدد، وكان كل يوم من عملي في الصقع النائي المنسي الذي اعيش فيه يحمل اليّ حالات عجيبة واشياء مستعصية وعويصة، كانت ترغمني على إنهاك دماغي، والارتباك مئات المرات، ومن ثم استرجاع الثقة بالنفس مرة أخرى، ومواصلة النضال مرة أخرى.

الآن حين انصرمت سنوات كثيرة، وغدوت بعيدا عن بناية المستشفى البيضاء التي تقشر طلاؤها، استعيد في ذاكرتي الطفح النجمي على صدره. اين ه؟ ماذا يفعل؟ آخ. انا اعرف، اعرف. لئن كان حيا يرزق فانه يراجع بين حين وآخر سوية مع زوجته المستشفى المتداعي الجدران، ويشكوان من القرح على سيقانهما. وانا اتصور بجلاء كيف يفك اللفائف من قدميه وينشد التعاطف معه. اما الطبيب الشاب، سواء اكان رجلا ام امرأة، - الذي يرتدي صديرية بيضاء مرتقة فينحني باتجاه القدمين، ويضغط باصابعه العظم فوق القرحة باحثا عن السبب، فيجده ويكتب في السجل: "Lues III"، ثم يسأل فيما إذا اعطي إليه المرهم الاسود لاغراض العلاج.

وعندئذ، سيتذكرني كما اتذكره انا، عام ١٩١٧، والثلج يتساقط

وراء النافذة، وست علب في ورق مشمع، ست لفات لزقة غير مستعملة.

فيقول:

- طبعاً، طبعاً...

ويتطلع نحوه لكن بدون سخرية، بل بعينين تنمان عن قلق مشوب بالكآبة. فيكتب الطبيب له وصفة يوديد البوتاسيوم، ولربما يصف له علاجا آخر. ولربما يلقي، مثلما فعلت انا، نظرة على المرجع الطبي.

تحية لك يا رفيقي!

"...بلّغي أيضاً يا زوجتي العزيزة التحية إلى العم سافرون ايفانوفيتش. علاوة على ذلك اذهبي إلى طبيبنا وليفحصك لانني مصاب على مدى نصف عام، مصاب بمرض السفلس الخبيث. وحين زرتكم في اجازتي لم اطلعكم على هذا الامر. وتناولي الدواء والعلاج.

زوجك أن. بوكوف".

كانت المرأة الشابة تغطي فمها بمنديل قطني ناعم، وتجلس على المصطبة وترتجف باكية. فيما تدلت على جبينها الجدائل المجعدة لشعرها الاشقر والتي تخضلت لدى ذوبان الثلج عليها.

وصرخت:

- هو نذل! أليس كذلك؟!

فأجبت بحزم: نذل.

ثم حلت اللحظة الاصعب والاكثر إيلاما. اذ وجب تهدئتها. وكيف اقوم بتهدئتها؟ وتهامسنا فترة طويلة وسط لغط الاصوات الصادرة عن المنتظرين بصبر نافد في غرفة المراجعين.

...في مكان ما وفي قرارة نفسي التي لم تتبلد بعد ازاء آلام البشر وجدت كلمات المواساة. وقبل كل شيء حاولت القضاء على الخوف لديها. فقلت انه لا يعرف بعد أي شيء بالضبط، ولا يجوز اليأس قبل اجراء الفحوصات. وحتى بعد الفحوصات لامكان له: وحدثتها عن كيف نعالج بنجاح هذا المرض الخبيث - السفلس.

واجهشت المرأة الشابة وغصت بدموعها وكررت:

- نذل، نذل.

وكررت انا: نذل.

وهكذا بقينا فترة طويلة نكيل الشتائم إلى "الزوج العزيز"، الذي جاء إلى بيته في القرية ثم تركه إلى مدينة موسكو.

في نهاية المطاف صار محيا المرأة يجف، ولم يتبق سوى البقع والاجفان المتورمة الثقيلة المتدلية فوق العينين السوداوين الحزينتين.

وقالت بصوت جاف متعذب:

- ماذا سأفعل؟ فلدي طفلان.

وتمتمت:

- مهلا، مهلا. سنرى ما يجب عمله.

فاستدعيت القابلة بيلاغيا ايفانوفنا، وخلونا نحن الثلاثة في ردهة منفردة حيث كان يوجد مقعد الفحوصات النسائية.

- اخ، يا لئيم، آخ، يا لئيم...

كانت بيلاغيا ايفانوفنا تكرر هذا عبر اسنانها.

اما المرأة فقد لزمت الصمت، وبدت عيناها مثل حفرتين سوداوين. وكانت تتطلع إلى الغسق عبر النافذة.

وكان هذا من أكثر الفحوصات دقة وعناية التي اجريتها في حياتي. و لم نترك، انا وبيلاغيا ايفانوفنا، أي موضع من جسدها بدون فحص. و لم اجد في أي موضع ما يثير الشبهة.

وقلتُ، وانا اتمنى من كل اعماقي الا تخونني آمالي، والا تظهر في أي مكان القرحة الاولية الصلبة الملمس والرهيبة:

- اسمعي، كفاك قلقا. ثمة أمل. أمل. حقا، إن كلّ شيء يمكن أن يقع. لكن في الوقت الحاضر لا يوجد لديك شيء.

وصأصأت المرأة:

- لا يوجد؟ - وتألقت عيناها، وتوردت وجنتاها - لا يوجد؟ وماذا لو ظهر، ها؟

وقلت بصوت خافت مخاطبا بيلاغيا ايفانوفنا:

- انا نفسي لا افهم. اعتمادا على اقوالها، فلا بد أن تكون مصابة، لكن ليست هناك اية علائم.

ورددت بيلاغيا ايفانوفنا كالصدى: لا يوجد شيء.

ثم تهامسنا عدة دقائق مع المرأة عن شتى المواعيد، ومختلف الامور الشخصية البحتة، وحصلت المرأة على توصية مني بمراجعة المستشفى.

وعندئذ اخذت انظر إلى المرأة وارى بانها انسان سحقته المصيبة. فكانت تلوح بوادر الأمل لديها، ثم تخبو على الفور. وبكيتْ مرة أخرى وانصرفت كالشبح بلا صوت.

ومنذ ذلك الحين صار سيف الخطر مسلطا فوق المرأة. وكانت تأتي اليّ في المستوصف في كل يوم سبت دون أن تنبس ببنت شفة. واصابها الهزال الشديد، وخسف خداها، وغارت عيناها، واحيطت بهالتين قاتمتين. وجعلتها الهواجس الهموم ترخي طرفي شفتيها إلى الاسفل.

وكانت تفك المنديل بحركة مألوفة، ثم نخرج الثلاثة متوجهين إلى الردهة. فنقوم بفحصها.

وانصرمت السبوت الثلاثة الاولى، فلم نجد مرة أخرى أي شيء لديها. ويومذاك بدأت تنتعش قليلا. وانبعث التألق الحيوي في عينيها، واضاء محياها، وزال القناع الحزين عنه. وازدادت فرصنا في الأمل. وتبدد الخطر. وفي السبت الرابع اخذت اتحدث بثقة. فقد تولد عندي الامل بالنتيجة الموفقة بنسبة تعادل ٩٠ بالمائة. ومضت فترة اطول بكثير من فترة الحضانة الذائعة الصيت والبالغة واحدا وعشرين يوما. وبقيت المواعيد البعيدة والعابرة حين تتكون القرحة متأخرة كثيرا. ومضت في نهاية المطاف هذه الفترة أيضاً، ومرة، حين ألقيت في الطست بالمرآة اللامعة، وتفحصت الغدد لآخر مرة، قلت للمرأة:

- انت بمنأى عن الخطر. لا حاجة لمراجعتي أكثر. هذا حادث سعيد.

فسألت بصوت لا ينسى:

- لن يحدث شيء؟

- لا شيء.

ان قلمي عاجز عن وصف وجهها. لكنني اتذكر فقط كيف انحنت لي بشدة ثم اختفت.

حقا انها جاءت مرة أخرى. كانت تحمل صرّة في يدها - كان فيها رطلان من الزبدة وعشرون بيضة. وبعد جدال عنيف رفضتُ قبول الزبدة والبيض. وقد اعتززت بهذا جدا بسبب شبابي. لكن فيما بعد حين عرفت الجوع في سنوات الثورة، كنت اتذكر أكثر من مرة مصباح "البرق" والعينين السوداوين وقطعة الزبدة الذهبية اللون وعليها آثار الاصابع، وقطرات الطلّ.

وما لي اتذكرها الآن حين مضت تلك الاعوام الكثيرة، أتذكرها هي التي قدّر لها أن تعاني الرعب على مدى اربعة اشهر. ليس ذلك عبثا. فقد كانت هذه المرأة المريضة الثانية في مقاطعتي، التي وهبتُها لاحقاً خيرة اعوامي. وكان الاول هو المريض ذاك الذي انتشر الطفح النجمي على صدره. فيما كانت هي الثانية، والاستثناء الوحيد: انها كانت خائفة. انها الوحيدة الباقية في ذاكرتي، التي حافظت إلى الابد على عملنا نحن الاربعة في المكان المضاء بضوء مصباح الكاز (بيلاغيا ايفانوفنا وآنا نيكولايفنا وديميان لوكيتش وانا).

وفي الوقت الذي كانت تمضي فيه سبوتات العذاب، كما لو كانت في انتظار تنفيذ الحكم بالاعدام، شرعت انا في البحث "عنه". إنّ الأمسيات الخريفية طويلة. والمدافئ الهولندية ساخنة في شقتي. وران الصمت وبدا لي أنّني وحيد في العا لم أجمع مع مصباحي. كانت الحياة تفور بصخب في مكان ما، بينما كان المطر المنهمر بصورة مائلة يلطم زجاج نوافذي، ثم يتحول إلى ثلج ساكن. وكنت أجلس الساعات الطوال وأقرأ سجلات المستوصف القديمة لفترة الاعوام الخمسة الماضية. فتمضي أمامي الاف وعشرات والآلاف من أسماء الأشخاص والقرى. وكنت أبحث عنه في قوائم الناس تلك وغالباً ما أجده. وكانت تومض ملاحظات رتيبة وتبعث على السأم: "Bronchitis"، "Laryngit"... وغيرها وغيرها.. ولكن ها هو! "Lues III". اها ... ودوّن على الهامش بخط عريض، بيد اعتادت عليه:

...Rp. Ung. hidrarg. ciner. 3,0 D.t.d

ها هو – المرهم "الاسود".

ومرة أخرى. مرة أخرى تتراقص امام عيني الالتهابات الشعبية والنزلات الصدرية وعلى حين غرة تنقطع... ومجددا يرد ذكر "Lues"...

وكانت أكثر الملاحظات بالذات عن الاصابة المتكررة بـ"الليوس" هـذا. فيما كانت الاصابة للمرة الثالثة اقـل. وحينئذ كان يوديد البوتاسيوم يحتل خانة "العلاج".

وكلما اوغلت في قراءة مجلدات المستوصف المنسية العتيقة، التي تفوح منها رائحة العفونة، يزداد شدة الضوء الذي ينير رأسي القليل الخبرة. وبدأت ادرك اشياء مهولة.

لكن، وارجو المعذرة، اين التسجيلات بصدد القرحة الأولية؟ انني لا اراها. فهي واحدة، واحدة في الاف والاف الاسماء. والاصابة الثانية بالسفلس - انها متسلسلات لا نهاية لها. فما معنى ذلك؟ معناها هو ما يلي...

وقلت لنفسي في الظل وللفأر الذي يقضم اطراف المجلدات العتيقة في رفوف الكتب بالخزانة:

- معناها ... معناها انهم لا يفقهون هنا معنى السفلس ولا تخيف هذه القرحة أي احد. اجل. كما يحدث أن تندمل. وتبقى ندبة. هكذا، هكذا، ولا أكثر من ذلك؟ كلا، ليس كذلك! بل تتولّد اصابة السفلس الثانية والجامحة عندئذ. وحين تبدأ الآلام في البلعوم وتظهر البثور الندية، فيتوجه المدعو سيميون خوتوف، ٢٣ عاماً، إلى المستشفى فيعطى مرهم رمادي اللون.. أها!

بدت دائرة من النور على الطاولة، واختفت المرأة البنية المرسومة على المنفضة تحت اكوام من اعقاب السجاير.

- سأجد سيميون خوتوف هذا. هِمْ...

وتردّد حفيف أوراق المستوصف التي مسّتها قليلاً العفونة الصفراء. في ١٧ يونيو ١٩١٦ تسلم سيميون خوتوف ست علب من مرهم العلاج الزئبقي، الذي تم اختراعه منذ أمد بعيد من أجل إنقاذ سيميون

خوتوف. وأنا أعلم أن سلفي قال لسيميون لدى تسليمه المرهم:

- سيميون حين تدهن جسدك ست مرات، اغتسل، وتعال اليّ مرة أخرى. أتسمع، يا سيميون؟

وقد انحنى سيميون له طبعاً وشكره بصوت مبحوح. فلنرى: كان لا مناص من ظهور اسم سيميون في السجل بعد مضي ١٠ - ١٢ يوما. لنرى، لنرى.. دخان، ويتردد حفيف الاوراق. اوه، لا وجود لسيميون، لا وجود له! ولا يرد ذكره بعد ١٠ ايام، ولا بعد ٢٠ يوما... فلا وجود له اطلاقا. آه، يا لسيميون خوتوف المسكين. اذن، لا بد وان الطفح المرمري قد اختفى، كما يخبو نور النجوم عند الفجر، وجفّت السعدانات. سيموت سيميون، سيموت حقا. وانا سأرى، في اغلب الظن، سيميون هذا في غرفة العيادة لدي بالقرحة ذات الاورام الصمغية. وهل أن هيكل انفه سليم؟ وهل أن حدقتي عينيه متماثلتان؟.. مسكين سيميون!

وها هو شخص آخر غير سيميون، واسمه ايفان كاربوف. وماذا في الامر، و لِمَ لا يصاب ايفان كاربوف بالمرض؟ لكن، مهلا، لماذا وصف له الكالوَميل مع السكر الحليبي بجرعات قليلة؟! اليكم السبب: إنّ ايفان كاربوف في الثانية من عمره! وهو مصاب بداء "Lues II"! الاصابة الثانية المشؤومة! وحمل ايفان كاربوف بطفحه النجمي، وكان يجاهد بين ذراعي امه للتخلص من القبضة القوية ليدي الطبيب. الامر مفهوم كله.

انا اعرف، واخمن، وادركت بان الصبي البالغ الثانية من العمر كان مصابا بالقرحة الاولية، التي بدونها لا توجد القرحة الثانية. وكانت موجودة في فمه! وقد حصل عليها عن طريق الملعقة.

علّميني، ايتها الاصقاع النائية! علّمني، يا سكون البيت الريفي! نعم، إنّ المستوصف العتيق يحدّث الطبيب الفتي بامور شيقة كثيرة.

وسجل فوق اسم ايفان كاربوف:

"افدوتيا كاربوفا، ٣٠ عاما".

من هي؟ آه، مفهوم. انها – والدة ايفان. وكان يبكي بين ذراعيها.

وتحت اسم ايفان كاربوف يرد:

"ماريا كاربوفا، ٨ اعوام".

فمن هي؟ شقيقته! الكالوميل...

ان العائلة تبدو امام ناظري. العائلة. ولا ينقصها سوى شخص واحد هو – كاربوف، ٣٥ – ٤٠ عاما... ولا يعرف ما هو اسمه – سيدور، بيوتر. لكن، هذا لا يهم.

"زوجتي العزيزة.. مرض السفلس الخبيث...".

ها هي – الوثيقة. نعم، اغلب الظن، انه جاء من الجبهة اللعينة و"لم يكشف عن نفسه"، ولربما لم يعلم، بان الواجب عليه أن يكشف نفسه. وسافر. وعندئذ حدثت الاصابات. ففي اعقاب افدوتيا – ماريا، وفي اعقاب ماريا – ايفان. الصحن المشترك لتناول الحساء، والمنشفة...

وثمة عائلة أخرى. وأخرى. هو ذا شيخ في السبعين من العمر. "Lues III". شيخ عجوز. فما ذنبك؟ لا ذنب لك. في القدح المشترك! وبلا علاقة جنسية، بلا علاقة جنسية. النور رائق. كما أن الفجر المشوب بالبياض في مطلع ديسمبر رائق أيضاً. وهكذا امضيت ليلتي الوحيدة باجمعها اطالع تسجيلات المستوصف والكتب الدراسية الالمانية الممتازة ذات الصور الزاهية.

عندما انصرفت إلى غرفة النوم تمتمت وانا اتثاءب:

– سأكافح "ضده".

وبغية الكفاح ضده لا بد من رؤيته. فجاء هو بلا تأخير. حان وقت السفر في الزحافات، وكان يحدث أن يأتي اليّ بمعدل ١٠٠ شخص في اليوم. وكان النهار يبدأ ابيض مغبشا، وينتهي قاتما اسود، تنصرف فيه آخر الزحافات بصورة غامضة، وخشخشة هادئة.

كان يمضي امامي بهيئات متنوعة وباشكال غادرة. فتارة يظهر بهيئة قروح يشوبها البياض في حنجرة صبية يافعة. وتارة بهيئة ساقين ملتويتين كالسيف. وتارة أخرى بهيئة قروح ذابلة مستترة تحت الجلد على ساقين اصفرين لامرأة عجوز. وتارة بهيئة بثور ندية في جسد امرأة في زهرة العمر. واحيانا كان يحتل مكانه باعتزاز على الجبين مثل التاج المقوس لفينوس. وجاء بمثابة انعكاس لعقاب الاباء على جهلهم يتراءى لدى الاولاد ذوي الانوف الشبيهة بسروج القوزاق. وعلاوة على ذلك كان ينسل أحياناً دون أن ألحظه. آه، فانني كنت آنذاك قادم للتو من مقعد الدراسة!

وكنت ادرك كل شيء بعقلي وفي وحدتي. وكان يتستر احيانا في العظام وفي المخ.

لقد عرفت الكثير.

قالوا لي آنذاك بان ادهن بالمرهم.

- بالمرهم الاسود؟

- نعم، بالمرهم الاسود، يا سيدي، بالمرهم الاسود.

- بالتوالي؟ اليوم الذراع وغدا الساق؟

- طبعاً. وكيف عرفت يا معيلي؟ (بالتملق).

"وكيف لي الا اعرف. كيف لي الا اعرف. ها هو التورّم الصمغي".

- هل اصبت بمرض خبيث؟

– معاذ الله. في عائلتنا لم يمرض أحد به أبدا.

– اها... وهل آلمك بلعومك؟

– لقد آلمني بلعومي، في العام الماضي.

– اها... وهل اعطاك ليونتي ليونتيفيتش مرهما؟

– طبعاً، اسود مثل الجزم.

– انت لم تدهن المرهم جيدا، يا عم. آه، لم تدهنه جيدا!...

انني انفقت كيلوغرامات عديدة من المرهم الرمادي. ووصفت الكثير والكثير من يوديد البوتاسيوم، وقلت الكثير من الكلام الحماسي والمنفعل. وتسنى لي اعادة البعض إلى المستوصف بعد العمليات الست الاولى للدهان. وتسنى لي اجراء ولو الدورات الاولى للحقن بالابر لبعضهم، بالرغم من أن ذلك تم ليس بصورة نهائية، لكن القسم الاكبر من المرضى كانوا يتسللون من بين يدي، مثل الرمل في الساعة الرملية، ولم اكن استطيع البحث عنهم في عتمة العواصف الثلجية. آخ، لقد اقتنعت بان خطورة السفلس هنا تكمن في أن الناس ما كانوا يرهبونه. ولهذا فانني في بداية ذكرياتي هذه تذكرت تلك المرأة السوداء العينين. وقد تذكرتها بشيء من الاحترام الشديد بالذات بسبب خوفها. لكنها كانت الوحيدة الخائفة.

لقد صلب عودي، وأصبحت جديا واحيانا عبوسا، وكنت احلم باليوم الذي تنتهي فيه فترة عملي، واعود إلى المدينة الجامعية، وهناك سيغدو كفاحي أسهل.

وفي أحد تلك الايام الكالحة ولجتْ المستوصف امرأة شابة وجميلة جدا. كانت تحمل بيديها طفلا ملفوفا، وتبعها طفلان يتعثران في جزم لباد ضخمة، ويتشبثان بتنورتها الزرقاء المتدلية من تحت معطف الفراء القصير.

قالت المرأة المتوردة الخدين مشيرة إلى الاطفال بوقار:

- انتشر الطفح في اجساد الاولاد.

ومسست بحذر جبين الصبية المتشبثة بالتنورة. فتوارت في طياتها بلا أثر. واخرجتُ من الطرف الآخر للتنورة فانكا العريض الخدين بصورة غير عادية. ومسست جبينه أيضا. كان الجبينان غير ساخنين وطبيعيين.

- اكشفي يا حلوتي عن الطفلة.

فكشفت الطفلة الصغيرة. كان الطفح يغطي جسدها بما لا يقل عن انتشار النجوم في سماء ليلة باردة جامدة. وكان الطفح الوردي والبثور الندية تغطيها من قمة الرأس إلى اخمص القدمين. واراد فانكا التهرب والصراخ. فجاء ديميان لوكيتش وصار يساعدني...

وقالت الأم متطلعة اليّ بعينين صافيتين؟

- هل انها مصابة بالبرد؟

فزمجر لوكيتش ولوى شفتيه باشفاق وباشمئزاز:

- ايه.. أيه... البرد! إنّ جميع قضاء كوروبوفسكي مصاب بهذا البرد.

وتساءلت المرأة فيما كنت اتفحص جنبيها وصدرها المبقعة بالبثور:

- وما سبب ذلك؟

فقلت لها:

- ارتدي ملابسك.

ثم جلست إلى الطاولة ووضعت رأسي على يدي وتثاءبت. (كانت آخر القادمين لعيادتي في ذلك اليوم، وكان رقمها ٨٩). وبعد ذلك

بدأت بالكلام:

- انت يا خالة، وكذلك اولادك، مصابون بمرض خبيث. مرض خطر وفظيع. يجب عليكم البدء فورا بتلقي العلاج. والعلاج لفترة طويلة.

كم من المؤسف أن من العسير التعبير عن عدم الثقة في عيني المرأة المبحلقتين الزرقاوين. وادارت الرضيع كأنه خشبة بين يديها، ونظرت إلى ساقيه ببلادة وسألت:

- من اين هذا؟

ثم ابتسمت بسخرية:

- لا يهم من اين. - اجبتها وأنا ادخن سيجارتي الخمسين بذلك اليوم. - الأفضل أن تسأليني شيئاً آخر: ماذا سيحدث لأولادك إذا لن تتعالجي؟

واجابت: ماذا؟ لن يحدث شيء.

وصارت تلف الطفل الرضيع بالقماط.

كانت ثمة ساعة تنتصب على الطاولة امامي. وكما اذكر الآن فانني تحدثت معها فترة لا تزيد عن ثلاث دقائق، واجهشت المرأة بالبكاء. وكنت سعيدا لهذه الدموع، لانه بفضلها بالذات والناجمة عن اقوالي القاسية والترهيبية عن قصد غدا ممكنا مواصلة الحديث لاحقا.

- اذن سيبقون. ديميان لوكيتش، ادخلهم إلى جناح المستشفى. سنعالج المصابين بالتيفوس في الردهة الثانية. وغدا سأذهب إلى المدينة، وسأحصل على رخصة إفتتاح شعبة علاجية في المستشفى من أجل المصابين بالسفلس.

وتألق في عيني مساعدي اهتمام عظيم.

فنبرت عنه:

- ماذا تقول يا دكتورا - (لقد كان من كبار المتشككين) - وكيف سندبر امورنا معهم؟ والمستحضرات؟ لا توجد لدينا ممرضات كافيات... ومن سيطهي الطعام لهم. والاواني والحقن؟!

لكنني هززت رأسي بعناد واجبت:

- سأحصل على الرخصة.

إنصرم شهر... كانت المصابيح ذات الاباجورات الصفيحية تنير في ثلاث غرف في الجناح الملفع بالثلج. وكانت توجد على الاسرة شراشف ممزقة. وثمة حقنتان فقط للابر. احداهما صغيرة سعة غرام واحد والأخرى سعة خمسة غرامات "ليور". صفوة القول، كانت تجسد الفقر البائس الغارق تحت الثلوج. لكن... رقدت باعتزاز حقنة منفردة كنت بواسطتها قد أجريت، وانا اجمد رعبا، عدة مرات حقنات السالفرسان الجديدة بالنسبة لي، زد على انها غامضة وصعبة.

وثمة شيء آخر: غمرني شعور بالاطمئنان أكثر بقدر كبير - فقد كان يرقد في الجناح سبعة رجال وخمس نساء وفي كل يوم يمر كان الطفح النجمي يتلاشى امام سمعي وبصري.

حلّ المساء. وكان ديميان لوكيتش يمسك بالمصباح الصغير، وينير فانكا الخجول. وقد تلطخ فمه بعصيدة السميد. لكن جسده لم يعد مغطى بالطفح. وهكذا مرّ الاربعة جميعا تحت المصباح، مهدئين ضميري.

وقالت الأم وهي تسوي البلوز:

- غدا، اذن ساغادر المستشفى.

- لا، الوقت مبكر. يجب تحمل دورة علاجية أخرى.

فقالت: لا، انا غير موافقة. لدي أعمال كثيرة في البيت. شكرا على المعالجة، وستخرجنا من المستشفى غدا. لقد تعافينا.

ودار الحديث سجالا. وانتهى كالاتي:

– انت، انت هل تعرفين. – قلت ذلك واحسست بان وجهي قد اصطبغ بالحمرة، – أتعرفين، انت... غبية!..

– ما لك تشتمني. أي نظام يسمح لك ان تشتم؟

– وهل ان لفظة غبية كافية لشتمك؟ انت لست غبية بل.. بل.. انظري إلى فانكا، هل تريدين هلاكه؟ لكنني لن اسمح لك بهذا!

فبقيت لفترة عشرة ايام أخرى.

عشرة ايام! وبعدها ما كان أحد سيبقيها أصلا. أؤكد لكم هذا. لكن صدقوني ان ضميري كان مطمئنا، وحتى... لم تؤرقني فكرة قولي كلمة "غبية". وانا غير نادم. فما قيمة الشتيمة بالنسبة إلى الطفح النجمي !

وهكذا انصرمت الاعوام. وقد فرقتني الاقدار والاعوام العاصفة منذ زمن بعيد عن الجناح الغارق وسط الثلوج. فماذا يدور فيه ومن يعمل هناك ؟ انا اؤمن بان الوضع فيه افضل. ولربما طليت البناية بالطلاء الابيض ولربما تقدم شراشف جديدة. طبعاً ان الكهرباء غير موجود. لربما، حين اكتب هذه السطور، ينحني رأس طبيب شاب ما على صدر مريض. ومصباح الكاز يلقى نوره الشاحب المائل للاصفرار على البشرة المائلة للاصفرار...

فتحية لك يا رفيقي!

العين الضائعة

هكذا إذاً، مضت فترة عام. عام بالضبط على اليوم الذي اتيت فيه إلى هذا البيت. وكما هي الحال الآن كانت تنتشر وراء النوافذ غلالة من المطر، وبالكآبة ذاتها تتدلى آخر وريقات صفراء على اشجار البتولا. وبدا كما لو انه لم يتغير أي شيء حوالي. بيد انني نفسي تغيرت كثيرا. وسأقيم في وحدة تامة امسية ذكريات...

مضيت إلى غرفة نومي ماشيا فوق الارضية التي ينبعث منها صريف وطالعت وجهي في المرآة. نعم، ان الاختلاف عظيم. منذ سنة خلت انعكس وجه حليق في المرآة التي استخرجتها من الحقيبة. وكانت تزين رأس الفتى ابن الثلاثة وعشرين ربيعا تسريحة شعر بفرق جانبي. الآن اختفى فرق الشعر. وغدا الشعر متدليا إلى الخلف بدون اية حذلقة. فلا يثير الفرق اهتمام أي أحد في مكان يبعد ثلاثين فرسخا عن طريق السكك الحديدية. والأمر ذاته يمكن قوله بصدد حلاقة الذقن. وترسخت فوق الشفة العليا منطقة تشبه فرشاة اسنان قاسية اصابها الاصفرار، وأصبحت الوجنتان مثل المبشرة، ولهذا يمكن إن شعرت بحكة في الكتف في اثناء العمل القيام بذلك بالوجنة. وهذا يحدث دائما حين يحلق المرء ذقنه مرة واحدة في الاسبوع وليس ثلاث مرات.

لقد طالعت مرة في مكان ما، نسيت اين... عن انكليزي رمته الاقدار في جزيرة غير مأهولة. كان هذا الانكليزي رجلا ظريفا. فقد بقي في الجزيرة حتى صارت تراوده الاوهام، وعندما جاءت سفينة إلى الجزيرة، وانزل رجال الانقاذ الزورق، استقبلهم هذا الطريد باطلاق

النار من مسدسه، معتقدا انهم سراب، وخداع ناجم عن رحاب المياه الخاوية. لكنه كان حليقا. فقد كان يحلق يوميا في الجزيرة غير المأهولة. واذكر كيف ان ابن بريطانيا الأبي هذا اثار لدي بالغ الاحترام. وعندما جئت إلى هنا كانت توجد في حقيبتي آلة حلاقة "جيليت" ومعها دزينة من الشفرات، وكذلك موسى حلاقة وفرشاة للصابون. وقر عزمي بثبات على ان أحلق ذقني كل يومين. لان الاحوال لدي ليست اسوأ مما في الجزيرة المهجورة.

لكن حدث مرة، وكان ذلك في شهر ابريل المشرق، ان وضعت جميع هذه اللوازم الانكليزية الصنع في ضوء الشمس الذهبي، وكنت قد حلقت خدي الايمن حتى غدا صقيلا، حين إندفع يغوريتش خببا كالحصان في جزمتين ممزقتين، وابلغ ان امـرأة تضع مولودها في الاحراش بالقرب من الغابة المحمية عند الجدول. واذكر انني مسحت خدي الايسر بالمنشفة واندفعت سوية مع يغوريتش. وهرولنا ثلاثتنا نحو الجدول، العكر والواسع المياه بسبب الفيوض، ووسط شجيرات الصفصاف الخالية من الاوراق - كانت القابلة تحمل الجفت الملتوي وحزمة شاش وقنينة يود، وانا امشي بعينين مبحلقتين منتفختين بصورة غريبة وخلفنا يغوريتش. وكان هذا يجلس على الارض بعد كل خمس خطوات، ويمزق الجزمة اليسرى لاعنا، اذ كان نعلها قد انخلع. فيما كانت الريح تهب في وجوهنا، ريح الربيع الروسي الحلو والمتوحش. وانتزع المشط من رأس القابلة بيلاغيا ايفانوفنا، وتدلت ضفيرة الشعر وصارت تلطمها في كتفها.

وتمتمت راكضا مخاطبا يغوريتش:

- لماذا بحق الشيطان تنفق كل نقودك على الخمر ؟ هذه حقارة. انت حارس المستشفى بينما هيئتك كالمتشرد.

وزمجر يغوريتش:

– اية نقود هذه! اتعذب كل هذا العذاب مقابل عشرين روبلا في الشهر. اللعنة عليك!

ورفس الارض بقدمه مثل جواد غاضب.

– نقود... ان هذه النقود لا تكفي، ليس فقط لشراء جزمتين بل وللطعام والشراب...

وقلت بصوت متحشرج وانفاسي محتبسة:

–الشيء الاساسي، بالنسبة لك هو السكر، لهذا أنت رث الهيئة...

سمعنا عند الجسر المتداعي المنخور صوت صراخ خفيف وبكاء. وتردد الصراخ فوق تيار مياه الفيوض السريع، فهرعنا إلى هناك ورأينا امرأة ملتوية الجسد رثة الهيئة، وقد سقط منديل رأسها والتصقت خصلات الشعر على جبينها المعروق، وهي ترفع عينيها نحو السماء متألمة وتخدش باظافرها معطف الفراء الذي ترتديه. وتلطخ العشب النضر الشاحب بدماء قانية، وكان العشب قد نما في الارض المكتنزة المشبعة بالرطوبة.

وقالت بيلاغيا ايفانوفنا بعجلة:

– لم يتيسر لها بلوغ المستشفى، لم تبلغه..

وراحت تفك الصّرة وكانت حاسرة الرأس وشعثاء كالعجوز الشمطاء.

في تلك اللحظة، ولدى سماع هدير الماء النشوان، المندفع بين ركائز الجسر الخشبية المائلة للسواد، تقبّلنا الوليد الذكر، انا وبيلاغيا ايفانوفنا. تقبّلناه حيا يرزق، كما وانقذنا الأم، ثم حملتها الممرضتان ويغوريتش الذي كان حافي القدم اليسرى بعد ان تخلص في نهاية المطاف من نعل جزمته المقيت، ونقلوها إلى المستشفى.

حين هدأت المرأة وشحب وجهها ورقدت تحت الشراشف، وحين وضع الوليد في المهد إلى جانبها، وأصبح كل شيء على ما يرام، سألتها:

- ما لك يا أم لم تجدي مكانا للولادة افضل من الجسر؟ لماذا لم تأت في عربة؟

فردّت:

- لم يعط الحمو حصانا. وقال ان المسافة خمسة فراسخ وستبلغين المستشفى مشيا على الاقدام. انك امرأة قوية. لا حاجة لارسال الحصان عبثا...

وقلت:

- ان حموك أحمق وحقير.

واضافت بيلاغيا ايفانوفنا باشفاق:

- اه، يا لهم من جهلة.

ثم راحت تقهقه لسبب ما.

التقطت نظراتها، وكانت تتركز على خدي الايسر.

فخرجت وتطلعت إلى وجهي في المرآة في غرفة التوليد. وارتني المرآة ما تريه عادة: سحنة عابسة، لشخص منحطّ بجلاء، ويبدو كما لو ان عينه اليمنى مصابة بكدمة. لكن - وهنا لا ذنب للمرآة في الأمر - كان بالمستطاع الرقص فوق الخد الايمن لهذا الشخص المنحط كما يرقص المرء فوق الباركيت، بينما نمت فوق الأيسر عسالج كثيفة مشوبة بالحمرة. وكان الحد الفاصل بينهما هو الذقن. وتذكرت كتابا ذا غلاف اصفر عنوانه "ساخالين". وكانت فيه صور شتى الرجال من المجرمين.

"قتل وسطو وبلطة دامية - وفكرت بهذا في دخيلة نفسي - ستة

اعوام... يا لها من حياة اصيلة، حياتي في الجزيرة غير المأهولة. يجب عليّ الذهاب واستكمال حلاقة ذقني..."

واخذت استنشق عبير ابريل الآتي من الحقول السوداء، واصغي إلى نعيق الغربان من قمم اشجار البتولا، ووصوصت عيني لدى طلوع الشمس لاول مرة، ومضيت عبر الفناء لاستكمال الحلاقة. وحدث هذا في نحو الساعة الثلاثة بعد الظهر. بينما اكملت الحلاقة في الساعة التاسعة مساء. وحسب علمي ان الأحداث المفاجئة مثل الولادة في وسط الاحراش لا تقع منفردة في موريفو. فحالما امسكت بمقبض الباب في شرفة بيتي حتى لاح بوز حصان في البوابة، واهتزت بعنف عربة ملطخمة بالاوحال. وكانت تقودها امرأة، فصرختْ بصوت رفيع:

- نو... نو... يا عفريت!

وسمعت من الشرفة كيف كان صبي يبكي في العربة وسط الاسمال. طبعاً، كان مصابا كما تبين بكسر في ساقه، وانهمكنا أنا والمساعد فترة ساعتين في وضع جبيرة الجبس على ساق الصبي الذي واصل الصراخ على مدى الساعتين.

ثم وجب عليّ تناول طعام الغداء. ومن ثم اصابني الكسل فلم احلق، ورغبت في مطالعة شيء ما. وبعدئذ زحف الظلام، وادلهم القتام في الافق البعيد، فعبستُ بحزن واكملتُ حلاقة ذقني. ولكن بما ان آلة "جيليت" بقيت في ماء الصابون منسية، فقد ظهرت عليها منطقة صدأة رسخت إلى الابد، وكأنها ذكرى الولادة في ايام الربيع بالقرب من الجسر.

نعم... لم تكن ثمة حاجة للحلاقة مرتين في الاسبوع. وفي بعض الاحيان كانت الثلوج تغمرنا تماما، وتهب عاصفة ثلجية هوجاء،

فنجلس نحو يومين في مستشفى موريفو حتى دون ان نبعث احدا إلى فوزنيسينسك لمسافة تسعة فراسخ من أجل جلب الصحف، وكنت اغدو ذارعا غرفة مكتبي طولا وعرضا في الامسيات الطويلة، واتلهف لمطالعة الصحف، كما كنت اتلهف في طفولتي لمطالعة روايات "دارس الاثر" لكوبر. ومع هذا لم تخمد في اعماقي الحذلقات الانكليزية تماما في "جزيرة "موريفو" غير المأهولة". وكنت بين حين وآخر استخرج من علبة صغيرة سوداء اللعبة اللامعة، آلة الحلاقة، واحلق ذقني بفتور، فاخرج املس المحيا نظيفا مثل ساكن الجزيرة الفخور الأبي. ومما يؤسف له انه لم يكن هناك أحد يتطلع اليّ.

مهلا.. أجل... اذ وقعت حادثة أخرى. وكما اذكر فانني اخرجت موسى الحلاقة وحالما جلبت كسينيا إلى غرفة المكتبة قدحا ملثوما فيه الماء المغلى حتى بدأ القرع الشديد على الباب، وتم استدعائي. وتوجهت، انا وبيلاغيا ايفانوفنا، إلى منطقة بعيدة جدا، متلفعين بمعطفي فراء الضأن، منطلقين كشبح اسود يتألف من الجياد والحوذي ونحن الاثنين، عبر المحيط الابيض المائج بجنون. وكانت العاصفة الثلجية تصفر كالساحرة، وتعول وتبصق وتقهقه، واختفى كل شيء وكأنما ابتلعه الشيطان، واخذتُ احسس بالقشعريرة المألوفة في موضع المنطقة الشرسوفية، لدى التفكير في اننا سنضل طريقنا في هذه العتمة الشيطانية الدوارة. وسنضيع ليلا جميعنا : بيلاغيا ايفانوفنا والحوذي والجياد وأنا. اذكر أيضا كيف انبثقت لدي فكرة حمقاء مؤداها اننا حين سنشعر بالبرد ويغطينا الثلج إلى النصف، سأحقن القابلة ونفسي والحوذي بالمورفين. لماذا؟... من أجل ألا نتعذب..."ستموت من البرد ايها الطبيب على احسن ما يرام حتى من دون مورفين"، – اذكر كيف كان يجيبني صوت جاف حازم وعاقل، "ولا حاجة لك إليه...". او.. هو.. هو.. ها.. س.. س.. س..! كانت العاصفة الساحرة تصفر وتؤرجحنا ذات اليمين وذات الشمال في الزحافة... ثم سينشر

في صحيفة العاصمة على الصفحة الاخيرة نبأ يرد فيه ان كذا وكذا... وفلانا وفلانا... لقوا حفتهم لدى اداء واجبهم الرسمي. وهم كل من الطبيب... وكذلك بيلاغيا ايفانوفنا والحوذي وزوج من الخيول. ليتغمدهم الله برحمته في بحر الثلوج. تفو... ما هذه الافكار التي تساورني، حين يحملني ما يسمى الواجب الرسمي منطلقا بسرعة...

و لم نهلك و لم نضل الطريق، بل وصلنا إلى قرية غريشيفو، حيث اجريت عملية التحويل الجنيني القدمي الثانية في حياتي. وكانت المرأة الماخض هي زوجة معلم القرية. وبينما كنا ننهمك انا وبيلاغيا ايفانوفنا باجراء التحويل بايدي مخضبة حتى المرفق بالدم والعرق يتصبب من الجبهة في ضوء المصباح، كان يتناهى إلى سمعنا من وراء الباب الخشبي صوت الزوج وهو يئن ويروح ذاهبا وايبا في قسم المرافق من البيت. ومع آهات الماخض ونشيجه المتواصل كسرتُ يد الوليد - واقول هذا لكم سرا - وتلقيناه ميتا. آه، كم سرت القشعريرة في ظهري! وفي لحظة خاطفة رمق في ذهني بانه سينبجس شيء اسود رهيب وضخم، ويقتحم البيت الريفي، ويقول بصوت جهير:

- "اها ... خذوا منه شهادة التخرج".

كنت مهدود القوى انظر إلى الجسد الاصفر الميت، وإلى الأم ذات الوجه الشاحب الشمعي، الراقدة بلا حركة فاقدة الوعي بتأثير الكلوروفورم. وكان دفق العاصفة الثلجية يلطم النافذة الصغيرة، وفتحناها للحظة، من أجل ابعاد رائحة الكلوروفورم الخانق، فتحول هذا الدفق إلى بخار. ثم اغلقت النافذة الصغيرة، ومرة أخرى وجهت نظري إلى الذراع المتدلية بعجز من الطفل بين يدي القابلة. اخ، ليس بمقدوري التعبير عما تملكني من يأس حين رجعت إلى البيت وحيدا، لانني أبقيت بيلاغيا ايفانوفنا للعناية بالأم. وألقتني العاصفة في الزحافة، وكانت قد خفّت حدتها، ونظرت اليّ الغابات العابسة بلوم وبلا أمل

وبيأس. واحسست بانني مقهور، ومحطم ومسحوق بالقدر القاسي. فهو الذي القى بي إلى هذا الصقع النائي وارغمني على الكفاح وحيدا بدون أي دعم وارشاد. وما أكثر المصاعب التي يتعين عليّ معاناتها. اذ يمكن ان يأتي اليّ المصابون بشتى اصناف الحالات الغامضة أو الصعبة. وغالبا ما تكون حالات تتطلب اجراء العمليات الجراحية، ويجب عليّ مقابلتها وجها لوجه، بوجهي غير الحليق والانتصار عليها. اما إذا لا انتصر، فانني اتعذب كما هي حالي الآن. وعندما يتأرجح المرء منطلقا فوق الكثبان، بينما يكون قد خلف وراءه جثمان الوليد وأمه. وغدا، وحالما تهدأ العاصفة الثلجية ستأتي بها بيلاغيا ايفانوفنا اليّ في المستشفى، وثمة شك كبير في انني سأفلح في انقاذ حياتها؟ وكيف سأنقذها؟ كيف تفهم هذه اللفظة الفخمة المهيبة؟ في واقع الأمر انني حين اعمل اتلمس طريقي دون معرفة أي شيء. وقد حالفني الحظ حتى الآن، وانجزت بالصدفة أعمالا موفقة بصورة عجيبة. اما اليوم فلم يحالفني الحظ. آخ، ان قلبي ينوء بسبب الوحدة والقرّ، وبسبب عدم وجود أحد حوالي. ولربما انني ارتكبت جريمة - الذراع. لكم اود السفر إلى مكان ما، واجثو راكعا عند قدمي أحد ما، وابلاغه بما حدث، وبأنني الطبيب المدعو... كسرت ذراع طفل وليد. انتزعوا مني شهادة التخرج، فانا غير جدير بها ايها الزملاء الاعزاء، ابعثوا بي إلى ساخالين. فو... النوراستينيا... الوهن العصبي!..

غصتُ في قاع الزحافة، وتكوّمتُ، بغية الا يلتهمني البرد بمثل هذه البشاعة، وتراءى لي انني كلب بائس، كلب مشرّد تعوزه الحذاقة. وسرنا طويلا، حتى ومض نور المصباح الصغير، لكن البهيج جدا، والعزيز إلى القلوب دوما، عند بوابة المستشفى. كان يومض ويخبو ويتألق، ثم يغيب مرة أخرى، ويدعونا مغريا إليه. ولدى النظر إليه احسست بشعور من الراحة في النفس نوعا ما، وحين ثبت امام عيني برسوخ، وحين ازداد حجما واقترب، وحين تحولت جدران

المستشفى من سوداء إلى مائلة للبياض، صرت اقول لنفسي لدى الاقتراب من البوابة، ما يلي:

- "هراء.. الذراع.. هذا ليس له اية أهمية. انت كسرتها حين كان الوليد ميتا. يجب عدم التفكير في الذراع، بل في ان الأم بقيت حية ترزق".

انعشني نور المصباح، وكذلك الشرفة المعهودة. لكنني مع ذلك وحين دخلت إلى البيت واخذت اصعد إلى غرفة مكتبي واحس بدفء الموقد، وأصبو إلى الكرى الذي يخلص الانسان من كل عذاب، تمتمت لنفسي قائلا:

- "هكذا، ذلكم هو الواقع، لكنني اشعر بالوحدة وبالرعب، بالوحدة الشديدة".

كانت آلة الحلاقة ملقاة على الطاولة وإلى جانبها قدح من الماء المغلي البارد. فالقيت آلة الحلاقة في الصندوق باحتقار. فلا حاجة بي إلى الحلاقة البتة...

ها قد انصرم العام. بينما مضى بطيئاً وبدا لي متعدد الاقاليم ومتنوعاً ومعقداً ورهيباً، ولو انني اخذت الآن افهم بأنه زحف منطلقاً كالاعصار. لكنني انظر في المرآة وأرى الآثار التي تركها على وجهي. فقد غدت عيناي أكثر صرامة وهدوءا، والفم ينمّ عن ثقة وجرأة اكبر. وستبقى الطية بين الحاجبين مدى الحياة، كما ستبقى ذكرياتي. انني اراها في المرآة، انها تترى في تتابع عاصف. حقا، لقد كنت اشعر بالخوف بصدد شهاتي، وبصدد المحكمة الخيالية التي ستحاكمني، والقضاة العبوسين الذين سيسألونني:

- "أين فك الجندي؟ اجب، أيها المجرم الذي تخرج من الجامعة!".

وكيف لا أذكر. المسألة هي انه بالرغم من وجود مساعد الطبيب ديميان لوكيتش في هذه الدنيا، والذي يقلع الاسنان بالخفة ذاتها التي يقلع بها النجار المسامير الصدئة من اللوحات العتيقة، لكن اللباقة وشعور الاعتزاز بالنفس أبلغاني في خطواتي الاولى في مستشفى مورييفو بانه يجب عليّ ان اتعلم قلع الاسنان بنفسي أيضا. فقد يغيب ديميان لوكيتش أو تصيبه وعكة، والقابلتان عندنا تجيدان عمل كل شيء باستثناء امر واحد: انهما لا تقتلعان الاسنان، وعفوا، فهذا ليس من واجباتهما.

اذن... وانا اذكر جيدا الوجه المحمّر والمتعذّب امامي في المقعد. كان يجلس فيه جندي عاد بين آخرين من الجبهات المنهارة بعد الثورة. واتذكر جيدا السن الكبيرة المنخورة الغائصة بقوة في الفك. وقبضت على السن بالكلابتين، وقد وصوصت عيني وبنظرة حكيمة وانا أحمحم باهتمام. وفي نفس الوقت استعدت بجلاء وقائع قصة تشيخوف المعروفة للجميع، عن كيف اقتلع سن كاتب في احدى الدوائر. وحينئذ بدا لي لأول مرة ان القصة تلك ليست مضحكة أبدا. فقد طقطق شيء ما في فم الجندي بقوة، واطلق الجندي صرخة قصيرة:

- أو هوو...!

وبعد ذلك توقفت المقاومة تحت يدي. وخرجت الكلابتان من فمه، قابضة على شيء أبيض مخضب بالدم. وحينئذ توقف قلبي عن الخفقان، لأن هذا الشيء كان أكبر حجماً من أي سن، حتى لو كان سن العقل لدى جندي. وفي البداية لم أفقه شيئا، لكنني فيما بعد كدت انتحب: اذ كان يتدلى من الكلابتين سن طويل الجذور حقا، لكن تعلقت بالسن قطعة كبيرة من عظم ناصع البياض غير منتظم الشكل.

وفكّرت في قرارة نفسي: "لقد حطمت عظم الفك لديه.."، ومادت الارض تحت قدمي. ولففت نتاج عملي الشاطر في الشاش،

شاكراً الاقدار انه لم يكن إلى جانبي لا مساعد الطبيب ولا القابلتان، واخفيته في جيبي. وتأرجح الجندي فوق الطابورية، متشبثا بيد واحدة بقدم كرسي التوليد، وبالأخرى بقدم الطابورية، ورنا اليّ بعينين جاحظتين، مصعوقتين تماما. ومددت له بارتباك قدح محلول المنغنيز وامرته قائلا:

- تمضمض.

كانت تلك فعلة حمقاء. فقد تناول المحلول بملء فمه وحين بصقه في القدح انسكب ذاك ممزوجاً بدم الجندي القاني، متحوّلاً في طريقه إلى محلول كثيف لا نظير له في اللون. ثم تدفق الدم من فم الجندي بشكل جعلني أتجمد رعباً. ولو ذبحت المسكين بشفرة في بلعومه لما تدفق الدم في اغلب الظن بشدة اكبر. وازحت قدح محلول المنغنيز جانبا وعاجلت بوضع لفيفات الشاش في فم الجندي لسد الثغرة في فكه. وكان الشاش يصطبغ فورا باللون القرمزي وحين اخرجته رأيت، وقد تملكني الفزع، بانه يمكن ان توضع في هذه الثغرة بيسر اجاصة "رينكلود" كبيرة الحجم.

وجال في دخيلة نفسي - "لقد شوهت الجندي اعظم تشويه". وصرت استخرج لفات الشاش الطويلة من الوعاء. وفي نهاية المطاف كفّ الدم عن النزيف. ومسحت الثغرة في عظم الفك باليود.

وقلت لمريضي بصوت مرتعش:

- لا تأكل شيئاً في غضون ثلاث ساعات.

نبر الجندي:

- شكرا جزيلا لكم.

واخذ يتطلع بشيء من الدهشة إلى القدح المليء بدمه.

وقلت بصوت بائس:

- اسمع يا صاحبي.. عليك.. عليك ان تأتي غدا أو بعد غد اليّ من أجل الفحوصات. انني.. المسألة يجب ان افحصك... لديك إلى جانب هذا سن أخرى مريبة... حسنا؟

فرد الجندي عابسا: شكرا جزيلا.

ثم انصرف واضعا يده على خده. بينما انطلقت إلى غرفة استقبال المرضى، وجلست هناك برهة من الزمن، ماسكا رأسي بيدي وأنا اتأرجح كما لو انني نفسي مصاب بألم في الاسنان. واستخرجت من جيبي نحو خمس مرات الكتلة الصلبة المدماة، ثم اخفيتها مرة أخرى.

عشت نحو اسبوع كما لو ان ثمة غشاوة على عيني. واصابني الهزال والسقم.

"ستبدأ الغنغرينا لدى الجندي. وتسمم الدم... اخ، اللعنة على الشيطان! ما الذي جعلني أمد يدي بالكلابتين في فمه؟"

وتراءت لي صور سخيفة غير معقولة. ها هو الجندي يرتعش الحمى. في البداية يمشي ويتحدث عن كيرينسكي والجبهة، ثم يغدو هادئا أكثر فأكثر، فوضعيته لا تسمح له بالحديث عن كيرينسكي. ويأخذ الجندي بالهذيان وهو راقد على وسادة الشيت. فقد ارتفعت درجة حرارته إلى الاربعين درجة مئوية. ويعود جميع ابناء القرية الجندي المريض. ثم يبدو الجندي راقدا جثة هامدة على الطاولة تحت الايقونات وقد أصبح انفه مدببا.

وتبدأ الاقاويل في القرية.

"ما السبب يا ترى؟"

"لقد قلع الطبيب سنه".

"هذه هي القضية".

وبعد ذلك تزداد الاقاويل. والتحقيق. ويأتي رجل عابس الوجه.

"هل انت الذي قلعت سن الجندي؟"

- "نعم.. انا".

ويستخرج الجندي من تحت التراب. وتبدأ المحاكمة. والعار. انا - سبب الوفاة. وها انا لم أعد طبيبا، بل رجل تعيس ومنبوذ، بالاحرى انا كنت رجلا سابقا.

لم يأت الجندي، وتملكني الاحساس بالكآبة. واصاب الكتلة الصدأ وجفّت في منضدة الكتابة. كان يجب عليّ ان اذهب إلى المدينة مركز القضاء بعد اسبوع لجلب الرواتب. سافرت بعد خمسة ايام، وكان اول ما فعلته هو زيارة الطبيب في مستشفى القضاء. كان هذا الرجل ذو اللحية الصغيرة المصفرة بفعل التبغ قد امضى في عمله بالمستشفى فترة خمسة وعشرين عاما. وقد رأى في حياته العجب العجاب. كنت جالسا مساء في غرفة مكتبه، واحتسي بحزن الشاي مع الليمون وأنا اكرمش غطاء الطاولة. في نهاية الأمر لم اطق صبرا وبدأت بالتلميحات حديثا غامضا زائفا: قد تحدث حالات... حين يقتلع احدهم سنا ان ينكسر عظم الفك، فيمكن ان تتولد الغنغرينا.. أليس كذلك؟ أتعرف قطعة من العظم. انني قرأت عن هذا...

وواصل الطبيب الاستماع اليّ محدقا فيّ بعينيه الصغيرتين تحت الحاجبين الكثين، وفجأة قال:

- انت الذي احدثت ثغرة في فكه. انك ستقلع الاسنان بافضل حال في يوم من الايام... اترك الشاي، ولنشرب الفودكا قبيل تناول طعام العشاء.

وعلى الفور اختفى الجندي - مصدر عذابي من رأسي.

آخ، يا مرآة الذكريات. انصرم عام. كم من المضحك ان اتذكر تلك الثغرة. حقا، انني لن اجيد ابدا قلع الاسنان كما يفعل هذا ديميان لوكيتش. وكيف لا، حين يقلع يوميا بمعدل خمس اسنان، اما انا فاقلع سنا واحدة مرة في كل اسبوعين. ومع ذلك فانني اقلعها بشكل يتمناه الكثيرون. كما انني لم اعد احدث ثغرات في الفك، واذا ما حدث هذا فانني لا أفزع.

وما قيمة حديث الاسنان. وما أكثر ما رأيت وفعلت في تلك السنة التي لا نظير لها.

زحف ظلام المساء إلى الغرفة. وقد انير المصباح. اما انا فكنت استعرض الحصيلة سابحا في دخان التبغ المرّ المذاق. وامتلأ قلبي افتخارا. فقد اجريت عمليتين لبتر الساق من الفخذ. اما عمليات بتر الاصابع فلم أحصها. وعمليات تنظيف الرحم. ها هي مسجلة لدي - ثماني عشرة مرة. وعمليات الفتق. وعملية شق القصبة الهوائية. لقد اجريتها وتمت بنجاح. وما أكثر الدمامل المتقيحة التي فتحتها. والجبائر لدى الكسور. بالجبس وبالنشاء. وعدلت اصابات الخلع. وعمليات التنبيب. والتوليد. فتعال مهما كانت اصابتك. حقا، انني لا اجرى العملية القيصرية. فيمكن التوجه عندئذ إلى مستشفى المدينة. اما التوليد بالجفت وتحويل الجنين فانا مستعد لاجراء أي عدد منها. واستعيد في ذاكرتي الامتحان الوزاري الاخير في الطب العدلي. وقال البروفيسور:

- حدثنا عن الاصابات بالجروح عن كثب.

وشرعت بالحديث بيسر ولفترة طويلة، ولاحت في ذاكرتي البصرية صفحات من الكتاب الدراسي السميك جدا. وفي نهاية المطاف

نفدت معارفي وانهيت الحديث. وتطلع الروفيسور نحوي باشمئزاز وقال بصوت كالصرير:

- لا يوجد في الاصابات بالجروح عن كثب أي شيء مما ذكرته. كم عدد علامات الامتياز لديك؟

فأجبت:

- خمس عشرة.

ووضع علامة "مقبول" امام اسمي. وخرجت مجللا بالعار وأمام عيني غشاوة...

خرجت ثم سرعان ما سافرت إلى مورييفو، وها انذا هنا اعمل وحيدا. الشيطان يعلم ماذا يحدث لدى الاصابة بجروح عن كثب، لكن حين كان يرقد انسان امامي على طاولة العمليات، وتتدفق رغوة صابونية من بين شفتيه الورديتي اللون بسبب الدم، فهل انني ارتبكت؟ لا، بالرغم من ان صدره كله كان ممزقا باطلاقة خردق مخصصة لصيد الذئاب اصابته عن كثب، وكانت ترى رئته، وقد تدلى لحم صدره الممزق، فهل ارتبكت عندئذ؟ وبعد مضى شهر ونصف غادر هذا الانسان المستشفى من عندي حيا يرزق. وفي الجامعة لم يتسن لي مرة واحدة الامساك بجفت التوليد في يدي. اما هنا فانني اضعه على رأس الوليد في لحظة واحدة، حقا بيدين مرتجفتين. ولا أخفى بأنني حصلت على وليد ذي هيئة غريبة: اذ كان نصف رأسه منتفخا، ازرق مائلا إلى الاحمرار وبدون عين. فسرت البرودة في عروقي. واصغيت بصورة مبهمة إلى عبارات الطمأنينة الصادرة عن بيلاغيا ايفانوفنا:

- لا بأس يا دكتور. لقد وضعت أحد طرفي الجفت على عينه.

وواصلت الارتجاف قلقا على مدى يومين. لكن بعد مضي يومين عاد الرأس إلى حالته الطبيعية.

وما أكثر الجروح التي اجريت لها الخياطة. وما أكثر ما رأيت من إلتهابات البلورا المتقيحة وحطمت الاضلاع ابانها، واصابات الالتهاب الرئوي والتيفوس والسرطان والسفلس والفتق (وقد عدلته) والبواسير والسركومة.

فتحتُ بحماس سجل المستوصف وامضيت ساعة في الاحصاء والعد، فحسبت انني في غضون عام وحتى هذه الساعة استقبلت ١٥٦١٣ مريضا. وكان يرقد في المستشفى لديّ ٢٠٠ مريض، وتوفي ٦ فقط منهم.

اغلقت السجل، ومشيت بتؤدة للرقاد. كنت انا صاحب اليوبيل وابن الاربعة والعشرين ربيعا راقدا في فراشي، وافكر وانا اغالب النعاس بان خبرتي صارت الآن عظيمة. فما الذي اخشاه؟ لا شيء. انني استخرجت الحمص من آذان الصبيان، واجريت.. واجريت العمليات الجراحية. ويداي جريئتان لا ترتجفان. ورأيت شتى الاحوال العويصة وتعلمت تفهم كلام النساء الذي لا يفهمه أحد. وانني متمرس فيه كشيرلوك هولمز في فك رموز الوثائق الغامضة... النوم يزحف شيئاً فشيئاً نحوي.

وتمتمت وانا اغالب الكرى:

- انا.. انا لا اتصور نفسي اطلاقا بانه جلبت لي حالة يمكن ان تضعني في مأزق... لربما هناك في العاصمة سيقولون ان هذا تضميد ريفي... دعهم يقولون... فالأمر هين بالنسبة لهم، في المستوصفات والجامعات... وفي غرف اشعة (اكس)... اما انا هنا... فيجب ان اقوم بكل شيء.. والفلاحون لا يستطيعون الحياة بدوني... كم كنت سابقا ارتجف رعبا حين يطرق الباب، وكم كنت ألتوى فزعا في قرارة نفسي... اما الآن...

* * *

- متى حدث ذلك؟

- منذ اسبوع يا سيدي، منذ اسبوع يا حبيبي. لقد تورمت... - واجهشت المرأة بالبكاء.

حدث ذلك في صباح رمادي في أحد ايام اكتوبر، في اليوم الاول من العام الثاني لوجودي هنا. بالأمس مساء كنت أفتخر بنفسي وازهو قبيل النوم، اما في صباح اليوم فكنت اقف بالصديرية واتطلع بحيرة...

كانت المرأة تمسك الصبي البالغ عاما واحدا من العمر وكأنه قطعة خشب، و لم تكن لدى الصبي العين اليسرى. وبدلا منها انبجست كرة صفراء اللون من الجفنين الممطوطتين الرفيعتين تعادل في حجمهما التفاح الصغيرة. وكان الصبي يصرخ متألما ويتململ، واستغرقت المرأة في البكاء. ولحظتئذ اصابتني الحيرة والارتباك.

قمت بفحصه من جميع الجوانب. ووقف دميان لوكيتش والقابلة ورائي. وإلتزما الصمت، فلم يشاهدا أبدا شيئاً كهذا.

"ما هذا... فتق دماغي... هِـمْ ... انه باق على قيد الحياة. سركومة... هِمْ... انها ناعمة بالنسبة للسركومة. يا له من ورم عجيب غريب... من اين انبثق؟ من العين سابقا... ولربما لم يكن لها وجود ابدا... على اية حال انها غير موجودة الآن..."

وقلت بحماس وهمة:

- المسألة هي ان من الواجب استئصال هذا الورم...

وعلى الفور تصورت في ذهني كيف سأقطع الجفنين وابعدهما جانبا ثم...

"وماذا بعد. ماذا بعد؟ لربما هو نابع من الدماغ فعلا... فو.. يا للشيطان.. انه ناعم نوعا ما... هو شبيه بالدماغ".

فشحب وجه المرأة وسألت:

- ما الذي يجب استئصاله؟ العين؟ غير موافقة...

وصارت تلف الطفل بالخرق وقد تملكه الفزع.

واجبتها بصورة قاطعة:

- لا توجد لديه اية عين، فانظري اين هي؟ ان طفلك مصاب بورم غريب.

- اعطنا دواء. قطرات.

- ما هذا الكلام، هل انت تسخرين، اية قطرات؟ لن تساعده اية قطرات.

- وهل سيبقى بدون عين؟

- لا، اقول لك، انه بلا عين...

وهتف المرأة بقنوط:

- لكن كانت لديه عين قبل يوم امس.

"يا للشيطان.."

- لا ادري لربما كانت موجودة... يا للشيطان.. لكنها الآن غير موجودة... وعموما يا صاحبتي خذي طفلك إلى المدينة. فورا. وهناك سيجرون له عملية... ديميان لوكيتش، ما رأيك؟

ورد المساعد غارقا في التأمل العميق بقوله:

- ن.. ـعم.. - وبدا واضحا انه ما كان يعرف ما يجب قوله - هذا ورم لم اعرف له مثيلا.

وسألت المرأة بفزع:

- يجرون العملية في المدينة؟ لن اسمح بهذا.

وانتهى الامر بان اخذت المرأة طفلها دون ان تسمح بمس عينه.

وعلى مدى يومين كنت اضرب اخماسا باسداس واهز كتفي، واغوص في مجلدات المكتبة، محدقا في الرسوم التي يصور فيها الاطفال الرضع وعلى وجوههم فقاعات تنمو بدلا من العيون... يا للشيطان.

وبعد مضي يومي نسيت الطفل.

* * *

مضى اسبوع. وهتفت احداهن قائلة:

- آنا جوخوفا!

ودخلت امرأة مرحة تحمل طفلا على يديها. وسألتُ كعادتي:

- ما القضية؟

- اشعر بضيق في الجانبين، لا استطيع التنفس.

قالت المرأة ذلك وابتسمت لامر ما. وكانت ترجيعة صوتها قد ارغمتني على ان أجفل. وسألتني المرأة بسخرية:

- هل عرفتني؟

- مهلا.. مهلا... ما هذا... مهلا.. هل هو ذاك الطفل؟

- هو بالذات. اتذكر ايها السيد الطبيب. لقد قلت انه كان بلا عين، ويجب اجراء عملية..

فصعقت. وحدقت المرأة بي ظافرة. وتألق الضحك في عينيها.

كان الطفل يجلس في يديها صامتا، وينظر إلى النور بعينين لوزيتين. لم يكن هناك أي ذكر للفقاعة الصفراء.

وغلبتني الحيرة:

"هذا أمر يشبه السحر".

ثم، وبعد ان عدت إلى صوابي نوعا ما، تفحصت الجفن بحذر. وبكى الطفل وحاول ادارة رأسه، لكنني رأيت مع ذلك.. ثمة ندبة صغيرة على الطبقة المخاطية. آه...

- حين غادرناكم اذاك، انفقأت الفقاعة.

- لا حاجة يا امرأة، لا تحدثيني...، - قلت ذلك بانزعاج، - انني فهمت الآن.

- بينما انتَ قلتَ الا وجود للعين.. اترى انها نمت... - وضحكت المرأة باستهانة.

"فهمت، ليأخذني الشيطان... لقد نما ورم قيحي ضخم من الجفن الاسفل، ونما فازال العين جانبا وغطاها تماما. ومن ثم انفقأ فسال القيح.. وعاد كل شيء إلى مكانه".

* * *

لا. لن اتمتم باعتزاز ابدا، حتى حين اغالب النوم، بانه ما من شيء يثير عجبي. لا، لقد انصرم عام. وسيمر عام آخر، وسيكون غنيا بالمفاجآت أيضاً كالعام الاول... معنى ذلك يجب ان اتعلم صاغرا.

فهرس

ميخائيل بولغاكوف احد ابرز الكتاب الروس في القرن العشرين ، وربما يعتبر من اكثر الشخصيات غموضا في الادب الروسي . ولا يضاهيه في ذلك سوى نقولاي غوغول الذي تأثر به بولغاكوف كثيرا حتى اعتبره بعض الباحثين « غوغول الثاني».

وحياته العجيبة المترعة بتقلبات الاقدار يمكن ان تؤخذ نفسها كموضوع لرواية كبيرة. فقد عانى من العوز والتشرد في شبابه بسبب قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية وهروبه من مدينته كييف الى الاورال ، واراد كل طرف من اطراف الحرب الاهلية في روسيا تجنيده لخدمة اغراضه بحكم كونه طبيبا يحتاجه كافة المحاربين في جبهات القتال. وعندما وضعت الحرب الاهلية اوزارها قرر التخلي عن مهنة الطب والتفرغ للابداع الادبي. وهكذا لمع نجمه فجأة منذ العشرينيات من القرن الماضي بعد نشره روايته الملحمية « الحرس الابيض» ومن ثم مسرحياته .

وكان آخر اعماله الادبية تأليف رواية « المعلم ومرغريتا» وهي من أعظم رواياته التي مزج فيها قصة المسيح وبولات والي القيصر بقصة الشاعر الذي طاردته السلطة . ولم تنشر هذه الرواية والكثير من أعماله الا بعد وفاته .

ومما يؤسف له ان غالبية اعماله لم تترجم من الروسية بدقة وبنزاهة.

المجموعة الحالية من اعماله المختارة هي محاولة لتعريف القارئ العربي ببعض اعمال هذا الكاتب الفذ.


ISBN 284306257-8

9 782843 062575